

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠-١٤٨٣)

القسم الرابع

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل المسلمين وكيف أنها استحققت الاستيلاء

عندما رأى صلاح الدين أنه لن يتمكن من الاستيلاء على عسقلان، من دون الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة، رفع الحصار عن عسقلان، وزحف خلال المنطقة التالية لليهودية مع جميع آلات حربه وحشد كبير جداً من الرجال، عازماً على حصار القدس القائمة هناك، والاستيلاء عليها، وفي الوقت نفسه عندما سمع سكان القدس والذين تدفقوا عليها وهربوا إليها من المنطقة المجاورة ومن كل جهة من خلال الخوف من العدو، سمعوا بمقتل جيشهم، وفقدان الصليب المانح للحياة، وأسر الملك، واقترب صلاح الدين، تواضعوا بأنفسهم بكل نوع من أنواع الصلاة والتضرعات، وعقد جميع المسيحيون الذين سكنوا فيها مجلساً لانتهاكات مهينة، واعترافات، وصيام، حتى الأطفال شاركوا في هذه الممارسات الروحية.

لكن غضب الرب أحرق كل شيء بشكل مكشوف وحاد، ولا عجب في ذلك لأن رجال الدين والشعب كانوا قد انغمسوا كثيراً في حياة الترف من كل نوع، وكانت البلاد كلها ملوثة بالشور والآثام، وفي الوقت نفسه كان الذين ارتدوا الملابس الدينية، قد تجاوزوا بشكل خياني حدود الأنظمة المفروضة عليهم من قبل قوانينهم، وكان هناك قلة فقط ممن لم يتلوثوا بوباء الشر أو الترف، وكان بين الذين تولوا الأعمال عند المذبح كثيراً من الصراعات والخلافات حول الأشياء المقدسة، ونشبت الخصومات من المطامح، لأن فرسان الداوية والاستبارية عارضوا البطريك والأساقفة، وكانوا يسعون دائماً للحصول على الامتيازات لأنفسهم، ووضعوا منجلهم في حصاد الناس الآخرين، مع أنهم عندما

تأسست طائفتيهما أولاً وانطلقتا، تمجدتا بطاعتيهما، وعدّوا اقتراف السيمونية أمراً عادياً، ولهذا ملأوا يومياً موضع قيامة الرب وضريحه بأناس غير جديرين، ولهذا السبب فإن الهبة التي كان يرحب بها كثيراً، والتي تمثلت بالنار السماوية، والتي كانت تضيء عليهم من قبل الرحمة الربانية في عشية عيد الفصح، في أيام غودفري، وبلدوين الأول، وبلدوين الثاني، تباطأت الآن بالقدوم ومن ثم تأخر اشعال المصابيح في أيام هؤلاء الملوك المتأخرين، وحول هذه النار، انظر ماتقدم أعلاه، وإذا كان الاكليروس قد تلوثوا بهذه الآثام، كيف يمكن أن تكون الروح مقدسة؟

وأصبحت القدس حتى مثل مصر وسدوم، وتلوثت مثلها بالموبقات، لأن المدينة كانت مليئة بمواخير خاصة، أديرت وملكت من قبل أشخاص من كل أمة تحت قبة السماء، وكان هؤلاء الأشخاص إما مطرودين من بلادهم بسبب الجرائم التي اقترفوها، أو ممن لا يمكنهم إبداء وجوههم واطهارها في بلدانهم بسبب النساء اللائي أخرجوهن، أو بسبب الديون التي لم يكن بإمكانهم دفعها، وقد عاشوا كمنفيين في القدس وتولوا ادارة وتشغيل مواخير، دون الاهتمام بأي شيء سوى الربح، وكان بعضهم ليس بإمكانهم الإقامة في بلدانهم الأساسية، لأنهم كانوا محرومين كنسياً، ولذلك عاشوا في القدس، ونقل بعضهم بيوتهم وما يملكون من الغرب إلى الشرق سعياً وراء الربح، وكانت هناك أعداد كبيرة من فرسان الضريح المقدس والهيكل، ومن هذا العدد العظيم كان هناك قلة لم يكونوا رجالاً أشراراً، غير أتقياء، لصوصاً، وآثمين وقتلة لأبائهم، وكذابين، وزناة، حسبما أخبرنا برنارد في قداسه إلى فرسان الهيكل — الفصل الخامس — وعلى هذا صارت المدينة المقدسة وكرماً لمقتري الآثام، وكانت مليئة بمواخير سيئة السمعة، إليها أخذ الحجاج أنفسهم للشهوة الجسدية، والشرب، والقمار، وذلك بعدما يكونوا قد

زاروا الأماكن المقدسة.

وتنامى هذا الشر، وتعالى إلى حد أنه لم يبق أحد في مشفى القديس يوحنا، لأن الحجاج لم يعودوا يتلقون أية عناية على أيدي الاستبارية، مع أن المشفى كان غنياً جداً، كما أنه لم يتوفر أي حب للقديسة مريم في مشفى الفرسان التيوتون، وعلى ذلك أرغم الحجاج الجيدين والمحترمين على الذهاب إلى المواخير، التي كان أصحابها: لصوصاً، وقطاع طرق، ومحتالين مخادعين، وقوماً منفيين، وأكثر الناس اقترافاً للآثام.

فضلاً عن هذا، تعرض أمن وسلام المدينة المقدسة إلى الاضطراب بسبب شرور المسيحيين وشرهم، لأنها كانت مليئة بالتجار من كل لسان، ومعروف أنه حيث هناك تجارة كثيرة هناك كثير من الظلم، وما كان الرب يمكن أن يستجيب حرفياً للذين كانوا يصلون من أجل سلامة المدينة المقدسة، بكلمات إرميا: ١/٥ قوله: «طوفوا في شوارع القدس وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها»، وبسبب هذه الأشياء أثير غضب الرب، فسمح للبلاد التي انتزعها من أيدي غير المسيحيين، لتقع ثانية تحت سلطانهم، فقد جاء صلاح الدين إلى القدس مع جيش كبير، وعسكر أمامها، وأقام ساتراً من الركام أمام جانبها الغربي، وضيق على المحاصرين بحملات متوالية، وقام سكان المدينة ببدء المقاومة التي استطاعوها، وتولى هو قذف المدينة من على الجانب الشمالي ليلاً ونهاراً، وعندما أحدث ثغرة في السور بوساطة آلاته، أصاب الرعب سكان المدينة الذين لم يتوقعوا وصول أية مساعدة إليهم من أية جهة من الجهات، وقد خافوا أن يدخل العدو، ويشق طريقه عنوة، إلى داخل المدينة، وأن يستولي عليها بالقوة، وقتذاك خضعوا إلى الرعب العظيم الذي استولى عليهم، وسلموا أنفسهم إلى صلاح الدين على شروط محددة هي: بعد تسلمه الفدية عن أنفسهم، عليه أن يسمح لهم بالمغادرة.

بسلام.

وبما أن صلاح الدين كان بشكل طبيعي صاحب قلب شفوق، وكان رحيماً على الشعب، لذلك منح هذه الشروط إليهم، وقد أعطاهم جميعاً ضمان البقاء جميعاً أحياء بدون استثناء، وشرط أن الذي يود المكوث هناك، ويوافق على دفع الجزية له، يمكنه أن يبقى ساكناً بسلام، وكل من يود أن يغادر، وكان ذكراً، وتجاوز أكثر من عشر سنوات من عمره، فعليه أن يدفع عشر دوقيات من الذهب الخالص، وإذا كان عمره دون العشر سنوات، فعليه أن يدفع دوقيتين، وعلى النساء أن يدفعن دوقيتين، وتمت الموافقة على هذه الشروط من الجهتين، وبما أنه كانت هناك آلاف كثيرة من فقراء الناس في المدينة، ممن لا يملكون عشر قطع، فقد أعفاهم صلاح الدين جميعاً من ديونهم.

وحدث استسلام المدينة المقدسة في اليوم الثاني من تشرين الأول، وهو كان اليوم الرابع عشر للحصار، في سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، وكان النهار، نهار جمعة، في السنة التاسعة والثمانين، منذ أن صارت ملكاً للصليبيين.

وجرى الآن الاعلان في جميع أرجاء المدينة، بأن على الصليبيين جميعاً الموجودين فيها، وجوب مغادرتها خلال ثلاثة أيام، وإلا فإنهم سوف يصبحون خاضعين لصلاح الدين المسلم، ورعية له، وهو أمر كان محرماً من قبل البابا، مع أقسى العقوبات، فقد كان قد أمر أنه في مثل هذه الحالة، يتوجب عدم بقاء أي مسيحي هناك، وكان من يبقى ينبغي حرمانه كنسياً، ولعنه وطرده كلياً من الكنيسة ومع صوت المنادي، الذي أعلن هذا الأمر الكئيب، انفجر نحيب كبير جداً في القدس، وصار بكاء الصليبيين يمكن سماعه من مسافة أميال، ويحكى بأن صلاح الدين نفسه مع امرائه القساة قد تأثروا في قرارة نفوسهم بهذا البكاء، لابل بلغ بهم التأثير إلى حد البكاء من تعاطفهم الانساني مع حزن الصليبيين وأساهم،

ولشدة تأثرهم أعفوا من دينه كل واحد رجاىهم فعل ذلك.

علاوة على ذلك، أعطى صلاح الدين أوامره إلى عساكره، بعدم دخول أي منهم المدينة قبل اليوم المحدد لمغادرة الصليبيين، وخرج الصليبيون في اليوم المحدد مع أثاث بيوتهم، وقد ملأوا السموات وهزوا الأرض بصراخهم المرعب ونحيبهم، وخرج أمامهم جميعاً هيرودايوس Herodius، بطريك القدس، مع الصليب، ورجال الدين، والرهبان، والأشخاص الدينيين من كلا الجنسين، والراهبات اللاتي كن محبوسات في الديرة، فقد تبع هؤلاء جميعاً البطريك في رتل طويل، وهم يحملون التماثيل والصلبان، والآثار المقدسة، وأوعية القرايين، التي كانت من الممكن أن تداس بأقدام المسلمين، وجاء بعد هؤلاء النبلاء، والعساكر، ورؤوسهم منكسة، ممتلئين بالخشجل والأسى، وقدم بعدهم العامة من الجنيسن مكرهين وهم يحملون صغارهم، الذين كانوا يصرخون ويبكون، مع سائمتهم.

وتوزع الصليبيون أمام المدينة، فقد ذهب شطر أول منهم إلى الاسكندرية، وشرط آخر إلى صور، وشرط ثالث إلى أنطاكية، في حين ذهب بعضهم إلى هذا الميناء البحري، وآخرون إلى ذلك الميناء، ولأن بعضهم كانوا صقليين، فقد ذهب هؤلاء إلى الاسكندرية، وأما الآخرون الذين كانوا ايطاليين أو ألمان، فقد ذهب هؤلاء إلى صور وطرابلس، وكان الشطر الأكبر منهم هو الذي توجه إلى ميناء طرابلس، والذي حدث معهم وهم على الطريق إلى هناك، من الصعب الحديث عنه وروايته من دون بكاء، ومن المؤكد لا يمكن حكايته ليس من دون ألم، لأنه عندما اقترب هؤلاء المنفيين الحزينين من القدس، من مدينة طرابلس، وعندما رأوها شعروا بشيء من الانتعاش بأرواحهم لأن الذين كانوا فيها أناس مؤمنين بالمسيح، وقد أملوا أن يتلقوا منهم الاستقبال، والأمان والشفقة التي استحقوها، وقد اعتقدوا أنهم نجوا

الآن من أيدي المسلمين، لكنهم تقابلوا مع قوم آثمين، أكثر سوءاً من المسلمين أنفسهم، ذلك أن ريموند كونت طرابلس، الذي كان مرتدّاً عن المسيحية بشكل سري كما ذكرت من قبل، قد قام أتباعه، أبناء الظلم، فتلقى هؤلاء الضائعين مثل عدو متوحش وهاجم هؤلاء الذين توجب عليه الاشفاق عليهم كإخوة.

وقد انتزع منهم بالقوة الذي سمح لهم المسلمون به، وتركوه لهم شفقة منهم عليهم، وأهانهم كذلك، وفي هذا الوضع المأساوي، وحيث أنه لم يعد بإمكانهم الآن أخذ سفينة، أو العودة إلى بلادهم، بقي كثير منهم حيث كانوا بين المسلمين، متحدين بذلك، ورافضين إطاعة الأمر البابوي المتقدم ذكره، وتخلّى كثيرون عن إيمانهم، كما وهلك كثيرون بالجوع، وكذلك قتل بعض أنفسهم صدوراً عن أساهم، ولقد قرأنا بأن سيدة كانت غنية ونبيلة في القدس، وقد حملت الآن ولدها الصغير على كتفها طوال الطريق إلى شاطئ البحر قرب طرابلس، على أمل أن تعبر البحر، لكنها عندما وصلت إلى هناك سلبت كلياً من مقتنياتها، ولم يبق معها شيئاً لإطعام طفلها، لذلك قامت بحالة غضب نسائي، فأطاحت بابنها في البحر.

وعندما غادر الصليبيون جميعاً القدس، دخل المسلمون إلى المدينة المقدسة، حيث أهانوا الاسم المسيحي بربطهم دوابهم في الكنائس نفسها، وبقيامهم بأعمال تدنيس، فقد لوثوا هذه الهياكل المقدسة، وألقوا بالخارج ودمروا جميع تماثيل الرب والقديسين، وقد وجدوا تمثالاً لربنا على الصليب، فحملوه بالشارع العام، وسخروا منه، وبصقوا عليه، ورموا الحجارة عليه، ولوثوه بجميع أشكال القذارات، علاوة على ذلك جلبوا العقيلات والعداري اللائي كن يتوقعن مجيء معجزة من السماء لاسعافهم، فبقين في المدينة، وجلبوهم لاهانتهم، ويقال بأنه وقتها حدث ذلك العمل المشهور (قطع أنوف الراهبات) الذي تقدمت

الاشارة إليه من قبل، علما بأن بعضهم قد ذكر بأن هذا قد حدث عندما سقطت عكا للمرة الأخيرة (سنة ١٢٩١).

وأثناء غضبهم اندفعوا، فازاحوا الحواجز وفتحوا أبواب كنيسة قيامة الرب، وشقوا طريقهم إلى الداخل، ولوثوا المذابح، وحطموا زجاج النوافذ، واقتلعوا التماثيل المحفورة من الجدران، وصعدوا أخيراً إلى برج الناقوس، وحطموا النواقيس بالمطارق، وأبقوهم هناك مكسرين لمدة طويلة كعمل فيه ملامة للصليبيين، وقد شوهدوا من قبل السيد أنطونيوس كما حدثنا في تاريخه - القسم الثاني، العنوان: ١٧، الفصل: ٩، الفقرة: ١٨، وأنا شخصياً لم أشاهد قطع النواقيس، بل شاهدت فقط العوارض الخشبية، التي تعلقوا عليها فيما مضى، ولم يرغب صلاح الدين بتدمير ضريح الرب تدميراً كاملاً، بسبب أعمدة الرخام الثمين والكسوة من الرخام المصقول، فقد رغّب بالاستيلاء عليها وانتزاعها بعمل منظم ودون أن يلحق بها أذى، وكان بذلك يدمر الكنيسة بشكل تدريجي

ثم انهم بعدما خرقوا حرمة الكنائس المسيحية، ذهبوا إلى ما يعرف باسم هيكل سليمان، حيث أزالوا جميع المذابح المسيحية، وحطموا التماثيل إلى قطع، وهكذا بعدما طهروه، أو بالحرى بعدما لوثوه، غسلوا البلاط والجدران بماء الورد، وصبوا فوقهما كثيراً من العطور، وقد أظهروا احتراماً مدهشاً نحو ذلك المكان، ونحو الهيكل، وبعد أعمال الغسل هذه، التي هي شكل التقديس لديهم، دخل صلاح الدين مع امرائه إليه، وقدم أضحية وفقاً للشعائر الإسلامية.

وذهب الآن السريان والطوائف الأخرى من الموارنة، واليعاقبة، والكرج، والأرمن، والنساطرة، والأحباش أو الهنود، مع المسيحيين الشرقيين الآخرين، والمنشقين والهرطقة، إلى صلاح الدين، ومثلوا في حضرته، وأقسموا يمين الولاء له، وقدموا الجزية إليه، ورجوه بأن

يوضعوا محل المسيحيين اللاتين، وبسرور منحهم صلاح الدين ذلك، لرغبته بتوفر بعض الناس لسكنى المدينة، علاوة على ذلك لقد أنقذوا كنيسة الضريح المقدس، التي سمعوا بأنها سوف تهدم، فقد دفعوا مبلغاً كبيراً جداً من الذهب والفضة إلى صلاح الدين، لإبقائها وحفظها من التهديم، وقد أخذ الذهب، وأعطى الكنيسة إلى المسيحيين الشرقيين، بعدما شرط عليهم الشرطين التاليين: أولاً أن لا يسمح لأي مسيحي غربي بالدخول من دون أن يدفع الرسم المقرر، وثانياً أن لا يعلقوا بعد الآن أية نواقيس في برج النواقيس، بل يعلنون عن مواعيد القداسات بالقرع فوق ألواح خشبية، ولذلك لم يسمع منذ ذلك اليوم حتى الآن صوت أي ناقوس في القدس، أي منذ ثلاثمائة سنة.

وبعدما فرغ صلاح الدين على هذه الصورة من الاستيلاء على القدس، وضع حامية فيها، وزحف من هناك مع جيشه كله ليحدد الحصار على عسقلان، وبعدما هاجمها لعدة أيام عرض السكان تسليمها، شرط تسليم كل من غي ملك القدس، والمقدم الأعلى للدواية، اللذان وقعا بالأسر في المعركة، إلى المسيحيين، وبسرور قبل صلاح الدين هذه الشروط، فاستولى على المدينة، ووفى بوعده، وترك ملك القدس ومقدم الدواية يذهبان مع جميع آلهما وحاشيتهما، ومنحهما الحرية.

وبعدما نال صلاح الدين تلك المدينة حمل نفسه إلى مدن أخرى، وقلاع من قلاع الصليبيين، واستولى عليهم جميعاً خلال مدة قصيرة، باستثناء بعض البلدات على ساحل البحر، وبشكل خاص صور وطرابلس، لأن ذلك الخائن الشرير جداً، أي ريموند كونت طرابلس، قد وجد ميتاً على فراشه، في الليلة التي تقدمت على اليوم الذي كان مقرراً تسليم المدينة فيه إلى صلاح الدين، وقد عرضت البراهين على رده وكشفت أخبار خيائته بشكل عام على الناس جميعاً، وهي ختانه،

ورسائل منه، ولذلك السبب، حمل غي ملك القدس، الفاقد لمملكته ولعاصمة ملكه، نفسه وذهب إلى طرابلس، وأقام هناك مع أمرائه، وطرابلس مدينة ساحلية، في منطقة فينيقية، وهي مدينة قوية وقديمة جداً وموانئ كثيرة من أجل التجارة.

**أوضاع المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها، وملوكها الاسمين،
ومختلف أوضاع تناقل ألقاب ملك القدس وهكذا دواليك،
وأيضاً إثارة جميع الغرب ومساعدة الأرض المقدسة**

عندما سمع للمرة الأولى، البابا أوربان الثالث، بأن المدينة المقدسة، قد صارت بإذن من الرب، بأيدي المسلمين، وأن جميع مملكة القدس، قد ضاعت كلها تقريباً، وأن الشعب الصليبي، قد تضرر بطرائق عدة، وأنه قد طرد باضطراب وفوضى من المدينة، وقتها أصيب بأسى عظيم، وبحزن كبير، وحمل على الفور إلى الفراش، ومات في فيرارا Ferrara، حيث صدف وجوده هناك.

وبناء عليه هزت هذه الأنباء السيئة، والمأساة المؤلمة، جميع ممالك الغرب، فشدّ جميع الملوك والأمراء أحزمتهم للانتقام للدماء المسيحية التي سفكت، وفي سنة ١١٨٨ لتجسيد الرب، عقد مجمع عام، جرت الدعوة إليه في باريس، فيه حمل جمهور رائع ولا يمكن تعدادهم من الفرسان والجنود الرجالة، الصليب، وتعهدوا باسعاف الأرض المقدسة ونجدها.

وحمل في تلك السنة نفسها، امبراطور الرومان اللامع جداً، فريدريك الأول، الصليب مع أمرائه ونبلاء ألمانيا، وفعل الشيء نفسه كذلك فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وجميع الملوك الآخرين، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ورجال دين كنيسة الرب، فهؤلاء جميعاً حملوا علامة الصليب، وكانت هذه النهضة عالمية، إلى حد بدا العالم فيه

كله قد اتفق في مقاصده، وجرى حشد جمع هائل من الخيول مع بعضها، واندفعوا جميعاً برأً وبحراً بحماس ملتهب من أجل الحرب ضد المسلمين.

وكان في ذلك الوقت في كالبريا Calabria، راعي دير اسمه يواكيم، وكان رجلاً صاحب تعليم عميق جداً، ومتفوقاً بعبقريته، فبعث خلفه الملوك والأمراء الذين كانوا على طريقهم إلى الأرض المقدسة، وسألوه عن محصلة حملتهم وكيف ستكون خاتمتها، فأجابهم بأنهم بالفعل سوف يعبرون البحر، غير أنهم سوف يعملون قليلاً نحو الأرض المقدسة، لأن الوقت لم يأت بعد حتى يتمكن المسيحيون من احتلال القدس، وكان الذي حدث هو كما قال هذا الرجل، لأنهم عندما وصلوا إلى سورية لم يتمكنوا من الاستيلاء على شيء غير عكا، وذلك خلال عامين من الزمن.

وجرى الاستيلاء على عكا سنة ١١٩٤ لتجسيد الرب، ليس بوساطة خرق أسوارها، لكنها استسلمت وفق الشروط التالية: أن يخرج المسلمون منها دونما أذى، وقد وعدوا بإعادة خشبة الصليب المقدس إلى الصليبيين، وهي الخشبة التي استولى عليها صلاح الدين بالحرب، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وأن يدفعوا ٢٠٠,٠٠٠ دوقية، لكن صلاح الدين لم يحافظ على وعوده التي قطعها على نفسه للملوك حول خشبة الصليب، وحول إعادة الاسرى الصليبيين فما كان من الملك رتشارد إلا أن أمر في أحد الأيام بجعل خمسة آلاف (من الاسرى المسلمين) طعمة للسيف.

ومات في تلك الأثناء ابنتا الملك غي، من زوجته سيبيلا، البنت الكبرى للملك عموري، وغادرت بعدهما بوقت قصير أمهما السيدة سيبيلا، هذه الحياة، ولم يبق أحد من أسرة ملوك القدس الحقيقية حياً إلا السيدة اليزابث (ايسابل) الذي كانت زوجة همفري أوف

تيرون، [تبنين] لأن عموري، الملك السادس للقدس، كان له ولد ذكر واحد، هو بلدوين، الذي كان مجذوماً منذ طفولته، وابتتين هما سيبلا، واليزابث، وإثر وفاة عموري، وصل المجذوم إلى العرش، لكنه بسبب مرضه لم يتمكن من الزواج، ولم يكن له وريث، فجعل من أخته الكبرى سيبلا وريثة لمملكته، وقد حكم زوجها غي عوضاً عنها، في حين تزوجت اختها اليزابث من اللورد همفري، وبعد خسارة الأرض المقدسة والقدس، ماتت سيبلا الملكة الوارثة لمملكة القدس، ولم يكن لها وريث سوى زوجها غي، وعندما سمعت اليزابث أخت سيبلا، بوفاها، أعلنت عن نفسها ملكة ووريثة لمملكة القدس، وأعلنت في كل مكان بأن زوجها هو الملك عوضاً عنها، مثلما كان غي ملكاً عوضاً عن أختها.

ورأى اللورد هنري، كونت شامبين مع آخرين كثير، بأن المملكة قد انتقلت إلى اليزابث بعد وفاة اختها، ولذلك عملوا لصالح الكونت المتقدم الذكر، وأن جميع الضرائب المجبية في الموانئ، والغرامات المفروضة على المقصرين، ومدفوعات أخرى هي من حق ملك القدس، ينبغي أن يتسلمها همفري، وعلى هذا بقي غي ملكاً بالاسم فقط، حيث جرد من جميع صلاحياته، ولذلك اشتكى وهو محق، أنه كان خرقاً للعدالة تجريده من جميع حقوقه في مملكته، وهكذا دعا إليه المخلصين من أتباعه، وشكل جيشاً، وقرر أن يعهد بنفسه إلى الحظ، وسوف يحارب معهم المسلمين.

ولدى سماع كبار الأمراء بهذا أصبحوا خائفين، من أنه إذا ذهب إلى قتال المسلمين بمثل هذه القوة الصغيرة، وهزم، فلسوف تتفرق جميع الحشود التي جمعوها لخدمة الرب، ولذلك عملوا في سبيل إعادة جميع الحقوق إلى الملك غي كما كانت من قبل، لكن كونراد مركز أوف مونتفرات وقد رأى بأن المملكة قد آلت لصالح السيدة اليزابث،

بوساطة حق الوراثة، تطلعت نفسه شرهاً إلى المملكة، فقام بعمل مهين، وذلك بموافقة أمها كالوماريا Calomeria ، أرملة عموري المتقدم ذكره، وكانت ماتزال حية، فانتزع اليزابث المتقدمة الذكر من زوجها همفري، وبالقوة اتخذها زوجة له، وأغضب هذا العمل المهين والممجوج جميع الحجاج، لكنهم أخفوا غضبهم، لأنه مالم يكن كونراد راضياً، لم يكن بإمكانهم الحصول على الأقوات من صور.

علاوة على ذلك، كان هو رجلاً بارعاً، وقد ربح إلى جانبه عدداً من كبار الأمراء عن طريق الهدايا والخدمات، ولذلك ساعدوه في أعماله، واستولى هذا المركيز فيما بعد على صور، وصار رجلاً قوياً ومشهوراً، لأنه صد صلاح الدين مع جيشه عندما جاء لحصار صور، ولذلك مامن أحد تجرباً على معارضته وتجاوزه.

وعندما صار جيش اللوردات جاهزاً لمحاصرة القدس، قام الملكان الأعظم قدرة، وهما فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا بتوحيد قواتهما ودجمها (٢٨٣)، ولدى سماع صلاح الدين باقتراب هذا الجيش العظيم، فكر بتسليم القدس إلى الصليبيين، وأرسل رسلاً إلى الملكين للتفاوض حول ذلك، وعندما سمع الملكان بهذا - ولنقل هنا الصديق - دخل الشيطان فيما بينهما، وبذل كل واحد منهما غاية جهده ليسلب الآخر، ولينال أكثر منه، وأن يصبح هو ملك القدس، ولذلك ثار خلاف بين الجيشين، وتخاصم الأمراء فيما بينهم حول الامارة المقدسة للقدس.

وأثناء تخاصمهم على هذه الصورة، تخلى فيليب وهو مغضب عن مشروع العمل كله، وذهب عائداً إلى أوروبا مع جيشه كله، ولأن ملك فرنسا ساند دوما ملوك القدس ووقف إلى جانبهم، ودافع عنهم، وحافظ عليهم في مملكتهم، رأى أنه من الجانب القانوني، أنه عندما ماتت الأسرة الملكية، فإن لقب المملكة ينبغي أن يناله شخصياً، لكنه

عندما رأى الآن أن هذا لا يمكن حدوثه من دون إزالة السلام بين الصليبيين، لذلك انسحب وهو مغضب، وعندما سمع صلاح الدين بأن جيش الصليبيين قد تناقص بسبب مغادرة ملك فرنسا، تخلى عن نيته بتسليم القدس إلى الصليبيين، وحصن المدينة المقدسة، ووضع حامية من الجند فيها، وفي الوقت نفسه بقي الملك رتشارد في سورية، وأثار الحرب بنشاط وفاعلية ضد المسلمين.

وفي سنة ١١٩٧، عندما كان رتشارد ما يزال في سورية، قام غي لوزغان ملك القدس، التي تعرض في السنوات الماضية إلى الهزيمة على يدي صلاح الدين، قام وقد شاهد شجاعة رتشارد في سورية، وعظمة نفسه، فتخلى له عن لقب وعن حقوق مملكة القدس، على شرط أن يعطيه رتشارد جزيرة قبرص، والتي كان رتشارد قد انتزعها لنفسه من الاغريق، ووافق رتشارد ونفذ ذلك برغبة كبيرة، وجعل غي ملكاً على القدس، في حين أصبح هو نفسه ملكاً على القدس وعلى انكلترا، وقد وضع تاجين على رأسه، ولهذا السبب ما برح ملوك انكلترا يستخدمون هذا اللقب، لكن بعد مغادرة الملك رتشارد، استأنف غي حمل هذا اللقب، قائلاً بأن عاصمة مملكته قد انتقلت من القدس إلى قبرص.

والذي حدث على كل حال أن الأمراء الذين احتلوا أماكن حصينة في سورية رفضوا الاعتراف به ملكاً، لأنهم عرفوا بأنه في الحقيقة قد خسر مملكته، وخسر لقبه المتعلق بها أيضاً.

وبعدما تشجع الملك رتشارد وتحمس بوساطة اللقب الملكي الذي تطلع إليه طويلاً، بدأ يستعد للزحف نحو القدس، وإلقاء الحصار عليها، لكن الشتاء حل، وتفرق أسطوله بكل اتجاه، فغير خطته، وعمل هدنة مع صلاح الدين، وشرع يستعد للعودة إلى الوطن، وسلم قيادة الجيش الصليبي، وجميع حقوق المملكة إلى ابن أخته هنري كونت شامبين، وهكذا غادر تاركاً العمل وقد اكتمل نصفه، ومضى في طريقه

مضيفاً أسى إلى أسى شعب البلاد المعزول، لأنه عدّ ملك فرنسا خصماً له، وخشي من قيامه بغزو بلاده أثناء غيابه، وكان رتشارد ذاهباً إلى وطنه بالبحر كملك، وقد عانى بقدر من الرب من جنوح سفينته أثناء عاصفة شديدة، غير أنه تمكن من الوصول إلى الساحل سالماً مع عدد قليل من الأتباع، وعندما كان يشق طريقه بشكل سري للغاية خلال النمسا، اعتقل من قبل ليوبولد، دوق تلك البلاد، وسلب من جميع مقتنياته، ثم جرى تسليمه إلى الامبراطور هنري، ابن فردريك الذي كان قد هلك في الحملة السالفة إلى القدس، وقد أبقاه في السجن لمدة سنة ونصف السنة، ثم أطلق سراحه بعد دفعه مائتي ألف مارك فضي، وعاد إلى انكلترا، وأعتقد أن هذا جزاء جلبه على نفسه، لأنه ذهب ليحصل على مملكة القدس لنفسه، وعندما حصل عليها، تركها في أسى وحزن، وهرب بعيداً .

هذا وكان كونت شامبين المتقدم الذكر، الذي إليه عهد الملك الانكليزي بشؤون العناية بالجيش الصليبي، رجلاً تقياً، وقد رأى بأن البلاد قد تركت في وضع بائس، بعد مغادرة كل من ملكي فرنسا وانكلترا، ولذلك قرر هو شخصياً البقاء في الأرض المقدسة، وامضاء حياته في خدمة الرب، ولدى رؤية تقواه وأوضاعه، قام مقدم الداوية مع الحجاج الآخرين باختياره ملكاً، وأعطوه السيدة اليزابث، ابنة الملك عموري، لتكون زوجة له، لأن زوجها، مركيز صور كان قد توفي، وكذلك همفري، زوجها الأول.

وبعدما حكم لمدة عامين، وعندما كان مستنداً على نافذة في الطابق العلوي من قصره، سقط نحو الأسفل، ومات بشكل بائس، وهكذا باتت مملكة القدس من جديد من دون ملك، وقد حدث هذا في سنة ١١٩٧، ووصلت في السنة التالية حشود لاتخصى من المؤمنين إلى عكا، بوساطة البحر، وكانوا جاهزين من أجل استرداد القدس، لكن بما أنه

لم يكن هناك من يقودهم، ولا يوجد ملك للأرض المقدسة، تبددت هذه الحشود من دون عمل، وعاد الناس إلى بلادهم، بعدما أنفقوا كثيراً من المال، من دون محصلة.

وبعد هذا، كان في سنة ١٢٠٢م زلزال كبير في سورية، وقد لحق الدمار مدينة عكا مع جميع قصورها وأبنيتها الأخرى، وحل المصير نفسه بكثير من المدن الأخرى.

وفي سنة ١٢١٥، دعا البابا انوسنت الثالث، إلى عقد مجمع ديني كبير جداً، في اللاتيران في روما، وقد قيل بأنه حضر هذا المجمع ألف وثلاثمائة من الأساقفة، وكان بين هؤلاء اللورد فولك، أسقف طولوز، وكان رجلاً متميزاً، وجاء إلى حضرة البابا انوسنت ومعه القديس دومينيك، والتمس من البابا تثبيت الطائفة، التي عرفت باسم طائفة القديس دومينيك، وكان في البداية من الصعب اقناع البابا بفعل هذا، غير أنه رأى فيما بعد مناماً في كنيسة اللاتيران، بأن جميع أطرافه قد تفككت، وكانت على وشك السقوط، لكن دومينيك، رجل الرب، ركض وأمسك الجسد المتداعي، وحال دون سقوطه، ولذلك قام في اليوم التالي، فبعث وراء القديس دومينيك، ووافق على الاقتراح، وعمل بسرور الذي طلب منه، وتسلم القديس دومينيك في السنة التالية تثبيتاً لطائفة من هونوريوس الثالث.

وكان في المجمع الذي تقدم ذكره، بالاضافة إلى الأساقفة بطريرك القدس وكذلك بطريرك القسطنطينية، مع عدد كبير من الأساقفة الاغريق ومن الامبراطورية الرومانية وكذلك مبعوثين من قبل ملوك: القدس، وفرنسا، واسبانيا، وانكلترا، وقبرص، ومع أن كثيراً من التنظيمات الرائعة قد عملت من قبل هذا المجمع، غير أن النقاش الرئيسي كان فيه حول استرداد الأرض المقدسة، واسترداد القدس، وحول كيفية جمع المال لهذا العمل، وكيف ستكون الدعوة إلى الصليبية،

وكيف ينبغي أن يلبس الناس شارة الصليب، ومن هم الذين ينبغي توليهم قيادة المجموعات وقيادة الجيوش.

وبناء عليه ترك القديس دومينيك منذ أيام ذلك المجمع لحيته تنمو، عازماً على الذهاب مع الجنود للقتال ضد المسلمين، وذلك مثلما كان قد قاتل لوقت طويل ضد الالبيين الهراطقة، وتوفر بعد هذا المجمع حشد رائع من الناس من أهل الغرب للانطلاق من أجل تحرير القدس، والأرض المقدسة.

وحمل في الوقت نفسه الأطفال من مملكتي فرنسا وألمانيا شارة الصليب، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألفاً، وأعلنوا أنهم عازمون على الذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وقد توجهوا على شكل حشود إلى مختلف موانئ البحر، ثم عادوا من هناك إلى أوطانهم جائعين ومفلسين، وراجت حكاية بأن شيخ الجبل، الذي اعتاد على تربية الحشيشية منذ طفولتهم، كان لديه في السجن اثنين من الكهنة المنشقين، وكان هذين الكاهنين متعلمين بشكل عميق، وأنها كانا بارعين بالسحر وتحضير الأرواح، فأعلن أنه لن يطلق سراحهما ما لم يعدوه بجلب أطفال من فرنسا وألمانيا إليه، وبناء عليه، قالوا بأن الأطفال المتقدم ذكرهم قد اقتيدوا من قبل هذين الرجلين، بوساطة قوة جذب شيطانية، ورؤى زائفة، حتى يحملوا الصليب، على أساس بأن الرب قد رسم بأن الأرض المقدسة، والقدس، يمكن تحريرهما فقط بوساطة أطفال أبرياء.

وعندما وصل هؤلاء إلى موانئ البحر، جرى اغراق الكثير منهم من قبل القرصان، كما جرى بيع أعداد كبيرة منهم رقيقاً إلى المسلمين وإلى أجانب آخرين، ومات كثير منهم من الجوع، وعاد بعضهم إلى أوطانهم إلى آبائهم، وقد ساد ضلال بين الأطفال في أيامنا، فقد أرادوا في سنة ١٤٥٤، القيام بالحج إلى جبل القديس ميكايل، وقد تبرهن أن هذا الحج كان مفيداً أم لا من خلال المحصلة المخففة له.

وفي سنة ١٢١٧، قامت أعداد لا تحصى من الناس، بعد مجمع اللاتيران بحمل شارة الصليب حتى يتمكنوا من القتال ضد الأليبيين الهراطقة، وكان من هؤلاء على سبيل المثال سيمون كونت مونتفورت، وقد كان بين اتباعه دومينيك أبونا المقدس، وغي ابن الكونت المتقدم ذكره، ولويس ابن ملك فرنسا، ومع ذلك كان بعضهم، وهم الذين شكلوا الجزء الأكبر، قد حملوا شارة الصليب حتى يتمكنوا من اسعاف الأرض المقدسة، واسترداد القدس، لأنه في تلك السنة انتهى وقت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين، ولذلك عبر الجيش الصليبي، الذي حمل شارة الصليب بعد مجمع اللاتيران، البحر، ووصل إلى عكا، وكان جيشاً لا يعد ولا يحصى، معه ثلاثة ملوك هم: ملك القدس، وملك هنغاريا، وملك قبرص، وكان أيضاً حاضراً بينهم، دوق النمسا وبانونيا، وعدد كبير من الجنود من ألمانيا.

وكان ملك القدس في ذلك الحين، اسمه جون، وكان من قبل دوق برين في فرنسا، وكان قد انتخب قبل بضع سنوات ملكاً للقدس، وقد كان تقياً وماهراً شجاعاً باستخدام السلاح، وقد انحدر بنسبه من غودفري ذلك الانسان الرائع جداً، الذي كان الملك الأول للقدس، وقد تزوج من ابنة كونراد، الذي كان مركز صور، وقد توجا في صور، وبعدما حمل الصليبيون أسلحتهم قاموا باستعدادات جبارة من أجل القتال ضد أعداء الصليب، وعندما كانوا جاهزين للانطلاق، جاء بطريك القدس وسط أناس محترمين جداً من رجال الدين والشعب، وحمل بشكل جليل في يديه خشبة الصليب المانح للحياة، وسار في معسكر الرب، وكانت هذه القطعة النصف الأول من الصليب المقدس، وهي التي تم العثور عليها في الكنيسة في أيام غودفري المشهور، الذي كان الملك الأول للقدس، فقد كان هذا النصف يحتفظ به دوماً في الكنيسة، في حين كان القسم الآخر يحمل دوماً إلى الحروب وإلى

المعسكرات، وهذا النصف الأخير هو الذي استولى عليه صلاح الدين وانتزعه من غي، آخر ملوك القدس، كما ذكرت من قبل، وبعد فقدان ذلك القسم، حمل الصليبيون النصف المتبقي من الصليب المقدس وقاتلوا تحته.

ورتبوا الآن صفوفهم ، وزحفوا مع هذه العلامة نحو المكان الذي قيل بأن المسلمين موجودين فيه، عازمين على انشأ القتال معهم، ولكن ما أن سمعوا باقتراب جيشنا عن طريق عناصر الاستطلاع لديهم، حتى هربوا وهم مرعوبين، وزحفت قواتنا من دون معيقات في منطقة الجليل، ملحقة كثيراً من الأذى بالأعداء، ومقررة الاستيلاء على جبل الطور، لكن بعد كثير من المتاعب، وبناء على نصيحة بعض أفراد جيشنا، رفع شعبنا الحصار، وعاد جيشنا إلى عكا، لأن الوقت صار شتاء وكان موسم الحملات قد انقضى.

ولدى انتهاء الشتاء، أراد الجيش الصليبي حمل السلاح ثانية والزحف ضد المسلمين، إنما نتيجة لذنوبنا، انقسم جيشنا إلى أربعة أقسام، فقد قام ملك هنغاريا بالحقاق أذى عظيماً بالصليبيين، حيث جهز سفناً لسفره، وعاد إلى الوطن، آخذاً معه الشطر الأكبر، من الجيش الصليبي، مع غلايينه، وعتاده الحربي، ولم يصنع إلى البطريك، الذي طلب منه البقاء، ولذلك أصدر البطريك ضده قراراً بالحرمان الكنسي، وضد كل من يعمل مثله، وأصبح بعض الحجاج إما من خلال الترف أو الخوف جنباء جداً إلى حد عدم الرغبة بالخروج خارج أبواب عكا.

ومع ذلك تمكن ملك القدس، ودوق النمسا مع باروناته، وشرط كبير من الجيش الألماني، وفرسان القديس يوحنا، من بناء قلعة قوية في قيسارية فلسطين، وكان من غير الممكن طردهم من هناك، مع أنهم غالباً ما أعلموا بأن الأعداء كانوا قرييين منهم، وكذلك أعاد الداوية مع بيت الاستتارية وفرسان التيوتون، بناء قلعة الحجاج (عثليت) التي كانت

مدمرة منذ وقت طويل، وعندما كانوا يرسون الأساسات هناك، كشفوا عن جدار سميك وعاري، فيه حفروا بالأدوات الحديدية، فوجدوا كميات وافرة جداً من النقود الذهبية، كانت الكتابة عليها والصور غير معروفة بالنسبة للمعاصرين، وقد أذابوا هذه النقود ودفعوا بها أجور عساكرهم، وكان شكل موقع هذه القلعة كما يلي: كان هناك ذراع صخري مرتفع وضخم وواسع ممتد في البحر، وكان هذا الذراع أو التتوء محصن بشكل طبيعي بجروف من جوانب: الشمال، والغرب، والجنوب، في حين قام على الجانب الشرقي برج قوي، بني بالأصل من قبل الداوية لحماية الحجاج، وكان بناء هذه القلعة مفيداً، لأن دير الداوية قد جرى نقله إلى هناك من عكا، التي كانت مليئة بجميع ألوان الذنوب والشرور، وقد تأسس هناك كحامية لهذه القلعة حتى يحين الوقت الذي يعاد فيه بناء أسوار القدس.

واستمر في سنة ١٢١٨م التبشير بصليبية ضد الشرقيين، في جميع أرجاء الغرب، وشوهدت صلبان رائعة في سماء منطقة كولون، وتريفس Treves، وذلك مع معجزات أخرى أثارت ألمانيا كلها لعبور البحار، وتجمع الألمان بأعداد كبيرة، وأبحروا إلى عكا في شهر آذار، وبعد عيد صعود الرب غادروا غلايينهم الحربية المنقارية وأماكن نزولهم، واجتمع جون ملك القدس، مع البطريك، والحجاج، ودوق النمسا، والطوائف الثلاث، وحشد واسع من الصليبيين، وتشاوروا حول كيف يمكنهم تنفيذ قرار مجمع اللاتيران، الذي توصل إلى محصلة قضت بوجوب ارسال الجيش الصليبي إلى مصر، لأنه تبرهن في ذلك المجمع من قبل الخبراء أنه لن يكون من الممكن للصليبيين الحكم بسلام في سورية والأرض المقدسة، ما لم تكن مصر قد ألحقت بمملكتهم.

وقد تبرهن على هذا من حقائق، أنه ما أن تحالفت الأجزاء السورية التي حول دمشق مع مصر في أيام عموري، ملك القدس، حتى

أصبحت مملكة القدس على الفور في خطر عظيم، في حين أنه قبل ذلك التحالف مامن انسان كان بإمكانه ايداء المملكة المقدسة، ولذلك قرر الآباء المقدسون الذين جلسوا في المجمع المتقدم الذكر، وجوب الاستيلاء على مصر أولاً، وبعد ذلك ينبغي أن يزحف الجيش للاستيلاء على الأرض المقدسة، والمناطق الأخرى في الشرق.

وبناء عليه صار الاسطول في شهر أيار جاهزاً، وأبحر جون، ملك القدس المتقدم ذكره مع دوق النمسا وحشد كبير من الصليبيين نحو دمياط تحملهم إليها ريح طيبة، ومدينة دمياط قائمة على شاطئ البحر، وتعرف أيضاً باسم آخر هو *Pachneumurus* (كذا)، وكانت مدينة دمياط هي الأكبر تحصينا بمصر، كما كانت غنية ومكتظة السكان، ومليئة بالتجارات.

ووصل رجال شعبنا إلى ميناء دمياط، وانتظروا في البحر لمدة ثلاثة أيام، وصول بعض القادة، لكن قبل وصول هؤلاء نزلوا إلى اليابسة، وشرعوا بحصار المدينة من الجانب المواجه للبحر، وذلك على الرغم من المسلمين، ويوماً تلو آخر صار جيشنا أكبر، ولذلك فإن السلطان الذي كان معسكراً في الجانب الآخر من المدينة، هرب مبتعداً مع جيشه، وعبر رجال شعبنا النهر، وحاصروا المدينة كلها، وضغطوا عليها بشدة متناهية، ونصبوا في الوقت نفسه معسكرهم بين شاطئ البحر، ونهر النيل، وصنع الرب المعجزة التالية، وهي أنهم ما أن وصلوا إلى هناك حتى أصبحت مياه النهر عذبة، وذلك حيث يتصل النهر بالبحر، ولم تتدفق المياه وتفيض أكثر من المعتاد، وكأنها فعلت ذلك حتى تبقي مكاناً من أجل شعب الرب، لكن بعد أمد وصلت المياه الفائضة إلى المعسكر ودخلته، ومعها انتشر الطاعون بين صفوف جيشنا.

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون دمياط بعناد، قام المعظم عيسى ابن السلطان الكبير، فحشد جيشاً من أهل منطقته،

وزحف في داخل سورية إلى القدس، ودمّر المدينة المقدسة دماراً كلياً من الداخل والخارج، باستثناء هيكل الرب، وبرج داوود، وقد فعل هذا بغرض، أن الصليبيين، بعد استيلائهم على دمياط، لن يجدوا أي مكان حصين على الأرض، يمكنهم أن يتأسسوا فيه في مملكة القدس، ولأنه لو سقطت دمياط، لن يكون لديهم أمل بالقدرة على الدفاع عن القدس، وأثناء قيام المسلمين، بتدمير القدس تناقشوا هل عليهم تدمير كنيسة ضريح الرب، لكن مامن انسان تجرأ على أن يمدّ يديه عليها، ومع ذلك انزعج شعبنا من الرسائل التي بعثها المسلمون الى معسكرنا أمام دمياط، حيث أعلنوا فيها، أننا مالم نرفع الحصار مباشرة، فإنهم سوف يدمرون دماراً كلياً، كنيسة القيامة، وبعد فراغ المعظم عيسى من تهديم القدس، حاصر ثم استولى على بعض القلاع الصليبية، التي بنيت حديثاً.

وفي الوقت نفسه بما أن مدينة دمياط كانت تعاني من السيف، والجوع، والطاعون، أثناء الحصار الطويل، هنا بدأ عامة الشعب يتدمرون ضد السلطان، وضد الأعيان الذين حكموا المدينة، وأعلنوا أنهم لا يستطيعون الاستمرار بتحمل مآسي الحصار، وعندما علم السلطان بهذا، منعهم من تسليم المدينة، وأعطى أوامر إلى رجاله في الداخل بإغلاق أبواب المدينة عمارة من الداخل، خشية أن يقوم سكان المدينة، الذين كانوا يعانون من الجوع والمجاعة، بهجرها إلى المعسكر الصليبي، وإخبارهم بحالة التعاسة التي كانت تعيشها المدينة، ولم تقتصر معاناة الناس من المجاعة في داخل المدينة، بل عانوا من ذلك في معسكر المسلمين، الذي قام ليس بعيداً عن معسكرنا، فقد كانت هناك مجاعة حادة، لأن نهر النيل الذي اعتاد على الفيضان على ضفتيه بعد عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ - حزيران)، ويستمر بالفيضان حتى عيد تمجيد الصليب (١٤ تشرين أول)، ومن ثم سقاية سهل مصر، لم ترتفع مياهه في تلك السنة إلى العلامات التي وضعها المصريون، بل ترك شطراً

كبيراً من الأرضيين دون غمر، وجافة، ولذلك كان ليس مجدياً للافلاحة ولا البذار في تلك السنة، وخشية من السلطان حدوث مجاعة في المستقبل، قام مع أخيه المعظم عيسى بعرض السلام على الصليبيين، وفقاً للشروط التالية: هو سوف يسلمهم الصليب الذي استولى عليه صلاح الدين في نصره، مع مدينة القدس المقدسة، وجميع الأسرى الذين يمكن العثور عليهم أحياء في أرجاء مصر وفي مملكة دمشق، كما عرض مالا لإعادة بناء أسوار القدس، وأنه سوف يعيد إليهم مملكة القدس كلها، حسبما كانت بأيدي الصليبيين، وذلك مع قلعتي الكرك والشوبك. وهما قلعتان قريبتان من القدس، من بينهما اعتاد تجار المسلمون والحجاج على المرور وهم على طريقهم إلى مكة، وهذا كله كان السلطان على استعداد لتقديمه وفعله، شريطة أن يقوم الصليبيون بالتوقف عن حصار دمياط، ورفع الحصار، وسحب قواتهم إلى سورية.

ورأى جون ملك القدس مع جميع نبلائه، ودوق النمسا وجميع القادة الألمان، بأن هذه الشروط ينبغي قبولها بكل وسيلة من الوسائل، وأنها نافعة جداً للصليبيين، لكن بيلاغوس، النائب البابوي، والبطيرك، والأساقفة، ورؤساء الأساقفة، والداوية، والاسبتارية، والبنادقة والجنوبيين مع الايطاليين الآخرين رفضوا هذا العرض، وكان هناك انقساماً كبيراً في جيشنا، لأن الأمراء العلمانيين والعامة كانوا على استعداد لقبول السلام مع المدينة المقدسة وجميع مملكة القدس، ورفع الحصار الذي هو أمر جيد ومفيد عمله، لكن من جانب آخر نادى بصوت مرتفع النائب البابوي، وأساقفة الكنيسة، والتجار الطليان، من أجل الاستيلاء على دمياط، لأنهم أدركوا أنهم في اللحظة التي ينالون بها دمياط، فإن القدس والبقية سوف تسقط في أيديهم، لكن الذي يحك بشدة متناهية يفجر الدم، وهذا ماحدث معهم، لأن عملهم هذا انقلب في النهاية سيئاً ضدهم، وفي الحقيقة ماكان بإمكان شره رجال الكنيسة،

والنهم الذي لاحدود له للتجار، الذين تولوا تدبير الحملة، جلب الأمور إلى نهاية سعيدة.

وفي الحقيقة منذ أن حدث الاستيلاء على دمياط، تلك السيدة المتكبرة للبحر، ومعذبة الصليبيين، حدث كل مايلى بإرادة الرب، فعندما بات صلاح الدين (كذا) يائساً من الحصول على السلام، قام بارسال عدد كبير من الجنود الرجالة إلى البلدة في الليل، لكن جرى اعتقال كثير منهم وقتلهم، من قبل شعبنا، ثم انه بناء على أوامر من النائب البابوي، جرى ارسال بعض الفرسان، أثناء الليل إلى باب المدينة، لرؤية كيفية حراسته، وقد تمكنوا وهم مغطون بترستهم من الصعود إلى أعلى الباب، فلم يجدوا أحداً فوق الباب أو قربه، فنصبوا سلام على الأسوار، ودعوا رفاقهم وتسلقوا إلى أعلى الأسوار، ثم نزلوا إلى المدينة، وفتحوا الباب، وتركوا رفاقهم يدخلون، وقد قتلوا المسلمين الذين صدفوهم، وبالضجة التي انبعثت من هذا القتال، نهض باقي الجيش، وحمل رجاله السلاح، وبذلك استولوا على المدينة، أمام عيني السلطان، ومن دون معركة أو ضرر للصليبيين، وجاء الاستيلاء على المدينة في اليوم الخامس من تشرين الثاني لعام ١٢١٩م.

وعندما رأى السلطان المدينة بأيدي الصليبيين، استبد به الرعب، فأحرق معسكره وتراجع، ولدى دخول الصليبيين إلى دمياط واجهوا رائحة نتن لا تحتمل صدرت عن جثث الناس الأموات، التي كانت من الكثرة بمكان أن الأحياء كانوا غير قادرين على دفنهم، وكان منظرًا مؤلماً مشاهدة رجال ونساء وأطفال قد جاعوا حتى الموت، وقد قتل الأموات الأحياء بروائح نتن جيفهم.

ففي خلال العشرين شهراً، الذين حوصرت المدينة أثناءهم، هلك سبعة آلاف من المسلمين من الجوع والطاعون، ووجدنا في المدينة حوالي ثلاثة آلاف من المقاتلين، كان منهم أربعمئة من أعلى النبلاء، وذلك مع

أغنى سكان المدينة من الجنسين، وجرى الاحتفاظ بهم جميعاً رهائن من أجل تخليص أسرانا من عند المسلمين، وجرى بيع البقية رقيقاً إلى الصليبيين، كما تمّ تعميد الأطفال، ولم يكن في المدينة أية أطعمة، لكن الذهب والفضة، والأحجار الثمينة، والأقمشة الذهبية والحريرية والأشياء الغالية الأخرى، كانت بلا حدود، وقد حملت كلها — تحت تهديد عقوبة اللعنة الرهيبة — إلى المستودع العام، وجرى توزيعها بين الجيش، من قبل أناس أمناء، بشكل عادل، إلى حد أن النساء الفقيرات والأطفال تسلموا حصّة من ذلك.

وبعد الاستيلاء على دمياط، وإعادة تنظيم الأمور فيها، استولوا على مدينة أخرى حصينة جداً اسمها تنيس، لأنهم وجدوها كلها مهجورة.

وفي سنة ١٢٢١ لتجسيد ربنا، ثار — بتحريض من الشيطان — نزاع بين بيلاغوس، النائب البابوي، وبين جون ملك القدس، لأن النائب البابوي انتفخ عجرفة، ونسي أحكام أنظمتة الكهنوتية، فأراد أن يجعل من نفسه الحاكم الأعلى لجميع الجيش، فقام بتعبئة صفوف القواث للقتال، ورغب في أن ينال وحده فخار الاستيلاء على مدينة دمياط، وأن يعزى كل فضل إليه وحده، ورأى الملك أنه من المعيب أن يقوم رجال الدين في مملكته بإدارة الأمور العسكرية، ونظراً لأنه كان رجلاً حكيماً أثر الانسحاب على الخلاف، ولذلك تعلل ببعض المعاذير من أجل المغادرة، وحمل نفسه مع عدد قليل من خدمه، وترك الجيش، وذهب إلى سورية.

وفي الوقت نفسه ازداد حجم الجيش يومياً أكثر فأكثر، ووصل عدد كبير من السفن من الغرب إلى دمياط، واستدعى بيلاغوس الآن القادة جميعاً، وعرض رأيه بأن عليهم الزحف ضد السلطان، المقيم معسكره على ضفة نهر النيل، على مسافة سفر يوم واحد من دمياط، وعارض قائد القوات ذلك، وبين أنه لا يحق للنائب البابوي تحريك الجيش في

غياب الملك، وبناء عليه عندما رأى النائب البابوي أنه مالم يكن حاضراً، من غير الممكن تنفيذ الحملة الصليبية، بعث بسفارة رسمية إليه، ورجاه بالظهور، والبرهنة إلى الجيش بأنه ابنا حقيقياً لكنيسة روما، وأنه سوف يعود إلى الجيش الذي ينتظره بشوق.

وقام الملك العاقل فحشد جيشاً، وزحف من سورية، وعندما سمع باقتراح النائب البابوي بالهجوم، نصح بقوة ضد القتال، وقال إذا ماتحرك الجيش الصليبي من دمياط وغادرها في ذلك الوقت، فلن تصله النجذات من دمياط لا براً ولا بوساطة الماء، ولا سيما وأن موسم فيضان النيل بات وشيكاً، وقد انزعج النائب البابوي كثيراً من نصيحة الملك العاقلة، ومن رأيه الصائب، وأعلن عن حرمان كنسي عام ضد كل من يعيق تنفيذ خطته، وعندما رأى الملك أنه من المستحيل صرف النائب البابوي عن مقاصده، استجاب وهو مكره جداً، وأذعاناً منه الى الكنيسة، وعرض أن يزحف ضد السلطان والقتال بصحبة النائب ضده، لكن الذي حدث كان ماتوقعه الملك، فقد وقع الصليبيون في ضيق شديد بسبب الجوع، وبسبب ارتفاع النيل، وبسبب حملات السلطان، ولذلك أرغموا على صنع سلام مع السلطان، وتخلوا عن دمياط، وتراجعوا في فوضى من مصر إلى سورية.

وبعد هذا عقدت هدنة لمدة ثمانية أعوام بين الصليبيين والمسلمين، وسلم قومنا دمياط وغادروا وهم مجللون بالعار، وتوجه كل واحد إلى مكانه، ولكم كان مفيداً لو أنهم قبلوا الشروط التي عرضت عليهم، وهي التي كان ملك القدس مع الفرنسيين والألمان على استعداد للقبول بها، لكن عجرفة ذلك النائب البابوي الملعون، سببت فقدان مملكة القدس، وإعادة دمياط إلى المسلمين، وتمزيق وتدمير قومنا، وإنه لأمر عجيب أن بيلاغيوس أو بالحري «بحر بيلاغوس للدناءات»، لم يمزق إلى ألف قطعة، لأننا لو كنا تسلمنا القدس في ذلك الوقت، وفق الشروط

التي كان السلطان على استعداد لمنحنا إياها، لكانت الآن في أيدينا، وكان الضريح المقدس حراً.

وفي سنة ١٢٢٣م، حزن جون ملك القدس كثيراً لخسارة دمياط، وأكثر من هذا لخسارة مملكة القدس كلها، وهي المملكة التي صارت في أيدي الصليبيين، لكنهم رفضوا استلامها وبعدما قام بتقرير أمور دولته في سورية بقدر ما استطاع، أخذ سفينته وتوجه إلى الغرب، حتى يستجدي العون من كنيسة روما ومن أمراء المسيحيين، وعندما وصل إلى عند البابا غريغوري التاسع وجده غاضباً جداً ومنزعجاً من الامبراطور فريدرىك الثاني، وبناء عليه قام ملك القدس بمصالحة الاثنين، أي البابا والامبراطور، ولكي يمتن هذه المصالحة أعطى غريغوري إلى فريدرىك الابنة الوحيدة لجون المتقدم الذكر، أي ملك القدس، لتكون زوجة له، ووعد الامبراطور شخصياً بأنه سوف يعبر البحر إلى سورية بشخصه حتى يسترد الأرض المقدسة، وبعد احتفالات العرس، بشكل مهيب جداً في روما، سأل ملك القدس الامبراطور القيام بإعداد جيشه، أثناء وجوده شخصياً في الغرب وبقائه هناك، وارتحل الملك الآن إلى اسبانيا، حيث زار مزار القديس جيمس الرسول، وهناك تزوج ابنة ملك غاليشيا، وأبحر من هناك إلى انكلترا، حيث نال كثيراً من الأعطيات من الملك ومن باروناته للمساعدة على نيل الأرض المقدسة، وفي هذا الوقت نفسه أنهى الملك فيليب، ملك فرنسا حياته، تاركاً في وصيته بين منحه، مائة ألف دولار باريسى لإعطائها إلى ملك القدس، لمساعدته على استرداد الأرض المقدسة، والمبلغ نفسه لفرسان الداوية، ونفسه أيضاً إلى فرسان الاسبتارية.

وخلف فيليب على العرش ابنه لويس، الذي جرى تنويجه في ريمس Rheims وكان جون ملك القدس حاضراً أثناء تنويجه، وبعد مضي بضع سنوات، أمكن بوسائل البابا غريغوري جمع أسطول جرى شحنه

برجال من مختلف الشعوب، من أجل إرساله إلى سورية، ضد أعداء الصليب، ووقتها دعا الامبراطور للوفاء بوعدده، بعبور البحر لانجاد الأرض المقدسة، والتحق الامبراطور مع حشد كبير بجيش البابا، وأقنع الامبراطور مع نائب البابا من برنديزي في أبوليا.

لكن بعدما أبحروا لمسافة صغيرة، أمر الامبراطور اسطوله بالابحار عائداً إلى أبوليا، وعاد الامبراطور نفسه معه، مما سبب إحباطاً عظيماً لرحلة الصليبيين، ولذلك قام البابا وهو مغضب منه، فحرمه كنسياً للمرة الثانية، عاداً إياه خائناً حائثاً يمينه، وقالوا بأن فردريك قد عاد لأنه سمع بأن البابا عزم في غيابه على إعطاء صقلية وأبوليا إلى جون ملك القدس، لكي تكون تحت حكمه، وقال آخرون بأن فردريك قد تخلى عن الحملة الصليبية، لأن السلطان بعث برسول له، وقد جلبوا له رسائل ورشوات كبيرة، ووعدوه بأنه سوف يحصل على مملكة القدس من دون حرب أو سفك للدماء، شريطة قيامه بإعاقه رحلة الصليبيين.

وبعد هذا حشد فردريك المتقدم ذكره جيشاً كبيراً، ومضى نحو الأرض المقدسة، من دون أوامر من البابا، وأكثر من هذا، من المعتقد، أنه ذهب لاستلام مملكة القدس، التي منحت له، وليس صدوراً عن غيرة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المسيحية، ولذلك بعث الامبراطور إلى السلطان، وطلب منه القدس، وقد أعطاها له، وبناء عليه ذهب إلى القدس مع فرسانه الألمان، وباروناته وبقية أتباعه، وتدبر تتويج نفسه ملكاً على القدس في وسط أيام الصوم الكبير. في سنة ١٢٢٥ لتجسيد ربنا.

وهكذا أصبح من دون أدنى معارضة متمكناً للمملكة كلها وللمدينة المقدسة، علماً بأنه سمح للمسلمين بالبقاء بمساكنهم، وأعطى إليهم هيكل الرب، الذي يعرف باسم هيكل سليمان، لينشدوا مدائح محمد ﷺ فيه، ولم يوافق الكاردينال، نائب البابا على ترتيبات السلام هذه،

ورفضها أيضاً بطريرك القدس، وكذلك فرسان الداوية وفرسان الاستبارية وبقية بارونات الامبراطورية، باستثناء الألمان والصقليين، كما عارضها قادة الصليبيين، لأنهم نظروا إلى هذا السلام على أنه سلام قائم على الغش، وقد جرى اعداده من أجل ايداء الصليبيين وإحداث البلبلة بين صفوفهم، ولكي يعيق الاستيلاء على الأرض المقدسة، وتحرك الداوية بشكل خاص، وأثاروا المؤمنين ضد الامبراطور، وحذروهم من تصديقه، ومن الاعتقاد بأن اعماله صحيحة أو صادقة، وفي الحقيقة كان الامبراطور معادياً بشكل كبير إلى الداوية، وصدوراً عن كراهيته لهم، أعطى هيكल الرب إلى المسلمين، خشية أن يقع في أيديهم.

وبعدما جرى الاستيلاء على القدس على هذه الصورة، أرسل الامبراطور رسلاً إلى البابا غريغوري يرجو تحليله من الحرمان الكنسي، لأنه قام، بعون من الرب، بالوفاء بتعهداته في سورية، لكن البابا رفض تحليله، لأنه كان يعرف بأنه كان متحالفاً مع السلطان، وأن تملكه لمملكة القدس كان صورياً فقط، وأرسل الامبراطور أيضاً رسلاً إلى ملكي فرنسا وانكلترا، وإلى أمراء الغرب الآخرين ليخبرهم عن استرداد ضريح الرب، وعن تنويجه، وأخيراً أمر البابا، بالاضافة إلى قرار الحرمان الكنسي الأعظم، الذي كان قد أصدره ضده، بوجوب دخول جون، ملك القدس، الذي كان موجوداً في ذلك الحين في لومباردي، إلى أبوليا، على رأس قوات مسلحة من قبل الكنيسة، لدعوة الناس للالتحاق به في ثورة ضد الامبراطور، وبناء على ذلك استولى على عدة مدن ومناطق في أبوليا، وعندما سمع الامبراطور بهذا ترك وكيله حاكماً في القدس وفي المملكة وعاد إلى أبوليا، واسترد منطقة المفقودة.

وأثناء وجود وكيله حاكماً في الأرض المقدسة، جلب كثيراً من الشرور للصليبيين، واستولى على قلاعهم عنوة، وبما أنه لم يكن قادراً على تدبر أمور هذه القلاع فقد أعطاها إلى المسلمين، ثم نشب خلاف،

وحدث تمزق، وجرى طرد الوكيل وقد هلك بعد هزيمته، وبذلك سقطت مملكة القدس كلها ثانية في أيدي المسلمين.

وعندما رأى البابا بأن أوضاع الأرض المقدسة، وقد أخذت تتردى من سيء إلى أسوأ بسبب التحالفات الصديقة الزائفة للامبراطور، استدعى الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان إليه وأمرهم بالتبشير بصليبية في أرجاء بلدان الغرب، من أجل اسعاف الأرض المقدسة.

وجرى في سنة ١٢٣٠م حشد جيش عظيم، وقد ركب رجاله البحر، ووصلوا إلى عكا، وكان في هذا الجيش عدد كبير من النبلاء والرجال المشهورين ذوي المكانة، وبعدما استراحوا لعدة أيام في عكا، قرروا مهاجمة بعض الأماكن الحصينة العائدة للمسلمين، وقام كونت أوف نوربريكانيا Norbricania بطيش بالحملة مع أتباعه، فاستولى عنوة على عدد من البلدات، وأحضر معه وهو غائد كميات كبيرة من الغنائم، والأسرى والحيوانات.

وعندما رأى الآخرون هذا، حرضتهم الغيرة والمنافسة لمحاولة القيام بمثل هذا الانجاز، فنظموا قواتهم وعبأوها، وغادروا المدينة في الصباح الباكر، وزحفوا فوق الرمال خلال فلسطين النهار كله، والليلة التالية جميعها، ووجدوا أنفسهم في اليوم التالي أنهم باتوا على مقربة من مدينة غزة، التي كان فيها قد احتشد آنذاك جمع كبير من المسلمين، وعلم هؤلاء المسلمين سلفاً باقتراب رجالنا، فنصبوا كمائن، ومع اقتراب رجالنا من دون حذر، انقضوا عليهم، وأحدثوا مذبحة هائلة بينهم، إلى حد أنهم جميعاً تقريباً أسروا أو ذبحوا، وعدد ضئيل جداً منهم هم الذين عادوا إلى عكا، ووصل في الوقت نفسه رتشارد، أخو ملك انكلترا إلى عكا، مع قوة هائلة من الأتباع، لكنه وجد الجيش مصاباً بالرعب، وعندها رأى أنه لا يستطيع فعل شيء ضد المسلمين، عمل هدنة معهم لمدة ثمانية أعوام.

مجمع

في سنة ١٢٤٢ صار إنوسنت الرابع بابا، فعقد مجمعا عاما في ليون، حيث جرت مناقشة استرداد الأرض المقدسة، وأعلن عن تمرد الامبراطور، وطلب منه الحضور بشخصه، وبعث الامبراطور بمعاذيره وطلب المسامحة، ووعد أنه في خلال سنة سوف ينتصر على السلطان، لاسترداد الأرض المقدسة إلى الصليبيين، ولكن بما أنه لم يحافظ على هذا الوعد بأي شكل من الأشكال ولا وعوده الأخرى، جرى حرمانه كنسياً، وادانته وتجريمه وخلعه من منصبه، بأمر من البابا، وقد مات محروماً كنسياً، لأنه خنق من قبل ابنه.

وحدث فيما بعد في سنة ١٢٤٤، في أيام بابوية البابا انوسنت الرابع، أن نشب خلاف شيطاني بين صفوف الصليبيين في مدينة عكا في سورية، وكان ذلك فيما بين الجنويين والبنادقة، لأن كل واحدة من هاتين الدولتين رغبت في أن تكون أعظم من الأخرى، وبلغت الخصومة بين هاتين الفئتين إلى حد أن اسطوليهما حارب أحدهما الآخر، على مرأى من المسلمين أنفسهم، وصار البحر خطيراً جداً، إلى درجة أن مامن حاج تجرأ على زيارة الأماكن المقدسة، لأن الفئتين كانتا قويتين في البحر والبر، وكانتا أداتا رعب لكل من الصليبيين والمسلمين سواء.

وعندما رأى السلطان بأن بلاده باتت عرضة للخطر بهذه الحروب القائمة بين الصليبيين فئة ضد أخرى استدعى الخراسانيين التتار (الخوارزمية) وبداة عرب، وقدم هؤلاء إلى مملكة القدس، وتغلبوا على الصليبيين هناك، وقتلوا عدداً كبيراً منهم أمام مدينة غزة، وأخيراً شقوا طريقهم إلى القدس، حيث تحاربوا مع الداوية والاسبتارية الذين كانوا قد سكنوا هناك بإذن السلطان، وقتلوا كثيراً من بقاياهم، فضلاً عن هذا دمروا الضريح المجيد للرب، ودينسوا كنيسة المسيح بكل نوع من أنواع الدناسات.

وفي سنة ١٢٤٨م، كان القديس لويس، ملك فرنسا مريضاً بشكل خطير، فصلى إلى الرب حتى يسترد صحته، وتعهد إذا حدث ذلك، فإنه سوف يقوم بالحج عبر البحر، وعندما استرد صحته، حمل الصليب مع كثير من بارونات مملكته، وأبحر إلى سورية مع جيش كبير جداً، وقد نصحه كثير من الملوك بأن يرتحل براً خلال آسيا الصغرى، والاستيلاء على تركيا نفسها، لأن التتار كانوا قد دمروا بلاد تركيا وأضعفوها في السنة الماضية، ولو أن الملك مضى خلالها، لاستسلمت البلاد بدون شك إليه، لكن نصائح أخرى هي التي انتصرت، وأقنع الملك بحراً، ووصل إلى قبرص، وعندما سمع السلطان بهذا بات خائفاً ولذلك بعث إلى الملك عدداً كبيراً من الأطفال المسيحيين كان قد حصل عليهم، بعثهم بعد أن رشاهم حتى يقوموا بدس السم إلى الملك، وإلى امرائه، لكن بارادة من الرب، جرى اعتقالهم شخصياً جميعاً وأعدموا، ثم قام لويس بعد هذا بإقامة صلح بين البنادقة، والجنوئين، والبيازنة، وانطلق إلى القتال ضد المسلمين.

وفي سنة ١٢٤٩ لتجسيد ربه، وعندما كان اسطول الملك يستعد للابحار، وصل إلى هناك لمساعدته دوق بيرغندي، وأمير آخيا مع حشد من السفن، وجرى جمع أفراد الجيوش وأعلن لهم، بأنه بعون من الرب، سوف يتوجهون إلى مصر لحصار دمياط، ثم انهم أبحروا، ونظراً لامتلاكهم ريحاً طيبة في الأيام التالية، تمكنوا من رؤية أراضي مصر، ومن ثم بعد ذلك مباشرة رؤية مدينة دمياط، وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمسلمين على الخيول وعلى الأقدام، وكان مصب النيل في الوقت نفسه مغطى بالسفن، العازمة على اعاقه هجوم شعبنا.

ونزل شعبنا في اليوم التالي إلى اليابسة بوساطة القوارب، واستولى على مناطق حراسة النيل، حيث قتل أعداداً كبيرة من المسلمين، وعندما رأى المسلمون الذين كانوا في المدينة هذا ارتعبوا، وتحلوا عن كل أمل

بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، ولذلك تسللوا من المدينة خلسة أثناء الليل، بعد القاء النار في عدة أماكن، لكي لا تكون لها فائدة للصليبيين، وهكذا جرى الاستيلاء على دمياط للمرة الثانية، وأقام الملك وجيشه فيها طوال الصيف كله، ذلك أنهم كانوا غير قادرين على القتال ضد المسلمين، بسبب فيضان النيل.

وإثر انتهاء الصيف، عبأ الملك جيشه، وزحف خارجاً للقتال، وهزم جميع القوات المعادية التي التقى بها، واستولى على معسكرها، ونظراً لشعور قومنا واعتقادهم أنهم قد نالوا نصراً كاملاً، اندفعوا محدثين خلافاً في صفوف قواتنا وتعبئتها ونشروا أنفسهم فوق المنطقة كلها، وعندما رأى العدو هذا استرد شجاعته، وهاجم رجالنا بشدة متناهية أرغمهم فيها على الفرار، ولأن المسلمين حملوا عليهم من جميع الجوانب، فقد وقعت مذبحة بينهم، وبشكل خاص بين النبلاء الذين تبعوا العلم الملكي، واستمرت الحرب مؤلة ضد قومنا، إلى درجة أنه من عددهم الكبير نجا عدد صغير، ذلك أنهم كانوا إما طعمة للسيوف، أو وقعوا أسرى بأيدي المسلمين، علاوة على ذلك فإن لويس، ملك الفرنسيين، التقى والمشهور وقع أسيراً في أيدي الأعداء مع اثنين من اخوانه هما ألفونسو، وشارل، وعندما أخذ السلطان الصليبيين وملكهم أسرى، تم الاتفاق على أن يسلم الملك دمياط إلى السلطان، مع كل ما وجدوه هناك، وثمانية آلاف قطعة نقد اسلامية ذهبية، وجميع الأسرى، وبالمقابل كان على السلطان أن يسلم الملك جميع الأسرى الصليبيين، الذين أسروا آنذاك، أو أسروا من قبل في مصر وسورية مع جميع مقتنياتهم، وبعد ابرام شروط السلام هذه، عاد الملك إلى سورية، حيث بقي هناك لمدة خمس سنوات لحماية المؤمنين، لكنه عندما سمع بوفاة السيدة بلانشي، أي أمه السيدة الأعظم تقوى، قرر الأمور في سورية ورتبها، وعاد إلى مملكته.

وبعد مضي بعض سنوات، استبد الأسى بالملك تجاه الوضع المؤلم للقدس المدينة المقدسة، وامتلاً بحماسة جديدة نحو الأماكن المقدسة، ونسي جميع مآسيه وتعاساته التي عانى منها في تلك المناطق، وانطلق للمرة الثانية لاسترداد الأرض المقدسة، مصحوباً بابنيه وبملك نافار، والنائب البابوي وعدد كبير من الأساقفة، والكهنة، وأشخاص روحيين، وبناء على نصيحة من رفاقه ومستشاريه أبحر نحو إفريقيا، عازماً على الاستيلاء على تونس، ذلك أنه بعد الاستيلاء عليها، سوف يكون من السهل عليه التمكن من الاستيلاء على مصر والأرض المقدسة، ولكن حل طاعون كبير بالجيش الصليبي، ومات الملك لويس مع اثنين من أولاده، كما مات القائد العام للجيش، وعندما كان الطاعون مستعراً بينهم، التحق بالجيش شارل أخو الملك مع أسطول كبير، وألقى الحصار على تونس، لكن بسبب الطاعون الذي أصاب الجيش أقام سلباً مع ملك تونس، وعاد إلى الوطن.

وبعد وفاة الملك لويس، جرى التفرير بجميع رعاة القطعان بكتابات مزيفة، وقد اجتمعوا مع بعضهم في كل من فرنسا وألمانيا تحت اسم واحد منهم دعوه رئيسهم، وقالوا بأنه أوحى اليهم من قبل ملاك بأن الرب كان غير قابل بتحرير الأرض المقدسة بوسائط الملوك والأمراء، أو الأغنياء، والناس النبلاء، ولا بوساطة العسكريين، بل عن طريق الرعاية المستخف بهم، فهؤلاء هم الذين سيحررون الأرض المقدسة بعصيتهم، وبها سوف ينتقمون للاهانات التي تعرض لها الملك القديس لويس ولموته.

وكان قائد هذا العمل الفوضوي، راهب اسمه جيمس، وكان راهباً مرتداً من طائفة رهبان السسترشيان، فهو قد ادعى بأن نجماً نزل من السماء، وقال له بأنه بهذه الطريقة لابد من تحرير الأرض المقدسة، ولذلك احتشد عدد كبير منهم، بحيث توفر منهم أكثر من عشرين ألفاً

من الرجال البسطاء، ورفضوا السماح لأي واحد من الطوائف المقدسة، أو لأي رجل دين، أو كاهن، أو رجل متعلم، بالدخول إلى صفوفهم، وصاروا جريئين إلى حد، عمل فيه مقدموهم كأساقفة، حيث باركوا الماء المقدس، وعقدوا القرانات وزوجوا الناس، ووعظوهم، لكن عندما بات عليهم الذهاب إلى موانئ البحر، انتهت مغامرتهم إلى لا شيء. وعادوا إلى موطنهم فارغي الوفاض، وصار عدد كبير منهم، ممن كانوا من قبل رعاة بسطاء، قطاع طرق، ولصوص، وحرامية، وقتل كثير منهم وأعدموا في مناطق متعددة بسبب السرقات التي عملوها، وعلى هذه الصورة وصلت هذه الطائفة إلى نهايتها.

صراعات أمراء الصليبيين حول لقب ملك القدس

منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد هناك رحلات عبر البحر، لأنه بات من الصعب جداً جمع شعب الغرب للحرب ضد المشاركة بشكل عام كما كان الحال من قبل، ومع ذلك بقي هناك صراع بين الأمراء حول لقب ملك القدس، ولذلك فإن هذا اللقب محمول من قبل عدة ملوك، من ذلك على سبيل المثال، من قبل ملوك انكلترا، كما قلنا من قبل، كما أن ملوك فرنسا يتفاخرون أحياناً بأنهم ملوك القدس، ويفعل هذا ملك قبرص، وملك صقلية، ومثلها ملك اسبانيا، وعلاوة على ذلك اعتاد دوقات سوابيا، محقين كثيراً، على إدعاء هذا اللقب لأنفسهم، حتى ماتوا، لأنه، كما قلنا من قبل، تزوج فردريك، الامبراطور الثاني بهذا الاسم، ودوق سوابيا، من يولاند، ابنة جون، ملك القدس، ومعها عبر البحر، وفي القدس أعلن عنه ملكاً، وجرى تنصيبه ملكاً على القدس، ولهذا السبب، قام ابنه مانفرد، فنصب نفسه ملكاً على صقلية، وعلى القدس، ومثله فعل بقية دوقات سوابيا من تلك الأسرة.

وفي سنة ١٢٦٤، عندما قام مانفرد المتقدم الذكر، وكونرادين، لأنها

كانا سوابيين، بمضايقة دول الكنيسة وتهديدها، استدعى البابا كليمنت الرابع شارل، أخو القديس لويس، وطلب منه المساعدة ضد مانفرد، وكونرادين، والغبليين، وبعدهما هزمهما شارل، وقتلها معا في بعض المعارك، دخل إلى روما منتصراً، ونودي به ملكاً على صقلية والقدس من قبل البابا كليمنت، في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، وإلى هذا اليوم يحتفظ ملوك صقلية، بلقب ملوك القدس.

وفي سنة ١٢٧٣م، عقد البابا غريغوري العاشر مجمعاً في ليون، فيه تحاور آباء الكنيسة مطولاً حول استرداد الأرض المقدسة، وحثوا الامبراطور رودولف، وفيليب ملك فرنسا على حمل السلاح ضد المغاربة لاسترداد القدس، ولتأمين نفقات هذه الحملة، فرض البابا ضريبة عشر على جميع المسيحيين لمدة ست سنوات، وأمر بالتبشير بحملة صليبية، وأعطى غفرانات واسعة للذين حملوا الصليب، وذهبوا إلى ماوراء البحار، من أجل الحرب، أو إلى الذين استأجروا جندياً أو أكثر، من أجل الحرب.

ووجه البابا في المجمع اللوم أيضاً إلى جميع طوائف الرهبان المتسولين، وحظرها باستثناء طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان فقط، لأنهم آخر الطوائف تأسيساً من قبل الكنيسة، ولديهم القدرة على الاستمرار، وفيما يتعلق بالرهبان النساك في الأرض المقدسة، والكرمليين، فقد مدد لهما، حتى تصدر قرارات جديدة حولهما، وقد فعل هذا حتى لا يتمكن الرهبان المتسولون من التدخل في جمع الأموال من أجل الذين كانوا ذاهبين للقتال فيما وراء البحر، لكنني لم أعرف فيما إذا كانت أية حملة قد عملت إلى الأرض المقدسة، وكذلك لست عارفاً كيف أخفقت هذه الحملة، والذي أعرفه هو أن إيطاليا كانت في حالة اضطراب بسبب الغولف والغبليين، وكذلك اضطربت أوضاع المانيا، وفرنسا، وانكلترا بحروب داخلية، ولذلك كانوا غير مؤهلين لإسعاف

الأرض المقدسة.

هذا وامتلك شارل، ملك صقلية والقدس، وأخو ملك فرنسا، الحق مضاعفاً ثلاث مرات في أن يدعى بملك القدس، فذلك أولاً بسبب أن البابا توجّه، وثانياً بسبب أنه كان صاحب صقلية، التي كانت من قبل ملكاً إلى ملك القدس السالف، وثالثاً بسبب أن هذا اللقب قد أضفي عليه من قبل مريم، ابنة أمير انطاكية، التي كانت الوريثة الشرعية لمملكة القدس، والتي اغتصب ذلك منها ابن أخيها (أختها) هيو.

ورفض شارل هذا بإباء أن يعين ملكاً على القدس من دون امتلاك المملكة هناك نفسها، فقد كره أن يكون ملكاً بالاسم وليس بالفعل، ولذلك فكر كيف يمكنه وبأية وسائل نيل القدس، وكان له ختن اسمه بلدوين، وقد عمل سنة ١٢٤٠م امبراطوراً للقسطنطينية، ولكن بما أن الاغريق معادين دوماً لللاتين، فقد طردوه مهاناً، ووضعوا ميخائيل باليولوجوس، وهو اغريقي، مكانه، وقد اشار بلدوين الآن على شارل ملك القدس بمهاجمة امبراطورية القسطنطينية، لأنه إذا ما نال بلدوين القسطنطينية، يمكنه بسهولة أن يجعل من نفسه سيداً للقدس، وكان شارل ملكاً قوياً، ولم يبد له أنه عملاً عظيماً مهاجمة القسطنطينية، ولذلك جهز عدداً كبيراً من سفن الحرب واسطولاً عظيماً، وبمساعدة من الكنيسة، ومن ملك فرنسا، ومن البنادقة، أعدّ لطرده باليولوجوس من القسطنطينية، لكنه أعيق بشكل غريب في مغامرته بسبب بعض اللاتين الذي كرهوه، ولذلك لم يحصل على مملكة القسطنطينية ولا على مملكة القدس.

وحدث بعد هذا أن عقد في سنة ١٢٨٢ ملك الأرمن، الذي كان مسيحياً، معاهدة مع ملك التتار ضد السلطان، وقد غزوا سورية وانتزعا كثيراً من المقاطعات من سلطان مصر، وكانت القدس بين ماتم

الاستيلاء عليه، وقد أعطيت للمرة الثانية إلى المسيحيين الشرقيين، لكن بخيانتها أعيدت مباشرة إلى المسلمين.

[وكان لملك التتار هذا أخ اسمه تنجر Tandager (أحمد؟)، وكان مسيحياً، وولداً معمداً اسمه أرغون، لكن تودغار Todagar (كذا) تخلى عن العقيدة المسيحية، وأصبح مسلماً وعذب المسيحيين بقسوة بالغة، فقام ابن أخوه أرغون فقتله، ووسع انتشار الديانة المسيحية، وفي كل مكان حارب المسلمين، وسعى جاهداً لتحرير القدس.

وفي سنة ١٢٨٨ م صار واحداً اسمه كاسانوس Casanus (غازان) امبراطوراً على التتار، وقد كان صغيراً في جسده عظيماً في نفسه، وكان صاحب ملامح قبيحة، لكنه امتلك عقلاً رائعاً، لأنه كان محلي بالفضائل، وعاقلاً، وحكيماً في الحرب، وصديقاً جداً نحو المسيحيين، ومليئاً بتبجيل المدينة المقدسة، وضريح الرب، كما برهنت الأحداث.

وكان هذا الرجل عندما عُمل امبراطوراً، وثنياً، لكنه صار مسيحياً بطريقة مرضية، لأنه عندما صار امبراطوراً، عمل مثل آحازوروس AHASUERUS آخر، فأمر بالبحث له في جميع أرجاء مناطق الشرق عن أجمل فتاة يمكن العثور عليها، وذلك دون الاهتمام بأصالة النسب أو الثروة، بل التركيز على الجمال فقط، وقصد من ذلك أنها إذا ما أعجبتته اتخذها زوجة له، ووجد ابنة ملك أرمينيا، وعندما طلبها للزواج وافقت الفتاة مع أبيها على شرط أن يسمح لها بعبادة ربها، والرب يسوع المسيح، وأن لا ترغم على اعتناق الديانة التتارية، وتمت الموافقة على هذا الشرط، وعندما حملت إلى الامبراطور أرضته إلى أقصى الحدود، فتزوج منها على الفور، وحملت، وولدت ولداً ذكراً، ولكنه كان ولداً مشوهاً، حتى أنه بدا بصعوبة أنه بشراً، وانزعج كاسانوس (غازان) من ذلك كثيراً، وتشاور مع أعيان بلاطه حول ما ينبغي فعله بهذا الطفل المقيت

جداً، وقد أجابوه إنه من غير الممكن أن يكون هذا الطفل قد جرى الحمل به من انسان، ولذلك ينبغي احراق كل من الطفل والأم.

وعندما وضعت النار، وباتت جاهزة لهذا الغرض، وجرى إبلاغ المرأة الشابة بقرار الاعدام، طلبت وقتها منهم منحها فرصة تلقي القربان وفق الطريقة المسيحية، وأن يجري تعميد ابنها، وعندما عمل هذا، وجرى تعميد ابنها، ولدى اخراجه من الماء، فجأة تغير شكل الطفل، وبدا طفلاً جميلاً ونبيلاً حسب أفضل مايكون موجوداً في العالم، وكان غازان مسروراً إلى أقصى الدرجات لظهور هذه المعجزة، ولم يكتف بانقاذ زوجته وابنها من الموت، بل رسم بأن تكون امبراطورة، وأن يجري تعميده مع شعبه بشكل مهيب.

وعندما جرى تعليمه الايمان، وعرف بأن المسلمين يمتلكون الأماكن التي فيها صنع خلاصنا، قضى بأن ذلك تدنيس شنيع، وعجب كثيراً من تحمل المسيحيين لذلك، وأعلن الحرب مباشرة ضد سلطان مصر، واستعد للقيام بالاستيلاء على الأرض المقدسة، والقدس، وجاء إلى سورية ودخلها للقتال ضد سلطان مصر، وجلب معه مائتي ألف من التتر، وكان معهم جيشي ملكي أرمنيا وجورجيا، اللذين كانا عدوين للسلطان، والتقى السلطان به مع حشد كبير، وجرى قتال معركة رهيبة، وكان النصر من نصيب غازان، وأرغم السلطان على الفرار، وترك سورية، وذهب إلى مصر، واستولى غازان الآن على مدن سورية، التي كانت بينهن مدينة القدس المقدسة، فقد استولى عليها المسيحيون في سنة ١٢٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد ثمانية أعوام من طرد اللاتين من عكا، ودخل غازان إلى المدينة المقدسة، وبتقوى فائقة زار المدينة المقدسة، وأقام هناك لبعض الوقت.

لكنه عندما سمع بأن الاضطراب ثار في مملكته، بعث بسفراء إلى

الغرب الأوروبي: إلى البابا بونيفيس الثامن، وإلى رودولف ملك الرومان، وإلى ملوك الغرب الآخرين، ملتمسا منهم ارسال قوات صليبية إلى سورية تسترد وتحتفظ بالبلدان التي طرد منها قبل وقت قصير، وللاستيلاء على مدينة القدس المقدسة، وبعدما أوصل السفراء المتقدم ذكرهم رسائلهم، ونالوا الموافقة من جميع الناس، بعثوا عائدتين، على أساس تفاهم قوامه أن الأمراء الغربيين سوف يلحقون بهم مباشرة مع قوات كبيرة، لكن مامن أوامر صدرت لفعل ذلك، بسبب الحروب الداخلية بين الأمراء الغربيين، وكانت مصالحهم أقرب إلى قلوبهم من حرب الرب، وذلك كما سنوضح في القسم الثاني، وعلى هذا إنه في الوقت الذي كانت نفقة متواضعة وقوة صغيرة، يمكن بها الحفاظ على سورية والقدس، التي استولى عليهما غازان، لصالح المسيحية، مامن محاولة جرت، ولعار المؤمنين، ولعدم اهتمامهم الاجرامي لاتتوفر الآن أية امكانات لاستردادهما.

وعندما انسحب غازان من سورية مع قواته، استرد المسلمون سورية بسهولة لأنه مامن أحد اعترض سبيلهم، وقد قتلوا وطردها المسيحيين الشرقيين الذين وضعهم غازان في المدن التي احتلها، وذلك مثلما فعلوا من قبل مع المسيحيين اللاتين من الغرب، وبناء عليه، حدث سنة ١٢٩١ لتجسيد الرب، وذلك بعدما كان السلطان قد استولى على أنطاكية، وصور وطرابلس، ومدن اللاتين الأخرى، أنه صرف نواياه إلى طرد الصليبيين طرداً كاملاً من الأرض المقدسة، وكان الذي يمتلكه اللاتين في سورية كلها، مدينة واحدة، هي مدينة عكا، وكانت هذه المدينة ثرية جداً، ومكتظة بالسكان، لأنه سكن فيها ملك القدس مع بلاطه، ومقدم الداوية، ورئيس الاسبتارية، والسيد البطريك واكليروسه، وكان جميع الذين يسكنون في المدن التي استولى عليها السلطان، ونجوا منها، قد هربوا إلى هاهنا مع مقتنياتهم، وكان في المدينة

عساكر يدفع لهم ملك انكلترا، وملك فرنسا، والملوك الآخرين والأمرء، وحوالي ثمانية عشر ألف حاج يحملون شارة الصليب، من مختلف الشعوب والبلدان.

ولهذا السبب كان في عكا سبع عشرة هيئة قضائية منفصلة للنظر بالجرائم وبسفك الدماء، وغالبا ماقامت فوضى بالنسبة لقرارات الحكم على مقترفي الآثام، وامتلك الدومينيكان مع الفرنسيين هناك ديرة جيدة، لكل من الرهبان والراهبات، وعندما أُلغى المعلم المبجل جوردان، خليفة القديس دومينيك، بوساطة البحر لزيارة الدير في عكا، غرقت سفينته ومات ميتة مباركة أضاءت بصليب إعجازي.

وهذه المدينة قائمة على واجهة بحرنا، وذلك في وسط ساحل سورية، وهي لا تبعد أكثر من أربعين ميلاً إيطاليا عن القدس، وقد بنيت بشكل رائع ومكان موثم جداً، ولذلك كانت مليئة بالتجار من الشرق ومن الغرب، لأنها كانت نبعاً لجميع التجارات المحمولة بالبحر، وقد غدت مدينة فخمة جداً، إلى حد أنه لم يكن في العالم كله مدينة قيل هي أغنى منها.

كما أنه لم يكن هناك مدينة توازيها بالشرور والآثام، وعندما كانت في ذروة ازدهارها، حدث أن بعضاً من عساكرنا اعتقلوا بعض التجار المسلمين، وذلك في أيام الهدنة، وعندما سمع السلطان بهذا، حشد قوة هائلة، وحاصر المدينة، وفي تلك الأثناء فوق واحد من المسلمين قوسه وأقدم على رمي قائد المدينة، فقتله، وهو القائد الذي بأوامره كانت الأشياء كلها تعمل هناك، وعندما مات، انعدم النظام هناك، وبدأ الناس يفرون بالسفن عبر البحر، وعندما ما لم يعد هناك من يعترض سبيل المسلمين، دخلوا إلى المدينة، وقتلوا جميع الصليبيين، ونهبوا كل ما وجدوه هناك، وفي أثناء عملية السلب هذه، قيل بأن ستين ألفاً من الصليبيين قُذبتوا طعمة لسيوف المسلمين في عام ١٢٩١م، وهكذا هلك جميع

اللاتين وطرّدوا من الأرض المقدسة، باستثناء الذين صاروا رعية للمسلمين، وهم الذين جرى حرمانهم من قبل الكنيسة.

وعندما وصلت أخبار ما حدث إلى الغرب، كان هناك حزن عميق في بلاط روما، ومنح البابا نيقولا الرابع غفرانات كبيرة، لأي إنسان سوف يحمل شارة الصليب، أو يرسل آخرين لمساعدة الأرض المقدسة، وقام بمسيرات مهيبة، وأصدر قرارات حرمان كنسي ضد جميع التجار المسيحيين، أو آخرين يجلبون إلى الاسكندرية وأي بلد آخر خاضع إلى السلطان، ليس فقط الأسلحة والخشب، وهو ما كان محرماً منذ زمن بعيد، بل يجلبون أية تجارات مهما كان نوعها، وبعد هذا صدر حرمان ضد الأماكن المقدسة نفسها، وصار ممنوعاً، مع عقوبة الحرمان الكنسي، على أي إنسان، عبور البحر لزيارة الأماكن المقدسة، حتى لو كان ذلك صادراً عن التقوى، وذلك دون الحصول على إذن من البابا، وقد وجدت هذا في واحد من كتب الحج].

وبعد ثمانية أعوام من خروج الصليبيين من الأرض المقدسة، جاء امبراطور التتار، المسيحي الجيد الذي تقدم ذكره، واستولى على مدينة القدس، التي قدمها منحة إلى أساقفتنا وأمرائنا، لكن لم يكن هناك واحداً منهم، قد رفع يده للعبور إلى هناك، كما قلت، وهكذا من خلال هذا العقوق تمت خسارة الأرض المقدسة خسارة كاملة بالنسبة لنا، حتى لم يعد هناك من يفكر باستردادها، ولم يعد هناك من سبيل إلى استردادها، ما لم يتفضل الرب فيعمل معجزة ما في سبيل ذلك، وفي هذا الخروج الأخير للصليبيين من الأرض المقدسة، لم يبق أي لاتيني في سورية، إلا الرهبان الدومينيكان، علاوة على ذلك تسلم الرهبان الفرنسيون والكرمليون بعض الأماكن في سورية، وبقوا فيها، بناء على أوامر من البابا، وقد مكثوا فيها حتى جرى قهرهم، وقتلهم وإبادتهم من قبل المسلمين. [٢٩٠].

كيف كانت حال المدينة المقدسة بعد طرد الصليبيين اللاتين،
وكيف أمكن للرهبان الفرنسيسكان الاستقرار هناك،
وأيضاً ما هي المبالغ التي قدمها الصليبيون من أجل استرداد
الأرض المقدسة.

بعد طرد اللاتين بقيت مدينة القدس المقدسة لسنين كثيرة من دون
أي لاتيني أو مسيحي روماني، لأنه كما قيل من قبل، عندما غادر
اللاتين القدس، دخل المسيحيون الشرقيون، الذين كانوا هراتقة رهيبيين،
ومنشقين، دخلوا إلى هناك، وحلوا محل اللاتين، وصاروا مملكين
للكنائس التي بناها اللاتين، ولم يسمح لللاتين بامتلاك أية أماكن في
المدينة المقدسة، لابل لم يسمح لهم حتى بدخول الأرض المقدسة ومدينة
القدس من دون حراستهم من قبل المسلمين مع احتياطات عظيمة،
ومع جواز سفر (أمان)، وأيضاً مع دفع ضرائب ثقيلة جداً، وعندما
وصلوا إلى القدس، لم يجدوا خدمات أو طقوس ربانية، إلا طقوس
المنشقين والهرطقة، كما لم يجدوا أية مواساة مهما كان نوعها.

ولم يكن هذا محمولاً من قبل الكنيسة اللاتينية وشعب الغرب، الذي
كان يشعر بحماسة ملتهبة جداً نحو الأماكن المقدسة، وعندما جرى طرد
الصليبيين من الأرض المقدسة، وصلت هذه المسألة إلى مسامع البابا
نيقولا الرابع، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان، وهو الذي اختير بابا
في سنة ١٢٨٧ لتجسيد الرب، قبل سقوط عكا، وبعد خسارة عكا،
وطرد الصليبيين، أرسل سفراء إلى السلطان مع هدايا، ورجاء السماح
لبعض رجال الدين اللاتين للسكنى في القدس من أجل حماية ضريح
المسيح، وقال له بأنه ربما لن يهتم بمنحه ذلك من أجل حب المسيح، أو
بسبب صلوات البابا الصادقة والأمانة، إنه عليه أن يفعل ذلك من أجل
انتشار مجد اسمه في الخارج، على أساس أنه إذا ماترك بعض اللاتين
يدخلون إلى المدينة، فإن عظمتهم ستصبح معروفة في جميع أرجاء الغرب،

وكذلك في الشرق.

ومنح السلطان موافقته على مطلب البابا هذا، وطلب منه إرسال بعض رجال الدين والرهبان ورجال سلام إلى القدس، علاوة على هذا عين صدقات يومية تعطى للمشفى المسيحي في القدس، ولذلك اختار البابا بعض الرهبان من طائفته، ممن كانوا مستقيمين، ومتعلمين، وأمناء، وكانت طائفته هي طائفة الفرنسيسكان، وبعث بالذين انتقاهم إلى القدس، ليقموا قداست ربانية في كنيسة قيامة الرب، لصالح جميع أعضاء كنيسة روما، وذلك خشية منه بقاء تلك الكنيسة المقدسة جداً مهجورة من قبل اللاتين، وعندما قدم أولئك الآباء المقدسون إلى القدس، لم يكونوا يمتلكون أية بيت فيها، ولذلك ذهبوا إلى المشفى العام العائد للحجاج، وأقاموا فيه، في حالة عوز عظيم، وتعاसे، لبضع سنوات، وظلوا بدون بيت خاص بهم، يعيشون على بعض الصدقات التي كانوا يتلقونها من الحجاج.

وفي سنة ١٣٠٠م، صار القديس لويس، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان أسقفاً لطلوز بأمر من البابا بونيفيس الثامن، وكان القديس لويس هذا حفيداً للقديس لويس ملك فرنسا، وكان ابناً لشارل، وأخاً لروبرت، ملك أبوليا، وكاليرا، وصقلية، والقدس، وعندما سمع هذا الأسقف بسوء أوضاع الرهبان الفرنسيسكان، والشقاء الذي كانوا فيه يعيشون في القدس، ذهب إلى صقلية إلى أخيه روبرت، ملك القدس، لكي يساعد إخوانه الرهبان، وجذب قلب الملك نحو محبة الطائفة، بإخباره كيف أنهم كانوا يعيشون في عوز وفاقة في مدينة القدس، حيث يرعون مصالح الكنيسة اللاتينية كلها، وليس لديهم حتى بيت هناك، بل يسكنون في المشفى.

وعندما سمع الملك بهذا، رتب شؤون مملكته، ثم أخذ عدداً من الرهبان الفرنسيسكان، معه، وأقلع بحراً نحو سورية كحاج عادي

بسيط، وذهب إلى القدس بموجب جواز أمان من السلطان، وشاهد الأماكن المقدسة وقبلها، ثم إنه ذهب إلى مصر إلى السلطان ورجاه أن يعطيه كنيسة جبل صهيون مع الأبنية المجاورة، وبيعة مريم العذراء المباركة في كنيسة ضريح الرب، مع القاعات المجاورة، وقاعة ضريح الرب، وكنيسة مريم العذراء المباركة في وادي شعفاط، وكهف ميلاد الرب في كنيسة مريم العذراء المباركة في بيت لحم مع الأبنية المجاورة، وذلك لإعطاء ذلك كله إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين وافق من قبل على سكناهم حيثما أرادوا في القدس، وذلك من أجل إقامتهم فيهم.

وعقد الملك روبرت اتفاقاً مهيباً مع السلطان حول هذه الأماكن، وتسلمهم منه ودفع إلى السلطان مقابلهم اثنتين وثلاثين ألف دوقية من العين المدفوع، وبعدما دفع الملك هذا المبلغ، ذهب إلى القدس، ومنح الأماكن المتقدم ذكرها إلى الرهبان الفرنسيسكان ليملكوها تملكاً أبدياً هم ومن يخلفهم بشكل أبدي عوضاً عنه، وعندما تسلم الرهبان الفرنسيسكان تلك الأماكن، بنوا عليها ثلاثة أديرة، كان الأول منها على جبل صهيون، وذلك حيث كان هناك من قبلهم دير للرهبان القانونيين النظاميين، وكان الثاني في كنيسة قيامة الرب، إلى جانب بيعة العذراء المباركة، من أجل أن يستخدم من قبل الأوصياء على ضريح الرب المقدس، والثالث في بيت لحم، وجميع هذه الديرة كأنها دير واحد.

وعندما رأى رهبان الدومينيكان بأن السلطان قد أخذ مالا، وباع أماكن مقدسة، جمعوا مبلغاً صغيراً من المال من خلال الصدقات واشتروا حق الدم، الذي يطل من الأعلى على وادي صهيون، على طرف جبل جيحون، واشتروا كذلك كهف القديس جيمس عند سفح جبل الزيتون، فوق بركة قدرون في وادي شعفاط، وأقام الرهبان هناك لبعض الوقت، لكن بما أن تلك الأماكن كانت مكشوفة تماماً، وليست مغلقة بأية جدار، كان عليهم التحمل باستمرار الاهانات من المسلمين

ومن البداية العرب، ولذلك كان من غير الممكن بالنسبة لهم البقاء هناك، ولهذا هجر الدومينيكان هذه الأماكن وارتحلوا عائدين إلى العالم المسيحي.

هذا وتوفر لدى الفرنسي سكان أديرة محمية بأسوار قوية، أعطاهم السلطان إياها عن نفسه وعن خلفائه على أساس مبلغ المال المتقدم ذكره، ومع ذلك عانوا من كثير من الأذى، وغالباً ماتعرضوا لاضطرابات قاسية من قبل المسلمين، وكانوا - كما يمكن القول - عرضة للازعاج يومياً، وجاء المسلمون في سنة ١٣٦٨ إلى دير جبل صهيون، وقتلوا اثني عشر راهباً، ودخلوا بعد هذا للمرة الثانية، وهدموا البناء المقبب لمهجع النوم، وخربوا قلايات الرهبان، وفي وقت آخر فيما بعد، أخذ السلطان منهم، بتدبير من اليهود، وانتزع موضع ضريح داوود وملوك اليهودية الآخرين، وهدموا الـ Coenaculum في المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس على الرسل في يوم عيد الحصاد، وهو مكان بني بنفقات كبيرة من قبل ملك فرنسا، وذلك بناء على موافقة من السلطان، ولم يسمحوا بإعادة بنائه، ودمروا أيضاً أماكن أخرى حول كنيستهم، دون مبالاة بأن هذه الأماكن قد شريت من قبلهم، علاوة على ذلك، جرى قتل عدد كبير منهم على أيدي غير المسيحيين، وجرى تعذيبهم، ولم يشعروا بالأمان لاحول الأماكن المقدسة التي بأيديهم، ولا حول حياتهم.

وفي سنة ١٣٠٠ لتجسيد الرب، وقبل إعادة تنظيمهم، ازداد هؤلاء الرهبان وتناموا حتى أصبحوا لا يمكن تحملهم، وصاروا عدوانيين تجاه المسلمين والمسيحيين سواء، لكن الطائفة قدمت إلى عون الدير، فوضعت رجالاً مستقيمين وحكماء فيه، ولذلك يحافظون حتى هذا اليوم على ممارسات قلبية للخدمات الربانية، ويخدمون الحجاج باخلاص، أي الزوار الذين يقدمون إلى هناك، ويزودونهم بكل ما

يحتاجون إليه، ويأخذون المرضى من دار الضيافة إلى المعالجة لديهم، ويحيطونهم بالعناية والرعاية المثلى، وهذا أمر جربته أنا شخصياً عندما كنت مقيماً بينهم، ولهذا السبب نالوا لأنفسهم محبة جميع الأمراء المسيحيين، والبارونات، والنبلاء، ولذلك يصفون الصدقات عليهم، ويدعمون هؤلاء الرهبان بمساعدات كبيرة، ويرسل جميع الملوك صدقاتهم إليهم سنة فسنة، حيث يرسل بعضهم إليهم خمسمائة دوقية، وبعضهم أربعمائة، وبعضهم أكثر أو أقل تبعاً لعاداتهم، أو وفقاً لمدى عمق مشاعرهم وإخلاصهم تجاه الأرض المقدسة، ومثل هذا هناك كثير من الصدقات تمنح إليهم يومياً من قبل الحجاج، ومن قبل الذين يتلقون شارات الفروسية في ضريح الرب، وهم يحتاجون إلى هذا كله، لأنهم لا يجمعون أية صدقات من المسلمين ولا من الشرقيين، ولا من المسيحيين، بل يحصلون على جميع وسائل عيشهم من الغربيين، ولذلك على الناس النظر إلى هذا الموضوع بعناية وأن يتدبروا عدم وقوع هؤلاء الرهبان في حالة فاقة قاسية، وذلك من أجل أن تبقى أبنية الكنائس مصانة ومرممة على حساب صدقات المؤمنين ولكي يمكن إعادة المشفى للغرباء وللحجاج، ومن أجل شراء الإذن بزيارة الأماكن المقدسة من المسلمين بالدفع من قبل الكنيسة.

وفي الحقيقة حدث منذ انطلاق الايمان وبدايته، وفي أيام العهد القديم، أن اعتاد الملوك من الأمم والأمراء على إرسال المال والأعطيات إلى القدس من أجل استخدامات الذين كانوا يارسون القيام بالطقوس الدينية هناك، وهذا واضح مرئي من اسدراس: ١/١/٦-٧. ومن نحميا: ٣ و٢، ومن اسدراس: ٤، ومن المكابيين: ٣/٢، وفي العهد الجديد اهتم الرسل المباركون اهتماماً خاصاً بجميع الصدقات من الأمم الأخرى، من أجل استخدامات الذين كانوا في القدس، ونقرأ في رسالة الكورنثيين: ١/١٦، بأن القديسين بولص وبرنابا انشغلا بشكل خاص

بهذا العمل، وانظر أيضاً شروح القديس توما الأكويني، وبطرس أوف ثارنتاسيا Tharentasia ، ونيقولادي ليرا، وكذلك غلاطية: ٨/٢، وروما: ١٥، حيث قال الرسول: «ولكن الآن أنا ذاهب إلى اورشليم لأخدم القديسين، لأن أهل مكدونية وأخائية استحسنا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في اورشليم»، لأنه وجد في جميع الأوقات في القدس، رجال ونساء يعيشون في فقر انجيلي، ومن أجلهم سعى الرسول للحصول على صدقات.

هذا وعندما قدم الأعمدة الأولى للكنيسة: بطرس، وجيمس، ويوحنا أيماهم بالتبعية لبولص وبرنابا، ورسموهما رسولين إلى الأمم، وبعثوا بهما للتبشير، على شرط أن يتذكروا الفقراء الذين كانوا في القدس، ويجمعون المال من أجلهم، ويرسلونه إليهم كما قرأنا في غلاطية: ٢، ففي هذه الرسالة كلها تقريباً، نصح بولص بجمع المال وأن يكون ذلك في أيام السبت، من أجل جميع الذين كانوا في القدس، والحرص تماماً على ارسال المال إلى هناك بأمان، ولهذا ذهب هو حتى بنفسه إلى القدس، لإعطاء المال الذي جمعه وتوزيعه على الناس، كما رأينا في روما: ١٥، وفي أعمال الرسل: ٢٤، حيث أشار إلى هذا إلى الحاكم فيلكس.

وبقيت هذه العادة في جمع المال وارساله إلى القدس، لمدة طويلة في الكنيسة، وقام في إحدى المرات ناسك اسمه فيجيلانتوس Vig-ilantius، كان من بين أخطائه إعلانه أن هذا الجمع للمال وارساله إلى القدس عمل عابث، وبلا فائدة، لكن جيروم بطل الكنيسة تصدى له، وهزمه بشكل كامل، وسحقه فيما يتعلق بمسألة هذه الخطيئة، فهذا ما نقرأ عنه في الرسالة ضد فيجيلانتوس، ومثل هذا أطرى واحداً اسمه ليسينوس Licinius ، وكان رومانياً غنياً جداً، قد بعث كثيراً من الصدقات إلى القدس، وأعطاه كثيراً من الذهب، حتى كان قادراً على

تدبر حاجيات أناس كثيرين، وذلك حسبما نقرأ في الرسالة إلى الأرملة ثيودورا.

فضلاً عن هذا نقرأ بأنه توفر لدى القديس غريغوري عناية خاصة برجال الدين في القدس، الذين إليهم بنى ديراً، وبعث إليهم بالمال، وعلاوة على ذلك، إنه من أجل هذه الغاية جرى تأسيس الطوائف الثلاث، أي: فرسان الداوية، وفرسان الاسبتارية وفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد تمكنت هذه الطوائف من بناء بيوت لها في جميع البلدان، ومن تكويم الممتلكات وجمع الثروات الأخرى، من أجل إرسالها إلى القدس، وقد أثرت الطائفة الأولى (الداوية) وازدهرت كثيراً في الأمور الدنيوية، إلى درجة أن الكنيسة الغربية لم يعد بإمكانها استيعابها، وقد زالت هذه الطائفة وتلاشت، مع أن شطراً من ممتلكات الداوية قد أعطيت إلى الاسبتارية، الذين اسمهم الآن فرسان القديس يوحنا، الذين جميع ممتلكاتهم عائدة إلى القدس، لكن عندما انتهى سبب إرسال المال إلى هناك، فمن المتوجب كذلك انتهاء جميع الثروات التي جمعت لهذه الغاية، لكن الاهتمام بهذا الأمر كان ضئيلاً، ولهذا تتحمل الكنيسة طوائف بلا فائدة، وفي الوقت نفسه مامن انسان هو مهتم بارسال المساعدات إلى الأوصياء على الضريح في القدس، من أجل امتلاك مايكفي من مال للدفع من أجل نفقاتهم، ومن أجل إبقاء الأماكن المقدسة وكنائس المسيح في حالة منتظمة، وهذه مسألة ينبغي على المؤمنين منحها اهتمام خاص، لأن إيماننا قد تأصل هناك، وقداساتنا هناك اكتملت.

الشعوب التالية هي التي تسكن القدس في هذه الأيام

مدينة القدس المقدسة في هذه الأيام موضع الاستقرار والسكنى لمختلف شعوب الدنيا، وهي لهذا، كما كانت، مجعاً لجميع أنواع الآثام:

١ - المسلمون

السكان الرئيسيون هناك هم المسلمون، الذين هم محمديون، وهم ملوثون بحثالة جميع الهراطقة، وهم أسوأ من الوثنيين، وممقوتين أكثر من اليهود، وهم ينكرون التثليث، ويؤمنون بعقيدة الطبيعة المزدوجة، وهي عقيدة لاهوتية شائنة، غير أنهم يعترفون بطبيعة الجوهر الرباني، ويعلنون أن الله لا يمكن أن يكون له ولد، لأنه ليس له زوجة، علاوة على ذلك هم يرون بأن الله ليس مركباً، لأنه لم يكن عرضة للتغيرات والحوادث، وهو لا يعيش مثل الناس لأنه لا يأكل، ويقولون أيضاً بأن الله وملائكته يصلون على محمد ﷺ وعلى بقية المسلمين، وهم ينكرون تجسيد الكلمة، ويعلنون بأن المسيح ليس رباً، كما أنه ليس من طبيعة وتركيب الأب، بل يقولون بأنه كان مجرد روح الله، وهم يعلنون أيضاً بأنه كان مقدساً جداً، ورجلاً فضيلاً، وهو دون سواء من الناس ولد من العذراء من دون أي أب، ويقولون بأنه لم يتألم مطلقاً، ولم يصلب أو يمت، بل نقل من قبل الله، وأنه في نهاية الدنيا سوف يموت، بعد قتله المسيح الدجال.

وهم يعلنون بأنه ليست هناك قدّاسات، ولا عجب في هذا، فهم ينكرون الصليب نفسه، وهم يقولون بأن المسيح سوف يحكم العالم، لكن مع الله ومع محمد ﷺ وفيما يتعلق بما كتب حوله، هم يعترفون بجميع أمجاده، ويعظمونه، ولا يقرون بما قيل حول اذلاله وعاره.

وفيما يتعلق بمريم العذراء، هم يعتقدون باخلاص بأنها كانت أخت هرون، وهم يقولون بأن للملائكة أجسام، وأنه من هؤلاء الملائكة تم صنع أولئك الشياطين الذين رفضوا السجود لآدم، وهم يقولون بأن البطارقة (الآباء) المقدسين والأنبياء كانوا مسلمين، وأن الناس هلكوا بالطوفان لأنهم رفضوا أن يكونوا مسلمين، وأن الحواريين أيضاً آمنوا بالاسلام وسموا أنفسهم مسلمين، وهم يلومون المسيحيين لأن لديهم

أساقفة وكهنة وقد جعلوا منهم أرباباً، علاوة على ذلك هم يضحكون منا، ويستخفون بنا لأننا عملنا مريم العذراء رباً، ويقولون بأن المسيح اعتذر في حضرة الله، وأنكر أن تكون أمه ربة، وفيما يتعلق بقرآنهم هم يقولون أنه لا الانسان ولا الشيطان يمكنه أن يصنف مثل هذا الكتاب الفصيح والعذب، والعجيب المدهش، وهم يقولون بأن أعلى درجات السعادة موجودة بالمسارّ الجسدية، والشرب، وماشابه ذلك مثل الثياب، الخ، وقالوا بأن السموات قد صنعت من بخار، وهذا البخار قد تصاعد من البحار، وهم يسمون البحر Mote capff وأنه هو الذي يحيط بالعالم، ويمسك السموات، وقالوا بأن الشمس والقمر كانا في البداية متساويين بالإضاءة، ولم يكن وقتها هناك تمييز بين الليل والنهار، لكن عندما كان الملاك جبرائيل يطير عبر السماء، أصاب بجناحه فلك القمر، وبذلك جعله مظلماً، وفيما يتعلق بالموت، يقولون هناك ملاك اسمه عزرائيل، هو الذي سوف يتولى في نهاية الحياة إماتة جميع المخلوقات، حتى الملائكة، وفي الأخير سوف يميت نفسه أيضاً، وعندما يحدث هذا كله الله سوف يقيم جميع المخلوقات ويبعثهم من الموت، وذلك باستثناء الموت نفسه علاوة على هذا هم يقولون بعض الأشياء حول فضائل النفس، ونهاية جميع الأشياء، وهم يتزوجون بأكثر من زوجة، ولا يقبلون الاعتراف بممارسة السدومية، وهم يخطئون بلا حدود في كثير من المجالات، قد كتب حولها في «حصن الايمان» وفي ترجمة القرآن.

٢ - الروم الأرثوذكس

هناك كثير من الروم الأرثوذكس يسكنون في القدس، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تمتلك في الأيام الخالية رجالاً متعلمين عظماء جداً، لكنها الآن مظلمة بذنوب لا تحصى، وبشكل خاص بأربع نقاط رئيسية هي: (١) هم لا يعتقدون بأن الروح القدس قد صدرت من الابن، أو أن ذلك له أي وجود، (٢) هم يعلنون بأن أرواح الموتى هي ليست في الجنة

ولافي النار، وذلك قبل أن يصدر عليها الحكم في يوم الحساب، وبذلك هم ينكرون عقيدة التطهير، (٣) هم يقولون بأن جسد المسيح لا يمكن تدميره أو ايدائه، (٤) هم لا يعترفون بأن كنيسة روما هي رأس جميع الكنائس، كما أنه لا تنبغي اطاعتها، وهم يفسخون الزواج على أسس تثليثية، ولا يقيمون وزناً للسيمونية، وهم يحتفظون بجسد المسيح المصنوع في يوم خميس العهد طوال السنة، ويرون أن له تأثيراً عظيماً وغالباً ما يقومون بحرمان البابا كنسياً من أساقفتنا، وجميع رجال الدين الرومان، وهم يولون قليلاً من الاهتمام لقداس المسح الأقصى، ويقولون بأن حلق اللحية ذنب من الذنوب، وهم يرون بأن أساقفتهم أعلى من السادة الدنيويين، وهم يمتلكون كراهية حادة تجاه كنيسة روما، ولذلك سلموا جميع بلاد الاغريق إلى الأتراك، وبذلك ضيعوا أنفسهم وبلادهم بسبب كراهيتهم للكنيسة اللاتينية.

٣- السريان

ويوجد في القدس سريان، هم في الحقيقة ليسوا مسيحيين، بل أبناء الشيطان، لأنهم كذابين، وغير جديرين بالثقة، ويرون أن سرقة اللاتين ليست أمراً محرماً ولا خيانتهم، وهم مثل الروم الأرثوذكس يتبعون عقيدتهم، وبعدهم أخطائهم قد أصيبوا، علاوة على هذا إنهم فيما يتعلق بيوم السبت، هم يتبعون اليهود باتخاذهم عيداً، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، وفي القداسات الدينية السريانية، ولهم لحي طويلة ويكرهون الذين بلا لحي، وهم ضعفاء، ولا فائدة منهم البتة في الحروب.

٤- اليعاقبة

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم اليعاقبة، كان قد جرى طردهم منذ زمن طويل من الكنيسة الإغريقية بقرارات من بطريرك

القسطنطينية، ويقوم هؤلاء القوم بختان أولادهم وفق طريقة المسلمين، وهم يخفون اعترافاتهم الشخصية، ويعترفون بطبيعة واحدة للمسيح وفي قداساتهم يستخدمون اللغة السريانية.

٥- الأحباش

ويوجد في المدينة المقدسة أحباش أو هنود، وهؤلاء لهم ملك مسيحي منه حتى المسلمين يخافون خوفاً عظيماً، ولذلك فإن الذي يحمل جواز سفره يمكنه أن يسافر خلال الشرق من دون عاقبة، وهؤلاء القوم أيضاً يختنون أطفالهم ويكونون على وجوههم بقطعة حديد محماة، ويعمدونهم باسم المسيح، ويكرسون القربان بخبز مخمر، ويعملون القربان بكلا النوعين لأطفالهم، وهم يهلكون أجسادهم بصيام شديد يصل إلى حد الهلاك من الجوع.

٦- النساطرة

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم النساطرة، اقتيدوا إلى الضلال بأخطاء من أسوأ الأنواع، ويتمسكون بآراء كثيرة خاطئة تتعلق بأم الرب، وبابنها، وهم يعتقدون أنه كان في المسيح طبيعتان وشخصان، ويقولون بأن مريم العذراء المباركة كانت أم المسيح الانسان، لكن ليس ابن الرب، وهم يستخدمون اللغة الكلدانية في صلواتهم، ويستخدمون الخبز المخمر في قداس العناصر.

٧- الأرمن

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم الأرمن، قد غرقوا في آثام متنوعة، وبين هؤلاء وبين الاغريق دوماً اعظم الخلافات، وذلك بسبب الخلافات الدينية، وهم يمتلكون لغة وأبجدية خاصة بهم، ويعدون يوم الميلاد يوم صيام، ولا يحتفلون بقداس فيه، لكنهم يمنحون تشریفاً عظيماً ليوم عيد الغطاس، بسبب تعميد المسيح، وهم يحافظون على الصوم

الكبير بصرامة عظيمة جداً، إلى درجة يمتنعون فيها عن أكل السمك، والزيت وشرب النبيذ، ومع ذلك إنهم يأكلون الخضار والفواكه كما يريدون وبشكل دائم، لأنهم لا يرون بأن هذه الأشياء تفسد صيامهم، وهم لا يمزجون الماء مع خمرة القربان، ويأكلون اللحوم في أيام الجمعة، وهم لا يسهرون كصوم، ولا في أيام Ember (الجمرة)، ولا أثناء الصوم الكبير، الذي يصومون أيامه بصرامة متناهية، ويشمل ذلك حتى يوم الرب، وهم لا يأخذون بعقيدة التطهير، ويشاركون اليعاقبة في أخطائهم فيما يختص بالمسيح.

٨ - الجورجيون

ويوجد في القدس جورجيون (كرج)، يُدعون بمسيحيين، وهؤلاء رجال حرب منذ ولادتهم، إلى حد أنهم يُحشون في جميع أرجاء الشرق، ويعبرون إلى حيثما أرادوا دونما إعاقة، ودون دفع أية جزية، والنساء لديهم يستخدمون السلاح مثلهن في ذلك مثل الرجال، وبينهم وبين الأرمن هناك حروب إلى درجة الفناء، وهم ملوثون تقريبا بجميع آثام الاغريق، ويطلقون لحاهم ويجعلونها طويلة مثل بقية الشرقيين.

٩ - الموارنة

ويسكن في القدس مسيحيون اسمهم الموارنة، وهم هراطقة، ويعتقدون أن للمسيح ارادة واحدة، وطاقة واحدة، وهم يقرعون النواقيس كما نفعل، في حين يدعوا المسيحيون الآخرون الناس إلى الكنيسة بالقرع على لوح من الخشب، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، لكن في طقوسهم الكلدانية، وعادوا مرة فيما مضى إلى الكنيسة الواحدة، لكنهم انفصلوا عنها منذ زمن طويل.

١٠ - التركمان

ويوجد في المدينة المقدسة أناس يعرفون باسم التركمان، وهم

متوحشون متنقلون، وقد استولوا على جميع آسيا الصغرى، وعلى شطر كبير من آسيا الكبرى، وهم أتراك.

١١ - البدو

وهناك بداءة من الشعب العربي، منهم جاء.... محمد ﷺ، ويعتقد هؤلاء أن يوم موت كل انسان، والطريقة التي سوف يموت بها، أمور مقضي بها من الله، ولا يمكن لذلك أن يتقدم أو يتجنب، ولذلك يزجون أنفسهم في أعظم المخاطر من دون خوف، ويمضون إلى الحروب دون حماية بالدروع، وهم مكروهون من قبل المسلمين والمسيحيين سواء، ويعبد بعضهم الشمس.

١٢ - الحشيشية

وهناك يوجد الحشيشية، الذين هم مسلمون، ويطيعون مقدمهم طاعة عمياء، لأنهم يؤمنون أنهم بطاعتهم له وحده سوف ينالون السعادة في الآخرة، ويتدبر مقدمهم تعليم فتيانهم مختلف اللغات، ويرسله إلى الممالك الأخرى، ليعخدمون الملوك هناك، من أجل أنه عندما يتطلب الوقت، يقوم خادم كل ملك بقتله بالسم أو بطريقة أخرى، وإذا ما تمكن الخادم القاتل للملك من النجاة والعودة إلى بلاده، فإنه يكافأ بتشريفات، وثروات، ومراتب عليا، وإذا ما اعتقل وأعدم، عدّوه في بلاده شهيداً.

١٣ - المحمديون

وفي القدس نوع من المحمديين يعبأون قليلاً بشرائع المسلمين، ويقولون بأن لديهم شريعة سرية خاصة بهم، مامن أحد ييوح بها، باستثناء الأب، وهو على فراش موته، إلى ابنه، وإذا ما أفشى الابن ذلك إلى أمه، وتبرهن بأنه عمل ذلك، يجري اعدام الأم على الفور.

١٤ - الممالك

ويوجد في القدس ممالك، هم مسيحيون مرتدون، وهم هناك بأعداد كبيرة، وهم مكروهون من المسلمين ومن المسيحيين سواء، وهم يمتلكون الشرق كله بقوة سلاحهم، وملك مصر، الذي هو السلطان، من بينهم، ومثل ذلك جميع رجال بلاطه، ولا يعبأ هؤلاء الناس لا بشريعة محمد (ﷺ) ولا بإنجيل المسيح، بل سلموا أنفسهم إلى المتعة فقط.

١٥ - اليهود

يعد اليهود بين هؤلاء جميعاً ملعونون إلى حد أن الشقاء والرفض الذي عانوا منه قد أظلم عقولهم وعطل فهمهم، لأنهم ممقوتون في جميع أنحاء الدنيا، ويعدون لشيء يستحق الاهتمام، وفيهم عدة طوائف، مثل السامرة والاسينيين، وتنشأ بينهم باستمرار هرطقات جديدة، حولهم لا أستطيع القول أكثر.

١٦ - المسيحيون اللاتين

يسكن في القدس مسيحيون لاتين، ورهبان فرنسيسكان في الكنيسة والدير على جبل صهيون، وهم يعيشون حياة انجيلية في ظل نظام دقيق، وقد تحدثت عن هؤلاء مطولاً، ويتطلع هؤلاء وحدهم من قلوبهم كلها إلى الأمراء المسيحيين للقدوم واخضاع البلاد كلها، إلى سلطة كنيسة روما، التي يمكن أن تمنح السلطة إلى أبد الأبد.

وفيما يتعلق بالطوائف والشعوب المتقدمة الذكر، انظر ص ٢٣٩ -٢٤٨ من رحلة بورتشارد (ج ٣٧ من موسوعتنا هذه)، وذلك في نهاية وصفه للأرض المقدسة، وفي رحلة حج صاحب النيافة، عميد مينز، وفي Speculum Historiale، وفي تاريخ أنطونيوس، وكثير ممن كتبوا حول هؤلاء المسيحيين الشرقيين، قالوا بأنهم بريئين من الهرطقات، ومدحوا بساطة حياتهم، وهذا بالفعل كان حقيقياً في الأيام الخالية، أي

منذ مائتي سنة خلت، لكن منذ ذلك الحين صاروا جميعاً - باستثناء اللاتين - ملوثين بأسوأ الآثام، وصاروا كل يوم ملوثين أكثر، لأنهم ليس لديهم لاهوتيين أو مبشرين بالايان الكاثوليكي، كما أنهم ليسوا على استعداد لاستقبال مثل هؤلاء، ذلك أنهم راضين بأن يموتوا بآثامهم.

القسم الثاني

من

كتاب رحلات وجولات فيلكس فابري من أولم ومن طائفة
الرهبان المبشرين

الحج من مدينة القدس المقدسة إلى حوريب، وإلى جبل الرب،
وإلى جبل سيناء إلى الضريح الملائكي لكاترين العذارى المباركة

مرة أخرى سوف أتجول وأرتحل خلف خطوات شعب موسى في
الجزء الداخلي من القفار، باتجاه حوريب، وجبل الرب (الخروج: ١/٣)،
لأنني الآن أنهيت وختمت وصفي لجولاتي ورحلاتي في حجي إلى
القدس، والذي بقي هو أن أقوم بوصف جولاتي ورحلاتي في حجي إلى
سيناء، وهو الموضوع الذي سوف أركز عليه فيما يلي:

ويحتوي القسم الثاني من كتاب جولاتي ورحلاتي، وصف حجي إلى
الصحراء الكبرى في العربية، وإلى مدين، وإلى جبل سيناء، وإلى قمته
التي هي أقصى نقطة عملت في سبيلها في حجي كله.

ثم يحتوي بعد ذلك حجي في أرض بلاد مصر، ورحلتي عبر النيل
مع وصف ما هناك، والعودة من حجي بالبحر وبالبر حتى أولم، التي
هي مدينة نقطة الانطلاق، وهي التي سوف أصفها بعد الجميع.

ويحتوي هذا القسم على ستة فصول، وذلك مثلما حوى القسم
الأول.

وببدأ هنا الفصل الأول، الذي هو الفصل السابع في ترتيب كل
كتاب الرحلات والجولات، وهو يحتوي على وصف للحج خلال القفار
مع وصف لجبلي: حوريب وسيناء.

ويحتوي الفصل الثاني، الذي هو الفصل الثامن، على وصف الحج في
مصر في شهر تشرين الأول.

ويحتوي الفصل الثالث، الذي هو الفصل التاسع، وصف الحج فوق
البحر، ووصف الجزر فيه في شهر تشرين الثاني.

ويحتوي الفصل الرابع، الذي هو الفصل العاشر، وصف الرحلة البحرية في شهر كانون الأول. ويحتوي الفصل الخامس، الذي هو الفصل الحادي عشر، وصف الحج في البندقية، ووصف البندقية وعودة الحجاج إلى أوطانهم في شهر كانون الثاني.

ويحتوي الفصل السادس، الذي هو الفصل الثاني عشر، وصف فائض جداً لألمانيا وللمدينة أولم، لكن بما أن هذا الفصل فصل طويل، وقد ملأ كتاباً قائماً بذاته، لم ألحقه بكتاب جولاتي ورحلاتي، بل عملت منه مجلداً منفصلاً.

هنا يبدأ

الفصل السابع من كتاب الرحلات والجولات ، وبه نبدأ رحلتنا الثانية من القدس إلى جبل سيناء

هناك ثلاثة أشياء ينبغي الفراغ منها، قبل الانطلاق برحلة الحج إلى جبل سيناء، وهي: الأول: هو أن الحج يحتاج إلى ترتيب مع الحكام المسلمين للقدس، لعقد اتفاق مع الترجمان، عليه بموجبه أن يؤمن لنا مرافقة، وجواز سفر (أمان) خلال القفار حتى مصر، وكنا قد عقدنا هذا الاتفاق كما أوضحنا من قبل، والثاني: يحتاج الحجاج إلى اعداد المؤن وتزويد أنفسهم وشراء الطعام اللازم للبقاء أحياء أثناء رحلتهم عبر القفار، (وهذا أمر قد تحدثنا عنه من قبل)، والثالث: هو أن على الترجمان الرئيس -وفقاً لشروط الاتفاق -تقديم الجمال وسائقي الجمال، وحمير وسائقيهم، وتعيين يوماً محدداً وساعة لمغادرة الحجاج، وهذه الأشياء كلها عملت، وعين لنا اليوم الرابع والعشرين من آب -وهو يوم عيد القديس بارثلميو الرسول -من أجل مغادرتنا، والسفر من القدس، عند ساعة العشاء.

وبناء عليه خرجنا في الصباح الباكر من كنيسة ضريح الرب، في ذلك اليوم نفسه، وبعد تناولنا لطعام الافطار، ذهبنا جميعاً إلى جبل صهيون، حيث وجدنا الكالينيين هناك بانتظارنا مع الجمال وسائقي الجمال والحمير وسائقي الحمير، ولذلك بادرنا مسرعين، وأخرجنا جميع حقائبنا من دير الرهبان، وكومناها في مكان واحد، بناء على طلب سائقي الجمال، حتى يروا حجمها ولكي يوزعوها بين الجمال بالتساوي، ذلك أن الجمال ينبغي تحميلها بدقة، ومتوازن بشكل جيد، أي أن تكون الأوزان متساوية، وعندما حملنا كل شيء ووضعناه في مكان واحد وفي

كومة واحدة، كونوا حملاً ثقيلاً، لأنه كانت هناك أكياس كثيرة من البقساط، وجرار كثيرة مليئة بالخمير، كانت موضوعة داخل أكياس من الشعر، حتى لا يراهم المسلمون مكشوفين، ويزعجوننا من أجلهم، وكانت هناك أوعية كثيرة مليئة بالماء، وسلال مليئة بالبيض، وأقفاص فيها ديك ودجاج أحياء، وكانت هناك فرشنا وملابسنا ومزاودنا، وصناديق وسلال فيها أواني المطبخ والأباريق، والصحون والأطباق، وقد تكون من هؤلاء والأنواع الشبيهة كومة كبيرة، ولذلك اندهش سائقونا تجاهها، لأن من الصعب على الإنسان أن يصدق أن عشرين رجلاً سوف يحتاجون إلى مثل هذه الكمية من الحقائب لدى عبور الصحراء، هذا ويتوجب على الإنسان أن يحمل كميات وافرة من الزاد، حتى لا يعاني من العوز أثناء اثنين وستين يوماً، وليكون بإمكانه إعطاء خبز وبقساط، ولحم مدخن وجبن إلى البداة العرب، والمدينين الذين يقابلهم، لأن هذا يطفى غضبهم، وبذلك يستطيع شراء السلام منهم.

وعندما جلبت جميع الأشياء إلى الخارج، اقتاد سائقوا الجمال جملهم نحو كومة الأشياء، وأناخوها واحداً تلو الآخر، وحملوها، وأثناء القيام بهذا العمل، وقفنا إلى جانبهم، وراقبنا بعناية أيديهم، خشية أن يسرقوا أي شيء منا، وأيضاً لكي نتعلم كيف يحملون الجمال، وكيف يتدبرونهم، وبعدما جرى تحميل اثنين وعشرين حملاً مع كثير من التعب استدعينا من قبل سائقي الحمير إلى قطع الحمير، حتى يقوم كل واحد باختيار حمار لنفسه، على ظهره سوف يركب خلال الصحراء كلها ووصولاً حتى مصر، وكان السائقون قد اتفقوا فيما بينهم، من أجل الحفاظ على السلام، أن لا يشير أحد على أحد من الحجاج بأخذ هذا أو ذاك، أو أن يقول شيئاً حول الدابة، سيئاً كان أم جيداً، بل تركوا الأمر إلى اختيارنا، وهكذا فإن كل من قام باختيار سيء، لن تكون لديه حجة للتخاصم مع أي واحد أو توجيه اللوم إليه، كما أنه لن يكون بإمكانه - لسبب من

الأسباب- دفع أقل ممن جرى تزويده بدابة جيدة، وعندما قمنا بالاختيار، توجب على الذي اختار أفضل دابة أن يدفع الأجور ومال الشرب لجميع رفاقه.

وكان سائقوا الحمير أنفسهم يعرفون أي الدواب كان جيداً، وأياً كان سيئاً، ذلك أن السرج على ظهورها كانت متشابهة، وبناء عليه ركض موالي الفرسان إلى هنا وهناك بين الحمير، وجربوا أحدها بعد الآخر، وسعى أحياناً اثنان من الحجاج أو ثلاثة وراء حمار واحد، وعندما رأيت هذا، وكنت راغباً في عدم ازعاج أي انسان بالقيام باختياري، تركت القطيع، وتسلفت الدرج الحجري حتى باب كنيسة صهيون، وجلست فوق عتبة الباب، وتطلعت نحو قطع الحمير، حيث راقبت الآخرين وهم يختارون دوابهم، وكذلك قدرت في نفسي أية دابة سوف أختارها، ورأيت وقتها بين الحمير واحداً كبيراً أبيض، أذناه متدليتان نحو الأسفل، وقد بدا لي أنه يمتلك رأساً ثقيلاً، وبدا وكأنه دابة باهته، وأن ما من واحد من الحجاج سوف يلمسها، وقد ركزت على تلك الدابة، ليس لأنني رأيت أية جودة فيها، بل لمجرد أنني رغبت بعمل مباراة ما مع موالي في اختيار دابة نظر الجميع إليها بامتهان.

وهكذا بعدما اختار النبلاء جميعاً دوابهم بعناية كبيرة وتفكير عظيم، وتوقفت الضجة، نزلت وقمت بدون أي فحص باختيار الحمار المستخف به، واقتدته إلى الجانب، وأعددته لامتطاء ظهره، فما كان من سائقي الحمير إلا أن ركضوا نحوي، وهم يضحكون ويصرخون، وطلبوا مني إعطائهم مالاً، وفي البداية أنا لم أفهم ماالذي كانوا يقولونه لي، وقد انزعجت لطلبهم المال مني، في حين لم يطلبوا فلساً واحداً من أي انسان آخر، لكن المترجم أخبرني بأنني قد اخترت أفضل الحمير جميعاً، ولهذا السبب كانوا يطلبون أجورهم، وعندما سمعت هذا اخرجت أربعة مندوسات وأعطيتهم لهم، وعلى هذا تزودت خلال

الرحلة كلها بأكثر الدواب أماناً بينها جمعاً، وهذه الدابة لم تعرف التعب، وكانت بلامساوىء، ولم تقع قط معي، ولم تجعلني أتخلف وراء الركب، وهي لم تخف قط، ولم أحثها، ولم تعضني، لكنها كانت تمضي أمام الجميع من دون أي ضرب، وعندما سألت سائقها عن المبلغ الذي يمكن أن يبيعها به، قال بأنه لن يبيعها بأقل من عشر دوقيات، هذا ولقد كنت دوماً محظوظاً في حجي في اختيار الدواب، وهذا ماكنت قد ذكرته وأوضحته من قبل، ولا يمكن للإنسان أن يكتب عن المتاعب وعن المصاعب، والمخاطر التي يتعرض لها الحجاج الذين يختارون دواب غير آمنة، وبطيئة وسيئة.

وعندما جرى تحميل الجمال، وجرى اختيار الحمير، ووضعت السرج على ظهورها، ذهبنا إلى كنيسة صهيون، وتلقينا مباركة الحجاج من الأب المبجل المسؤول في جبل صهيون، وعانق كل واحد منا، وباركه، وودعه بقبلة، هذا وقد توجب عليّ لدى المغادرة، أن أقدم أكثر من غيري الشكر للأب الجيد، وللدير كله، حيث أنني تلقيت منهم لطفاً زائداً، وكانوا جميعاً جيدين جداً نحوي، وذلك كما أوضحت من قبل.

ولدى مغادرتنا لكنيسة صهيون، نزلنا إلى حيث كانت حميرنا، وعندما امتطينا ظهورهم، تولت الجمال القيادة على الطريق ونحن تبعناهم خارجين من المدينة، لكن ليس من دون حزن في قلوبنا، وليس من دون دموع، غادرنا من مدينة القدس المرغوبة، فلقد غادرناها بآهات وبكاء، ومن جانبي لم أكن قط أكثر سعادة في أي مكان في العالم مما كنته في القدس، فلقد أمضيت فيها ساعات ممتعة جداً وأيام هناك، وعندما كنا نازلين من جبل صهيون حاول بعض الشبان المسلمين والفتيان والأطفال اعتراض سبيلنا وإزعاجنا، وسعوا إلى سحب بعض الحملات من على ظهور الجمال والاستيلاء عليها، وبصعوبة بالغة تمكن أدلاؤنا من إبعادهم عنا.

وفي تلك الأثناء، وقبل أن نصل إلى قعر هضبة صهيون، انكسرت إحدى جرار الخمرة، وسالت من خلال كيس الشعر الذي كانت ملفوفة به إلى الأرض، وقد انزعجنا كثيراً لهذا الحادث، لأنها كانت خمرة جيدة، شريت بسعر مرتفع، وأخفيت بعناية كبيرة، خوفاً من المسلمين، ومع ذلك لم يكن الذي أزعجنا خسارة الخمرة، بل كنا نخشى كثيراً من غضب المسلمين، حيث أنهم ما أن يشموا رائحة الخمرة كانوا سيهاجمونا ويكسرون الجرار الأخرى، ولو أننا حرمتنا من خمرتنا ما كنا لنحاول الحج إلى جبل سيناء، كما أنه ما كان بإمكاننا العيش في الصحراء من دون خمرة نشرها.

وهكذا تركنا الخمرة تسيل على الأرض، لأنه لم يكن لدينا وعاء آخر، والذي قمنا به أننا اتخذنا حيلة خاصة لنحول بين سائقي الجمال وسائقي الحمير القدوم إلى ذلك المكان وشرب الخمرة وهي تنصب نحو الأسفل، بسبب أنهم لو تذوقوها، لصاروا سكارى على الفور ولسبوا بذلك كثيراً من المتاعب لأنفسهم ولنا، ولأهملوا حقائبنا، وقد أعطيت حماري إلى واحد من الفرسان وركضت إلى جانب الجمل، حيث كانت الخمرة تنصب نحو الأسفل، ولم أدع أحداً من المسلمين يقترب، وملأت قارورتين كبيرتين كانتا معي، بالخمرة التي كانت تنصب وهكذا تابعت سيرنا ببطء، هذا ومن الصعب عليّ أن أكتب عن جميع المصاعب التي عانينا منها فوق تلك المسافة القصيرة، بسبب هجمات المسلمين، وبسبب متاعبنا.

ولقد أعقنا كثيراً أثناء سفرنا وتعرضنا لمضايقات كبيرة، إلى درجة أننا احتجنا إلى سبع ساعات لنعبر فوق ذلك الطريق، مع أنه من الممكن عبوره خلال أربع ساعات، ولذلك كان الليل ظلاماً عندما وصلنا إلى بيت لحم، وبمشقة كبيرة أنزلنا الأحمال من على ظهور الجمال والحمير، في رواق كنيسة بيت لحم، وسحبنا كل أشياءنا إلى قاعة مجاورة للكنيسة،

وجلسنا نتولى حراسة القاعة.

ودخلنا الآن إلى الكنيسة ونحن نحمل مصابيحاً، ونزلنا إلى مكان ميلاد ربنا، وهو المكان الأعظم عذوبة، وعندما كنا نصلي هناك جاء الأب المسؤول مع رهبانه، واستقبلونا بترحاب، وأخذونا إلى المكان الذي يمكننا أن نأكل فيه، وأن ننام، لأنهم كانوا على معرفة بقدمونا، ولذلك كانوا قد أعدوا كل شيء، وجهازوه من أجل عشاءنا ونومنا، وبمتعة تناولنا عشاءً جيداً، جرى إعداده على حسابنا، وبعد ذلك تمددنا بأنفسنا للاستراحة، والمجد للرب في الأعالي.

ونهبنا في الخامس والعشرين من آب بعد منتصف الليل، أي أن تقول، قبل انبلاج الفجر، وذهبنا إلى كهف ميلاد الرب، وقرأنا صلواتنا هناك في كل من الساعات القانونية وعلى شكل قداسات، وعندما أشرقت الشمس نزلنا إلى وادي الرعاة إلى «المجد في الأعالي»، وغنينا هناك مع الملائكة تلك التريمة السماوية، وتفحصنا المكان بدقة، هذا وكنا قد تحدثنا عن هذا الوادي ووصفناه من قبل، وبعدما فرغنا من صلوات الشكر في الوادي، ذهبنا صاعدين إلى بيت لحم من أجل تناول طعام الافطار، وبعد أكلنا لافطارنا، تجولنا في أرجاء دير القديس جيروم، وتعجبنا من خرابته، كما وسرنا حول بلدة بيت لحم، وذهبنا إلى بركة داوود، وأثناء قيامنا بهذا أعدنا إلى الذاكرة جميع نصوص الكتابات المقدسة التي أشارت إلى هذه الأماكن، وهكذا أمضينا ذلك اليوم بسرور في ذلك المكان الممتع والأعظم قداسة.

وكانت إقامة ممتعة قرب مزود الرب، بسبب قداسة المكان والغفرانات، وكذلك بسبب جمال الكنيسة، وضخامة خرائب ذلك الدير الفخم جداً، الذي لم يكن ديراً للرهبان فقط بل قصراً وقلعة للأباطرة، ويعتقد بسطاء الناس بأنه كان دير القديس جيروم، مع أن جيروم كان قد أقام في كوخ، في دير بسيط، تأسس في أيامه، وعلى هذا الأساس قال

في رسالته إلى فابيولا Fabiola : «أنا محب لنزل بيت لحم، وللمزود الذي وضعت فيه الأم العذراء الطفل»، وقال كذلك في «نظامه القانوني»: الفصل ٣٦: «ما من مهابة يمكن أن تكون أعظم هبة من بيت لحم هذه، ففي هذا الصدع ولد باني السموات»، لأنه قبل أيام القديس جيروم كان مكان ميلاد المسيح، مجرد كهف، ولم يكن هناك دير، ولهذا نقرأ في «نظامه القانوني» الفصل: ٢٠ «نحن حريصون على بناء دير ونزل إلى جانبه، خشية أن تقدم مريم ويوسف إلى بيت لحم، ولا يجدان غرفة في النزل»، وجاء الخبر في «حكاية القديس جيروم»، بأن سيرل، رئيس أساقفة القدس، قد أعطاه أبرشية بيت لحم، التي فيها بنى بمساعدة الجيران ديراً، لكنه احتاج إلى المال، فبعث بأخيه بولينيانوس Paulinianus إلى بلاده لبيع ممتلكاته القليلة هناك، قاصداً اتفاق مال البيع في بناء الدير في بيت لحم، وهذا ما قرأنا عنه في «نظامه القانوني»، الفصل: ٢٠.

وبقدر ما أستطيع تخمينه، لا أعتقد أن الكنيسة الجميلة القائمة هناك في هذه الأيام يمكن، أن تكون قد بنيت في أيام القديس جيروم، ويتحدث الناس الجهلاء على أنها بنيت من قبل القديسة هيلانه، غير أن ترتيب البناء الحديث يجعل هذا ليس ممكناً، لأنه روي لنا بأن القديس جيروم قد نحت لنفسه ضريحاً عند فم كهف الميلاد، وأن فم الكهف كان ضيقاً، لكن في هذه الأيام ضريح القديس جيروم موجود خارج الكنيسة، والمدخل إلى الكهف ليس في الكنيسة نفسها، والكهف فخم جداً، وله مداخل واسعة، منها يتم الدخول إليه، والذي أعتقد أن هذه الكنيسة قد بنيت في أيام آخر الملوك اللاتين في القدس، ومثل ذلك هذا الدير الكبير، وهذا يفيد بأن كوخ جيروم الصغير، قد أزيل، وأعيد ترتيب المكان من جديد، وتبان مصداقية ذلك، بالنقوش، والرسوم، والتماثيل في ذلك المكان.

جبل رامما وبلدته الحصينة جداً

وفي اليوم السادس والعشرين، وبعد قداس عند مزود الرب، طلب الفرسان من كاليانوس الرئيس، أن يقتادهم إلى برك سليمان، وإلى بساتينه وحدائقه، وإلى كنيسة القديس جرجس، وعلى هذا اعتلوا ظهور حميرهم، واقتيدوا إلى هناك، لكن بما أنني قد كنت في هذه الأماكن من قبل، كما سلف لي وتحدثت، قمت بحج آخر في ذلك اليوم، وخرجنا خمسة من بيت لحم، حيث كان هناك أربعة رهبان فرنسيسكان قد قدموا معنا من القدس، وأنا شخصياً، ومضيئنا باتجاه الجنوب إلى سفح جبل مرتفع، واقف هناك في السهل بشكل مستدير ورأسه مرتفع مشرع في الهواء بسطح مستو وواسع منه يستطيع الانسان أن يشاهد الأرض المقدسة بالطول وبالعرض، وتسلقنا ذلك الجبل بصعوبة وتعب، ووصلنا إلى قمته، حيث شاهدنا المنطقة من حولنا، وحدقنا هنا وهناك عبر الأرض المقدسة، وقام فيما مضى فوق هذا الجبل هناك قلعة حصينة، وكانت مليئة بالناس، وكان اسمها رامما، وإليها أشار القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، هذا وبشكل عام أطلق على جميع القرى التي قامت فوق مكان مرتفع اسم رامما، وهذا أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان هذا الجبل مرتفعاً إلى درجة أن الانسان يمكن من عليه أن يشاهد البحر الميت، وجبال العربية، وجبلي سعين وجلعاد، ويمكن للانسان أن يشاهد جبال عين الجدي، والأماكن التي أخفى داوود فيها نفسه، وقفار تقوع، وشيلوه، وجبل الزيتون، مع جزء من جبل صهيون خلفه، وهكذا دواليك حتى البحر المتوسط.

وهذا مايمكن للانسان أن يراه من قمة الجبل العارية، إنما في العصور الخالية، حيث كانت هناك أبنية عالية مشادة في ذلك المكان، كان بإمكان الانسان أن ينظر بشكل أوسع، وذلك حتى الجليل، وفلسطين، وحدود مصر، وقد كان هنا قلعة كبيرة مع أبراج عالية، اسمها رامما، وحول هذا

المكان ورد النص الموجود في إرميا -الاصحاح: ٣١، وفي متى -الاصحاح: ٢، قوله: «صوت سمع في الرامه نوح وبكاء»، وحول هذا المكان كتب هذا النص، لأنه عندما قتل هيرود الأطفال في بيت لحم، وفي المنطقة من حولها، سمع بكاء الأطفال، ونواح أمهاتهم في رامه هذه، ولذلك قال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: «رامه مكان قرب بيت لحم، وعنهما كتب: صوت سمع في الرامه».

وكان يوجد في اطارها مسافة كافية خارج أسوارها، لزراعة واثاق ما يكفي من قمح، ليقدم خبزاً لسكان القلعة طوال السنة، وقد بنيت هذه القلعة من قبل واحد من الملوك اللاتين في القدس، وعندما استولى صلاح الدين، ملك مصر، على القدس والأرض المقدسة بقوة السلاح، وطرد الصليبيين اللاتين من هناك، استولى على جميع القلاع الأخرى والبلدات والقرى، لكنه لم يستطع -بأية وسيلة من الوسائل- نيل قلعة الرامة هذه، التي جرى الدفاع عنها برجولة من قبل الصليبيين، ولذلك رفع الحصار، واستمر المسيحيون اللاتين يسكنون في القلعة لمدة ثلاثين سنة بعد الاستيلاء على القدس، وبيت لحم، ولم يستطع المسلمون طردهم، وكانوا مايزالون هناك حتى هذا اليوم لولا أن الرب قاتل ضدهم، لأنه مع نهاية الثلاثين سنة، أرسل الرب وباء إلى داخل القلعة، وفي وقت قصير ماتت النساء جميعاً من الطفلة الصغيرة إلى المرأة العجوز، كما مات الجزء الأكبر من الرجال، ولدى رؤية البقية ماحدث، هجروا القلعة، وهربوا، وعندما عرف المسلمون بذلك، تسلقوا الجبل، وهدموا القلعة، وسووها بالأرض، ولذلك لا يوجد في هذه الأيام، أو بالحري لا يمكن العثور على أية أثر للجدران، ونظرا لحصانة هذه القلعة، ولأنها كانت لاترام، سماها الصليبيون بيت أوليا، على اسم قلعة يهودت، بيت أوليا، الموجودة في الجليل.

وأثناء النظر من هذا الجبل إلى جبل آخر يواجهه، رأينا هناك بناء

قديماً، إلى جانبه ضريح الأنبياء الاثني عشر الصغار.

وقام فيما مضى عند سفح هذا الجبل دير راعي الدير القديس أغاثون Agathon ، الذي كان رجلاً صاحب سلطة واسعة، وأبا لكثير من الرهبان، ولحبه للصمت حمل حجرة في فمه لمدة ثلاث سنوات، فهذا ماورد خبره في «حياة الآباء».

علاوة على ذلك، في هذه المنطقة كان دير القديس خاريتون Khari-ton، الذي كان أباً لكثير من الرهبان، حيث أنه عندمافارق الحياة، فارق جميع رهبانه معه الحياة، ودفنوا جميعاً في قبر واحد، وهو قبر مشاهد هناك حتى هذا اليوم.

وليس بعيداً عن هذا المكان، رأينا الجزء العلوي من بناء دير القديس سابا، الذي كان راعي دير، والذي تحدثت عنه مطولاً من قبل.

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، نزلنا من الجبل، وعدنا إلى بيت لحم من أجل تناول طعام العشاء، ووجدنا هناك السيد فكردنيوس Vaccardinus (فخر الدين) وكان مسلماً صاحب سلطة كبيرة، من القدس، وكانت معه حاشيته، وقد بعث وراء الترجمان، ولامه لوماً شديداً لسماحه لنا بإمضاء ذلك اليوم هناك، وأمره باقتيادنا نحو الأمام على طريقنا في الصباح التالي بالتحديد.

مغادرة بيت لحم

في السابع والعشرين، جاء كالينوس الرئيس، بعد منتصف الليل، إلى مكان إقامة الحجاج وأيقظهم من أجل رحلتنا، وبناء عليه استيقظنا مسرعين، وذهبنا إلى كهف ميلاد المسيح، حيث قرأنا صلوات مع قداسات في ذلك المكان المقدس للغاية، الذي كنا نكره مغادرته، وأثناء انشغالنا بالاحتفال بالقداس جاء كالينوس المسلم إلينا وحثنا على الاسراع، وصرخ لنا للخروج، وأخرجنا الآن جميع أثقالنا التي كانت

الجمال ستحملها، وشرعنا بتحميلهم، ولم نكن حتى ذلك الحين نعرف طرائق التحميل، كما أننا لم نكن نعرف عادات، وإشارات، وكلمات سائقي الجمال، كما أنهم لم يفهموا عاداتنا، وإشاراتنا وكلماتنا، ولذلك قمنا لعدة أيام بتحميل دوابنا مع كثير من الخصام والاضطراب، وصدرت المشاكل من سائقي الجمال، حيث أخذوا أولاً غرضاً واحداً من كومة الأثقال، ثم غرضاً آخر، من أجل جعل الحمولات على الجمال متوازنة، وكان هذا غير موافق لنا، لأننا انقسمنا إلى ثلاث مجموعات، وكان لكل مجموعة أغراضها، ولم نمتلك أثقالاً واحدة لنا جميعاً، مع أن الجمال كانت لنا جميعاً بشكل عام، وهذا أمر لم يفهمه المسلمون، بل اعتقدوا أن جميع الأشياء لنا جميعاً بشكل عام، وقاموا بالتحميل دونها اهتمام بمن عاد الشيء إليه، وعلى هذا كان حمل واحد يحمل أحياناً أشياء عائدة إلى الجماعات الثلاث كلها، أو إلى ست أو ثمانية من الحجاج، ولهذا كان يحدث أثناء إنزال الأثقال فوضى واضطراب، وركض إلى الأمام وإلى الخلف، حيث توجب على كل إنسان جمع أثقاله من ثلاثة أو أربعة أماكن، وكنا على هذا سعداء جداً بتعيين بعض الجمال لحمل أثقال الفئة الأولى، وبعضهم لحمل أثقال الفئة الثانية، وبعضهم الآخر لحمل أثقال الفئة الثالثة، لكن هذا ما لم يفهمه سائقوا الجمال، وما كانوا ليفلعه، ومن هنا - كما قلت - ثارت خلافات كثيرة حول تحميل الجمال، لاسيما وقت الانطلاق.

وبعدما حملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، امتطينا ظهورهم، وانطلقنا من الدير باسم الرب، وقد عبرنا من وسط البلدة، وتابعتنا سفرنا على حافتها القصوى باتجاه الجنوب، نحو جانب جبل بيت أولياء، أو راما، الذي ودعناه على جانبي الأيسر، ووصلنا أثناء سيرنا إلى قمة وادي رفايم Raphaim، وسرنا مجتازين لتخومه خلال ساعة تقريباً، وكان من الممكن لهذا الوادي أن يكون خصباً، لو توفر من يقوم بفلاحته،

ومن ثم كان سيمتلىء بالقمح كما جاء في (سفر اشعيا: ٥ / ١٧) قوله: «ويكون كجمع الحصادين الزرع وزراعته تحصد السنابل، ويكون كمن يلقط سنابل في وادي رفايم».

وفي هذا الوادي هزم داوود الفلسطينيين، الذين كانوا قد نشروا أنفسهم هناك مثل الجراد، كما جاء في سفر صموئيل الثاني: ٥، ويفصل هذا الوادي منطقة اليهودية التلية عن سهل الفلسطينيين، أو عن فلسطين، وذلك حتى نهايته هناك، ولذلك كانوا قادرين على الصعود من خلاله إلى أرض اليهودية.

وأثناء متابعتنا لسفرنا، خلفنا بيت لحم بعيداً جداً عنا، إنما كان بإمكاننا رؤيتها خلفنا حتى الظهر، وعند الظهر وصلنا إلى منطقة خصبة، حيث كانت هنالك حقول مليئة بأشجار الفواكه، مع كثير من أشجار الزيتون والتين، وهنا انسحبنا جانباً، وخرجنا عن الطريق ودخلنا إلى غابة كثيفة من أشجار الزيتون، حيث جلسنا في الظل، وأكلنا الذي جلبناه في جعبنا من بيت لحم، لكن لم يكن بإمكاننا الشرب، لأن الجمال التي كانت تحمل روايا الماء سارت أمامنا، وبناء عليه بعدما تناولنا وجبة سريعة، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مفرق للطرق، حيث يمضي الطريق القائم على يمين الانسان إلى غزة عبر السهل في فلسطين، وهو يمر خلال البلدة التي اسمها ثيرين thyrin ، والقلعة التي اسمها قلعة القديس صموئيل (الجيب الأعلى).

وهناك طريق آخر، قائم على يسار الانسان، يقود من خلال المنطقة التلية نحو حبرون، ومن حبرون يستدير، ويمضي إلى المنطقة السهلية لفلسطين ومن ثم إلى غزة، والطريق إلى غزة بواسطة الطريق القائم على جهة اليسار، هو أقصر بميلين ألمانين، من الطريق القائم على جهة اليمين، وبناء عليه أمرهم كالينوس الرئيس أن يقتادوا الجمال على طول

الطريق المنخفض والأقصر، وهو طريق لانمر عبره بحبرون، لكن عندما سمعنا بهذا صرخنا بأصوات عالية جداً وكثيرة، وأصررنا على اقتياد الجمال على طول الطريق الآخر، الذي يذهب إلى حبرون، وتخاصمنا بعنف مع أدلائنا حول هذه المسألة، لأنهم أرادوا أخذ الطريق الأقصر، ذلك أننا أردنا رؤية مدينة حبرون، والأماكن المقدسة حيث مدفن البطارقة، والحقل الذي من ترابه جرى صنع أبونا الأولين، ولولا أننا ذكرنا بشكل واضح في عقدنا معهم وجوب أخذنا إلى حبرون، لما كان بإمكاننا تحقيق هذه الرغبة.

وفي الحقيقة إنني أنا وحدي كنت السبب في ادخال هذا الشرط في العقد، لأن الأب المبجل لودويغ فوشي، رئيس دير أولم، قد رجاني عندما كنت على وشك السفر أن لا أغادر الأرض المقدسة من دون رؤية مدينة حبرون، التي كان يشعر نحوها بعاطفة تقوية خاصة، وأنا شخصياً كنت متشوقاً كثيراً لرؤيتها، وتصديت إلى جميع الأعذار التي قدمت لاعتراض زهابنا إلى هناك، لأن كالينوس الرئيس تحدث عن كثير المخاوف التي يمكن أن نصدها ونقع بها، بالاضافة إلى إطالة الطريق.

وتقع حبرون على بعد ستة فراسخ فقط عن بيت لحم، وهكذا بعد نقاش طويل ربحنا نحن وأقنعنا أدلاءنا، وأعادوا الجمال إلى الطريق الأعلى خلال المنطقة التلية، وعندما مضينا على الطريق، رأينا ماكان بالحقيقة أرضاً جيدة، لكن قليل منها كان مفلوحاً، كما لم تكن هناك أية قرية ورأينا فوق الجبل وفي الوادي جدران قديمة من الحجارة الجافة، بهم كانت الجبال محاطة من أجزاءها الدنيا حتى قممها، وفي داخل هذه الجدران من الحجارة الجافة كان فيما مضى بساتين كروم عنب، وزيتون، وبرتقال، ورمان، وأشجار فواكه أخرى جيدة، قد نبت في مكانها الآن أشواك، وقُراص، وشوك سناني، وعوسج، وعليق، وأعشاب أخرى بلافائدة، تنمو ذاتياً.

دخول الحجاج إلى مدينة حبرون

وأثناء متابعتنا سيرنا وصلنا إلى واد فائق الجمال، اسمه وادي حبرون، وعلى طرفيه، كانت الأطراف مغطاة بأسيجة معمولة من جدران أحجار جافة، من أجل كروم العنب والبساتين، غير أن كل شيء كان نامياً هناك كان برياً، وبينهم كان هناك كثيراً من أشجار البطم، تعطي كميات كبيرة من زيت البطم، ولو أنه كان في هذا الوادي أي أناس يتولون زراعته، لكان مليئاً بجميع أنواع الأشياء الجيدة، وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان مليء بأشجار الزيتون، إلى حد بدا المكان وكأنه غابة منهم، وفي المكان الكثيف من هذه الأشجار، أمرنا قائدنا كالينوس بالترجل من على ظهور دوابنا، وانزال الأثقال عن ظهور الجمال، وقد فعلنا ذلك، وأفادتنا الأشجار وكانت بالنسبة لنا بمثابة خيم وسُتر ضد الحرارة الهائلة للشمس، التي بدت لي أنها أكثر حرارة في هذه المنطقة منها في القدس، وجلسنا في الظل وأكلنا بقسماتنا من دون أي شراب منعش، لأن الخمرة في الجرار، والماء في الروايا، كانت ساخنة، وبلا فائدة في اطفاء العطش.

ولم نكن بعيدين عن مدينة حبرون المقدسة، لكن لم يكن بإمكاننا رؤيتها، لأنه كانت هناك رابية بيننا وبين المدينة، على الذي يود الدخول إلى المدينة الالتفاف قليلاً حولها، هذا ويقال بأن مدينة حبرون القديمة جداً، التي عنها تتحدث الكتابات المقدسة، كانت قائمة فوق البقعة ذاتها حيث كنا، ذلك أن شطراً من المدينة كان قائماً على منحدرات الرابية، والشطّر الآخر فوق أرض منبسطة تحت، وحدث بعد ذلك أنه بسبب الكهف المزدوج، وضريح ابراهيم، الذي هو موجود على الجهة الأخرى من الرابية، انتقلت المدينة إلى حيث كان الكهف، وهذا ماسوف أتولى شرحه.

وعندما كنا جالسين هناك، ركب Sabathytanco أي

كالينوس الرئيس حصانه مع واحد من المرافقين، وذهب إلى مدينة
حبرون، لإخبار حاكم المدينة، وسكانها بأن هناك حجاجاً مسيحيين
لاتين، من بلدان ما وراء البحر، قد جاءوا، ويرغبون — بعد الحصول
على إذنه — برؤية المدينة، والمكان الذي جرى دفن البطارقة فيه، وعندما
سمع الحاكم هذا، وبخ كالينوس بحدة لأنه تركنا، وقت ارتفاع حرارة
الشمس، في السهل المفتوح، حيث لا يوجد ماء ولا خبز يمكننا الحصول
عليه، وأمره بالعودة سريعاً، وجلبنا مع جميع أثقالنا إلى النزل العام التابع
للمدينة، وأخبره كالينوسينا، بأن الجمال قد أنزلت أثقالها للتو، وقد
تركت ترعى، ولا يمكن إعادة تحميلها من دون كثير من المتاعب
والاضطراب، ولذلك اقترحنا إرسال خدمه إلى المسلمين ولجلب الحجاج
لزياره الأماكن المقدسة، وبعد القيام بذلك، أن يعيدهم ثانية إلى حيث
أثقالهم موضوعة، وامضاء الليل هناك، والانطلاق في الصباح، وعندما
سمع الحاكم هذا، انفجر غاضباً من كالينوس، وقال بأنه كان خائن
الحجاج وليس دليلهم، لأن المنطقة كانت مليئة بلصوص من البداية
العرب، وقال: «لا يمكن للحجاج امضاء الليل في الحقل في ظل خطر
النهب، لذلك أحضرهم إلى هنا، وإذا لم تحضرهم، أنا سأفعل
ذلك».

ولذلك عاد كالينوس وهو مغضب جداً، وأمر بتحميل الدواب،
وعندما أنجز هذا، امتطينا نحن ظهور حميرنا، وعندما دخلنا إلى المدينة،
كان هناك تدافع كبير للناس لرؤيتنا، لأنه لم يكن هناك حجاج لاتين منذ
كثير من السنين، وكان أمراً عجباً رؤية مسيحيين غربيين لاتين هناك،
وقد أخذونا إلى النزل العام للمدينة مع جميع دوابنا، وقد وجدنا مكاناً
رحباً لإيواء دوابنا، وغرفاً للرجال في الأعلى وفي الأسفل، وكذلك
ساحة كبيرة كانت مغلقة بإحكام بباب، وكان هذا المبنى عظيماً وواسعاً
مثل دير من الديرة، والنزل الشرقية، لا يسكن فيها أحد، وهي مخصصة

فقط لاستخدام الغرباء، ومن أجل وصف وترتيب النزول ودور الضيافة في الشرق، انظر ماسلف وقدمناه في القسم الأول.

وعندما وصلنا إلى النزول، أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، ووضعناهم في القسم الأسفل من المبنى، في حين اخترنا لأنفسنا غرفاً وقاعات في القسم العلوي، ووضعنا في هذه الغرف فرشنا وأعددنا مكاناً لطبخ أطعمتنا، وحصلنا على حطب للنار، ووضعنا جميع أغراضنا، وكأنا على نية الإقامة هناك لأيام عدة، وفيما نحن منشغلون هكذا، جاء كاليانوس الرئيس مع بعض مسلمي المدينة، وقالوا بما أنه لا يزال هناك شطر كبير من ضوء النهار، سوف يكون مفيداً القيام بزيارة الأماكن المقدسة، في ذلك المساء، حتى تتمكن في الغد من الانطلاق باكراً في الصباح، قبل أن تصبح حرارة الشمس كبيرة، وقد وافقنا على هذا بسرور، لأننا كنا نخاف من الإقامة الطويلة في ذلك المكان.

الحقل الذي صنع آدم منه والذي اسمه حقل دمشق

وهكذا خرجنا من النزول، وعبرنا من خلال الشارع الطويل للمدينة، الذي فيه يسكن عمال حرفيون من مختلف الصناعات، وبشكل خاص الحرفيون الذين يعملون بالزجاج، والزجاج الذي يصنع في هذا المكان، ليس زجاجاً نقياً، بل أسود، مع ألوان أخرى بين الأسود والأبيض الشفاف، وقد سار خلفنا حشد كبير من الناس، وقد ركضوا وراءنا، لأنه كان منظراً عجيباً رؤية غربيين هناك، وهكذا وصلنا إلى باب المدينة، الذي عبرنا من خلاله، وسرنا على طول الطريق العام، فوصلنا إلى حقل مطوق بسور من الحجارة الجافة، وهناك توقفنا، وشرعنا ننظر من خلال السور إلى داخل الحقل، الذي هو جميل ومتميز، لأن هذا، كان يعرف باسم حقل دمشق، فيه جرت صناعة آدم، أبونا الأول، وعندما سمعنا بأن هذا كان بالفعل الحقل المقدس، تسلقنا السور

ودخلنا إليه، حتى يمكننا تقبيل الأرض، وتلاوة الصلوات المناسبة،
واخبار أحدنا الآخر عن المعجزات التي عملت هناك.

لكن فجأة حدث بيننا كنا نقفز من فوق السور المصنوع من الحجارة
الجافة إلى داخل الحقل، واجهنا مسلم حاد، صرخ بصوت مرتفع علينا،
والتقط كثيراً من الحجارة ورمأها نحونا، وطردها بالقوة من الحقل
وبصعوبة، أمكننا تسلق الجدار دون أن نصاب بأذى، وعند وقوع ذلك
رغب كالينوس مع أدلائنا في اطلاق العنان لغضبهم، وشرعوا بالعودة
إلى البلدة، لكننا لم نكن بأي حال من الأحوال راضين بمغادرة مثل هذا
المكان الهام بمثل هذه السرعة، بل رغبنا بإطفاء غضب ذلك الرجل،
حتى نتمكن من امضاء بعض الوقت بالصلاة في ذلك المكان، ولذلك
دعونا كالينوس إلى الرجعه، وأخبرناه بعمل اتفاقية مع الرجل، بأن
ندفع مايستحقه قانونياً مقابل دخولنا إلى حقله، لأنه كان مالك ذلك
الحقل، وقد طالب بأربعة مندوسات، وعندما جرى تنفيذ هذا الطلب،
هدأ الرجل، وتسلق على السور، ومدّ يده إلى الحجاج الذين وقفوا في
الخارج، وسحبهم واحداً تلو الآخر، وسمح لهم بالدخول إلى الحقل،
واقادنا إلى المكان الذي من المعتقد أن الطين أخذ منه لصنع آدم، وفقاً
للحقيقة الكاثوليكية، فهناك جرى صنع الانسان الأول، ونحن لانولي
أدنى اعتبار، إلى ترهات شعراء الأمم، الذين يغنون وينشدون بأن
واحداً اسمه فورونيوس Phoroneus كان الأب الأول لجميع
الأحياء، وذلك كما حدثنا يوسبيوس في De Evangel prae-
parat — الكتاب العاشر، ويقول الأثيوبيون بأن البشر الأوائل قد
نشأوا من طهارة التربة، ولدى الشكوكيين المصريين أثر بأن الانسان
الأول قد خلق في بلادهم، أولاً بسبب جودة التربة، وثانياً بسبب النيل،
الذي يولد كثيراً من المخلوقات التي ليست موجودة في أي مكان آخر،
لكننا نرى أن هذا كله لاقيمة له، ونتجه للأخذ بالإيمان الأصح والأكثر

ثباتاً، ولقد انكبينا بأنفسنا، وبوجودنا على الأرض في هذا المكان المقدس، بخشوع كبير وبدموع، وقبلنا الأرض، وتفوهنا بصلواتنا المحددة في هذا المكان المقدس، بخشوع كبير وبدموع، وقبلنا الأرض، وتفوهنا بصلواتنا المحددة في مسيرات الأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات (+)، وبعد هذا انتقلنا نحو التأمل حول هذا المكان.

★★

★★

★★

وعند الفراغ من تأملنا، تفحصنا المكان والأرض بكل دقة، فالقشرة العليا للأرض خشنة ولونها بني، إنما عندما تحفرها تعطيك طيناً أحمر، وقاسياً، من الممكن صناعة فخار رائع منه، وقد أخذنا بعض الصلصال وبعض الحصى من هذه الأرض لتكون أثراً مقدسة، ويقال بأن كل من يضع حوله بعضاً من هذه الأرض لن يشعر بالتعب أثناء سيره على طريقه، أو إذا كان راكباً على دابة فإنها لن تكبو أبداً، إنما إذا وقع انسان أو دابة فلن يصابا بأذى، بل سينهضان من دون ضرر، وفيما إذا كان هذا صحيحاً، يمكن لكل انسان أن يبرهن على الذي يرضيه، فأنا لم أشعر بأية آلام، كما أنني لم أتعرض للتعب ولا لسقوط.

موضع الشوك أو الأعشاب الكثيفة حيث قُتل هابيل

من قبل أخيه قابيل

وسرنا من هناك بعض الشيء في الحقل نفسه، وذلك وراء الأرض المفلوحة فوصلنا إلى منطقة كثيفة الأعشاب، وفيها نباتات شوكية، بينها شاهدنا المكان الذي انبعث فيه قابيل ضد أخيه هابيل وقتله، وذلك حسباً قرأنا في سفر التكوين: ٤، وانهينا هنا بأنفسنا نحو الأرض المقدسة وقبلناها وهي الأرض التي فتحت فمها وتلقت ذلك الدم المقدس من يدي قاتل أخيه [٨].

★★

★★

★★

الكهف الذي سكن فيه آدم مع حواء لسنوات طوال وحيث عرف آدم للمرة الأولى زوجته

في الجزء الجنوبي من هذا الحقل هناك رابية، ليست كبيرة الارتفاع، على قمته يوجد في هذه الأيام مسجد، قائم في المكان الذي يعتقد أن آدم وحواء وأولادهما قدموا فيه أضياعي وصلوات إلى الله، لأن آدم علم أولاده تقديم الأضياعي لله، وعلمهم عبادته، وفي هذا المكان نفسه، حدث أنه عندما كان قابيل وهايل يتعبدان، ويقدمان قربانينهما معاً، نزلت نار من السماء وأكلت قربان هايل، لكنها لم تلمس قربان قابيل، لأن تقدمته لم تكن مقبولة لدى الرب مثل تقدمه أخيه، ولذلك أصبح حسوداً لأخيه، وقتله فيما بعد، وفي هذا المكان عمل ابراهيم مدفنه (كذا) وهنا بنى مذبحاً، فهذا ماورد الحديث عنه في سفر التكوين: ١٣، وذلك في نهاية الاصحاح.

وهنا أيضاً رأى ثلاثة وعبد واحداً، وذلك كما جاء الخبر في سفر التكوين: ١٨، وفي جزء آخر من الرابية هناك وادي ممرا، المتصل بوادي حبرون، وقامت عملية الاتصال هذه قرب مدينة حبرون، ففي هذا الوادي كان ابراهيم ساكناً، عندما رأى ثلاثة رجال عند باب خيمته وتلقى الوعود من الرب، التي جرى الحديث عنها في سفر التكوين: ١٥ و ١٧، غير أنه عندما كان يقدم قرباناً كان يصعد الجبل، وكذلك عاش البطريق كان يعقوب واسحق هناك، وعدنا أخيراً إلى موضع موت هايل في حقل دمشق، وخرجنا من هناك من الجانب الغربي، عبر سور من الحجارة الجافة، ووصلنا من هناك إلى جزء آخر من وادي حبرون، على طرف جبل، حيث وجدنا كهفاً صغيراً ومظلماً، ودخلنا إلى هذا الكهف واحداً تلو الآخر، ونظرنا إلى المكان بمتعة عجيبة، فهذا كان هو الكهف الذي عرف فيه آدم حواء بعد طردهما من الجنة.



وبعدما رأينا الكهف المتقدم ذكره، خرجنا من هناك، وسرنا مسافة أخرى على طرف الجبل، وسرنا بالوقت نفسه صاعدين، فوصلنا إلى كهف آخر، لم يكن كهفاً صغيراً، بل كان كهفاً واسعاً، ففي هذا الكهف بكى آدم وحواء وناحا على ابنيها هابيل لمدة مائة سنة، وهابيل هو الذي قُتل من قبل قابيل، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية آثار، حيث جلس كل واحد منهما، ويوجد في هذا الكهف نفسه نبع كانا منه يشربان، ولهذا يعرف هذا الكهف باسم كهف البكاء، وبعدما فرغنا من رؤية هذا الكهف، نزلنا من الجبل إلى واد ضيق، وهو الذي يسمونه وادي الدموع، وهم يقولون بأن آدم وحواء قد سكنا معا في هذا الوادي لمدة تسعمائة وثلاثين سنة، وكان كل واحد منهما يقوم يومياً بممارسة أعمال توبة قاسية، بسبب عدم الطاعة التي أدينا بها، ولطردهما من الجنة، ولفقدانها طهارتهما الأصيلة، وللعنة ذريتهما، وبعد ذلك لم يحصل فقط على رحمة الرب، بل اعتقد أنها جديران بتلقي هبة النبوة، ولذلك أخبرا أولادهما بكثير من الأمور المقبلة، مما يتعلق بموضوع اتحاد المسيح مع كنيسته، وبخصوص الطوفان الذي سوف يأتي، ونيران يوم الحساب، وقد ماتا هنا، ومن هنا حملا إلى الكهف المزدوج، كما سنوضح فيما بعد، وفي هذا الوادي يقوم قبر لوط [ابن] أخي إبراهيم.

الكهف المزدوج الذي اشتراه إبراهيم ليكون قبراً له ولأسرته

ومن وادي الدموع هذا وصلنا ثانية إلى مدينة حبرون، ووقفنا أمام بيت حاكم المدينة، الذي على مقربة منه جلس عدد كبير من المستشارين من الشيوخ المسلمين، فلقد رغبتا بزيارة ورؤية الكهف المزدوج المجيد، وهو الذي فيه مدفون آدم وحواء، وإبراهيم، وساره، واسحق، ورفقه، ويعقوب ووليه، أي البطارقة الأربعة الأعظم قداسة مع زوجاتهم المباركات، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين: ٢٣، وكنا نعرف بشكل

جيد أننا لن نستطيع الوصول إلى الكهف المقدس، إلا إذا وافق المسلمون على ذلك، وهم لا يعطون موافقتهم بسهولة لهذه الزيارة، إلا إذا أمكن نيل رضاهم بالتوسلات والوساطات، أو بالهدايا، لأن هذا الكهف موجود داخل مسجد، لا يسمحون لنا بالدخول إليه، وقد بعثنا ترجماننا، الرئيس كالينوس، مع بعض الحجاج من النبلاء، إلى الحاكم وإلى السادة المسلمين الذين كانوا بحضرته، وسألوهم السماح لنا بالدخول إلى الكهف المقدس، وأعلنوا أننا بالمقابل على استعداد عن طواعية القيام بأي عمل يرضيهم ويأمروننا بعمله، وعندما تقدم كالينوسنا بهذا الالتماس، سألوه هل سمحوا لنا في القدس بالدخول إلى هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان، وعندما أجابهم «لا» قالوا: «نحن أيضاً لن نغامر بالسماح لهم بالدخول إلى مسجدنا، الذي هو برأي المسلمين، ليس أدنى قداسة من مسجد القدس، لابل أعلى منه، وعلى كل حال إذا مارغبوا بإبداء احترامهم نحو البطارقة في الكهف المزدوج، نحن نسمح لهم بالوصول حتى درجات سلم المسجد، والتعبد من هناك، إنما لا يجوز لهم بأي حال من الأحوال الصعود عليهم» وبناء عليه عاد كالينوس إلينا، وجلب لنا هذا الجواب السلبي، واقتادنا إلى درجات سلم المسجد الذي فيه الكهف المزدوج، وتعبدنا باتجاه الكهف، وقبلنا آثار البطارقة المقدسين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) .

وعندما فرغنا من عملنا هذا، حملنا أنفسنا حتى نتأمل المكان، الذي كان معروفاً في أيام ابراهيم بأن مدينة حبرون كانت فيه، لأن المدينة وقتذاك لم تكن في مكانها الحالي، بل على مقربة منه، فقد كان المكان الحالي حديقة، منها جرى اقتطاع صخرة حمراء حوت الكهف المزدوج، وكان ابراهيم قد اشترى هذا المكان مع الصخرة، ليكون ضريحاً له شخصياً ولأولاده، وإذا رغبت في معرفة المعني بكهف منفرد، وبكهف مزدوج وبكهف ثلاثي، يمكنك رؤية ذلك فيما تقدم في القسم الأول،

ولاسيما لدى وصف ضريح الرب في القدس.

وحدث أنه بعدما جرى دفن البطارقة الأربعة مع زوجاتهم في هذا الكهف، بدأ الناس يترددون على المكان، وشرعوا يبنون لأنفسهم بيوتاً من حوله، بدافع التبجيل للمكان نفسه، ولا احترامهم للبطارقة المقدسين، وهكذا تشكلت مع الأيام مدينة هناك، وهجرت حبرون القديمة، وكان ذلك قبل أيام الملك داوود، وقد حكم داوود لمدة سبع سنوات في حبرون الحديثة، علاوة على ذلك بنى اليهود مصلى فوق صخرة الكهف، وقد دمر المسيحيون فيما بعد مصلى اليهود هذا، وبنوا كنيسة كبيرة فوقه، وقد عينوا فيها أسقفاً وكهنة، وبعد ضياع الأرض المقدسة، عمل المسلمون من الكنيسة مسجداً، وأحاطوه بأسوار عالية وبأبراج، وهو قائم في هذه الأيام في وسط المدينة، مثل قلعة حصينة، وهو بالحقيقة لا يبدو شكله شكل كنيسة، بل شكل قلعة أو قصر عظيم، وأخبرنا المسلمون بأن ذلك المسجد مليء بالمصابيح المضاء، وكذلك هناك مصابيح في الكهف المزدوج، موضوعة داخل آنية ذهبية، وهي معلقة بحبال من حرير، أو بسلاسل من فضة، ويوجد كثير من رجال الدين في هذا المسجد من كل من الـ Saquis (الصوفية؟) والـ Al-hages (الفقهاء؟) وبذلك مامن ساعة تمر في النهار أو في الليل من دون قراءة وإنشاد بجانب الكهف المزدوج، ذلك أنهم يتناوبون أحدهم مع الآخر، وعندما كنا واقفين على هذه الصورة على درجات سلم المسجد، تجمع كثير من الناس من شباب وشيوخ للنظر إلينا.

مشفى حبرون، وبركة حبرون، والأماكن الأخرى

وبعدما فرغنا من مشاهدة المسجد، والكهف المزدوج، سرنا نازلين مسافة قصيرة، فوصلنا إلى باب المشفى المخصص للناس الفقراء، وهو موجود تحت المسجد، ودخلنا إليه، فشهدنا مكاتبه الجميلة، وفي مطبخه وفرنه كانت هناك استعدادات عظيمة معمولة لصالح الحجاج المسلمين،

الذين يزورون بأعداد كبيرة كل يوم الكهف المزدوج، وقبور البطارقة، ولهذا المشفى ميزانيات سنوية تصل إلى مايزيد على أربعة وعشرين ألفاً من الدوقيات، ففي كل يوم يخبز فيه ألف ومائتي رغيف من الخبز، ويعطى هذا الخبز إلى كل طالب، ولا ترفض الرعاية والضيافة إلى أي حاج، من أي دولة كان، أو شعب، أو عقيدة، أو طائفة، وكل من يسأل طعاماً يتسلم رغيفاً من الخبز، وبعض الزيت، وبعض الـ Me-nestrum، الذي نسميه معجنات.

وتدفع قلعة النبي صموئيل [الجيب الأعلى] لوحدها ألفي دوقية في السنة إلى هذا المشفى، ويرسل أغنياء المسلمون والأتراك يومياً الصدقات إليه لدعم الحجاج، ولابداء الاحترام نحو البطارقة، كذلك عندما يكون أغنياء الناس على وشك الموت، يوصون بأشياء تذكارية دائمة عن أنفسهم لهذا المكان، ويتركون أعطيات إلى المشفى، وعند حلول ساعة صرف الصدقات، يصدرون صوتاً مخيفاً بالطبل، حيث خفنا منه لدى سماع صوته، وخشيناً أن ذلك الصراخ معناه شيء ما ضد أنفسنا، وأثناء توزيعهم لأرغفة الخبز، أرسلوا لنا سلة مليئة إلى نزلنا، مع أننا لم نطلب منهم شيئاً مطلقاً.

وبعدما فرغنا من رؤية المشفى، نزلنا وسرنا على طول الشارع الطويل، إلى أول أبواب المدينة، وتحت هذا الباب يوجد المكان، الذي قتل فيه يواب — قائد جيش داوود — أبني قائد جيش شاول، ولهذا السبب تولى داوود لعن يواب (صموئيل الثاني: ٢٩/٣) وسرنا متجاوزين الباب، ووصلنا إلى البركة، المحاطة بسور جميل، وهي التي تتلقى الماء الذي يجري في وادي ممرا، وسرنا حول هذه البركة، وشاهدناها بعناية، لأن ذكرها قد ورد في الكتابات المقدسة القانونية (صموئيل الثاني: ١٢/٤)، فعندما قام القاتلان: بعنه وركاب ابنا رمون البثيروت، بقتل إيشبوشث، ملك إسرائيل، وجلبا رأسه إلى داوود

في حبرون، وفي ظنهما، أنهما كانا يحملان إليه بشائر طيبة، أمر داوود باعدامهما، وبتعليق أيديهما وأقدامهما فوق البركة، أي فوق بركة حبرون، ويوجد بين البركة وسور المدينة ضريح أبير، الذي احتفل داوود بجنازته بشكل مهيب، حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ٣، وفي هذا الضريح جرى دفن رأس إيشبوشث بن شأؤول، ملك إسرائيل، كما وصلنا الخبر في سفر صموئيل الثاني: ٣.

وبعد ماشاهدنا هذه الأماكن، عاودنا الدخول إلى المدينة، وتوجهنا إلى نزلنا، وقد شربنا بعض الحطب للنار، وأوقدنا ناراً، وطبخنا بعض المعجنات والبيض وأكلناهم، وبعد العشاء جاء المشرف العام على النزل، وأطفأ نارنا، وطلب منا بالاشارة أن نكون هادئين وصامتين خلال الليل، وذلك خشية أن يسمع بنا اللصوص من البداة العرب، لأن النزل قائم إلى جانب سور المدينة، وفي بعض الأحيان، عندما يعرفون بوجود ضيوف هناك فيه، يتسلق اللصوص فوق السور إليهم، وأضاء مصباحاً معلقاً إلى جانبه، وجلس أرضاً ليتولى السهر والحراسة إلى جانب الباب، وكنا نحو هذا كله ممتنين كثيراً، واندھشنا من لطف المسلمين نحونا، ومع ذلك خشينا أننا قبل أن نغادر المدينة سوف يجعلوننا ندفع مبلغاً كبيراً، مقابل اللطف الذي أبدوه نحونا، وهكذا بما أن الدنيا كانت قد أظلمت تمددنا للنوم، كل واحد في قلايته مثل الرهبان.

وصف مدينة حبرون وكيف أنها كانت مسكونة

منذ أقدم العصور

حبرون أو Erius مدينة قديمة جداً، وقد تأسست مباشرة بعد الفيضان، وسبع سنوات قبل مدينة تينس (صوعن) (العدد: ١٣/ ٢٢)، وكانت مدينة تينس هذه قد تأسست من قبل تيتانس Titans—وهم

عمالقة — نزلوا من حبرون إلى مصر، وكانوا أبناء تيتان، وكان تيتان هذا هو ابن كولوم Coelum وفستال Vestal، أخو ساتورن، وقد قاتل أولاده ضد جوبيتر، وحاولوا طرد الآلهة من السماء، لكنهم ضربوا بصاعقة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين(?)، وسببوا الاضطراب في جميع أنحاء العالم تقريباً، وذلك حسبما ورد في أغاني الشعراء، وعلى هذا كانت تينيس مدينة قديمة للعمالقة في مصر، وقد بنيت من قبل عمالقة قدموا من حبرون، ولحبرون أربعة أسماء: أولها جميعاً؛ أنها دُعيت أربعة (التكوين: ١٣) اشتقاقاً من اسم الأربعة المؤسسين الأوائل لها، وثانياً عرفت باسم « قرية أربعة » [يشوع: ١٤ / ١٥]، وهو الاسم نفسه « مدينة أربعة » أو « مدينة الأربعة »، لأن معنى كلمة « قرية » هو « مدينة » و Arba هو « أربعة »، وكان اسم حبرون معروفاً في العصور القديمة من قبل جميع الناس سواء من المؤمنين أو غير المؤمنين، وعرفت باسم « قرية أربعة » أي « مدينة الأربعة » لأسباب مختلفة، فقد كان الكفار سموها هكذا، بسبب العمالق الأربعة الذين دفنوا هناك وهم: عناق، وأخيان، وشيشاي، وتلماي (العدد: ١٣)، لكن المؤمنون دعوها بهذا الاسم بسبب البطارقة الأربعة: آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، الذين دفنوا هناك مع زوجاتهم الأربع، وثالثاً عرفت باسم حبرون، نسبة إلى ابن كالب، ورابعاً: إنها تعرف باسم أربعة [اقرأ الخليل] في هذه الأيام من قبل المسلمين، بسبب إبراهيم الذي دفن هناك، وسماها أيضاً مصنف Speculum Historiale «الابراهيمية» وكذلك «سرّه»، كما أنها غالباً ما عرفت باسم Ericus.

وذكر هذه المدينة جيروم في كتابه « حول المسافات بين الأماكن »، حيث قال بأنها كانت فيما مضى المدينة الرئيسية لدى الفلسطينيين، ومكان إقامة للعمالقة، وملوك سبط يهوذا، ومدينة كهنة، ومدينة إلتجاء، وهي تبعد عن القدس حوالي أربعة وعشرين ميلاً، باتجاه الجنوب، هذا

بالنسبة للقديس جيروم، وكانت هذه المدينة — أي المدينة التحتا — قد استولى عليها يشوع، الذي شنق ملكها هو هام (يشوع: ١٠)، لكن الجزء الأعلى من المدينة جرى الاستيلاء عليه فيما بعد من قبل كالب، الذي قتل أشجع عماليقها، كما قرأنا في يشوع: ١٢، وفي القضاة: ١٠/١.

وكان بسبب كالب أن استمر تدمير الناس، في القفار، ضد الرب، ولأنه اتبع الرب، وقدم برهاناً على جودة الأرض المقدسة، أنه بسبب ذلك قدم الآخرون تقريراً شريراً، بأن الرب قد وعده بجبل حبرون كحصنة رئيسية في جميع البلاد (العدد: ١٣—١٤، يشوع: ١٤)، فضلاً عن هذا، قال نيقولا دي ليرا بأنه عندما جرى إرسال الجواسيس من قبل موسى، ووصلوا إلى البلاد، كالب وحده صعد إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج، وأدى بعض الصلوات أمام البطارقة المقدسين، وبذلك بات جديراً، لأن يكون متمكناً لهذا المكان المقدس.

وموقع هذه المدينة قائم جزئياً على سفح رابية، وجزئياً في وادي، وهي ليست كبيرة جداً، لكنها مكتظة بالسكان وحصينة، وقد عملت مدينة بعد الطوفان مباشرة، مع أنه قبل الفيضان كان هناك سكان من البشر، إنما من دون مدينة، فقد سكن هناك أبناء آدم، ومن هناك توزعوا وتفرقوا في جميع أرجاء الدنيا، وعلى ذلك ارتحل قابيل، بعد قتله لأخيه، إلى الهند، مع زوجاته وأولاده، فراراً من وجه الرب.

علاوة على ذلك، ينبغي أن نعرف بأن هذه المدينة قد ورد الحديث عنها، والاشارة إليها بأسماء أخرى اضافية للأسماء التي تقدم ذكرها، فهي في بعض الأحيان عرفت باسم Arba أي أربعة، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا فيها، وجاء اسمها مصحفاً Arbeth ، كما قال جيروم في رسالته إلى بياخوس -De optimo genere Interpertandi ، وورد ذكرها أحيانا باسم « قرية أربعة » أي « مدينة أربعة »، وذلك بسبب البطارقة الأربعة الذين دفنوا هناك، كما عرفت

أحياناً باسم «ممر» بسبب «وادي ممر» المتصل بالمدينة، وبسبب بلوطة ابراهيم في ممر، التي كانت موجودة ومرئية حتى أيام طفولة المبارك جيروم، وذلك كما أخبرنا جيروم نفسه في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، وإلى أيام الامبراطور قسطنطين كان يشاهد هناك شجرة بطم معمرة جداً، حيث أن حجمها يبرهن على سنينها الطويلة، وهي التي سكن ابراهيم تحتها، وتحتها احتفى بكرم بالملائكة، وأبدتها من الممكن رؤيتها في هذه الأيام، وقال القديس جيروم: «ان المكان الذي تقوم الشجرة فيه متعبد بشكل مدهش وهائل من قبل جميع الأسباط من حوله، وينظر إليه — كما هو بالفعل — بأنه قد تقدس باسم مجيد.

وبالمناسبة، ان اسم ممر، كان الاسم الاصيل للمكان، وقد اطلقه عليه آدم، لأن معنى كلمة ممر بالعبرية «وضوح»، فلقد ذكرنا من قبل، أنه في هذا المكان تلقى آدم المعرفة بكل الأشياء ورأى الأشياء كلها بوضوح، وعرف هذا المكان أحياناً باسم Chebron الذي يعني «عبر»، بسبب أنه من هذا المكان عبر آدم إلى الجنة، وفي بعض الأحيان عرف أحياناً باسم «عبرون» الذي معناه «معبر» أو «تراجع» لأنهما تراجعا إلى هنا وعادا بعد الذنب الأول، كما أنه عرف أحياناً باسم حبرون، أي «الوادي الفقير»، بسبب المآسي التي تحملها آدم في هذا المكان، وخسارته للحياة الأبدية.

وفي اليوم الثامن والعشرين، الذي كان يوم عيد أبانا المبارك أوغسطين، نهضت مستيقظاً بعد منتصف الليل، وذلك حسب عادتي، أي قبل البقية لأداء صلواتي، ونزلت نحو الباب لاشعال شمعتي من المصباح المعلق هناك، غير أن المسلم الحارس عند الباب، أوقفني، وطرمني من قرب المصباح مع صرخات عالية، ومن جهتي أنا، لقد اقتربت من المصباح لأشعل الشمعة، كما كنت غالباً أفعل، لكنه أطفالها، وصدر عنا معاً كثيراً من الصراخ، جعل الترجمان يستيقظ ويأتي

إلينا، وقد تولى لومي بالايطالية لأنني لم أحافظ على الهدوء والسكينة، وسألني مالذي أريده بالشمعة في مثل هذا الوقت المبكر، فقلت له: «انني أرغب في حمد الرب، وأنوي قراءة شكره من كتاب»، وعندما سمع المسلم بهذا، طلب من الحارس اشعال شمعتي، وقد فعل ذلك، هذا وأنا متأكد من أنني لو سألته اشعالها لمقصد آخر، مهما كان نوعه، لما كنت قادراً على الحصول على ذلك بأي شكل من الأشكال.

وهكذا بعدما حصلت على الاضاءة لشمعتي، صعدت إلى مكاني، وقرأت صلواتي، وماكدت أفرغ من صلواتي لما بعد منتصف الليل، حتى جاء الترجمان كالينوس، وصعد وتولى ايقاظ الحجاج الآخرين، حتى يقوموا بالاستعداد للمغادرة وبناء عليه حزمنا حقائبنا، وحملنا جملنا، وأسرجنا على حميرنا، ومضينا خارجين من المدينة مع ضوء الفجر، ونزلنا إلى حقل هو الذي كان اسحق يسير فيه وهو مستغرق بالتفكير، فوصل وقتها دمشق، خادماً ابراهيم، وجلب له زوجته رفقه الشابة (التكوين: ٢٤).

وأثناء متابعة سيرنا، وصلنا إلى قرب دير، وهي «مدينة أحرف كتابة»، وهي على كل حال لم نستطع رؤيتها، لوجود جبل بيننا وبينها، وحول هذا الجبل انظر يشوع: ١٥، والقضاة: ١.

وعرفت باسم «مدينة أحرف كتابة»، لأن فيها جرى اختراع الكنعانية للمرة الأولى، أو لأن العماليق القدماء كان لديهم نوعاً من أنواع مدارس الكتابة هناك، أو لأن سكانها كانوا كتّاباً كما قال صاحب Speculum Historiale، أو كما يقول العبرانيون — عندما استولى عثئيل عليها، اثناء البكاء على موسى، قام هناك بإعادة كتابة بعض الاصحاحات من كتاب الشريعة، التي كانت قد غدت باهتة وممسوحة، وعن هذه المدينة قال جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: دير موجودة في ديار سبط يهوذا، وتعرف باسم «مدينة أحرف كتابة»، وكان قد استولى

عليها عثليل، أخو كالب، وهو الذي قتل العماليق الذين سكنوا هناك، وتلقى عكسة ابنة كالب، لتكون زوجة له وذلك بمثابة جائزة له، ومن الممكن حتى الآن أن نرى هناك أرض الينابيع العليا والينابيع السفلى، التي أعطاها كالب إلى ابنته عكسة، عندما اشتكت إليه بأنه أعطاها أرضاً جافة وعطشى، كما قرأنا في سفر القضاة: ١.

وتابعنا سيرنا، فتجاوزنا «قرية سفر» أودير، ومضينا على طريقنا في وادي حبرون، الذي من الممكن أن يكون وادياً خصباً لو أنه جرت زراعته، والذي هو محتفظ حتى الآن على جانبيه بجدران الأحجار الجافة للبساتين القديمة، وقد رأينا بين الأعشاب بعض المخلوقات البرية القابلة للأكل، والحجل والدراج، وبعدما قطعنا مسافة طويلة، وصلنا إلى مكان فيه وادي آخر يقود من الشمال إلى الغرب، وهذا كان وادي اشكول نيل، أي وادي عنقود العنب، وكان وادياً خصباً جداً، منه أرسل موسى جواسيساً لاستطلاع البلاد، وقد حملوا في عودتهم عنقوداً كبيراً من العنب، قام بحمله رجلان على عصا، ومن الوادي جمعوا بعض الرمان وفواكه أخرى، وأخذوهم إلى بني اسرائيل في قفار ماوراء الأردن، وذلك كما قرأنا في سفر العدد ١٣.

وغادرنا هذا الوداي، وتابعنا سيرنا في وادي حبرون، عبر الطريق الذي عبر عليه يوسف عندما أرسل من قبل أبيه، يعقوب من وادي حبرون، ليطلب أخوته في شكيم (التكوين: ٣٧) وعلى هذا الطريق نفسه نزل أخوه يوسف إلى مصر لشراء قمح (التكوين: ٤٢)، ومن المفترض أن عيسو اصطاد في الشعراء في هذا الوداي، لكثرة الحيوانات البرية هناك، وكان ذلك عندما بعث به أبوه اسحق حتى يجلب إلى البيت بعض لحم الطرائد، ويصنع منهم لحوماً محفوظة، وبذلك ينال مباركة أبيه (التكوين: ٢٧). وسرنا لساعات كثيرة على طول الجانب الأيمن من الوداي، الذي كان عميقاً وضيقاً، ووعرأ في قعره، وكثير الحجارة،

ومليئاً بالأشجار البرية، وكان رطباً وفيه مياه، وهو أمر غير طبيعي في تلك البلاد.

وفي منتصف النهار خرجنا من المنطقة التلية، إلى السهول، واستدردنا هنا بأنفسنا باتجاه الجنوب، عند سفوح بعض الهضاب، ووصلنا إلى حقول خصبة جداً، وهي مليئة بأشجار الزيتون وأشجار التين، وقد رجونا الترجمان منحنا بعض الوقت حتى نجلس ونتناول وجبة تحت ظل هذه الأشجار، لكنه رفض، قائلاً بأن الجمال المحملة لا يجوز إفراغ حمولتها لأجل هذا الغرض، كما لا يمكنها الوقوف وأحمالها على ظهورها، كما لا يمكنها الذهاب من دوننا، ولقد كان هذا صحيحاً، ولذلك مضينا متابعين السير على طريقنا، وأثناء ركوبنا لظهور حميرنا أكلنا وشربنا، مما وضعنا أيدينا عليه، وكل الذين يسافرون مع جمال محملة لا بد أن يفعلوا هذا، لأن الجمال لا يمكنها الوقوف تحت أحمالها، الأمر الذي سوف نشرحه بشكل أفضل، لدى حديثنا عن عبورنا للصحراء.

ومع وقت العشاء شرعنا نغادر بشكل تدريجي المنطقة التلية، ووصلنا إلى سهول فلسطينية واسعة جداً مقابل أشدود، وتمتد هذه السهول بشكل اعتراض من المنطقة التلية حتى البحر المتوسط، وهي مسافة ثلاثة أميال ألمانية، كما أنها بعيدة عن يافا وجبل عفريم نزولاً حتى منطقة جيرار Gerar في بئر السبع، ويوجد في هذا السهل كثيراً من المدن، إنما بشكل خاص خمسة منها، التي هي مدن ملكية ورئيسية لدى الفلسطينيين وهي: جت، وعقرون، وأشدود، وعسقلان، وغزة، وكان قد سكن في هذه المدن خمسة من أقطاب الفلسطينيين (صموئيل الأول: ١٨/٦)، وهذه المدن كلها قائمة على شاطئ البحر، وليست بعيدة عن البحر.

وكانت جت مدينة قديمة وحصينة من مدن العماليق، لم يستطع

يشوع ذلك المقاتل العظيم الاستيلاء عليها كما هو وارد في سفر يشوع: ١١، وكان جالوت الذي قتله داوود من جت (صموئيل الأول: ١٧) وفي صموئيل الثاني: ٢١ هناك خبر عن رجل من جت، كان قوي البنية، كان له أربع وعشرون اصبعاً وأظافر، وهناك أشياء أخرى كثيرة عن جت وردت أخبارها في الكتابات المقدسة.

وذكرت أساطير القديس كريستوفر بأنه كان من جت، وفي هذه الأيام يقال بأن الرجال الذين يلدون هناك أقوى ومقاتلين أفضل من الآخرين، وهي مدمرة منذ زمن طويل، وباقية الآن بمثابة قرية صغيرة، واسمها في هذه الأيام جبرين، وهي قائمة ليس بعيداً عن يافا، وعن الطريق إلى ذلك الميناء، وإذا ماسار الانسان نازلاً على طول ساحل البحر الكبير، من جت، مسافة ميلين ألمانيين، يصل إلى مدينة أخرى من مدن الفلسطينيين، اسمها عقرون وقد كانت فيما مضى مدينة عظيمة من مدن الفلسطينيين، وقد كان فيها هيكل كبير لبعل أو بعل زبوب، وقد عرف باسم رب عقرون، ولهذا فإن احزيا ملك اسرائيل، عندما سقط من كوة عليته، أرسل يسأل بعل زبوب وقد عرف باسم رب عقرون [الملك الثاني: ١]، ولام أيضاً اليهود الرب يسوع بأنه عمل اتفاقاً مع هذا الشيطان نفسه، وقالوا: «ببعلز بوب رئيس الشياطين يُخرج الشياطين» [لوقا: ١١ / ١٥]، وقد أعطيت هذه المدينة إلى سبط يهوذا، لكن أفراد السبط لم يتمكنوا قط من السيطرة عليها، لأنهم لم يستطيعوا غلبة العماليق الذين سكنوا فيها.

وإذا ماتابع الانسان نازلاً على طول ساحل البحر، فانه يصل إلى أشدود، التي كانت المدينة الثالثة للفلسطينيين، وكان يشوع قد عينها لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يتمكنوا قط من الاستيلاء عليها، لأنهم لم يستطيعوا طرد سكانها الأصليين منها، وكان في هذه المدينة هيكلًا كبيراً لداجون، إليه جلب الفلسطينيون تابوه رب اسرائيل عندما

استولوا عليه، ولذلك سقط صنم داجون، وأصيب الناس بطاعون عظيم (صموئيل الأول: ٥).

ويتابع الانسان سيره فيصل إلى المدينة الرابعة للفلسطينيين، التي هي عسقلان، والتي عنها قال جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: «عسقلان مدينة جليلة للفلسطينيين، وهي كانت في القديم واحدة من المدن الرئيسية لدى الفلسطينيين، وعينت حصنة لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يستطيعوا السيطرة عليها، لأنهم عجزوا عن غلبة سكانها»، وكانت هذه المدينة حصينة جداً في العصور الحديثة، لأن صلاح الدين، سوط العذاب المسلط على الصليبيين، والمحارب العظيم جداً، قدم إلى عسقلان لحصارها مع جيش عظيم، لكنه لم يستطع فعل شيء ضدها، مع أنه كان قد هزم الصليبيين في كل مكان، وطردهم من الأماكن التي كانت بأيديهم، وأسرغي ملك القدس، مع مقدم الداوية، وجميع النبلاء، ولذلك رفع الحصار عنها، وذهب إلى مدينة القدس المقدسة، واستولى عليها، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وبعدما استولى على القدس، عاد ثانية، وحاصر عسقلان ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، إلا على شرط إخلاء سبيل ملك القدس، ومقدم الداوية وجميع النبلاء، وكانوا على هذه الشروط مستعدين لتسليم المدينة، ووعد صلاح الدين بالقبول بهذه الشروط، ونفذ وعده، وحصل على عسقلان.

ولدى متابعة الانسان سيره نازلاً على طول شاطئ البحر، يصل إلى المدينة الخامسة للفلسطينيين، التي اسمها غزة أو غزرة، ولقد كنا نحو هذه المدينة مسرعين عبر هذا الطريق، مخلفين المدن الأربع المتقدم ذكرها على يميننا، وغزة هي المدينة التي سوف أتولى وصفها فيما يلي، ويوجد تحت سلطة هذه الحواضر الخمسة في بلاد الفلسطينيين هذه، مدن كثيرة، وهكذا تابعنا سفرنا عبر المنطقة السهلية لفلسطين، ونحن متجهون نحو الجنوب، وجبال اليهودية على يسارنا، والبحر المتوسط على طرفنا

اليمين، وتابعنا السفر طوال اليوم في حرارة الشمس حتى غيابها، وعند الغياب وصلنا إلى قرية اسمها زخاريا، وقد دخلنا إلى نزل قام خارج القرية، وقمنا هنا بانزال الأثقال عن ظهور دوابنا وعملنا مايلزم من اعدادات لإمضاء الليل هناك فيه، وكان نزلاً واسعاً، يشبه قلعة، فيه اسطبلات كثيرة، وقاعات، وهو مسور من جميع الجهات، ولم نجد أي انسان فيه، وبعدما وضعنا دوابنا في الاسطبلات، ورتبنا اغراضنا، شرعنا بالإعداد لعشائنا، ولكي نجمع حطباً للنار سعينا نبحث في الحقول واقتلعنا عصياً من أسيجة الحقول والبساتين، ولذلك قام أهل المنطقة من المسلمين بالركض نحونا ورمونا بالحجارة، وطاردونا حتى النزل، هذا وقدم إلى هناك بعض من أهل المنطقة، وجلبوا معهم دجاجاً وطيوراً، وخبزاً وماء، وقد اشترينا ذلك، وذبحنا الطيور، وتوفر لدينا عشاء جيداً وبهيجاً، وبعد العشاء أغلقنا أبواب النزل بدحرجة حجارة كبيرة إلى هناك، ووضعنا حارساً على السور، خشية من حدوث طارئ في الليل، ذلك أننا خفنا من وصول فئة أخرى إلى هناك، تكون أقوى منا، وتقوم بإخراجنا من الخان، لأن العادة في تلك البلاد: تقوم الفئة الأقوى بطرد الفئة الأضعف من الخان، ولذلك أعددنا أنفسنا للدفاع، وحملنا كثيراً من الحجارة إلى السور لنقاوم كل من يحاول التدخل بشؤوننا.

وكان هناك مسجد جميل ملاصق لخاننا، وكان بإمكاننا رؤية مافيه من خلال الفتحات في السقف، وفي الحقيقة قام واحد من الحجاج أثناء الليل بتلوينه من خلال إحدى هذه الفتحات، فعرضنا بذلك إلى خطر عظيم، غير أننا غادرنا قبل أن يأتي أي انسان الى المسجد، وإلى جواره كان هناك بركة عميقة جداً، نضحنا منها بعد صعوبات جمة ماءً جيداً، والبرك ثمينة جداً في هذه المناطق، والماء قليل جداً، وعلى هذا قرأنا بأن البطارقة: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، حفروا كثيراً من الآبار، وقد

نشبت نزاعات بين الملوك حول الآبار (التكوين: ٢٦)، وعند حلول الظلام مددنا أنفسنا، وأخذنا بالنوم فوق ذروة السور المحيط، تحت قبة السماء، لأن الغرف كانت قذرة.

صقلغ بلدة داوود وأماكن أخرى

واستيقظنا عند الفجر في اليوم التاسع والعشرين، وحملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، وانطلقنا عبر منطقة مستوية وجرداء، حيث رأينا كثيراً من القرى مع خرائب مدن قديمة، وعند الظهر وصلنا إلى منطقة متلأت بالجبال وبالروابي الصغيرة، بينها انتصب جبل كان عالياً، مرتفعاً أكثر من البقية، وهو جبل مناسب جداً لإقامة قلعة وحصن به، وعلى هذا قال تبالؤنا: لو أن هناك رجال حرب في هذه المنطقة، انوا لتركوا هذا الجبل من دون إقامة قلعة، وعندما وصلنا إلى سفح الجبل، ونظرنا إليه نحو الأعلى، بدا لنا وجود أحجار على السفح أحجار أسوار مخربة، وبناء عليه قممت أنا وبعض من الآخرين حميرنا بالأسفل، وبادرنا مسرعين فتسلقنا حتى قمة هذا الجبل، جدنا بقايا وخرائب أسوار قوية، ليست أسوار قلعة، بل مدينة ذلك أنه بالحقيقة قامت مدينة صقلغ فيما مضى هناك، وهي لسطينيين أعطاهما أخيش ملك جت إلى داوود، عندما كان فاراً ساؤول (صموئيل الأول: ٢٧)، هذا وهناك المزيد من الأخبار في (صموئيل الأول: ٣٠) ولدى جيروم في كتابه «حول بين الأماكن» حيث قال عن هذا المكان بأن صقلغ في إلى الجنوب من حصّة يهوذا وشمعون، التي هي موجودة

فوق ذلك الجبل، ونظرنا بالطول وبالعرض، عبر لبحر الكبير، وباتجاه جبال حبرون، وأيضاً باتجاه جبل لك باتجاه الصحراء المصرية، والجهات الأربع من

السموات، ولدى فراغنا من رؤية هذه المشاهد، غادرنا صقلغ، وتوجهنا نازلين نؤم غزة، وقد رأينا عن بعد كبير، جماعة من الجمال والحمير قادمة نحونا، وقد ارتعبنا كثيراً ظانين بأنهم بداءة عرب أو مدينيين، ولذلك أحضر أدلاؤنا قسيهم، وأعدّ الحجاج النبلاء سيوفهم، لكن عندما واجهونا تجاوزونا مسرعين وبسلام كامل، ولم يحركوا اصبعاً ضدنا، فلقد كانوا مصريين راغبين بالذهاب إلى القدس للصلاة بالأقصى حسب عادة المسلمين.

وحوالي المساء اقتربنا من غزة أو غزرة، لكن لم نفكر بدخول المدينة بشكل مكشوف، خشية أن نتعرض للمضايقات وقيام أطفال المسلمين برمي الحجارة علينا، وتكسير جرار خمرتنا، ولذلك سرنا بشكل جانبي بعيداً عن الشارع العام، في حقل مليء بأشجار التين، وتحت الأشجار هذه أنزلنا أثقالنا من على ظهور دوابنا عازمين على البقاء هناك حتى انتهاء النهار، وجلسنا في هذا الحقل وأكلنا وشربنا الأشياء الحاضرة لدينا، ذلك أننا لم نتجرأ على إشعال نار لطبخ أي شيء ساخن، فلقد أكلنا خبزاً وجبناً، وقطفنا تينا من الأشجار، حيث كانت هناك كميات وافرة، ولقد أكلت من ذلك التين كثيراً جداً، ولم أهتم مطلقاً بالذي كنت أفعله، لأنني بعدما أكلت التين، تورمت شفتاي بشكل مفاجئ، وصار حول فمي حبوب مقيبة مثل المصاب بالجدام، ولذلك لم يعد بإمكانني فتح فمي لتناول ما احتاجه من الطعام والشراب وبقيت هكذا لأيام عديدة أعاني من ذلك كثيراً، وأخبرني بعض الناس المتعلمين، أنني من خلال أكلي كثيراً من التين، أدخلت إلى جوفي مواد وعصارة الحمى، وهذه ظهرت على شفتي، ولولا أنها فعلت ذلك، لعانيت من هجوم حمى حادة، والذي أعتقد أنه أكلت تينة مسممة من قبل إحدى الهوام أو الزواحف.

وعندما غابت الشمس أعدنا تحميل جمالنا وحميرنا، وانطلقنا نريد

غزة، ودخلنا المدينة والظلام قد انتشر، وسرنا عبر طريق طويل إلى خان الحجاج، وعندما وصلنا إليه، لم نستطع أن نتحرك بسبب ضيق المكان، وكان من غير الممكن لهذا المكان استيعابنا شخصياً من دون ائقالنا، ولذلك خرجنا منه مغضبين، وأخبرنا الترجمان أننا لا يمكننا الإقامة في هذا المكان ولا نريد ذلك بأي حال من الأحوال، وأنه إذا لم يوفر لنا مكاناً أوسع للإقامة فيه، سوف نرفع شكوى ضده في بلاط حاكم غزة، لخرقه العهد ولعدم وفائه بما التزم به في البند الخامس من الاتفاق المعقود بيننا وبينه، والذين كنا قد ذكرناه من قبل.

وعندما سمع هذا، تناقش معنا لبعض الوقت، ثم طلب منا انتظاره، وركب يبحث في المدينة هنا وهناك عن مكان لنا، وهكذا وقفنا لوقت طويل على هذه الحالة في الظلام، ونحن محشورين في طريق ضيق بين الحمير والجمال، وقد فقدنا صبرنا وكنا متخوفين من حدوث هجوم مفاجيء ضدنا، وجاء الترجمان أخيراً، واقتادنا عبر طريق طويل من ذلك البيت إلى مكان آخر، حيث لم يكن هناك في الحقيقة بيت، بل ساحة محاطة بجدار، ومن الممكن اغلاق الساحة بباب، لكنها كانت بلاسقف لنام تحته، وكان هناك على الطرف الأول غرفتان قذرتان جداً، ومليئتان بالغائط البشري، أما الساحة فكانت مبلطة ببلاط طيني، كان معداً من أجل شوي القرميد، وأشعلنا شموعنا هنا، وأنخنا جمالنا في الطريق، وأنزلنا الأثقال عن ظهورهم وعن ظهور الحمير، وأعطينا الدواب إلى أصحابها، وجلبنا في الوقت نفسه جميع أغراضنا إلى الساحة، وأخرجنا منها جميع سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وأبقينا معنا الفحل فقط، أي كالينوس الأصغر، وأغلقتنا الآن الباب بالمزليج والأحجار، خشية التعرض لهجوم من قبل المسلمين، وبعدما قمنا بهذا، أوقدنا النار، وطبخنا بعض الفطائر حتى نتمكن من أكل أي شيء، أو بالحري أن نتملك طعاماً ساخناً مطهياً لأجوافنا، لأننا لم نتذوق شيئاً ساخناً طوال

ذلك اليوم، وفرغنا من تناول طعامنا بسرعة، ومددنا أنفسنا كي نرتاح داخل معلف طويل، بني من الحجارة والملاط على طول جدار الساحة، لكن الذين لم يجدوا متسعاً في المعلف، تمددوا في مكان آخر من الساحة، وهكذا نمنا تلك الليلة في الهواء الطلق، متعرضين لندى السماء.

كيف حصلنا على إذن من الحاكم للإقامة بغزة

واستيقظنا في اليوم الثلاثين عند شروق الشمس، وقبل أن نفتح باب الساحة، نقلنا أغراضنا كلها إلى قاعة صغيرة بائسة، وقسمنا الساحة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم إلى إحدى جماعتنا الثلاث، وهي الجماعات التي تحدثت عن توزيعها من قبل، وعلى هذا امتلكت كل فئة مكانها الخاص، وعملنا ستائر من ملابسنا وأقمشتنا لندفع عنا حرارة الشمس والندى في الليل، وذلك إلى أن أعطانا الترجمان الخيم التي كنا سوف نستخدمها أثناء عبور الصحراء، وقد نصبناها في الساحة وعشنا فيها، علاوة على ذلك اشترينا من المدينة الأشياء الأخرى التي كنا بحاجة إليها من أجل الأيام التي كنا سنقيمها هناك، لأننا عرفنا أنه متوجب علينا الإقامة هناك عدة أيام.

وبعدما أكلنا ذهبنا مع الترجمان إلى حاكم المدينة ورجوانه السماح لنا بالإقامة في غزة لبضعة أيام، ولأن نسير حول المدينة وفي داخلها لشراء ماسنحتاجه من أجل رحلتنا في القفار، ولكي نشاهد المدينة، ولندخل حماماتها الساخنة، وقد سمح لنا بالقيام بهذه الأشياء وبعملها، وتعامل بلطف زائد معنا، مع أنه لم يكن مسيحياً، وبعدما أنجزنا هذه الأعمال عدنا إلى ساحتنا مع الترجمان، ورجوانه أن لا يدعنا نقيم طويلاً في تلك المدينة، وقد وعد أنه لن يدعنا نقيم وقتاً طويلاً.

خساسة الروم الأرثوذكس

وفي اليوم الحادي والثلاثين، الذي كان اليوم الأخير من شهر آب،

والذي كان أيضاً الأحد الرابع عشر بعد التثليث، استيقظنا عند شروق الشمس، وأدينا صلواتنا المتأخرة، وفكرنا في أي مكان يمكننا أن نسمع فيه قداس يوم الأحد، لأنه لم يكن هناك كنيسة لاتينية في تلك المدينة بل الذي توفر فقط كنيسة للروم الأرثوذكس، قامت على مقربة منا، وبناء عليه أخذنا كأس قرباننا، وكتبنا، وملابسا الكهنوتية، وأعطية المذبح، وهذه الأشياء كنا قد جلبناها معنا من القدس، وحملنا هذه الأغراض جميعاً معنا، وذهبنا إلى كنيسة الروم الأرثوذكس، عازمين على إقامة قداس هناك، وبعثنا خلف كهنة الكنيسة، ورجوناهم بتواضع بالسماح لنا بالدخول، وتعيين مذبح لنا، عليه يمكن أن نقيم قداساً دينياً، لكن الروم الأرثوذكس الذين أثرت الآن كراهيتهم المتجذرة، التي حملوها دوماً نحو أبناء الكنيسة اللاتينية، رفضوا السماح لنا بالدخول إلى كنيستهم، ولم يهتموا بطلبنا أكثر مما لو أنه مقدم من يهود، وأعلنوا أنهم لا يرغبون بتدنيس كنيستهم، وتلويتها بقداساتنا.

وتحمل الحجاج جميعاً هذه الإهانات القذرة بصبر رجل واحد وبدهشة، ولذلك عدنا ثانية إلى ساحتنا مع شيء من الإرباك، وبعدما قلبنا القضية وتفحصناها، عزونا هذا الصدد الذي تلقيناه من الاغريق إلى فضل رباني، لم يأذن لنا بإقامة قداس في كنيسة منشقة وهرطقية، حتى لا نبندو أمامهم وكأننا نشارك في القداس بشكل مضاد لشرائع الكنيسة الكاثوليكية، حسبما هي موجودة في الفتاوى البابوية: ٢٩/٩/٢، تحت عنوان «انشقاق» Siquidem، الخ، ذلك أن الروم الأرثوذكس هراطقة، لأنهم مصرين على انشقاقهم، ومن الممكن رؤية عقائدهم في القسم الثاني - الفصل: ٣.

وبعدما عوملنا هكذا باستخفاف من قبل الروم الأرثوذكس، اخترعنا طريقة أخرى من أجل إقامة قداس ديني، حتى لانخرس أحدنا، حيث حملنا كومة من الأحجار العادية، ووضعناها في زاوية ساحتنا، وعمرنا

مذبجاً من دون ملاط، ووضعنا فوقه مذبجاً متحركاً، وغطيناه بمتدليات، وربطنا حبلاً من حوله، علقنا عليه زرابي وأقمشة، وبذلك عملنا نوعاً من أنواع البيع، وهنا بعد ذلك أشعلنا شموعاً، وأغلقنا باب الساحة، وأقمنا قداساً أحدنا، بسلام، وهدوء، وخشوع، وخشية من أن يقوم أحد الناس بقرع الباب أثناء الوقت المهيّب للقداس، مركزنا الفحل المسلم، أمام الباب، ليمنع الناس من القرع على الباب حتى انتهاء القداس، وهكذا أقمنا قداساً بدون معيقات في كل يوم، وكان المعيق الوحيد هو الزناير، لأنه كانت هناك حفرة على شكل فتحة في الجدار قرب المذبج منها دخلت وخرجت أعداد كبيرة جداً من الزناير من الحجم الكبير، وكانت تظن حول الكاهن المقيم للقداس، ولدى محاولتنا اغلاق الفتحة، هاجوا، وعملوا فتحات لأن الجدار كان معمولاً من الطين، وكانوا يندفعون بقوة مرعبة أكثر، وبأعداد أعظم من ذي قبل، وجربنا طرائق عديدة لتدمير هذه المخلوقات، لكن تعذر علينا ذلك من دون هدم الجدار كله، هذا، ومع أنهم كانوا يطيطون حولنا باستمرار، مامن انسان قرص من قبلهم.

ولقد كان هناك ثلاثة كهنة هم: الأب باولوس من طائفة الفرنسيسكان، والمعلم جون، وكان رئيس شماسه من ترانسيلفانيا، والراهب فيلكس، من طائفة الدومينيكان، وهكذا نظمنا الأمور فيما بيننا، بشكل أقمنا فيه قداساً في كل يوم، وبعد سماعنا للقداس، تناولنا طعام الافطار، وبعد طعام الافطار، زارنا حشد كبير من الشبان ومن الأطفال، وألصق واحد من الشباب المسلمين نفسه بواحد من الفرسان، أي من رفاقنا، ورجاه اعطائه قارورته الفارغة، ووعدته أنه سوف يعيدها إليه مليئة بالخمر، وأعطاه الفارس قارورته، وذهب الشاب وغادر وهي معه، وانتظرنا عودة الشاب بفارغ الصبر، لأننا نعرف أن المسلمين ليس لديهم خمرة، وذهب الشاب، وطلب الحصول على خمرة

من بعض الأماكن باسمنا، وحصل عليها، لكنه قام على الفور، بعد تسلمه للخمرة بتذوقها، فأغري بحلاوتها، فشرب القارورة كلها، وكانت تحتوي على سعة قدرين من قدور أولم، ولذلك بات مخموراً، وفقد عقله وصار مجنوناً، يركض في الطرقات وهو يصرخ ويرمي بالحجارة، وجرى إرسال عبيد الحاكم خلفه، ولحقوه وهو في حالة هياجه وثورته، ولدى رؤيته ذلك تصرف بعقل وهرب إلى ساحتنا، للحصول على مكان للالتجاء والحرية، لأنه كان هناك مرسوم من السلطان، أنه حيثما كان هناك حجاج من بلاد ماوراء البحر، مقيمين، هناك حيث أقاموا ملجأً أمين، أي أن تقول موضع للالتجاء، وكل من التجأ هناك لا يمكن لأحد أخذه من هناك، وهكذا بقي ذلك الشاب معنا حتى تعافى من سكره، لكن حاكم المدينة أرسل إلينا وحظر علينا إعطاء أية خمرة لأي مسلم آخر، وأعلن، أنه إذا ماحدث مثل هذا الأمر ثانية، فلسوف يلقي بنا في السجن، ويتنزع منا خمرتنا، لأن هذا الحاكم اعتقد بأننا عن عمد جعلنا ذلك الشاب يصبح مخموراً، مع أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولقد عدت جريمة عظمى بينهم إذا ماظهر أي انسان بينهم علنا بين الناس وهو سكران من شرب الخمر، مثلما هي جريمة عظمى بيننا لدى اعتقال أي انسان والتشهير به، لأنه اعتقل وهو يزني، ولقد كانوا لدى تناول أحدهم لجرعة من الخمرة يصير سكراناً وهائجاً، فيصبون جام غضبهم أولاً على الذي أعطاه الشراب.

هنا نهاية الفصل الخامس.

هنا بداية الفصل السادس

وهو يغطي شهر أيلول، ويحتوي على أعمال الحجاج في ذلك الشهر، ووصف للأماكن المقدسة التي زارها الحجاج في أيام ذلك الشهر.

وعندما حلّ اليوم الأول من إيلول، سمعنا قداساً في مكاننا، وتناولنا طعامنا بعد ذلك مباشرة، وبعد تناولنا لطعامنا، استدعينا واحداً من المسلمين إلينا، ورجوناه أن يأخذنا إلى المكان الذي عمل فيه شمشوم الأعمال التي برهن فيها على قوته، وهي التي حدثنا عنها سفر القضاة، وأنه عملها في هذه المدينة، وهكذا سرنا عبر طريق طويل، ووصلنا في داخل المدينة إلى ميدان واسع، رأينا على جانبه خرائب بيت كبير أو قصر، وأكوام هائلة من جدران مهتمة، وهذه الخرائب من المعتقد أنها بقايا هيكل قديم جداً، هو هيكل داجون، وهو الذي هدمه شمشوم، بتحطيمه الأعمدة المتوسطة التي عليها اعتمد، وبذلك قتل نفسه مع سادة الفلسطينيين وكثير من الناس، وهذا مايمكن أن نقرأ عنه بشكل مسهب في سفر القضاة: ١٦، ورأينا بين خرائب الجدران عمودين من الرخام، عظيمين جداً، ولونهما رمادي، وهما من المفترض كأننا يحملان البناء كله، وبتحطيم هذين العمودين تمكن شمشوم من تدمير البناء كله، وبذلك قتل أعداءه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، سرنا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى بوابة المدينة، التي حمل مصراعي بابها شمشوم مع المزاليج والعوارض والأقفال، في منتصف الليل، ونقلها إلى الراية القائمة أمام المدينة، وبذلك نجا من أيدي أعدائه، الذين سجنوه في المدينة، وخرجنا من المدينة من خلال تلك البوابة، وتسلفنا الراية المتقدمة الذكر، وذلك إلى المكان الذي حمل إليه شمشوم مصراعي باب غزة، وشاهدنا المكان وجميع المنطقة من حوله، ورأينا هناك تمّة، التي كانت بلدة للفلسطينيين

منها اتخذ شمشوم زوجة فلسطينية، وهناك فعل أشياء كثيرة (القضاة: ١٤)، وشاهدنا أيضاً وادي سورك، الذي فيه زرعت تلك الكرمة المختارة، التي عنها نقرأ في إشعيا: ١١، وفي هذا المكان سكنت دليلة الخائنة، وهي التي غلبته، مع أن مامن إنسان كان يمكنه غلبته (القضاة: ١٦)، ورأينا أيضاً سهولاً واسعة، وحقولاً وسفوحاً جميلة جداً، فيها ينمو القمح، والكرمة، وفي حقول القمح هذه أرسل شمشوم ثلاثمائة ثعلب، مربوط إلى أذنانهم حزمًا مشتعلة، وأحرق القمح، وكروم العنب، وأشجار التين، ورأينا أيضاً خلفنا جبال بني اسرائيل، وأمامنا البحر المتوسط، وبعدما فرغنا من مشاهدة هذه الأشياء كلها، نزلنا ثانية، وعاودنا الدخول إلى المدينة من خلال البوابة المتقدمة الذكر.

وليس بعيداً عن تلك البوابة هناك مسجد اسلامي، فوق البقعة، التي كان عليها في أيام شمشوم خاناً للغرباء، كانت صاحبه عاهرة، وقد ذهب شمشوم إليها ونام هناك، وقام الفلسطينيون في تلك الليلة نفسها بإغلاق أبواب المدينة، قاصدين اعتقال شمشوم في اليوم التالي وقتله، لكنه استيقظ في منتصف الليل، وحمل مصاريح الأبواب، كما قلنا من قبل، وبعدما زرنا هذه الأماكن ورأينا هذه الأشياء، عدنا إلى موضعنا، حيث جلسنا مع بعضنا، وبحزن تحدثنا حول المأساة المحزنة لشمشوم بعد نجاحاته المدهشة.

★★ ★★ ★★

حمام ساخن جيد فيه استحم الحجاج بسرور مع المسلمين

وفي اليوم الثاني، أرسلنا بعد القداس، خلف ترجماننا، ورجوانه أن يقتادنا إلى القفار، إلى نقطة حددناها له، ووعدنا بأنه سوف ننطلق في اليوم التالي، وقد سررنا تجاه هذا الوعد سروراً عظيماً، وبعد تناولنا للطعام ذهبنا جميعاً إلى الحمام الإسلامي الساخن، مثل الذي كنا قد

تحدثنا عنه من قبل، وهذا الحمام الموجود في غزة هو أجمل الحمامات التي شاهدتها قط، ويوجد أمام الغرفة الساخنة بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال، وفي هذا البناء عدد من الغرف الصغيرة، من دون فرش، لكن الأرض كانت مفروشة بالحصر، وبسعف نخيل مضفورة، وكانت كل غرفة مغلقة بستارة فقط، وفي هذه الغرف يمكن للإنسان لمن يرغب أن يستحم وهو بدون ملابس، أو وهو لابس، وفي الغرفة نفسها قد جرى تعليق ثياب نظيفة، يغطي بها الذين يودون التجول في الحمام، والتغطية هي من السرة حتى الركب، عوضاً عن السراويل والأحزمة، وبذلك يغطي الإنسان من الأمام ومن الخلف، ويوجد في وسط هذا الرواق هناك فوارة ماء، يسيل خلال عدة أنابيب صدوراً عن أعمدة رخامية، وجميع الأرضيات والجدران مكسوة من الداخل ومن الخارج في قلب الغرفة الحارة، بمختلف أنواع الرخام الأبيض المصقول، لذلك يتوجب على الذي يسير فوقهم أن يكون حذراً، وأن يسير بانتباه، خشية الانزلاق، وذلك مثل الإنسان الذي يسير فوق جليد.

والغرفة الساخنة نفسها تشبه برج مربع، والقبة، أو القنطرة التي تغطيها ليس لها سقف فوقها، بل لها فتحات كثيرة، كل واحدة بحجم رأس الإنسان، وهي مغلقة بزجاج النوافذ من مختلف الألوان، يدخل من خلالها ضوء باهت، ولكن فيه كفاية، ولا يوجد في الغرفة الساخنة أتون نار، ولا يشعر الإنسان بحرارة النار أو الدخان، بل يوجد في واحد من الأماكن موقد نار تحت البلاط، وبه يسخن رخام البلاط الأرضي، ويملاً الماء الذي يجري خلال أقنية محفورة في الصخر، الغرفة كلها بالسخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة، وكما قلت الغرفة مربعة، وليس فيها أضواء، إلا التي تأتي من الفتحات في القبة، ويوجد على الطرف الأول سخونة فائقة وماء ساخن، ويوجد على الطرف الآخر

برودة وماء بارد، أما الطرف الثالث ففارغ وهادئ، وفي الطرف الرابع الباب، وفي الوسط حرارة مقبولة.

وصاحب الحمام نفسه لطيف جداً، ويقوم بتواضع وكرم بخدمة المستحمين، وغالباً ما يتولى ذلكهم، وتغسيلهم ودهنهم بـ Se-megma، أو بدهون أخرى مناسبة، لأنهم يعالجون الضعفاء بأطرافهم في الحمام، وإذا كان أي إنسان يشعر بألم من أي سبب، يقوم الحمامي بتدليكه، ودهنه، وبالضغط وبشد المكان الذي يشعر فيه بالوجع، وذلك حتى يتعافى من وجعه أو يسكن بعض الشيء، وبطريقة مماثلة، إذا كان هناك أي إنسان يعاني من آلام في أي من أطرافه من ذلك على سبيل المثال في ذراعه، أو ساقه، أو يده، أو قدمه، أو رقبته، فإنهم يتولون معالجة مثل هذه الأشياء، بطرائق رائعة مدهشة، وبذلك تزيل التقلص عن الأعضاء المتشنجة، وكذلك تزيل النقرش في الأقدام وفي الأيدي، والخصا من المثانة والرمل، فهذا كله يعالج في الحمام بفن عظيم.

ومثل هذا إذا كان أي إنسان يشكو أو يعاني من ضيق في صدره، وقصر في تنفسه، تراهم يعملون بجهد ونشاط لعلاج وبراءته، ولا يفعلون هذا فقط بمجرد الجلوس إلى جانبه، بل إنهم يأخذون المريض ويجلسونه ثم يمددونه على البلاط في وسط الحمام، إما على ظهره، أو على وجهه، أو على جانبه، وذلك حسبما يتطلب الألم، ثم يجلس الحمامي فوقه، ويتولى معالجة موضع الألم، ويلطف يحرك الذراع المصاب نحو الأمام ونحو الخلف، ويضغطون على الرقبة أما بهذا الاتجاه أو ذاك.

ورأيت مرة حبشياً طلب معالجته في الحمام، قائلاً بأن لديه ضغط بالصدر، فمدده الحمامي على ظهره فوق البلاط، وجلس فوق معدته، وضغط على رقبته بيديه معاً، بقسوة بلغت حداً أن وجهه بدأ يتورم، لأن نفسه كله توقف، وقد أبقاه هكذا لوقت طويل، حتى أنني خشيت

من أن يلفظ أنفاسه، كما أنه أغلق أذنيه بحرير، وأخيراً أطلقه وتركه يذهب، وقد استرد الرجل أنفاسه، وأظهر سروره وفرحه الكبير، وقال بأنه من الآن فصاعداً سوف يكون بحالة جيدة.

وإنه لأمر يبعث على السرور، أن تجد أمراضاً كثيرة تجري معالجتها في الحمام، وهي أمراض كنا نقدر أنها غير قابلة للمعالجة، أو التي من أجلها كنا نزور الينابيع الحارة، وهناك نبذل جهوداً لكثير من الأيام، وندفع نفقات عظيمة، في حين أن هؤلاء الرجال يتولون معالجة الأمور كلها في نصف ساعة، ومع ذلك يبدو لي أنهم يستخدمون تعاويذ أيضاً، أثناء عملهم في معالجة أي إنسان وفق الطريقة المتقدمة الذكر، وهم يقومون باستمرار بالتمتمة في أنفسهم، ويتفوهون بكلمات لا أعرفها في أذان المرضى، ويتصرفون في جميع المجالات مثلاً الذين يمارسون أعمال التعاويذ.

ولا يلتقي الرجال والنساء في الحمام مطلقاً، فللنساء حماماتهم الخاصة، وكذلك للرجال حماماتهم، كما أن الرجال ليس لديهم نساء لتدليكهم، ومثل ذلك ليس لدى النساء رجال لتدليكهن، بل يخدم الرجال الرجال، والنساء النساء، وهم لا يسمحون بأي شكل من الأشكال لليهود بدخول حماماتهم، والتحمم معهم، لكنهم يقبلون بأن نستحم معهم، وغالباً ماتساءلت عن السبب الذي سمحوا به لنا بالاستحمام معهم من دون اعتراض، في حين إنهم لا يقابلوننا في أماكن أخرى بطريقة صديقة، ويخيل لي أن هناك ثلاثة أسباب لذلك: أولها، إنهم وإن قابلونا بالعادة بطريقة غير صديقة، هم عندما يعرفون بأن هناك مكاسب ومال منا، لا يقومون فقط بمقابلتنا فقط بطريقة صديقة، بل يذلون أنفسهم حتى العبودية أمامنا، وعلى هذا الأساس عندما يعرفون بأننا سوف ندفع للحمامية بشكل جيد، تراهم على استعداد لتحمل رفقتنا، والسبب الثاني هو أنه قد قيل بأن المسلمين يصدرون رائحة كريهة، وبسببها يستخدمون

باستمرار محاليل من مختلف الأنواع، وبما أننا ليس لدينا روائح كريهة، لا يبالون إذا قمنا بالاستحمام معهم، لكنهم لا يشملون بهذا السماح اليهود، الذين تصدر عنهم روائح أكثر نفاثة، وهم بالعادة يكونون مسرورين جداً برؤيتنا في حماماتهم، وذلك مثلما يفرح رجل مجذوم باستحمام رجل معافى معه، لأنه غير مزدري، ولأنه يأمل أنه بوجود الرجل الصحيح معه، سوف هو نفسه يغدو أحسن صحة، وهكذا فإن المسلمين ذوي الرائحة الكريهة يفرحون أن يكونوا برفقة انسان ليست له رائحة كريهة، والسبب الثالث لسماحهم لنا أن نكون بينهم هو أن محمداً (ﷺ) لم يحرم عليهم اللقاء بنا في الحمام، بل فقط في المساجد، لأنه قال في قرآنه بأن المسيحيين أصدقاء أفضل بالنسبة له من اليهود، كما قرأنا عند نيقولا دي كوسا الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ولهذا السبب هم يسمحون لنا بالدخول إلى حماماتهم، ولا يسمحون لليهود، غير أن هذا لم يُعمل من أجل مدح المسيحيين، بل لإرباكهم كثيراً، ولذلك إنهم لا يسمحون لنا بأي شكل من الأشكال بالدخول إلى مساجدهم.

وهناك سبب آخر، هو سبب لاهوتي، ذلك أنه غير لائق بالمسيحيين الاستحمام مع غير المسيحيين، فهم بإثارة من الشيطان على استعداد للقبول بأمور غير معقولة من هذا النوع، وفي الحقيقة إنه عمل غير لائق بالنسبة للمسيحي، الاستحمام مع غير مسيحي، بمجرد، اللقاء نظرة على مايلي: ان اليهودي لايجوز له الحديث مع السامري، ومثل هذا لايجوز للمسيحي الحديث مع اليهود ومع غير المسيحيين، وهذا أيضاً واضح مما يلي: حرم الرب في متى: ١٨ على المسيحي أن تكون له أي اتصالات مع انسان فاسد لاسبيل إلى تقويمه بقوله: «فليكن عندك كالوثني»، أو وثنيا كما تقول: «فرّ من المسيحي المحروم كنسيا، كما تفر من الوثني»، وهذا أيضاً مأخوذ من مثل القديس يوحنا الانجيلي، الذي عنه قرأنا في «التاريخ اللاهوتي»، أنه عندما ذهب مرة إلى الحمام في إفسوس ليغسل

نفسه، رأى في الحمام سيرينثيوس Cerinthus ، الهرطقي، فقام على الفور بالفرار والخروج قائلاً: «دعونا نفر من هذا المكان، خشية أن يقع الحمام علينا، لوجود عدو الحقيقة هذا به»

ومحرم على المسيحيين التعايش مع اليهود في كثير من القضايا، من جملتها ورد ذكر مشاركة الحمام مع اليهود، وأي واحد يخرق هذا الأمر، إذا كان رجل دين يجرد من ثوبه الكهنوتي، وإذا كان رجلاً علمانياً، فانه يحرم كنسياً، ويجعل من نفسه مساوياً للذين هم أدنى منه شخصياً بالتعايش معهم، هذا وإن رجلاً محروماً كنسياً مثله مثل أي انسان مطرود أو مسلم.

وينطبق القرار نفسه على غير اليهود مثلما ينطبق على اليهود، وعلى هذا يبدو أنه قد تبرهن بهذه الأمثلة أنه غير لائق بمسيحي دخول حمامات يهود أو مسلمين، وانظر حول هذه القضية ماورد في Sum. Anca. Sarracenus

وأمل بأننا نحن الحجاج سوف لن ننال عقوبات القانون هذه، بسبب حاجتنا الماسة، التي فيها غير محرم علينا أكل خبز اليهود غير المخمر، واللحم المقدم إلى أوثان الكفار، وأيضاً بسبب سماح البابا، لأنه منحنا إذناً بالارتحال داخل بلاد المسلمين، وبسماحه لنا نحن الحجاج بالسفر إلى بلاد غير المسيحيين، سمح لنا بالجلوس مع غير المسيحيين إلى مائدة واحدة، وأن نستحم معهم، وكذلك بتناول الدواء منهم، وعلاوة على ذلك، أنه لن ينجم أي خطر عن مثل هذا الاستحمام، كما أنه ليس هناك أي اقتراف لأي ذنب من أي نوع، على أساس أن التعايش معهم ليس مستمراً، وليس عادياً، بل إنه يمر بسرعة، ثم إننا لا يمكننا الحديث معهم على أساس أننا لانفهم لغتهم، ذلك أن اللغة هي أكبر روابط الوحدة، وهكذا انقضى ذلك اليوم.

قدوم المماليك وحديثنا معهم

وعملنا استعداداتنا في اليوم الثالث من أجل المغادرة، لكن عائقاً كبيراً اعترض سبيلنا، لأن جيشاً من الاف كثيرة من المماليك قدم من مصر إلى تلك البلاد، ولذلك غدت المدينة كلها والمنطقة التي من حولها، مليئة برجال مسلحين، ونصبت خيامهم من حول غزة، وكان عددهم ثمانية الاف، وقد جرى ارسال هؤلاء الرجال من قبل السلطان للقتال ضد التركمان في سورية، ولكسر شوكتهم، وقد أقاموا حول المدينة، وعدد كبير منهم دخلوا إلى المدينة لمشاهدتنا، وجاء بينهم هنغار، سألوا عما إذا كان هناك أي حاج من هنغاريا بيتنا، وعندما وجدوا المعلم جون، فرحوا كثيراً وجلسوا في خيمنا معنا، وأكلوا وشربوا معنا، لابل حتى شربوا خمرة، لكن بشكل سري، وكان بعضهم مماليك من صقلية، وبعضهم من كاتالونيا، أي أنهم مرتدون عن المسيحية، وقد قدموا إلينا وطلبوا أن يُسمح لهم بالحديث معنا، وطلبنا منهم جميعاً الدخول، وتحديثنا معهم بشكل اعتيادي، الأمر الذي أزعج ترجماننا كثيراً، وكالينوس المسلم، لأنه يكره المماليك بشكل سري كثيراً، لأن المماليك يمتلكون السلطة عليه وعلى الترجمان، ولذلك نادراً ماملكا الجراة على رفع رأسيهما بحضورهم، ولهذا صار المسلمان: ال Sa-bathytanco والفحل، أي دليلنا، غاضبين منا، لأنها خافا من أن نسب لهما مزيداً من الكراهية من قبل المماليك، لأننا كنا في ذلك الوقت على خلاف معهما، لأنها أخرانا في ذلك المكان، وحاول هذان الرجلان، بحكم براعتهم وخبرتهما أن يبعدانا عن معاشرة المماليك ووجهها اللوم إلينا، فقد خاطبنا Sabathytanco متسائلاً: «هل أنتم حقاً مسيحيين؟» فكيف يمكن أن تكونوا مسيحيين، ولاتستحون من الأكل والشرب مع أناس تخلوا عن الايمان المسيحي بأيان رهيبة؟ وقال الفحل وهو المسلم الآخر: «أنتم بلا شك من المسيحيين، الذين سوف

ينقذهم إيمانهم، وهؤلاء الممالك، بدون شك، سوف يدانون، لأنهم تخلوا عن إيمانهم بعقيدتكم، وبناء عليه، أي شأن لكم بالتعامل معهم؟ وكان هذا الرجل يعتقد— كما تحدثت من قبل— أن كل انسان من الممكن انقاذه بالايان الذي ولد عليه، وليس بايان آخر، وقدمنا في هذه المناقشات ما أمكننا من أجوبة، إنما بعد تناولنا للطعام جاء الممالك ثانية، وتحدثوا معنا، وعندما أخبرناهم بأننا نود أن نرى جيشهم، وخيولهم، وخيمهم، وعنادهم الحربي، أخذونا إلى المدينة إلى اسطبلاتهم التي وقفت فيها أجمل الخيول، وأخذونا إلى خارج المدينة، حيث كانت خيمهم منصوبة وشاهدنا هذا كله باعجاب، وما من أحد تساءل حولنا عندما كانوا يقودوننا، لأنهم بدوا بالنسبة لنا رجالاً لهم مكانتهم وسلطتهم في الجيش، وبعدما فرغنا من مشاهدة جميع هذه المناظر، عدنا إلى مقر اقامتنا في مكاننا حيث وجدنا أدلاءنا غير مسرورين كثيراً منا، الأمر الذي لم نهتم به إلا قليلاً.

واجتمعنا في الصباح الباكر لليوم الرابع، واتفقنا على تمضية النهار في العمل من أجل تحضير أنفسنا في سبيل رحلتنا عبر القفار، وفي شراء الأشياء التي كنا مانزال بحاجة إليها، وذلك بالاضافة إلى ما كنا قد اشتريناه في القدس، وعليّ وقعت مسؤولية أعمال الشراء للجماعتنا كلها، وبناء عليه أخذت مالا من رفاقي، وانطلقت مع رئيسي الجماعتين التاليتين، إلى السوق لشراء المؤن، لكن للمفاجأة لم نجد شيئاً في السوق، ووجدنا جميع أكشاك وبيوت التجار، وحوانيت الطباخين، ومحلات اللحامين، كلها مغلقة، وعندما سألنا عن سبب ذلك، أخبرونا أنه لن يكون هناك سوق طوال الوقت الذي يبقى فيه الممالك في المدينة، لأنه بسبب جشعهم ما من أحد يتجرأ على عرض بضائعه للبيع، لأن الممالك يقدمون ويتناولون كل ما يعجبهم.. ويأخذونه دونما دفع، وما من انسان يتجرأ أن يقول لهم لا، وأبقى شعب غزة دواهم أيضاً في بيوتهم،

وكذلك حميرهم وأبقارهم، وأغنامهم، وماعزهم، تحت إشرافهم، ولم يتركوهم للذهاب إلى المرعى، لأنه كان سيتم الاستيلاء عليهم من قبل العساكر، وبناء عليه [١٧] لم نستطع في ذلك اليوم الحصول على شيء.

وقدم في ذلك اليوم بالذات إلى ساحتنا بعض العقيلات المسلمات، مع خادماتهن، ووجوههن مغطاة كما هي عادت، وقد رغبنا في رؤيتنا، وهكذا خرجنا من خيمنا وأكواخنا ووقفنا في حضرتهم، وقد ضحكنا وتكلمنا بلسان المسلمين، وبما أننا لم نستطع رؤية وجوههن بسبب حجبهن، رجوناهن - من خلال المترجم - إزاحة حجبهن، حتى نرى وجوههن، وعندما سمعنا هذا ضحكنا كثيراً، وأمرنا خادماتهن برفع حجبهن، وعندما أعلن ذلك، ظهرت وجوههن سوداء كالقحم، لأنهن كن حبشيات، وعندما رأينا، تظاهرن بالخوف من سوادهن، وابتعدنا عنهن مع القرف، وسألنا سيداتهن رفع حجبهن، وقد أعلن ذلك، فإذا بهن شقراوات وسيدات جميلات، ولطيفات ومحترمات، وغالباً ما رأينا هذه الأشياء في غزة، وفي الحقيقة غالباً، ما قدمت بعض الفتيات الحبشيات إلى ساحتنا، وتصرفن بشكل غير لائق، وحوهن لن أقول أكثر مما يكفي الآن، ذلك أن عدداً كبيراً من الأحباش يسكنون في الأرض المقدسة، من الجنسين، أرقاء وأحرار.

شراء الأشياء المحتاجة

وفي اليوم الخامس، وقبل بزوغ الشمس، زحف المالك وغادروا غزة، ومع ذلك لم تفتح الخوانيت أبوابها قبل الظهر، كما أنه لم يكن هناك أي سوق للبضائع، لأن اليوم كان يوم الجمعة، وهو يوم نظر المسلمون إليه بقداسة وقد حافظوا عليه كذلك، وتسلمت بعد تناول طعام الإفطار ثمان عشرة دوقية من رفاقي، وذهبت أنا والفارس بطرس، وهو ولزي، وقد ارتديت رداء طائفتي الأبيض، الذي عليه علامة الصليب،

وذهبنا معا خلال الشوارع والأزقة، والسوق، والخوانيت، واشترينا أشياء كثيرة، كنا بحاجة إليها، وفي الحقيقة تحتاج الرحلة خلال القفار إلى عناية عظيمة، وإلى استعدادات أعظم من الاستعدادات للسفر في البحر، لأن الأشياء التي لا يجدها الإنسان في البندقية، يمكنه أن يجهز نفسه بها في أي ميناء وجزيرة، يقف بها، لكن لا يوجد في القفار موانئ ولا خانات، بل فقط مناطق شاسعة معزولة، فيها لا يمكن حتى لحيوانات الحمل العثور على طعام، حسبما سنرى فيما بعد.

كما أننا لن نتسلم أي من، من السماء، مثل بطارقة الأيام الخالية، كما أنه لن تكون هناك مياه من الصخرة، كما أننا لن نتلقى زيتاً من الصخر الأصم، ولا الحجل من مصر، وأحذيتنا وثيابنا لن يكون بالامكان الحفاظ عليها من أن تكون بالية، كما أننا لن نمتلك عموداً من نار، ليضيء لنا في الليل، لذلك توجب علينا تجهيز أنفسنا لمواجهة هذه الحاجيات جميعاً لأيام كثيرة، لاتقل عن خمسة وأربعين يوماً، وذلك حتى نصل إلى الاسكندرية، حاسبين هنا الأيام التي سوف نمضيها في مصر، بسبب أننا لن نبقى في القفار أكثر من خمسة وعشرين يوماً، وبناء عليه شرينا كثيراً من أرغفة الخبز، والسلال، وقد شرينا لكل حاج كمية من الخبز تكفي ثلاثة، وذلك من أجل أن نعطي البداة العرب، الذين سوف نلتقي بهم في الصحراء، ونشتري بذلك مضايقاتهم، وشرينا أيضاً المزيد من جرار الخمرة، والروايا لحمل الماء، وسلالاً كبيرة لنضع فيها قدور الطبخ، وأدوات القلي، وكل شيء يحتاجه المطبخ، واشترينا أيضاً مناصب، وأدوات شوي، وسفود، وثلاثة أقفاص كبيرة مليئة بالطيور والدجاج، مع ديك كبير أبيض وقف فوق القن، ووظيفته إخبارنا بساعات الليل في القفار، وشرينا أيضاً سلالاً مستطيلة، لنضع فيها الزجاج والصحون والأطباق، من أجل الاستخدام على المائدة، وشرينا أيضاً جنبنا، وأشياء أخرى، كما شرينا سلالاً صغيرة مع كلاليب، فيها

يمكننا أن نحمل خبزاً، وأشياء قاسية أخرى، قابلة للأكل، ونعلقها على سرج حميرنا، وجرار ماء، ودوارق مع كلاليتها، واشترينا أيضاً جوالق مليئة باللحم الجاف، وجبنة، وزبدة، وزيت، وخل، وقمح مجروش من أجل الحلوى، وبصل، ولوز، ولحم مملح، وأطعمة محفوظة متنوعة، من كل من الحلوى والمالح، وأدوية للقوم المرضى، وشموع وأحذية، وسلتين مليئتين بالبيض، وأشياء أخرى من أنواع مشابهة، مما يحتاجه الانسان بشكل عام، واشترى سائقو الجمال جوالق من الشعر لإطعام الجمال، وكذلك لإطعام الحمير، وهكذا زدنا أنفسنا في ذلك اليوم من غزاة بجميع الأشياء التي نسينا أن نحصل عليها من القدس، ووقع في هذا اليوم بعضاً من الحجاج مرضى بشكل خطير، إلى حد أنه لم يعد هناك أمل كبير بحياتهم.

مرض جميع الحجاج

وفي أمسية اليوم السادس، عندما حان وقت مغادرتنا، وكان أدلاؤنا جاهزين للانطلاق، وضع الرب يده على الحجاج، ولمسهم، وقهرهم جميعاً تقريباً، لأننا فجأة بتنا جميعاً مرضى بشكل كبير، ووقفت خيامنا مليئة بالمرضى، وكان عدد الذين كانوا مرضى أكبر من الذين كانوا أصحاء، وكان بين هؤلاء المعلم بطرس البولزي، فقد بلغ به المرض إلى حد الهذيان، واللورد فرديناند بارون فون وورنو، الذي كان حتى الآن يشجع كل انسان انبطح مريضاً وبلا حراك، وفي الوقت نفسه عانيت أنا من صداع خفيف، ومن عدم قدرة على التوازن، ومن حرارة عالية في جسدي كله، ومع ذلك لم ألقأ إلى الفراش، بل توليت— بقدر ما أستطيع— خدمة المرضى، وكذلك صار اللورد برنارد فون بريتنباخ— الذي هو الآن عميد مينز— مريضاً جداً إلى حد فقد فيه مظهره الخارجي وعقله، ولم يكن لدينا أمل بشفاؤه قط، وهكذا أمضينا ذلك اليوم في كثير من الاضطراب والتعاسة.

خصومات الحجاج وتمزقهم

وفي اليوم السابع، الذي كان الأحد الخامس عشر، بعد التثليث، سمعنا قداساً قرأه المعلم جون، رئيس الشمامسة، الذي كان أقوى مما كناه، لأنني كنت أنا والأب بولوس الفرنسيسكاني، ضعفاء ومرهقين، إلى حد تعذر علينا فيه قراءة صلواتنا الساعية الرسمية، وتوجس الحجاج أشياء كثيرة أن تكون سبب هذه الأمراض، وبعضهم وضع المسؤولية على الماء، وبعضهم على الطعام، وبعضهم على القمر الجديد، لكن الشطر الأكبر شك في أن يكون Sabathytanco ترجماننا قد وضع بعض السم في طعامنا، حتى إذا مامتنا يمكنه الاستيلاء على جميع مقتنياتنا وبضائعنا، لكنني رأيت وقتها، ومازلت أرى حتى هذا اليوم بأن المرض أرسل من السماء، لمعاقبة فضولنا.

وعندما كان الحجاج في هذه التعاسات، بدأ كل واحد منهم يعمل خططاً متنوعة، وتراجعوا جميعاً عن نيتهم بالحج، فقد رغب بعضهم بالعودة إلى القدس ثانية، وهناك إما أن يشفوا أو يموتوا، وأراد بعضهم الذهاب من خلال فلسطين إلى فينيقية السورية، ومن ثم إلى بيروت، الميناء البحري، والعودة من هناك إلى بلدانهم في أوروبا بالغلايين التجارية التالية، في حين تخلى بعضهم عن جميع هذه المشاريع وأرادوا الذهاب على طول الساحل إلى الاسكندرية والانتظار هناك للبحار، وطلب بعضهم الذهاب إلى القاهرة، والسفر من القاهرة على طول ساحل البحر الأحمر إلى سيناء من خلال أرض مدين، وبعد زيارة سيناء العودة إلى مصر، ومن ثم إلى البحر، وأراد بعضهم البقاء في غزة حتى تتحسن أحوالهم، ومن بعد ذلك يتابعون السير على طريقهم، وحافظ البقية على النية الأولى، وهي الانطلاق مباشرة في الغد، على الرغم من كونهم مرضى.

وبحدوث هذا كله حدث انقسام كبير بين الحجاج، وتمزقت فئاتهم،

لأن أحدهم رغب في تأييد آخر، كان قد اخترع خطة أرضته، وبذلك انعزلا عن البقية، وفي الوقت الذي كان فيه هذين يفكران بهذا، كان آخران يخططان لشيء آخر، والبقية لأمر آخر أيضاً، وكل الوئام الذي كان متوفراً بين رفاقنا تبدد تماماً، وعلى هذه الصورة مضى ذلك اليوم التعيس في تلك المخاصمات المؤلمة، وطوال ذلك اليوم لم نشاهد ترجماننا مما زاد في شكوكنا التي توجسناها حوله.

الميثاق الجديد الذي عمل بين الحجاج

بعد تخصمهم ثم تصالحهم

أطل فجر اليوم الثامن بسرور، وجلب لنا يوماً سعيداً، ولذلك قرأنا في سفر المكابيين الثاني: ٢٢/١: «وأشرق الشمس التي كانت من قبل مخفية بالنجوم»، فقد قامت مريم العذراء الأعظم مباركة، في يوم عيد ميلادها، بطرد جميع الظلام، والاضطراب، والمرض، منا جميعاً، ولأقول بأن هذا على سبيل الإثارة والحكايات، لكن هذا ما حدث بالحقيقة، فعند الفجر استيقظنا نحن الكهنة وأدينا صلواتنا الليلية، والأولى، وجهزنا مذبحنا لإقامة قداس، وقمنا نحن الثلاثة واحداً تلو الآخر بقراءة صلوات القداس من أجل يوم العيد، وصلينا من أجل شفاء قومنا المرضى، ومن أجل توفيق رحلتنا.

وبعد هذه القداسات كان جميع الحجاج حاضرين، حتى كان بينهم الذين كانوا في اليوم الماضي وفي اليوم الذي تقدمه وكأنهم على أبواب الموت، فقد غادروا فرشهم بخشوع كبير، مع الشكر والحمد، وبقوا حاضرين خلال الصلاة كلها، ورقابهم منحنية، حتى النهاية، ولدى فراغنا من القداسات، قمنا بالاستعدادات من أجل طعام الافطار، الذي طبخناه وأكلنا كالعادة، ولم يكن هناك أدنى ذكر لخلافاتنا الماضية، بل أقسم كل واحد منا للآخر من جديد بأننا سوف نقوم جميعاً بالسفر مع

بعضنا خلال القفار إلى جبل سيناء في العريية، وأن نعيش معاً، وأن نموت معاً، وأنا لن نترك رجلاً مريضاً خلفنا، بل سوف نحمل في سلال فوق الجمال الذين لا يمكنهم الجلوس على ظهور الحمير، وأبرمنا في ذلك اليوم ميثاق سلام أحداً مع الآخر، وبتنا أصدقاء لا يمكن تفريقهم، وإخواناً، بقلب واحد، وروح واحدة في الرب

وبعد منتصف النهار جاء ترجماننا، الذي لم نره عندما كنا مضطربين، ولدى رؤيته لنا أننا كنا مسرورين، وشفينا تقريباً، جلب سائقي الجمال مع الجمال، وكذلك سائقي الحمير مع الحمير، راغباً في اقتيادنا على طريقنا، غير أننا لم نوافق على هذا بأي شكل من الأشكال، وبوقاحة وقسوة رددنا عليه، بأننا في ذلك اليوم كنا نحافظ فيه على عيد مهيب وهو عطلة بالنسبة لنا، ولا يجوز لنا مغادرة المكان، حيث كنا يومذاك في يوم مقدس، وعلاوة على ذلك أخبرناه بأننا مكثنا في ذلك المكان لأيام عديدة ضد إرادتنا، وأنا لن نغادر في ذلك اليوم، ولا لسبب من الأسباب، صدوراً عن الاحترام للعدراء المباركة، وتجاه هذا كان الرجل مزعوجاً، وغادر سائقو الجمال والحمير وهم يتمتمون ويزمجرون، وأعلنوا أنهم سوف لن ينتظرونا بعد الغد مهما كانت الأوضاع.

وبشأن ما حدث في اليوم التالي، وهو اليوم التاسع، انظر الرواية حوله في ص ٢٦ ظ.

وصف منطقة فلسطين وفي كم من الطرق جرى استخدام كلمة «فلسطين»

وقبل أن نغادر الأرض المقدسة، ونذهب إلى القفار، سوف أتولى وصف غزة مع منطقة فلسطين، فقد ورد لفلسطين ثلاثة معاني في الكتابات المقدسة، فهي في بعض الأحيان تعني جميع الأرض المقدسة، وبناء عليه فإن القدس وجبالها اسمها فلسطين، وهذا غالباً مانجده

مستخدماً في « حياة الآباء»، وكذلك نجد أن الأرض المقدسة كلها تدعى باسم سورية، لأن كل من اليهودية وفلسطين ها جزئين كبيرين من أجزاء سورية.

وثانياً: يطلق على جزء محدد من منطقة الجليل، قرب جبال جليوع، اسم فلسطين.

وثالثاً: يقال بالعادة للمنطقة القائمة على شاطئ البحر فلسطين، أكثر من سواها، وهي المنطقة القائمة ما بين سفوح جبال بني اسرائيل، التي تحدها من جهة الشرق، كما يحدها البحر الكبير من جهة الغرب، ومن الشمال بجبال افرايم وبغزة من الجنوب، وأطلق على هذه المنطقة بشكل صحيح اسم فلسطين، وقد قال ايزودورس حول فلسطين: «هي منطقة واسعة، فيها يجري البحر الأحمر من الشرق، وهي المحدودة من جهة الجنوب باليهودية، ويحدها من الشمال بلاد صور، ومن جهة غروب الشمس بالبحر وبمصر»، وفي العصور القديمة عرفت بفلسطين صدوراً عن اسم مدينة عسقلان، التي عرفت باسم فلسطين، واشتقاقاً من ذلك أطلق على سكان تلك المنطقة اسم الفلسطينيين.

وكانت عسقلان في الأيام الخوالي حاضرة فلسطين كلها، وبعد ذلك، صارت قيسارية القائمة على ساحل البحر الحاضرة، والآن غزة هي المدينة الرئيسية.

وفي العصور القديمة، كانت هذه البلاد كلها مليئة بالعمالق، وكان شعبها قوياً في كل من البحر والبر، لأنه امتلك موانئ بحرية، ففي القديم امتلكت البلاد خمس مدن رئيسية وحوضر، وهذا ماكنت قد ذكرته من قبل، وبسبب قوة العمالق وشجاعتهم لم يكن بنو اسرائيل قادرين على تدمير الفلسطينيين، ومن ثم تملك هذه المدن الخمس، وكانت فلسطين فيما مضى تمتلك كثيراً من الديرة والرهبان، وقد قرأنا

عن معجزات عملت من قبل الرهبان الذين سكنوا في فلسطين غزة أو غزرة مدينة الفلسطينيين أو شعب فلسطين

لمدينة غزة اسمين، فباسم غزة معروفة بشكل عام في الكتابات المقدسة، وجاء الحديث عنها باسم غزرة في سفر المكابيين الأول: ٧، وبالعالم بعد ذلك، وهي بهذا الاسم تدعى الآن من قبل جميع الناس، وغزرة، هي الحصن، والقلعة التي اقتحمها يهوذا المكابي (سفر المكابيين الثاني: ١٠ / ٣٢....)، ومعنى كلمة غزة هو الكنز، لأن الملك قمبيز، عندما كان ذاهباً للإستيلاء على مصر، أبقى جميع كنوزه في غزة، ومن هنا نالت المدينة اسم غزة أو غزرة، لكن مالذي كانه اسمها قبل قمبيز، هذا ما لم أكتشفه، ولربما كانت تعرف بهذا الاسم حتى قبل قمبيز، لأن أقدم الكتابات المقدسة تدعوها باسم غزة، من ذلك على سبيل المثال ماورد في يشوع: ١، والقضاة: ١.

وكانت المدينة في القديم ملكاً للعناقيين، فهذا ما ذكره جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، وقد سكن فيها الكفتوريون (الثنية: ٢ / ٢٣) بعدما قتلوا سكانها الأصليين، وقد كانت غزة من حصّة سبط يهوذا، لكن ذلك السبط لم يستطع السيطرة عليها، بسبب أن العمالة قد قاوموا بشجاعة عظيمة، وقد قال الأنبياء كثيراً حول هذه المدينة، كما قرأنا في: إرميا: ٤٧ / ١ وفي زكريا: ٩ / ٥، وفي صفنيا: ٢ / ٤، وقد وردت أخباراً كثيرة حول تدميرها، وتدمير المدن الفلسطينية الأخرى، وهكذا نجد إرميا في السفر المذكور أعلاه، قد تساءل في إحدى النبوءات، وقال بأن غزة سوف تكون كومة إلى الأبد، لكن هذا القول تعلق بغزة القديمة، الذي تعرضت في القديم إلى دمار كامل، وصار اسمها «صحراء»، كما جاء في أعمال الرسل: ٨ / ٢٦.

وغزة في هذه الأيام مدينة متميزة في فلسطين، وهي كبيرة بقدر حجم القدس مرتين، ومكتظة بالسكان، ومزدهرة، وإذا ما أردنا وصفها بالعامية هي خندق مليء بالزبدة، وكل الأشياء التي يحتاجها الانسان من أجل الحياة البشرية وافرة، ورخيصة هناك، وهناك كثيراً من أشجار النخيل، إلى حد بدت فيه المدينة وهي قائمة في غابة، ويوتها بائسة ومبنية من الطين، لكن مساجدها وحماماتها فخمة جداً، وهي محاطة بسور، وفي السور كثيراً من الأبراج العالية، وهي مدينة ساحلية وإن كانت ليست قائمة على شاطئ البحر، بل تبعد عنه مسافة ميل واحد، وفي الليل عندما يكون كل شيء ساكناً، اعتدنا ان نسمع في ساحتنا أصوات هدير البحر الهائج.

ويسكن في غزة أعداد كبيرة من التجار، وهناك كثيراً جداً من الطبّاعين، كما أن هناك مزيجاً مدهشاً من الشعوب، ويوجد فيها أعداد كبيرة من الأحباش، مع كثير من البداة العرب والمصريين، والسوريين، والهنود، والمسيحيين الشرقيين، لكن لا يوجد فيها لاتين، وفي أواخر أيام الصليبيين، كان هناك كرسيّاً جيداً ومحترماً لأسقف، ولقد لاحظت وجود أمرين في مدح هذه المدينة: أنا لا أعتقد أنني رأيت أي مكان أو مدينة يرغب الانسان بها — لأنها رخيصة — مثل غزة، والأمر الثاني هو أن الناس هناك مسالمين جداً، فما من أحد سبب لنا أي ازعاج أو عذبا مثلما فعلوا بنا في الرملة ويافا، ذلك أننا تجولنا يومياً في شوارعهم ونحن نرتدي صلباننا، وقمنا بأعمال معهم دون التعرض لأدنى درجة من المضايقة، وسرت في بعض الأحيان مسافة طويلة من ساحتنا، وحيداً، مرتدياً ردائي الأبيض، ومع ذلك لم أسمع أية كلمة عدوانية، لكن هذا لم يحدث لجميع الحجاج الذين أقاموا هناك قبلنا، ذلك أنني قرأت في كتب حجاج بأن بعضهم قد تعرضوا لمضايقات كبيرة هناك. ويكفي ماقلناه عن هذه المدينة.

مقال حول ثلاثة موضوعات هي: الحمير، والجمال، والقفار نفسها، وضعته هنا قبل الدخول إلى القفار

قبل أن أدخل إلى القفار، ولكي يكون حجاجنا في القفار فاهمين بوضوح أكثر، يتوجب وصف ثلاثة أشياء، وهي أشياء ترد الإشارة إليها الآن وفيما بعد: وأول ما ينبغي وصفه هو الحمير وسائقي الحمير، وثاني ما يتوجب وصفه هو الجمال وسائقي الجمال، والأمر الثالث، هو وصف القفار، أي الصحراء وسكانها.

الحمير حيوانات لها طبيعة خاصة موائمة من أجل عبور الصحراء أكثر من الخيول، فالحمار دابة يمكنها حمل الأثقال، وتحمل التعب، والاكتفاء بالطعام العام وبالقليل منه، وهو يلتقط طعامه من بين الأشواك، والقتاد، والعوسج، ويشق طريقه بين النباتات الشائكة والكثيفة، ولهذا السبب تكره الطيور الصغيرة الحمار، ويمقتونه مثل مقتهم للبوم، لأنه يعبث بأعشاشهم، وبيوضهم وبصغارهم في النباتات الشائكة، لأنه يلتقط كل شيء ويأكل ويبحث بين النباتات الكثيفة، ويرمي بالأعشاش، وعندما ينهق يخيف صغار الطير، وشرابه هو الماء، وهو يفضل الماء العكر، والكثيف، والمليء بالعلق، والذي يشربه هو قليل، وإذا لم يكن قد شرب من ماء خاص من قبل، فإنه يرفض الشرب، مع أنه قد يكون في غاية العطش، ويمكنه أن يعيش وأن يعمل لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال من دون شرب، ولا يمكنه تحمل البرد الشديد، ولذلك هو لا ينجب في البلدان الباردة مثل بلاد بنطش Pon-tus، لكنه يتكاثر كثيراً في البلدان الحارة، ويخاف من عبور المياه وتلويث حوافره بالماء، ولا يقوم بعبور الجسور التي منها يستطيع رؤية المياه دون أن يرتجف، وإذا مارأى المياه من خلال العوارض يحزن ويقف دونها حراك، ولا يمكنه السير بشكل جيد في الأراضي الموحلة، لكنه يسير على الأراضي الجافة بشكل جيد وأمين، حتى وإن كانت الأرض وعرة جداً،

ويمكن أن تكون خطرة جداً للخيول، وهو في المناخ الماطر باهت وبلا اندفاع، ولذلك يوجد في الشرق وفي مصر كثيراً من الحمير الجيدة، لأنه لا يوجد هناك لابرذ، ولا مطر، ولا وذل، ولا يمكن أن يتوفر في بلادنا حمير جيدة، لأن جميع هذه الشروط معاكسة، ويعرف الحمار صاحبه، وراكبه، وطريقه، وأماكن توقفه، وصوت صاحبه، ومعيار وحدود رحلته اليومية، وعمله، والساعة من أجل العمل، والساعة من أجل الراحة، وذلك بشكل أفضل من أي حيوان آخر، ويحافظ على ذلك كله بشكل دقيق جداً، وهو حيوان لطيف جداً، وهو موثوق لمرافقة الإنسان أكثر من الحصان والبغل، والمظهر الخارجي للحمار يغش كثيراً من الناس أثناء اختيارهم لحميرهم، لأنه في الغالب الحمير القبيحة أكثر في مظهرها هي الأفضل، وقد يكون العكس صحيح، ومن أجل مثال على هذا، انظر ماتقدم حول اختياري للحماري.

أي نوع من الناس هم سائقي الحمير

ويطلق على الذين يمتلكون حميراً للإيجار اسم سائقي الحمير، وكان سائقوا الحمير الذين ذهبوا معنا خلال القفار من المسيحيين ذوي الزنار، ويعرفون باسم آخر هو الكرج (جورجيون)، وهم هراطقة مثل الاغريق، ومنهم هناك حشوداً كبيرة في البلدان الشرقية، ذلك أن جميع الناس يخشونهم، وأثناء تجولهم من منطقة إلى أخرى، يفعلون ذلك بلا خوف، ولا يدفعون خفارة أو مكوس، وبلادهم الأصيلة وأراضيهم واقعة قرب جبال القوقاز، على مسافة بعيدة من الأرض المقدسة، وهم أناس ذوي لياقة، ومظهرهم حضاري، وهم باردون بطباعهم ليسوا سريعبي الغضب وفقدان الصبر، ويتم إكتراء هؤلاء لتوجيه الحجاج وقيادتهم من القدس إلى مصر، على حميرهم، لأنهم مسيحيين، ويعرفون لغات وعادات الشعوب، وهم يرحلون بحرية في بلادهم، وهكذا فإن كل من الحمير وسائقي الحمير، كل في مجاله، موثوق بشكل خاص من

أجل عبور القفار، فهذا ما يعلمك الحج إياه أثناء قيامك بالسفر.

طبيعة الجمال وخصائصهم

الجمال حيوانات حسنة المواءمة بشكل جيد ومناسبة بشكل خاص لعبور الصحراء، وهذه الدواب غريب وجودها وشاذ في بلادنا، ولكنها عامة كثيراً في بلدان ما وراء البحر، وترعى بقطعان كبيرة جداً مع بعضها، ويطلق على الجمال هذه التسمية اشتقاقاً من كلمة Camyn التي معناها «قصير» أو «منخفض»، لأنه ينوخ أثناء تحميله، وبذلك يجعل نفسه منخفضاً، أو أن الاسم مشتق من Camyn، الذي معناه «محدود» لأنه يتحدث عندما يكون محملاً، أو لأن له ظهر محدود، وهناك نوعان من الجمال، هما البختري والجمال العربي، وللجمال العربي سنامين (كذا) على ظهره وهو أصغر وأبطأ من النوع الآخر، وللجمال البختري سنام واحد على ظهره، عليه يحملون الأثقال، وسنام آخر على صدره، وعليه يرتاح، وهذا الجمال أصغر من الجمال العربي، وهو سريع جداً، وأعتقد أن الجمال البختري عرفت أيضاً باسم الجمال الوحيدة السنام، بسبب سرعة خطواتها، لأن Dromedus تعني «طريق» أو «منحى»، ويمكن لهذا النوع من الجمال أن يسير مائة ميل في اليوم، وورد ذكر الجمال الوحيد السنام في إشعيا: ٦٠، ولكل جمل وحيد السنام سائق واحد، ونقرأ عن معجزة حول جمل بختري كان له حجم هائل، في «حياة القديس هيلاريون»، الفصل: ١٩، وقال فنستوس في مصنفه Speculum Naturale — الكتاب ١٩، الفصل: ٢٧، بأن من الممكن أن الذي له سنام واحد على ظهره يسمى جمل، لكن النوع الآخر يدعى باسم الجمال ذي السنام الواحد، ويجري بسرعة مذهشة، وله سنامين على ظهره (كذا)، وعلى هذا من الواضح أن الجمال بسنام واحد تسمى أحياناً الجمال ذات السنام الواحد، وذلك مثلما يسمى النوع الآخر بذئ السنامين، وهناك أنواع كثيرة من الجمال، تختلف كثيراً بالحجم وبالخطوة.

والجمل حيوان مشوه، له سنام، وله رقبة طويلة، بسبب طول أرجله، ومع ذلك يمكنه الوصول إلى الأرض، والتقاط طعامه، وهو يسير ببطء، لكنه يتحرك بسرعة، وهو لا يركض مثل الحصان، لكنه يعمل خطوات طويلة بأرجله الطويلة، مادام الانسان قادراً على أن يفرق بين قدميه، وأثناء ترحاله بشكل متواصل، لا تتورم أخفافه قط، وأرجله مغطاة دوماً بلباد جسدي، لذلك لا يمكنه تحمل السير فوق الحجارة، وإذا توجب عليه السير لمسافة طويلة فوق أرض صخرية لابد أن يحتاج إلى صنع نعل له، لأنه إذا جرح نعله يفقد الحيوان قدرته كلها وتوازنه، وعلى هذا يسير الجمل بشكل جيد فوق الرمال، وبشكل سيء فوق الحجارة، ذلك أنه يمشي فوقها ببطء شديد في خطواته مع كثير من الخوف، ومثل هذا تراه يسير بسرعة فوق أرض جافة عطشى، لكنه يسير بشكل سيء فوق أرض مبللة أو منزلقة، وهو يسافر بشكل جيد في المناخ الجاف الدافئ، لكنه يرتحل بشكل سيء في البرد، ولذلك لا يمكنه العيش طويلاً في البلدان الباردة والرطبة.

وللجمل رأس صغير، لابل صغير جداً، بالنسبة لجسده، وهو بدون قرنين، غير أنه يمتلك أنياباً في الفك الأعلى مثل الحيوانات القرنية، وللجمل عينان كبيرتان ومخيفتان، ويبدو دوماً حيواناً حزيناً ومنزعجاً، وعينه مثل منارة ملتهبة، واشعاعات كثيرة تنعكس منها، وكل شيء ينظر إليه الجمل يبدو له عظيماً وضخماً، ولذلك يظهر أنه ينظر إلى كل شيء بدهشة وحذر، على هذا عندما يتوجه انسان نحوه، يبدأ الحيوان بالارتجاف، ولهذا يتصور الانسان بأن الحيوان يرتجف، لأن الانسان المقبل عليه يبدو بالنسبة إليه أكبر بأربعة أضعاف مما هو حقيقة، ولولا أن الرب قد أمر هذا الحيوان لما أمكن تدجينه وجعله منضبطاً كما هو الآن، وله فم قذر وغير نظيف، وواسع جداً، مع أسنان منخفضة طويلة، وعندما يصرخ، لأنه واقع في اضطراب، يفتح فمه، ويهز رأسه،

ويرفع رقبتة الطويلة، ويجرّكها نحو الأمام ونحو الخلف، ولذلك فإن الإنسان غير المعتاد على هذا يضطرب ويخاف.

ووفقاً لشريعة الرب، الجمل حيوان غير نظيف، لأنه له حافر غير مشطور، مثل الحصان، وهو مجتر مثل الأغنام، وهو يأكل طعاماً قليلاً، ويعلف على القش، وعلى لحاء الأشجار وأوراقها، ويأكل الشعير أثناء العمل، ويتتلع طعامه بسرعة، ويضعه جانبا حتى يتمكن من مضغه ثانية طوال الليل كله، وللجمل أكثر من معدة، ففي المعدة الأولى يتلقى الطعام غير المهضوم، ويشرع في الثانية بهضم الطعام نفسه، ويقوم في الثالثة بهضم الطعام بكمال أكثر، وينهي الهضم في المعدة الرابعة، وهذه المعد الأربعة ضرورية بسبب خشونة طعامه، ولأنه يمضغ الطعام، إنما قليلاً بأسنانه، وتحب الجمال المياه القذرة، وتتجنب المياه الصافية، وعندما تكون المياه ليست موحلة بما فيه الكفاية، يقوم بإثارة الطين بالضرب بقدميه وبتحريكهما حتى تصبح المياه كثيفة، ويمكن للجمل تحمل العطش لأيام كثيرة، وإنه لأمر مدهش أن أقول إنه يمكنه السير اثني عشر يوماً من دون ماء، لكن عندما يعطى الفرصة للشرب، يملأ نفسه بما فيه الكفاية، لاطفاء العطش الماضي، وليعد نفسه لبعض الوقت المقبل.

ويعيش الجمل عمراً طويلاً، ويمتد هذا أحياناً إلى مائة سنة، وذلك ما لم يؤخذ إلى مناطق أجنبية، وأن يصاب بمرض من خلال تغيير المناخ، والعيش بمناخ غير معتاد عليه، ويقولون بأن السبب في عيش الجمل لمدة طويلة هكذا لأنه ليس له مرارة، فالمرارة — تبعاً لأناكساغوراس Anaxagoras — هي سبب جميع الأمراض الصعبة، وللجمل ذاكرة ثابتة تجاه الأعمال السيئة التي تعمل له، وإذا ضرب سوف يحتفظ طويلاً بحقده حتى يجد الفرصة المناسبة فينتقم للأذى الذي كان قد تلقاه.... ويقال بأن الجمل له طبيعة عاطفية وحنونة إلى حد أنه لو وجد في القطيع

أو بين مجموعة جمل مريض ولا يمكنه الأكل، يمتنع الآخرون عن الأكل تعاطفاً معه.

والجمل دابة للحمولة، ومعين لحمل الأثقال، وهو يفرح بفعل ذلك، ولهذا لديه كراهية طبيعية وعدم محبة للخيل، وللبغال، وللحمير، لأنهم يأخذون الأثقال ويحملونها وهي الأثقال التي يعتقد أنها عائدة له وحده، ولذلك إذا ماسار حمار محمل أو فرس أمام جمل، لن يتقدم ذلك الجمل بأي حال من الأحوال، بل يقف دونما حراك، وهو يبدو منزعجاً، ثم انه لن يتحرك حتى تؤخذ الدابة الأخرى وتزاح من أمامه وتوضع خلفه، وبما أن الحمير تسير أسرع من الجمال، وإذا كانت هناك رحلة تحتاج إلى اسراع بالخطى، يمدون مقود كل جمل بحبل إلى رقبة حمار، وبذلك يمكن للجمل أن يُجر من قبل الحمار الذي يسير قبله، وذلك حسبما قرأنا في اسطورة القديس جيروم.

وعندما يراد تحميل الجمل، يربت بلطف على ركبتيه، فيقوم على الفور بحني مفصليه، وينوخ ويتلقى حملة، أو إذا ما وضع انسان يده على رقبة الجمل، وصفر، ينوخ نحو الأرض ليجري تحميله، ويجلس بهدوء لمدة طويلة، ويسمح لأحمال ثقيلة أن توضع عليه، وأثناء ذلك لا يحرك جسده، بل يهز رأسه، ويرفع صوته عالياً عندما يشعر بأنه جرى تحميله أكثر مما ينبغي، وهذا ما تفعله الجمال الصغيرة، لكن لا تفعله الجمال الكبيرة.

وعندما يجري تحميل عدد كبير من الجمال في وقت واحد، يصدر عنها هدير مخيف، يمكن سماعه من مسافة بعيدة في الصحراء أثناء الليل، والأثقال التي تحملها الجمال لا يجري حزمها على ظهورها بأحزمة من تحت بطونها، كما أن قتبها لا تثبت مثل سرج الخيول والحمير، بل يوضع القتب بكل بساطة فوق السنام، من دون أي رباط، وفوق القتب توضع الأثقال التي تتدلى نحو الأسفل من على الجانبين بوزن متساوي،

وإذا ما شعر الجمل بأن الوزن أثقل على أحد الجانبين، لا يتقدم سائراً، بل يمدّ عنقه، ويشير بصراخه إلى الجانب الذي يحمل وزناً أثقل، وإذا لم يتوفر شيء لمعادلة الوزن، يتناولون حجارة، يعيدون التوازن بها.

وإذا ما شعر الجمل بأنه محمّل بوزن أعظم مما اعتاد أن يحمله، وقتها لن يتحرك نحو الأمام مالم يجري تخفيف الحمل، لأنه لا يتقبل حملاً فوق طاقته، وعندما توضع الأثقال على ظهور الجمال يقوم سائقوا الجمال بالحداء بأصوات عالية لتهدئة الدواب، ولدى الفراغ من التحميل، ينبعث الجمل قائماً بسرعة، ليأخذ طريقه مسرعاً، وكأنه مسرور، ويسير من دون توقف حتى مكان الاستراحة المعتاد، فهو عندما يصل إلى هذا المكان، يرفض التقدم، ويطلب بانزال الأثقال من على ظهره، ولا تساق الجمال على الطريق لبالعصي ولا بالأسواط، بل يسير سائقوا الجمال خلفها وهم يحدون هكذا: Han na yo yo on ho ho oyoo وعندما يشرد جمل ويتعد عن الطريق، يعود إلى طريقه بإشارة خفيفة، باليد، لأنه لا يتحمل الضرب ولا سوء المعاملة، وعندما يضطرب الجمل يصدر صوتاً غريباً، وفي بعض الأحيان — مع أن ذلك نادراً جداً — يصبح هائجاً فيرمي بأحماه، ومن ثم يركض هارباً بسرعة كبيرة، ونادراً ما يسمح لنفسه بالامساك. وواضح أن الجمل يعتني بعناية كبيرة بحمله، خشية أن يقع، ذلك أنه يسير بحذر شديد، خوفاً منه أن يجرح قدمه، أو أن يسقط حملة، لأنه يوجد تحت قدم الجمل خف لبادي من الجلد واسع، وهناك عبر قسم الظلف قطعة من الجلد، مثل التي هي موجودة على قدم الأوز، ولذلك تراه يسير باحتراس، وهو دوماً يعرف الطريق الذي سار عليه من قبل، من دون أي دليل، حتى وإن كان الطريق مغطى بالغبار أو بالرمل المنقول من قبل الريح، وهذا أمر محتاج في القفار، حين لا يكون هناك طريق قد بقي مرئياً، بسبب تحرك الرمال، وهذه الحيوانات ليست فقط مدربة لحمل الأثقال، بل هي معتادة على

الحروب، ولهذا القصد وجدوا أن الناقة أقوى من الفحل، ويكفي ماقلناه عن الجمال.

سائقو الجمال

سائقوا الجمال هم أصحابها، وكان سائقوا الجمال الذين قدموا معنا عبر الصحراء، قد جرى اكترائهم من قبل ترجماننا من قرى فلسطين، الموجودة على حدود العربية، ولقد كانوا قوماً من الريف، وسود مثل البداة العرب، وكانوا عبيداً للمسلمين وللبداة العرب، وقد تحالفوا معهم فيما بعد، وكانوا يدينون بديانة محمد ﷺ، وفي الحقيقة لا يقبل البداة العرب الذين يسكنون في القفار أن يكون سائقوا الجمال، أو الذين يتولون تربيتها والعناية بها من دم عربي خالص، بل انهم يدعون هؤلاء الناس يعبرون بسلام لأنهم كانوا متحالفين معهم، ومتفقين معهم بالدين، والملبس، والعادات، ولهذا السبب وجدنا أن سائقي حميرنا، الذين كانوا مسيحيين شرقيين، قد ربطوا أنفسهم — أثناء عبور الصحراء — بالملبس وبالمظهر، بسائقي الجمال، حتى يكونوا أقل عرضة للازعاج من قبل البداة العرب، وكان سائقوا الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، دائمي التخاصم أثناء رحلتنا، ومع ذلك لم يضرب أحدهم الآخر، وقد حافظوا على سلام عميق معنا، وذلك بسبب المال الذي يأملون بالحصول عليه منا، وبشأن سائقي الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، سوف أقول المزيد فيما بعد، وسوف أتولى الآن وصف القفار.

وصف للقفار، المكان المنعزل أو الصحراء، وطولها وعرضها،
وقحلها وفي سياق وصفها سنتولى شرح الاستخدامات الأربعة
للکلمة

من المتوجب وصف القفار الشائعة، التي على الانسان العبور خلالها أثناء سفره من الأرض المقدسة إلى جبل حوريب، وينبغي أن نعلم أن

هذه القفار هي جزء من العربية الكبرى، لأن هناك ثلاث مناطق، متصلة إحداها بالأخرى، يطلق عليها اسم العربية، وأولها جبل لبنان ولبنان الشرقي، مع جميع المنطقة من حولها، والتي تدعى العربية العالية، لأن تلك البلاد تنتج البخور، والأشجار التي تعطي البخور، ثم إن العطور الأخرى وافرة هناك، ويحد هذه المنطقة من الشمال الإيطورية والطرخونية، اللتان تشكلان شطرين من الجليل، كما يحدها من الجنوب دمشق، ولهذا السبب يقال أحياناً لسورية الدمشقية، العربية، وعلى هذا الأساس قبل للحارث (كورنشا الثانية: ٣٢) ملك العربية، مع أنه كان ملك دمشق.

ثانياً: يطلق على بلاد أبناء مآب، وعمون، وحبشون، ومملكة سيحون، ومملكة عوج، وملك باشان، وجميع جبل جلعاد، وكل المنطقة فيما وراء الأردن، اسم العربية الثانية، وهي تتصل بالأولى إلى الجنوب منها.

ثالثاً: تبدأ من هذه النقطة العربية الثالثة، التي يقال لها العربية الكبرى، وهي تمتد خلال قفار واسعة جداً من نهر الفرات العظيم حتى البحر الأحمر، ونهر النيل في مصر، وفي هذه العربية باتجاه الشرق، توجد مكة مدينة محمد ﷺ، وهناك باتجاه الجنوب جبلي سيناء وحوريب، وهذه العربية واسعة جداً، وتحوي على أضخم القفار التي تشكل مناطق متنوعة.

وفي الحديث بشكل عام عن العربية، فإنه يمكن للإنسان أن يقول، حسب الخرائط التي وضعها بطليموس، بأن المنطقة جميعها، التي تعرف باسم سورية الدمشقية، وذلك فيما وراء لبنان، هي العربية الأولى، واسمها عربية سورية، أو عربية دمشق، ويحد هذه العربية من الجنوب، العربية الحجرية، أو العربية الثانية، وتتصل هذه العربية بذلك الامتداد الواسع جداً، أي العربية الصحراوية، الذي هو العربية الثالثة، ومجدداً يحد هذه العربية، العربية المباركة، وهي منطقة واسعة وجليلة، فيها تقوم

مدينة محمد ﷺ المتقدم ذكرها، وتضم هذه العرييات الأربع مناطق واسعة جداً، وتحوي بين حدودها: البحر الكبير، والخليج العربي أو البحر الأحمر، والخليج العربي، ويمر بها أنهار الجنة الأربعة: النيل، والفرات، والدجلة، وPison، هذا وكما أن العريية الصحراوية هي أرض بلاثمرات، وهي بلاد سيئة جداً، ومع ذلك فإن العريية الأخرى التي اسمها العريية المباركة هي مثمرة جداً، وأرض فائقة الجودة، وقد كان اسمها فيما مضى جيدروسيا Gedrosia، وهي ليست بعيدة عن مصر، فيها الذهب بكميات وافرة، وهو يستخرج بعد الحفر من أخاديد، مصنعة من دون أي فن، وعلى هذا لايجري تذويبه بالنار، بل يوجد في الأرض بوضع نقي طبيعي، على شكل قطع على حجم الجوزة، واسم هذه العريية أيضاً سبأ، ومن بلادها يتم انتاج جميع الاشياء التي تعد في بلادنا ثمينة جداً، وهي غنية جداً بجميع أنواع القطعان والأسراب.

فضلاً عن هذا هي متفوقة على جميع الدول بالعطور والروائح الطيبة، التي تنتجها تربتها في كل مكان، وينمو في الأجزاء القريبة من البحر البلسم والسنا، ويوجد في الغابات أشجار كثيرة من المر، والبخور، ومثل ذلك هناك أشجار النخيل، والقصب، والقرفة، وماشابه ذلك، وفي الحقيقة مامن أحد يمكنه القول كم من مختلف أنواع الأشجار هي التي جمعتها الطبيعة بكرم هناك، وحول هذا الموضوع يمكن للقارئ أن يعود إلى ديودور، الكتاب الثالث، الفصل: ١٢، والكتاب الرابع، وهذه البلاد المباركة والخصبة تختلف عن العريية المجاورة لها، أي العريية الحجرية والقفار، وكأنها تبعد عنها ألف ميل.

وتتطلع عريية الصحراء هذه نحو الغرب، وهي مليئة بالرمال، إلى حد أن الذين يعبرونها يقودون أنفسهم بنجم القطب، وذلك مثلما يفعل البحارة في البحر، وفي هذا المكان سوف أتحدث فقط عن قفار سين،

التي تبدأ عند الأرض المقدسة، وسفوح جبل سيناء، وتنتهي عند شاطئ البحر الأحمر في أرض مدين، وكون جبل سيناء موجود في العربية واضح من كلمات الرسول في غلاطية: ٤، حيث قال بأن جبل سيناء في العربية، وهو يقابل القدس الحاضرة وبالطريقة نفسها قال هيمو Haymo (ت ٨٥٣) في شروحه (على نشيد سليمان وسفر الرؤيا): « سيناء جبل في العربية، وهو بسبب ضخامته يتاخم مناطق متعددة، وتتصل حدوده بجبال أرض الميعاد، التي فيها القدس»، وهذه القفار كلها اسمها سين، ومع ذلك هناك كثير من القفار المتميزة مثل قفار: إيثام، ومارة، وإيليم، ودفقة، وقفار فيديم، وحضيروت، ورثمه، وقادش، وهكذا دواليك، حسبما ورد في سفر العدد: ٣٣.

ولهذه القفار الآن أسماء عربية أخرى، كما سوف يظهر في سياق الرحلة لدى الحديث عن الأماكن التي استراح فيها الحجاج، ونصبوا بها خيامهم، وتحديثنا الكتابات المقدسة في أماكن كثيرة عن هذه القفار، وعن أنواعها وأوضاعها، وعن الأشياء التي تنقصها، ولنلاحظ الآن أن المكان يقال له قفار، بطرائق أربعة — أولاً: يقال للمكان قفر أو صحراء، عندما تستطيع القطعان أن تسكن هناك، إنما ليس كما قال اشعيا: ٣٥ «تفرح البرية والأرض اليابسة، ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس»، فهذا قد يحدث عندما يأتي الذين سوف يفلحونها، وكذلك بنى ملوك الأرض ومشيرها فيها أماكن منعزلة لأنفسهم (أيوب: ٣/١٤) ذلك أنهم حرثوا الأماكن المهملة، وشقوا الأراضي المراحة، وذلك حسبما قال الرب في (إرميا: ٤/٣): «افلحوا أرضكم المراحة».

وهكذا أمر يوشع أبناء يوسف بتسليق الجبال غير المزروعة والمهجورة، وقطع الأشجار، وتنظيف المكان، واعداد مكان للسكنى فيه (يسوع: ١٧/١٥، ١٧—١٨)، علاوة على ذلك إن الأماكن والمناطق التي كانت من قبل مسكونة، لكنها الآن غير مسكونة، يطلق عليها اسم

القفار، كما ورد في نحميا: ٢، فقد قيل عن المدينة المقدسة، حين لم تكن آنذاك مدينة: «القدس خراب»، وجاء كذلك في اشعيا: ١: «بلادكم خربة، مدنكم محرقة بالنار»، وقد حدث هذا بسبب الناس الآثمين، ولذلك جاء في المزمور قوله: «والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها» (المزمور: ١٠٧/ ٣٤)، وبناء عليه نقرأ في متى: ٢٣: «هوذا بيتكم يترك لكم خراباً»، وفي المزمور: ٦٩/ ٢٥: «لتصر دارهم خراباً».

والطريقة الثانية التي يمكن للمكان أن يسمى بها قفراً، هي فقط لأن الناس لا يسكنون هناك، مع أنه قد تكون هناك بساتين، وحقول، ومروج، ومراعي، وحدائق، وماشابه ذلك، كما جاء في لوقا: ١٥، قوله: «يترك التسعة والتسعين شاة في البرية»، أي في مكان المرعى، وقد اقتاد موسى شعبه إلى الجانب الخلفي من الصحراء (الخروج: ٣/ ١) أو إلى المراعي الخصبة، وعن مثل هذا النوع من القفار قال إشعيا: «سوف أعمل من القفار هناك (أي قفار الأرض المقدسة) مثل أماكن البهجة، ومن أماكنها المقفرة مثل جنات الرب» (اشعيا: ٤١؟).

وثالثاً: ان المقصود بالقفار، أماكن الغابات أو الحقول، المغطاة إما بالحشائش أو الجرداء، التي لا يسكنها الناس، بل التي تسعى فيها الأسود، والديبة، والغزلان، والذئاب، والحيوانات الأخرى، من وحوش البرية، وذلك حسبما قرأنا في انجيل مرقس: ٣: «ودفعت الروح يسوع إلى القفر.... فكان مع وحوش البرية»، وبمثل هذه القفار لا يمكن للناس العيش، لكن يمكنهم ذلك، إذا نمت هناك أشجار، وتوفرت هناك مياه تمكن الحيوانات من العيش هناك، مثلما كان عليه الحال في قفار يوحنا المعمدان، وفي قفار القديس جيروم، لأن من المؤكد أنه حيث وجد في أي مكان، أسد، ودب، وذئب، ووعل، وأمكنهم العيش فيه، يمكن للانسان أن يعيش هناك، وفي أي مكان يستطيع الانسان أن يطعم نفسه، يمكن لحيوانات البرية أن تفعل مثل ذلك،

والفارق موجود فيما يلي: ليس من الضروري للحيوانات استخدام النيران في أطعمتها، في حين لا يستطيع الناس العيش من دون نار، هذا وقال بليني في الكتاب السادس، بأن النار لم يُعرف استخدامها في الشرق من قبل عدة شعوب حتى أيام بطليموس، ملك مصر، فوقتها حصلوا على النار، لكن المعلم أنطونيوس لا يعتقد بأن أولئك كانوا بشراً حقيقيين، لأنه لم يؤمن بأن الانسان يمكنه العيش من دون نار(التاريخ - الجزء الأول، العنوان الأول، الفصل الخامس، الفقرة الأولى).

ورابعا - وهو الأكثر احتمالاً - أن شطراً من العالم يدعى باسم قفار، لأنه لا ينمو هناك شيء من أجل الانسان أو الحيوان ليأكله، كما لا تنمو هناك لأشجار ولا أعشاب، وبذلك لا يمكن للبشر، ولالحيوانات، وللطيور أن تعيش، وذلك بسبب الحاجة إلى الماء، وبسبب حرارة الشمس التي لا تتحمل، من ثم بسبب جفاف الأرض، وبكلمة موجزة بسبب انعدام جميع الأشياء المرتبطة بدعم الحياة، ومثل هذه القفار، هي التي تمتد من غرة إلى جبل سيناء، ولا يوجد مثل هذه القفار في ألمانيا، أو فرنسا، أو إيطاليا، مع أنه من الممكن أن يوجد هناك أماكن صحراوية، وفقاً للمعنى الأول للكلمة، أو الثاني، أو الثالث.

وهناك انعدام لكل شيء في هذه القفار الكبرى، وورد ذكر التعاسات التي من الممكن تحملها هناك في أجزاء كثيرة من الكتابات المقدسة، من ذلك جاء في سفر التثنية: ٨/ ١٥، قوله: «الرب سار بك في القفر العظيم المخوف مكان حيات محرقة وعقارب وعطش حيث ليس ماء»، وقال أيضاً في سفر التثنية: ٣٢/ ١٠: «وجدته في أرض قفر». وقال في اشعيا: ٢١/ ١ عن القفر بأنها «أرض مخوفة»، وعندما تدمر بنو اسرائيل، نقرأ في سفر العدد: ٢٠، بأنهم قالوا: «ولماذا أصعد تماننا من مصر لتأتيابنا إلى هذا المكان الرديء. ليس هو مكان زرع وتين، وكرم، ورمان، ولا فيه

ماء للشرب».

ووردت أخبار شكواويهم في سفر الخروج: ١٦، وفي سفر العدد: ١١، حيث تبرهن في هذه النصوص عن الحاجة لجميع الأشياء في القفار، وأجمل ارميا (٦/٢) وصف العوز في القفار أثناء توجيه الملامة إلى اليهود لنكرانهم للاحسان بقوله: « صار اليهود باطلاً (أي ناكرين للاحسان) ولم يقولوا أين هو الرب الذي أصعدنا من أرض مصر، الذي سار بنا في البرية في أرض قفر وحُفر في أرض ييوسة وظل الموت في أرض لم يعبرها رجل، ولم يسكنها انسان؟»، ودعيت هذه القفار في يشوع: ٥: ٥ (؟) باسم القفار الطويلة جداً، والعريضة للغاية، وعلاوة على هذا نقرأ في سفر التثنية: ١/ ١٩ «وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف»، وفي الإلهيات: ٦/ ٣: «أنت سوف.... تترك نفسك جافاً مثل شجرة في الصحراء»، وفي ١٣/ ١٩: «الحمار الوحش هو صيد الأسد في القفار»، وأطلقت المزامير أيضاً على الصحراء اسم القفار بقولها: « حطم الرب الصخرة في القفار»، وقال الرب لموسى في الخروج: ٣: «الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة»، وغالباً ماُدعي جبل حوريب باسم جبل الرب.

ودعيت القفار أيضاً من قبل الشعراء، باسم أرض الملح، وأرض المن، وأرض فوننس Fauns، وأرض ساطير Satyrs، ومن هذا كله يمكن للانسان أن يستخلص بعض الأفكار عن مزايا وأوضاع هذه الأرض الجيدة والسيئة والقفار.

أوضاع الصحراء أو القفار

أولاً: تدعى هذه المنطقة أولاً باسم صحراء مهجورة، لأنها — كما يمكن القول — مهجورة من قبل الرب، ومن قبل السموات ومن قبل الدنيا، فهي مهجورة من قبل الرب، لأنها فارغة وخاوية، وكأن الرب

قد استخدمها لتحسين بقية الكون أو تزيينه، وتبدو هذه المنطقة أيضاً وكأنها مهجورة من قبل السموات، لأنها تفتقر إلى التأثير اللطيف للنجوم، وتبدو وكأنها مغاضبة لهم، وكأنها تحولت إلى حديد، في حين السماء من فوق قاسية، وبلا عاطفة، ولا شفقة، ونتيجة لهذا فإن المنطقة مهجورة أيضاً من قبل بني البشر، الذين يتخلون عنها كأنها يتخلون عن شيء بلا فائدة.

وثانياً: تدعى هذه المنطقة باسم المكان المنعزل، من كلمه «يشتاق» الذي يطبق على البلدان، بسبب أنه لا يوجد أي إنسان يشتاق إلى تلك الأرض، وبسبب أنها أيضاً تفتقر إلى كل ما هو لطيف وجيد، ولأنه ليس فيها ما يبعث على السرور، فما من إنسان يشتاق إليها، أو ربما جاءت تسميتها من «شدة التحمل»، وذلك بسبب قسوة تربتها، المتلاحمة مع بعضها بشدة متناهية، حتى أنه لا يمكن تكسيرها لا بالمسحاة ولا بالفأس، ولا بأي أداة حديدية.

وثالثاً: يطلق على هذه المنطقة اسم مكان منعزل، لأنها منعزلة، ولا يطرّقها الناس، وهي أيضاً منعزلة لأنه مامن واحدة من البلدان القائمة من حولها ترغب في أن تكون لها علاقة بها، أو أن تكون مشابهة لتلك المنطقة، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة باسم «القفار الواسعة»، التي هي غير موائمة لأي نوع من أنواع الفلاحة، وعلى هذا الأساس قال بنو اسرائيل عندما كانوا يتذمرون: «ليتنا متنا في أرض مصر وليس في هذا القفر العظيم» (العدد: ١٤)، وورد الحديث عنها أيضاً في الكتابات المقدسة باسم «القفار الكبيرة»، أو هي غاية الوساعة في الطول وفي العرض، لأنها بالفعل، في كثير من الأجزاء عظيمة جداً، وطويلة جداً، وعريضة بلا حدود، إلى حد أنه لا يمكن عبورها، ولا يمكن العثور على إنسان، قد وصل إلى حدودها نحو الشرق، لأنه طالما لا يوجد فيها ماء، مامن إنسان يمكنه أن يحمل روايا كبيرة من الماء

تكفيه لعدة أشهر.

هذا ويبدأ خلف هذه الصحراء بالقيام جبال مرتفعة جداً، التي إذا ماتمكن انسان من تسلقها، فإنه يصل إلى أرض الجنة، غير أن الرب أقام على الطريق سيفاً ملتهباً بحرارة لايمكن قياسها، لأن حرارة الشمس هناك عالية جداً، وكذلك الجفاف في ذلك المكان، إلى حد أنه من غير الممكن بالنسبة لأي انسان المرور خلاله، حتى لو كان معه جميع ضروريات الحياة، التي هي منعدمة كلياً هناك، ومع ذلك بذل بعض الآباء المقدسين من آباء الكنيسة— من ذلك على سبيل المثال القديس مكاريوس مع بعض الآخرين — جهوداً— كما يقال— فوق طاقة البشر، ووصلوا إلى مناطق جيدة خلف هذه القفار، إنما لم يستطيعوا شق طريقهم إلى الجنة.

وعرفت أيضاً باسم القفار الالمحدودة، لأنها لم تكن، ولن تكون مفيدة للحاجات البشرية، وهي أيضاً تعرف باسم القفار المخيفة والمرعبة، وهي مخيفة بسبب ارتفاع جبالها وشكلهم الغريب، ومرعبة بسبب عمق وديانها الذي لايمكن قياسه، وكذلك جروفها السحيقة.

ورابعا: عرفت هذه المنطقة باسم صورة الموت، لأن كل مايراه الانسان في تلك القفار يهدده بالموت، لأن هذه المنطقة ليس فيها شيء يمكن للحياة البشرية أن تعتمد عليه، بل إن جميع الجبال، والتلال، والوديان، والطرق بلالقع، تعرض علامات الموت، ولون الأرض هنا ليس مثل لون الأرض المسكونة، بل إن ظل الموت منتشر فوقها كلها، لأنها سوداء، محروقة، ثم انه لا يوجد شيء في تلك البلاد إلا ما هو خطر على الحياة البشرية، علاوة على ذلك ينمو في تلك الوديان القرع البري السام، فهو ينمو بغزارة، ولذلك قيل عنه في سفر الملوك الثاني: ٣٩/٤: «في القدر موت»، لأنه كان فيه يقطينا من أكل منه مات، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى أطلق على هذه المنطقة اسم صورة الموت.

وخامساً: وللسبب نفسه، دُعيت تلك المنطقة باسم الأرض الفاحلة، لأن مامن شيء ينبت هناك (العدد: ٢٠).

وسادساً: انها دُعيت باسم الأرض التي بلاماء، بسبب أن الماء منعدم فيها، وإذا تمّ العثور على أي ماء في مناطقها العميقة، تجده مليئاً بالعلق وآسن، ولذلك عرفت باسم أرض العطش، وإذا ماتوفر على السهل أية مياه جارية من أي نبع، فإن هذه المياه تكون مليئة بالزواحف، إذا كانت عذبة أو أنها تكون مالحة وغير قابلة للشرب، هذا وهناك في بعض الأماكن وديان تجلب مياهها من نفسها وتحتفظ بهذه المياه لنفسها، عاملة سبخة عميقة، خطيرة على العابرين لها، وغالباً ماتشكى بنو إسرائيل بسبب الحاجة إلى ماء، وعانينا نحن أنفسنا من العطش، كما ستحدث فيما يلي.

وسابعاً: عرفت هذه الأرض لدى إرميا باسم أرض الملح (ارميا: ١٧/٦) في قوله «ويكون مثل العرعر في البادية ولا يرى إذا جاء الخير بل يسكن الحرة في البرية أرضاً سبخة وغير مسكونة»، وفي الحقيقة نجد أن الندى الذي يتساقط على تلك الأرض، يرش عليها الملح ويغطيها به، ويلوث الأعشاب والحشائش، وذلك لدى توفر أي شيء من هذا النوع.

علاوة على ذلك، إن أي ماء يتم العثور عليه بالحفر في الأرض، يكون شديد الملوحة، وتم العثور هناك على واد، ينتج الملح الرطب منه نفسه، وما أن تتعرض هذه الرطوبة إلى حرارة الشمس حتى تتحول مباشرة إلى ملح، ويحدث أيضاً أن الرطوبة تتحول في الشتاء إلى صقيع أشيب اللون، فتقوم الشمس بصنع خوازيق حادة من الملح الصرف، وبذلك يصبح المكان كله وعراً يجرح أقدام الذين يترحلون فوقه، حتى وإن كانوا مرتدين لأحذية.

وثامناً: عرفت تلك المنطقة بأنها بلامرات، حيث جاء في المزمور (٦٣/٢) قوله: «في أرض بلامرات (ناشفة) ويابسة بلاماء»، وقد قيل لها أرض لا يمكن عبورها، لأنه لا يوجد ممر فيها وخلالها، وهكذا قال جيروم في رسالته «حول الاحتفال بالفصح» بأن الذين يسرون من دون ممر مطروق في الأجزاء الداخلية من القفار الجنوبية، يوجهون مسيرهم بالنجوم، لأنه لا يمكن توفر ممرات ثابتة في القفار، حتى وإن طرقت يومياً من قبل الناس والحيوانات، وسبب ذلك أن في القفار رياحاً شديدة، وزوايا عنيفة، يجري بها حمل الرمال ونقلها بقوة شديدة تجعلها تغطي وجه الأرض كلها، وهكذا تتحرك الرمال مع الريح وتتنقل مثل المياه الجارية، ولهذا السبب أطلق بعضهم على القفار اسم «بحر الرمال»، وعلاوة على ذلك نجد هناك جبلاً عالية من الرمال تتولى الزوايا نقلها من مكان إلى آخر في ليلة واحدة، وبناء عليه فإن الذي هو اليوم سهل منبسط تجده في اليوم التالي جبلاً عالياً قد تكوم هناك، ويحدث تنقل الجبال على هذه الشاكلة يومياً في الأنواء العاصفة، ومع ذلك لا يحدث نقل الكتلة المتجمعة كلها دفعة واحدة، بل الذي يحدث هو نصف القمة أولاً بالريح ثم البقية حتى الأساسات على الأرض، ومن ثم تتجمع في مكان آخر، وبذلك يتشكل جبل جديد، على بعد أربعة أميال أو خمسة من المكان الذي وقف فيه الجبل السالف.

ويحدث أحياناً امتلاء وديان عظيمة بالرمال، وإذا ما استمرت العاصفة في مكان من الوادي، يقوم هناك جبل، وهكذا نجد في المكان الذي قام فيه قبل ثلاثة أيام مضت واد عميق، قد انبعث هناك جبل مرتفع، ومثل هذا فإن الجبال الصخرية غير القابلة للتحرك تغطي بالرمال المتدفقة، وبذلك يصير الجبل الذي رآه الإنسان بالأمس جبلاً من الصخور، اليوم لا يراه ولا يجده بل يرى جبلاً من الرمال، ولذلك لا يمكن أن يتوفر في القفار ممر ثابت، لأن هناك عواصف رملية كل يوم

تقريباً، وذلك مثلما هناك عواصف مائية في البحر، والعواصف الرملية خطيرة جداً، لأنه وقتها يكون وجه الأرض كله جيشان، والإنسان لا يستطيع رؤية شيء إلا رمال مندفعة بسرعة عالية، وذلك مثل المياه، ومع هذا كله الهواء كله مليء بالغبار، وكأن هناك سحباً منه، ولذلك لا يتجرأ الإنسان على ابقاء عينيه مفتوحتين، بسبب دخول الرمال إليهما، غير أنه من جانب آخر مرغم على فتحهما ليرى أين هو ذاهب، وتطير الرمال بقوة إلى حد أنها لا تؤذي العيون فقط، بل تجرح جسد كل من يعرض جلده لها.

وإذا كانت الريح قذرة، وكان الرحالة يسرون في مواجهة الريح، فإنهم يصابون بالعمى، ويختنقون أحياناً، وفي الحقيقة تكون العاصفة أحياناً قوية إلى درجة أنهم لا يستطيعون السير في مواجهتها، بل يرغبون على مسافة الريح، وطوال استمرار العاصفة، تجدهم مكرهون على إدارة ظهورهم لأميال كثيرة إلى المكان الذي إليه كانوا ذاهبين، ولولا أن الطبيعة علمت الجمال، استطاعة السير بدون توقف فوق أرض لامرات واضحة عليها، وذلك دونها خطأ، لما تمكن الناس من العبور خلال القفار، هذا وهناك خطر آخر إضافي، هو أنه عندما يكون هناك أي وادي، أو هوة، أو منحدر، قد امتلأ حديثاً بالرمل، يمكن للدواب والناس عندما يعبرون فوقهم مع حمولاتهم أن يغطسوا في الرمال، ويحدث في بعض الأحيان غرقهم تماماً، لأن رمال الصحراء ناعمة جداً، وبناء عليه هي أفضل أنواع الرمل، لوضعه في الساعات الرملية.

وتولى ديودور، العميق المعرفة، الذي تجول حول آسيا لمدة ثلاثين سنة، الحديث عن خطر آخر للصحراء، في الفصل الخامس من الكتاب الأول من «تاريخه القديم» حيث قال يوجد بين سورية ومصر سبخة عميقة جداً، اسمها سبخة السربونيانية Serbonian، التي هي ضيقة جداً، وتمتد أكثر من مائتي غلوة طولاً، وهي في بعض البقاع غير المعلمة

تستدرج الناس إلى الخطر، وهم الذين لا ينظرون نحو الأمام، لأن السبخة ضيقة، وهي محاطة من جميع الجهات بتلال رملية، وعندما تحرك الرياح هذه التلال تنقل إلى المياه كميات كثيفة من الرمال، وعندما تمتزج هذه الرمال بالماء، تبدو وكأنها أرض قاسية، ويعود من غير الممكن إخبار أية بقعة هي ماء وأياها أرض يابسة، ولذلك فإن كثيرين ممن لم يعرفوا طبيعة المكان، ولم يتعلموا كيف يرتحلون على هذا الطريق، قد وقعوا في السبخة وغرقوا هم ومن كان معهم، لأنهم مجرد ما أن يدخلوا الرمال - الرمال التي تبدو عن بعد كأنها أرض صلبة وثابتة - يغوصون فيها أعمق فأعمق، ولا يستطيعون بعد ذلك التراجع بخطواتهم، أو الثبات فوق ما هم عليه، بل يغوصون في رمالها السريعة، وعندما يغوص انسان في الرمال الناعمة يفقد الأمل بالسلامة، لأنه لا يستطيع الصراخ أو استخدام قواه، بل إنه يغرق في الرمال الممزوجة بالماء، التي تشبه الصلصال، والتي لا يمكن السفر عليها إلا بالأقدام ولا بالقوارب، ولذلك تعرف باسم المتاهة. فهذا ما ذكره ديودور.

وبسبب هذه السبخة، فإن الذين يعبرون الصحراء، لابد لهم من أن يجلبوا معهم بوصلة عريضة، خشية الوقوع في المخاطر، ولسوف نتوسع بهذه القضية فيما بعد، ذلك أن ما قيل فيه كفاية لتبيان لماذا قيل للقفار «بلامرات».

وتاسعاً: لقد قيل بأن هذه هي الأرض التي لا يمكن لانسان عبورها (ارميا: ٦/٢، يهوديت: ٩٥) ومن الممكن فهم هذا بطريقتين: إما أنه في البدء، أي قبل بني اسرائيل، مامن انسان عبر فوق هذه القفار، على الطريق الذي اقتيدوا عليه، وهذا أمر صحيح، أو علينا أن نفهمه بأن مامن انسان سار على قدميه فوق هذه القفار، وهذا مثل ذلك صحيح، لأن الانسان لا يستطيع العبور على هذه القفار ما لم تكن لديه دابة يمكنه أن يركب عليها، وحمل زاده، وذلك بسبب حرارة الأرض، وأيضاً

بسبب انعدام الطرق، والأشياء التي يحتاجها لبقائه حياً، وهي أشياء لا يمكنه أن يحملها هو نفسه.

وهكذا عندما يئس النبي إيلياء من انجاز رحلته، ألقى بنفسه تحت ظل شجرة رتمه، وتوسل أن يموت هناك، ولولا أن ملاكاً جلب له طعاماً وشراباً منعشاً، لم يكن ليحاول القيام بهذه الرحلة بنفسه (الملوك الأول: ١٩ / ٤-٧)، هذا ومن الممكن أن يقوم كثير من الناس بالارتحال خلال الصحراء، وليس شخصاً بمفرده، ومع ذلك من الممكن لكثير من الناس أن يضيعوا طريقهم، لأنه غالباً ما يحدث أن تثير الرياح العنيفة الغبار، بشكل كثيف يبلغ حداً، أن لا يستطيع الانسان رؤية رفيقه، كما لا يتمكن من سماعه، وإذا حدث وأخذت الدابة التي يركبها طريقاً آخر، فإن ذلك الانسان يهلك، وإذا—على هذا—كان هذا يحدث، عندما يكون كثير من الناس مرتحلين مع بعضهم، فكيف يمكن لانسان، مهما كان، أن يرتحل لوحده؟.

وعاشراً: لقد قيل بأن مامن انسان يستطيع السكنى في الصحراء، ولهذا عرفت بالأرض غير المسكونة، وهذا صحيح كقاعدة، ومع ذلك لقد عاش بعض الآباء المقدسين للكنيسة هناك، عاشوا حياة الملائكة، وليس حياة البشر، وفي هذه الأيام يقطن البداءة العرب هناك، لكنهم يعيشون حياة البهائم وليس حياة البشر، هذا وعندما قيل بأنه حتى البهائم لا يمكنها العيش هناك، ومع ذلك يعيش البداءة العرب هناك، فإن هذا لا يعني أنهم يعيشون بوساطة معجزة، مثل بني اسرائيل، ولا مثل الملائكة مثلما فعل النساك المقدسون، كما أنهم لا يعيشون مثل البهائم من دون عمل بشري، بل مثل الشيطان، لأن الشيطان يتجول هنا وهناك وهو يبحث عمن يمكنه إتهامه، وهكذا تجدهم يتجولون حول تخوم القفار، ويقومون بنهب وسلب الذين يعبرون هذه القفار، وعلى هذا هم شياطين مجسدين، لا يعيشون حياة بشرية، كما سئرى فيما

بعد، وفي الحقيقة هذا المكان غير موثم لأن يعيش به الذين يرغبون بممارسة حياة حضارية، ولهذا قيل: «لا يمكن أيضاً لأي ابن انسان أن يسكن هناك فيها»، لأنه كما هو مشاهد الأرض كلها تقريباً رملية، وصخرية، أو مثل كلس محترق، وبذلك هي غير موثمة للحدائق، أو الحقول، أو الكروم، أو للسكنى.

وأحد عشر، عرفت هذه المنطقة باسم بلاد الأفاعي، والعقارب، والـ Dipsades [من أنواع الأفاعي التي يسبب لدغها عطشاً لا يمتلئ]، والهام، والتينيات، وبما أن هذه البلاد واسعة جداً، فيها أنواع متنوعة من المخلوقات السامة في مناطق مختلفة، ولقد جرى إرسال أفاعي نارية على بني اسرائيل بسبب تدميرهم (العدد: ٦/٢١)، أخبر الأيام الأولى: ٩/١٠)، وكثير من الأماكن في القفار مليئة بحفر جحور الأفاعي، وبعضها الآخر مليء بالعقارب وفي المناطق التي فيها الماء، هناك بعض التينيات والتماسيح، وأنواع أخرى كثيرة من الحيوانات، وذلك حسبما قرأنا في «حياة الآباء»، وعانينا نحن — على كل حال — من نوع واحد فقط، وكان ذلك ديداناً مدورة، كل منها بحجم حبة البندق، وكان لونها أسود، ولها أقدام كثيرة، ولذلك يطلق عليها اسم قملة فرعون، والأرض في بعض الأماكن مليئة بهذه الديدان، وعندما يكون الانسان نائماً يأتون إليه سراً، ويمتصون دمه مثل القمل، وبعد قرصتهم تبقى هناك ندبة، وتبقى هناك علامة زرقاء مشوبة باللون الأحمر، وحجمها مثل حجم البنس، الذي عليه علامة الصليب، ومالم تعالج الندبة على الفور بالدهن، وبحكها بعصير الليمون، فإنها تتحول إلى جرح قذر لا يمكن علاجه.

وإلى جانب هذه الديدان تنتج الأرض أنواعاً متعددة من الحيوانات الصغيرة جداً، التي تعيق استراحة الناس، علاوة على ذلك تتجمع في كل لحظة أعداد لا تحصى من القمل من مختلف الأحجام، على ملابس

الانسان.

واثني عشر: عرف هذا المكان باسم «المكان الرديء»، أو «المكان الشرير» (العدد: ٥/٢٠)، وقد عرف هكذا بسبب الشرور المتقدمة الذكر، وبسبب سوء الهواء وكونه ملوثاً، ذلك أن الهواء في القفار سيء جداً، وقاسياً للغاية، مع أنه قد يكون في بعض الأحيان ناعماً إلى أبعد الدرجات، كما أن الحرارة لا تتحمل، والبرد لا يمكن قياسه، ويجد المسافرون أنفسهم في ساعة من الساعات في أحد الأماكن وقد كادوا يحترقون من الحر، أو بالحري كأنهم في أتون، وتجدهم بعد أمد قصير من ذلك وهم يعانون من برد شديد جداً.

وثالث عشر: هذه المنطقة هي موطن فونس وساتير، اللذان هما إلهما القفار والبساتين، وذلك وفقاً للديانة الزائفة لعامة الناس في القديم، وقد اعتادا في الأيام الخالية أن يعلنوا للناس عن أشياء سوف تحدث في المستقبل، لكن ليس بوساطة العلامات، بل بصوتيهما، كما كانا يبينان الطريق للذين تاهوا في القفار، وعلى هذا نقرأ في «حياة الآباء»، بأن القديس أنطوني، عندما كان يبحث عن بولص في القفار رأى أمامه رجلاً ملتصقاً إلى فرس، من نوع المخلوقات التي أطلق عليها الشعراء اسم سنطور Centaur، وعند رؤية ذلك، شجع نفسه بعلامة الصليب وقال: «من أنت، أيها السيد الشاب، وفي أي مكان من هذه القفار يسكن عبد الرب؟» وبعد مالاك الوحش بعض الكلمات غير المفهومة بين أسنانه ونهشها بدلاً من أن يتفوه بها، نطق أخيراً بصوت ناعم جداً، وبمده ليده اليمنى، أشار إلى الطريق المطلوب، وبعد ذلك عدا مبتعداً، كأنه يطير فوق السهل المفتوح، واعترت انطوني الدهشة تجاه مارآه، ومضى سائراً على طريقه، وبعد قليل رأى في واد صخري رويجل له أنف معكوف وقرنين خشنين على جبهته، والقسم الأسفل من جسده انتهى بظلفي تيس، ولدى رؤية انطوني لهذا أمسك بترس الإيوان،

وأعطاه المخلوق المتقدم الذكر ثمار التمر، ليكون له زاداً من أجل رحلته، وكأن ذلك عهد سلام، وعندما فهم أنطوني هذا، أسرع في سيره، ولدى سؤاله له من هو، تلقى منه الجواب التالي: «أنا مخلوق فاني، وواحد من السكان في القفار، اقتاده الكفار، وأضلوه بذنوب كثيرة، فدعوت فونس وساطير وبت مسكوناً، وأنا أحمل إليك رسالة عهد إليّ بحملها من قطيعي، حيث أننا نرجو أن تصلي إلى ربنا العام وذلك لصالحنا، لأننا نعرف بأنه نزل منذ وقت طويل مضى، من أجل خلاص العالم».

وعندما فرغ الوحش من كلامه هذا، بكى انطوني بدموع الفرح، وضرب بعصاه على الأرض وقال: «الويل لك يا اسكندرية، لأنك عبدت هذه الوحوش كآلهة، مألذي يمكنك قوله لوحش تحدث هكذا عن المسيح»، وماكاد يفرغ من كلامه حتى هرب ذلك المخلوق المسلوب، واختفى بسرعة كأن له جناحين، وفي إحدى المرات تم جلب واحد من هذه المخلوقات إلى الاسكندرية، وشكل بذلك منظرًا هائلاً للناس الذين كانوا هناك، وعندما مات جرى تمليح جسده، خشية التلاشي والزوال في حرارة الشمس، وأرسل إلى انطاكية حتى يراه الامبراطور، وأنا لا أعتقد بأن هذه المخلوقات هي أبناء فونس وساطير، على أساس أن هؤلاء من البشر، في حين أن هذين كانا من الحيوانات المتوحشة، هذا ومن الممكن أن الخطيئة قد قامت حولهم في أيام فونس أو ساطير، وأنه في تلك الأيام شرعت النساء تنقول حولهم.

رابع عشر: ان القفار أو الصحراء، هي مكان الشيطان، وهكذا نقرأ في توبت: ٨، بأن رئيس الملائكة رفائيل قد بعث أسموديوس AS-modeus إلى القفار في أعالي مصر، وكذلك جلب الرب إلى القفار، حتى يتمكن الشيطان من أن يجده هناك.

وفي الأيام الخوالي، عندما كان الناس يرغبون في ممارسة حياة مقدسة

كانوا يذهبون إلى القفار، بسبب توفر الصفات الستة التالية هناك، وبناء عليه قام القديس جيروم في «أحكامه»: الفصل التاسع بمدح القفار قائلاً: «أيتها الصحراء المزدهرة بعشر وردات، مأجمل مكانك المنعزل حيث نمت الصخور والحجارة التي منها بنيت المدينة المقدسة، فأروع فضائك العادي المبتهج بالرب» وهكذا إلى أن قال: «بالنسبة لي المدينة سجن، والقفار جنة، ولأن القفار غير مكتظة، فإن الحقيقة غير مشوهة»، فهذا ماقرأناه هناك ولذلك أقنع جيروم كثيراً من الناس بالدخول إلى القفار، وبشكل خاص الشماس بريسيدوس *Presidius*، الذي إليه كتب في رسالته حول هذا الموضوع: «لقد رأيت مؤخراً الأماكن المهملة في مصر، ورأيت أسرة الملائكة، وشاهدت كم هنا كثيراً من الورود وهناك، وكم من المروج المزينة بالآلياء الروحية، وأكاليل تتوج بها الرب، والنار تلتهب في صدرك، ولذلك فكر يوماً حول هذه الأشياء، وتأمل حولهم، واشتق اليهم».

وتشوق جيروم نفسه شوقاً عظيماً إلى الصحراء، وبناء عليه قال في رسالته إلى ثيودوسيوس وإلى النساك الآخرين: «هل ياترى سوف يمكنني رؤية القفار، التي هي أكثر بهجة من أية مدينة، وهل سأتمكن من رؤية تلك الأماكن الخالية من السكان» الخ، ومثل هذا قال أوغسطين في *Epistola ad pastores*: «هناك قفار مليئة بآلاف من عبيد الرب».

وخامس عشر: الصحراء مكان للاغواء، حيث تحدث ربنا أنه لم يتعرض للاغواء في أي مكان إلا في القفار (مرقس: ١، ومتى: ٤)، ومثل هذا أغوى الرب البطارقة القدماء، وبني إسرائيل، بطرق متنوعة، حسبما جاء في سفر الخروج: ١٦، وفي سفر التثنية: ٨، حيث قال: «سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر لكي يذكرك وليجربك»، كما قال أيضاً في التثنية: ٨: «وقد جربك الرب ليعرف ما في قلبك أتخفظ وصايا»

أم لا»، علاوة على ذلك أغوى بطارقة الأيام الخوالي الرب هناك، ولذلك قال المزمور: «في القفار أغواني آباؤكم» (المزمور: ٩٥/٩) وقال ثانية: «وجربوا الرب في قلوبهم بسؤالهم طعاماً لشهواتهم» (المزمور: ٨٧/١٨)، وجاء من جهة ثانية مكتوباً في (سفر التثنية: ٦/١٦): «لا تجربوا الرب إلهكم»، وقام جيروم في رسالته حول الإغواءات، بتعداد عشر إغواءات تعرض لها بني إسرائيل في الصحراء.

وسادس عشر: القفار مكان يمكن الحصول فيه على سرور عظيم، وبناء عليه حصل البطارقة المقدسون بعد توبتهم في القفار، على الأرض المقدسة، واعتاد قديسوا العهد الجديد على الذهاب إلى القفار، من أجل الحصول على السرور الأعظم.

وسابع عشر: إن القفار هي المكان الذي أعطيت فيه الشريعة، وكذلك الوصايا، وذلك حسبما جاء في سفر الخروج: ١٩/٢٠.

وثامن عشر: القفار هي مكان المن، والمواساة السماوية، حيث أننا نقرأ في المزمور: ٧٨/٢٤ قوله: «وأمطر عليهم منّا للأكل، وبرّ السماء أعطاهم»، وقال أيضاً في سفر الخروج: ١٦: «وفي هذا اليوم إن الندى الذي يتساقط حول جبل سيناء هو منّ حلوه، وبناء عليه رأيت أنه أنا شخصياً، وأكلت كثيراً منه»

وتاسع عشر: القفار مكان للتأمل، وللابتعاد عن الدنيا، ولذلك كان الآباء المقدسون للكنيسة عندما يرغبون بالاستغفار، يذهبون إلى القفار، ويفرون من الدنيا.

وعشرون: هذه القفار مكان للخشوع وللتفكير، وعلى هذا نقرأ في المزمور قوله: «يشتااق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلاماء. لكي أبصر قوتك ومجديك كما قد رأيت في قدسك» [المزمور: ٦٣/١-٢]، وقال مرة أخرى: «فقلت ليت لي جناحاً كالحمامة فأطير وأستريح.

هاأنذا كنت أبعد هارباً وأبيت في البرية» [المزمور: ٦/٥٥]، وليكن فيما قلناه كفاية عن وصف القفار، والخبرة من الآن فصاعداً سوف نُحدِّث القارئ أكثر حولها، وانظر رواية أخرى عن القفار في ص ١٣٦ — ظ، وماتلاها.

البداة العرب الذين يسكنون في القفار، عاداتهم، ووقاحتهم وتعاستهم

إن سكان القفار أو الصحراء هو بداة عرب، وهم أناس تعساء، ويشبهون البهائم، وعن هؤلاء يقول بعضهم بأنهم أبناء اسماعيل وهاجر، وهم يسمون أنفسهم مسلمين، ويمنحهم بعضهم أسماء مشتقة من المنطقة الأقرب إليهم، فيطلقون عليهم اسم المدينيين، ويسمهم آخرون البدو، في حين يدعوهم آخرون باسم الجزيري؟ Zigeri اشتقاقاً من اسم الكلدانية Chaldaea ، وهي بلاد متصلة بالصحراء العربية الكبرى من الجهة الشمالية، ويقول آخرون بأنهم قد طردوا من مصر، وبين هؤلاء ديودور، في الكتاب الثاني من «تاريخه القديم» حيث يقول بأنه عندما حكم أكتيسانس Actisanes، الذي كان ملكاً لمصر، بعدل عظيم، أنهى أعمال السرقة، وفق طريقة جديدة، فهو لم يعاقب المجرمين بالموت، ولم يتركهم من دون عقوبة، بل إنه جمع المجرمين كلهم مع بعضهم، وأنزل بهم عقوبة خفيفة، فقد قطع آنافهم، وأرغمهم على الذهاب إلى القفار، وبذلك باتوا غير قادرين على إيذاء الشعوب المجاورة بشروهم، كما لايمكنهم إخفاء الأخطاء التي اقترفوها بحق بقية الناس، ثم إنه بإرسالهم، أو لنقل بنفيهم إلى القفار، حيث هناك الحاجة إلى كل شيء، وقتها كانوا سيرغمون بالضرورة على السعي من أجل عيشهم، ويعرف هؤلاء بشكل عام باسم «العرب» من قبل جميع شعوب البلاد.

وليس هؤلاء الناس مكان ثابت للسكنى، بل يتنقلون نحو الأمام

ونحو الخلف في أرجاء هذه القفار، متسلحين بترستهم ورماحهم، ليس في الحقيقة من أجل القتال لأنهم نصف عراة، بل من أجل السرقة، والخوف منهم جعل المسافرين خلال تلك المنطقة يتجمعون على شكل حشود كبيرة، لأنهم بمساعدة أحدهم للآخر يمكنهم تجنب المخاطر المهددة، لأن هؤلاء الناس يسكنون فقط في القفار النائية وليس في القفار الداخلية، أو يسكنون في الأماكن التي لا يمكن للإنسان، ولا للحيوان ولا للطير أن يحصل فيها على عيشه، وهم ينصبون خيمهم في الأماكن التي يعتقدون بأن التجار أو المسافرين الآخرين سيمرون بها، وأيضاً حيث هناك سخ لتأمين الشراب لهم ولقطيعهم، وهناك يسكنون في الكهوف في الصخور، أو في أكواخ معمولة من أغصان الأشجار.

وعندما يرون أي إنسان قادم، يمتطون خيولهم، وحميرهم وجمالهم، ويصفون أنفسهم فوق الطريق، مع ترستهم ورماحهم، وتخرج نساؤهم من كهوفهم، وهن نصف عاريات مثل الرجال، وهن في غاية البؤس والقذارة، ويركضن والحجارة في أيديهن، ويتبعهن أولادهن، وهن جاهزات للحصول على حصتهن في السلب والنهب، وهم جميعاً يزحفون لمقابلة الغرباء بشكل هم متعطشون فيه للدماء، وهم أيضاً يصرخون، ويهزون رماحهم، وفي تلك الأثناء تقوم النساء ويقوم الأطفال، وهم يسرون على أقدامهم برمي الحجارة، إنها عندما يلتقي الجمعان، يُجِّد البداية العرب حديثهم، ويطالبون بسلام بالخفارة، قائلين بأنهم سادة القفار وأصحاب جميع الأماكن التي ليست موجودة داخل أسوار، أو مظلة بسقوف، أو محاطة بخنادق، وهكذا دواليك، وإذا رفضت الفئة الأخرى دفع الخفارة، لا يسمحون لها بالمتابعة والسير مالم تكن أقوى منهم أنفسهم، وإذا ماشاهدوا ذلك، يتوقفون عن طلب الخفارة، ويتوسلون بتواضع من أجل الحصول على الصدقات، وهم

يقنعون بدريهمات، وإذا ما منحوا بعض البقساط يتلقون ذلك بسرور بالغ، ويسمحون للمسافرين بمتابعتهم ترحالهم.

إنما مامن انسان يمكنه مواجعتهم من دون اضطراب، أو يستطيع التخلص منهم من دون أن يدفع لهم، لأنهم يتجولون حول الصحراء على شكل مجموعات كبيرة وكثيرة، وإذا ما انتشر خبر بينهم، بأن رفاقهم قد قتلوا، أو عوملوا بقسوة، تراهم يحتشدون، ويتجمعون مع بعضهم ويضغطون بشدة على الذين تصدوا لهم، حتى يتمكنوا من قهرهم وسلبهم كل شيء كان معهم، ولهذا السبب قال عنهم جيروم في رسالته إلى دار دانوس Dar danus وسأهم برابرة حيث قال: «يوجد فيما وراء الأرض المقدسة صحراء واسعة، مسكونة برابرة أشداء»، وهم يقولون بأن هذا المكان، وكل مكان في الهواء الطلق هو ملك لهم، ولذلك يطالبون على كل طريق بالخفارة، من العابرين، وليس فقط في القفار.

هذا وإنهم يمكن أن يقولوا بأن القفار هي بلادهم، وملك لهم، ذلك أنهم يسكنون فيها من دون وجود أي مدينة، أو قرية، أو قلعة، أو بيت، يسكنون في كهوف بالصخور، وفي خيام، وليس لديهم أية وسائل للعيش غير النهب والسلب، ذلك أنهم يعانون من عوز ومن فقر، حتى الكلب بيننا لا يستطيع تحمل ذلك، وإذا لم يمكنهم الحصول على أية منهوبات، يلجأون في سبيل دعم حياتهم إلى اعتماد السرقة، ولهذا الغاية يتركون القفار، ويتجولون ليس فقط في البلدان الشرقية، بل إنهم يصلون حتى إلى المناطق الداخلية للغرب، وبناء عليه أنا لا أعرف لأي سبب عرفوا باسم «العرب» أو «الكلدانيين»، بل اسم «جزري»، أو كما يقول عامة الناس جزريين Zigeuner (نور)، لأنهم قوم قدموا من الكلدانية، وذلك حسبها وردت الأخبار في Primo phys. supp. IV chron. lib ، ومن الكلدانية نزلوا إلى المناطق المجاورة للعربية

الصحراوية، ومن هناك انتشروا في جميع البلدان، انظر الصفحة ٨٠ من القسم الثاني.

ويعيش عرب القفار هؤلاء أعماراً طويلة جداً، وذلك على الرغم من تعاستهم، ويركض رجال ونساء لهم من العمر مائة سنة فوق الصحراء بخفة ورشاقة مثل الكلاب، وتجدهم دوماً جائعين، وعطشانيين، ونادراً ما يطفئون جوعهم بالخبز، لكن عندما يقومون بصومهم المهيّب، يخبزون الأرغفة في الرماد، ويأكلون لحومهم والدم يتقاطر منها، وإذا لم يكن بإمكانهم الحصول على نار من الحطب، يأتون بلحومهم النيئة فيضعونها فوق صخرة عريضة (ويضعون صخرة أخرى عليها)، وبذلك تجف اللحوم، وتصبح ساخنة بين الصخرتين، وإثر هذا يزيلون الصخرة العليا، ويحتفظون بالتحنا، لتكون بمثابة مائدة، وهكذا يأكلون لحومهم من دون أي طبخ.

وعلاوة على ذلك يقتاتون ويتعيشون على بعض الحشائش والجذور، ويشربون حليب الجمال والحمير، ويلوكون بأفواههم بعض البقسماط القاسي جداً، وعن هذه القضية تحدث جيروم في رسالته ضد جوفينوس Jovinus: «البداة هم عرب يأكلون الأسماك، وهم اسماعيليون، ويعيش جميع المتوحشون في القفار على حليب الجمال ولحومها، لأن هذا الحيوان من السهل تربيته، وهو يعيش بينهم في أنواء تلك المنطقة القاحلة، ويعدون أكل لحم الأوز ذنباً من الذنوب»، وفي الحقيقة إن الأوزة التي تعيش على القمح، والجوز، والجذور، والخنشار، والشعير، ليست موجودة بينهم لأنهم لا يمتلكون أي طعام من هذا النوع، فهم يصطادون الأسماك من البحر الأحمر، ويطبخونها على الصخور الملتهبة من حرارة الشمس، وهم يعيشون على هذا الطعام فقط.

زد على هذا، بما أنهم لا يمتلكون مكان سكنى ثابت، يتجولون هنا وهناك خلال الصحراء، ويترحلون وقد نظموا أنفسهم على شكل

فئات، من أجل أن يساعد أحدهم الآخر في سبيل تجنب المخاطر التي تهددهم، ومن هذه الاقتباسات، من الواضح أنه في الأيام الخالية، كان غير مأمون المرور خلال القفار، مثلما هو الحال في هذه الأيام، وذلك بسبب هجمات البداءة العرب، التي منها عانى مالوخس Malchus، كما ورد لدى جيروم في «رسالة الراهب الأسير»، حسبما جاء في «حياة الآباء».

ويبدو أن هؤلاء التعساء قد أومىء إليهم في سفر أيوب: ٣٠، حيث قال: «الذين كنت استنكف من أن أجعل آباءهم مع كلاب غنمي»، وفي الحقيقة لقد اعتقد شخصياً أنهم غير جديرين بالحياة نفسها فقال: «في العوز والمحل مهزولون عارقون اليابسة التي هي منذ أمس خراب وخربة. الذين يقطفون الملاح عند الشيخ وأصول الرتم خبزهم. من الوسط يطردون، يصيحون عليهم كما على لص، للسكن في أودية مرعبة وثقب التراب والصخور، بين الشيخ ينهقون، تحت العوسج ينكبون»، ويبدو أن هذا النص قد قصد به أن يفهم حرفياً على أنه يعني هؤلاء البداءة العرب.

وعندما لا تتوفر لديهم أسلاب، ولا يمكنهم الاستمرار بالعيش في القفار، ويرغمهم العوز، يتجمعون على شكل جيوش، ويتركون نساءهم وأولادهم في القفار، ويقومون بالإغارة على بعض المناطق المجاورة، حيث يتمكنون أثناء الليل من اقتحام إحدى المدن أو القرى، فيفتحون أبواب البيوت، ويستولون على كل شيء يجدونه، ويعودون بعد ذلك إلى زوجاتهم وإلى صغارهم، وهم لا يقتلون الناس، إلا إذا حدث ذلك صدفة، وهم يقتربون هذه الغارات في سورية وفلسطين ومصر، ويدخلون أحياناً إلى المدن الكبيرة، وينهبون عدة بيوت ثم يعودون مع أسلابهم، وأثناء إقامتي بالقدس قاموا بذلك في الظلام، وشقوا طريقهم مرتين إلى داخل المدينة للنهب، وقاموا باحداث شغب

وفوضى هائلة، وما من أحد رد عاديته، ذلك أن جميع الناس قد خافوا منهم، وهذا ليس غريباً بالنسبة لإنسان عرف الكتابات المقدسة، لأنه في أيام الملوك الأقوياء جداً، وعندما كانت البلاد تعيش في ظل نظام قوي جداً، قام البداة العرب بالافساد في الأرض، حيث قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني: ٢١، كيف أن البداة العرب قد دخلوا إلى القدس، ونهبوا كل شيء، حتى أنهم حملوا زوجات الملك والأولاد من بيته، وأزعج هؤلاء البداة العرب نحميا كثيراً أثناء إعادة بناء القدس مع الهيكل، حيث نقرأ في سفر نحميا (الاصحاح الثاني) بأن جشم العربي كان بين الذين منعه من إعادة بناء القدس، كما نقرأ عند نحميا نفسه في الاصحاح الرابع بأن البداة العرب حشدوا أنفسهم وتجمعوا ضد العاملين على إعادة بناء المدينة المقدسة.

وأعتقد انه إذا ما حاول أي انسان في هذه الأيام إحاطة القدس إحاطة كاملة بالأسوار، والأبواب، والمغاليق، سوف يبذل البداة العرب كل ما يستطيعون لإعاقته، وعن هؤلاء البداة العرب نقرأ في سفر المكابيين الثاني: ١٢، بأنهم حشدوا جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل، وخمسمائة فارس، وزحفوا ضد يهوذا المكابي، لكنهم «هزموا من قبل يهوذا، وطلبوا منه السلام، ووعدوه بإعطائه ماشية، وبجعله مسروراً بطرق أخرى، ثم إن يهوذا وجد أنهم سوف يكونون بالفعل نافعين له في أشياء كثيرة، لذلك أعطاهم السلام، وبناء عليه تصافحوا وغادروا ذاهبين إلى خيامهم»، ونجد من هذا النص أنهم اعتادوا على إزعاج البلاد في القديم مثلما يفعلون الآن، هذا وقد ورد ذكرهم في سفر المكابيين الأول: ٢.

وما من ملك أو حاكم كان قط قادراً على قهر هؤلاء البداة العرب، وكما قال ديويور في الكتاب الثالث من «تاريخه القديم» الفصل: ١٣: «بين سورية ومصر صحراء العريية، التي هي بلاماء، وفيها ثمار في بعض

المناطق القليلة فقط، ولذلك يقوم شعبها بسلب الشعوب المجاورة، وهم لا يمكن غلبتهم بالحرب، وهم يسكنون في منطقة بلاماء، ويحفرون آباراً معروفة من قبلهم فقط، هي التي تنقذهم من جميع المخاطر من أعدائهم، لأن الذين يطاردونهم إما أن يموتوا عطشاً، لأنهم لا يعرفون مواضع الآبار، أو أن يعودوا وهم أحياء بعدما هدهم التعب، ولهذا السبب إن البداة العرب الذين يسكنون هذه المنطقة لا يمكن إلحاق الهزيمة بهم في الحرب، وهم يعيشون أحراراً، ولم يكونوا قط خاضعين لأي ملك أجنبي، من الآشوريين، أو المدينيين، أو الفرس، ومثل ذلك لم يكن الملوك المقدونيون قادرين على إخضاعهم، مع أنهم امتلكوا جيوشاً جرارة»، كما وذكر بأنهم كانوا يهاجمون القوافل الملكية، أثناء عبورها لبلادهم، مثل مهاجمتهم لقوافل الناس العاديين، ذلك أنهم لا يوفرون أحداً.

و ضد هؤلاء البداة العرب وضع الرب ثقله كله (اشعيا: ٢١)، وفي الحقيقة أنهم غالباً ما أرغموا على مغادرة القفار بسبب الحاجة إلى المياه، ووقتها كانوا يأتون مع أزواجهم وأولادهم إلى إحدى البلدان، حيث كانوا ينصبون خيمهم إلى جانب المياه في مراعي خضراء، وبينون لأنفسهم أكواخاً، ويسكنون هناك، محففين بحق شعب البلاد، حيث كانوا يستولون على القطعان التي يصدفونها في طريقهم، ومامن انسان يتجرأ أن يلمسهم، وهم لن يعودوا إلى القفار إلا إذا كانوا محملين بالأسلاب، وذلك بعد استيلائهم على منهبوات كثيرة.

وهم يذهبون إلى مصر، مثلما يذهبون داخلين إلى البلدان الأخرى، وذلك على الرغم من السلطان ملك مصر والماليك، الذين ينظرون إليهم نظرة كراهية عظيمة، ولقد رأيتهم متشرين متفرقين في كل مكان، في كل من سورية ومصر، وهم أيضاً يتجولون حول منطقتنا كما سنرى، وهم لا يحاولون الاستيلاء على أية مدينة، أو على أية قرية، مع أنهم

بإمكانهم فعل ذلك، لأنهم يقولون بأنهم وحدهم نبلاء حقيقيون، يعيشون على النهب، وليس على العمل، ويمضون أوقاتهم خارج الأبواب في الحقول وفي الغابات، وهذا ما يميز النبلاء عن الناس الآخرين، وهكذا دواليك، وهذا أيضاً هو موقف نبلاء سوابيا، الذين يرفضون قبول أي إنسان يسكن في مدينة في مزاراتهم، وبناء عليه، صحيح أن البداية العرب، تعساء كما هم، لكنهم أصحاب شموخ ونظرة عالية إلى أنفسهم، ويتفاخرون جداً بأنفسهم، وترى أزواجهم مزيّنات بالذهب والفضة والأحجار الثمينة، مع أن ثيابهن مهلهلة، ووجوههن قدرة للغاية، لأنه ليس لديهم ماء للاغتسال به، ويسكنون في خيام وأكواخ مليئة بالدخان، فقد جاء في سفر أيوب: ٦/٣٩ قوله: «الذي جعلت البرية بيته، والسباخ مسكنه».

وإلى هؤلاء الناس الأشقياء.... توجه محمد ﷺ بدعوته، وجذبهم إلى جانبه، وبذلك تمكن فيما بعد من إخضاع الشعوب الأخرى بالقوة إلى نفسه ﷺ بالسيف والرمح، والقوس، وبذلك تمكن من قيادة العالم كله.... بمساعدة هؤلاء الأشقياء، مثلما فعل روملوس وروموس حين جمعا إليهما اللصوص، وقطاع الطرق، ورعيان القطعان، ومزيج مختلط من الناس من الأنواع المتدنية، وبوساطة هؤلاء أوقع روملوس المملكة اللاتينية بالفوضى، ولوث مملكته بالدم البريء.

هنا بداية الحج خلال القفار حيث جرى وصف الطرق الثلاثة عبر القفار، ورحلة العذراء المباركة مع الطفل يسوع إلى مصر

رحلاتنا الآن خلال صحراء ضخمة جداً، سوف يكون من السهل وصفها، على أساس أن القاريء بات عارفاً بكل شيء حول الحمير، وسائقي الحمير، والجمال وسائقي الجمال، والقفار والبداة العرب الذين يسكنون فيها، هذا ومن أجل فهم أفضل، تتوجب الملاحظة أننا نجد في الكتابات المقدسة ثلاثة طرق وجرى الحديث عنها، على أنها موجودة، في القفار، فالطريق الأول، هو الطريق الذي وصل عليه بنو اسرائيل إلى الأرض المقدسة، والطريق الآخر هو الذي سافر عليه ابراهيم، عبر القفار إلى مصر، والذي عبره ذهب يعقوب وأولاده عليه وسافروا بناء على دعوة يوسف، ومن المعتقد أنه بوساطة هذا الطريق ذهب يوسف وزوجته، مريم العذراء الأعظم مباركة مع الطفل يسوع، وذلك لدى الهرب من هيرود(متى:٢)، والطريق الثالث، هو الذي سافر عليه النبيان الياس واليشع في القفار إلى جبل سيناء، انما ليس في وقت واحد بل واحداً بعد الآخر، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول:١٩.

ولم يجر اقتياد بني اسرائيل [٢٦-ظ] لدى خروجهم من مصر، مباشرة على طول الطريق الذي يقود إلى الأرض المقدسة، بل ذهبوا إلى جبل سيناء، عبر طريق البحر الأحمر، وذلك بناء على أوامر الرب إليهم، كما أنهم لم يجلبوا إلى جبل سيناء بوساطة أقرب الطرق، بل اقتيدوا عبر طريق طويل في القفار الشاسعة، ثم اقتيدوا ثانية عائدتين، وملتفين حتى انتهاء الأربعين سنة، وسبب عدم اقتيادهم عبر الطريق الأقصر إلى فلسطين وهي البلاد التي تتاخم مصر، قد قُدِّم في سفر الخروج:١٣، هو أن فلسطين كانت تمتلك مدناً عظيمة، مليئة بالعماليق، ولو أن بني اسرائيل رأوا هؤلاء لدى أول وصولهم، لرجعوا ثانية إلى مصر، من

خلال الخوف، كما أن آثام الفلسطينيين لم تكن قد اكتملت وانتهت بعد، كما هو الحال مع العموريين، لذلك لم يكن بالامكان طردهم منها.

وعلى هذا كان ممر بني اسرائيل طويلاً جداً، ووعراً، وقد مضوا خلال القفار، وعبروا شواطئ البحر الميت القصوى، من خلال مملكة عوج، ملك باشان، ومملكة سيحون ملك العموريين، وتابعوا سيرهم حتى المكان الذي يصب فيه الأردن في البحر الميت، وهناك جف نهر الأردن في مواجهة أريحا، وهكذا وصلوا إلى الأرض المقدسة، لكن ابراهيم، ويعقوب ابنه، ويوسف ومريم، والبقية نزلوا إلى مصر، عبر طريق التجار العام، إلى جانب شواطئ البحر الكبير، حيث كان البحر على يمينهم، والقفار على يسارهم، وفي هذه الأيام هذا هو الطريق العام، والطريق السلطاني، للذين ينزلون من غزة إلى مصر، مع أن الطريق رملي وطريق متعب، وعليه من الممكن رؤية بعض آثار رحلة العذراء المباركة، ويوسف مع الطفل يسوع، من ذلك على سبيل المثال، المكان الذي هوجموا فيه، وأسروا من قبل اللصوص، فقد حدثنا أنسلم Anselm أنه عندما كان يوسف مع العذراء مريم والطفل يسوع، سائرين على ذلك الطريق، وعندما كانوا يرتاحون في أحد الأماكن لانعاش أنفسهم، حدث فجأة أن البداة العرب انقضوا عليهم من الأجزاء الداخلية للقفار، وحاصروهم، قاصدين اعتقالهم وسلبهم، لكن أحد الشباب وكان ابن زعيم اللصوص، عندما رأى الطفل في حضن أمه، استولى عليه بشكل اعجازي حب نحوه، ولم يشك بوجود بعض القداسة الربانية فيه، وسأل الأم أن تعطيه الطفل، وتسلم الطفل وحمله بين ذراعيه مع أعظم الاحترام والتقدير، وقبله قائلاً: «أيها الطفل المجيد، ارحمني في وقت الحاجة»، وبفراغه من قوله هذا أعطى الطفل إلى أمه وأعادته مع الدموع، وانتزعهم من أيدي أصحابه، وبعدما بين الطريق الآمن لهم، سمح لهم بالمغادرة، ويقال بأن هذا الشاب كان هو

الصلب، الذي عندما كان معلقاً على الصليب مع المسيح، قال له: «ياسيد تذكرني عندما تأتي إلى ملكوتك».

ويقود الطريق الثالث من غزة إلى القفار، مباشرة إلى جبل سيناء، وعبره سار الياس والرجال المقدسون الآخرون، عندما ذهبوا إلى جبل سيناء، وهذا كان طريقنا، وقد انطلقنا وفق الطريقة التالية.

سفر الحجاج من غزة نحو الصحراء الكبرى على طريقهم إلى جبل سيناء

في الصباح الباكر من يوم التاسع من أيلول، جاء سائقوا الجمال مع الترجمان، وأخرجوا جميع أثقالنا إلى وسط الساحة، وجعلوها على شكل طرود ذات أحجام متساوية، ووزنوها حتى يعرفوا كم من الجمال سوف نحتاج، وقد وجدوا أثقالاً تفوق حمولة اثنين وعشرين جملاً، وأنه من غير الممكن حمل هذه الأثقال من دون استئجار ثلاثة جمال زيادة، وهنا نشب خلاف شديد بيننا وبين الترجمان، حيث كانت رغبتنا هي أن يقوم بتأمين الجمال الإضافية على حسابه، وفقاً لما جاء في البند الخامس من عقدنا، الذي تقدم لنا ذكره، لكنه رفض ذلك، قائلاً بأن لدينا كثيراً جداً من الأثقال التي هي بلافائدة، وإذا ما قمنا بالتخلص من هذه الأشياء ورميها، هو وقتها مرغم على تقديم الجمال المحتاجة، لكن ليس غير ذلك، وفي الحقيقة نظر هو إلى أشياء كثيرة على أنها فائضة لاحتياج إلى استخدامها، لكنها كانت في الحقيقة ضرورية جداً، وبدلاً—على هذا—من رمي هذه الأشياء والتخلص منها، اكرتينا ثلاثة جمال زيادة على حسابنا، وبناء عليه بات الآن لدينا خمسة وعشرين جملاً، وثلاثين حملاً، وسبعة سائقي جمال، وستة سائقي حمير، واثنين من القادة من البداية العرب، وأدلائنا، واثنين من المسلمين هما الفحل، كاليونس الأدنى، وشاب حبشي، وبذلك بلغ تعداد جماعتنا إلى أربعين شخصاً، وعندما فرغنا من هذه الأمور، كان قد حان وقت تناول طعام الغداء، وبناء

عليه أكلنا بسرور، لأن وقت مغادرتنا قد حلّ، وفي الختام شربنا رماناً من كل من النوعين الحلو والحامض، كل واحد بقدر ما رغب وأراد، وذلك من أجل امتصاصهم في القفار ونحن على طريقنا، وكانت هذه الفاكهة رخيصة جداً، إلى حدّ كان يمكن فيه للإنسان شراء أربعين أو خمسين رمانة كبيرة، حديثة القطف مقابل مندوس واحد.

وبعد الظهر جاء الترجمان على ظهر فرس، وقدم معه سائقوا الحمير مع حميرهم، ومع أن سائقي الحمير كانوا مسيحيين، فقد ربطوا رؤوسهم وفق الطريقة العربية، حتى يكونوا أقلّ عرضة للأذى من قبل البداة العرب العابرين للقفار، وجلب سائقوا الجمال أيضاً جمالهم وحملوهم بأثقالنا، لكنهم تركوا سلتين كبيرتين فارغتين، وضعنا فيهما اثنين من الفرسان الحجاج المرضى، بناء على طلب الترجمان تمنطقا بسيفيهما، فضلاً عن هذا جلب بعضهم قسيّاً، وأسلحة اسلامية، في حين حصل بعضهم على بنادق، وبذلك تسلحنا بأسلحة دفاعية، ومن ثمّ امتطينا ظهور حميرنا، وزحفت جماعتنا كلها خارجة من غزة، تحت السلاح، وبما أننا كنا ذاهبين إلى العربية، سمح لنا المسلمون بتسليح الحجاج الفرسان، وسائقي الجمال، وسائقي الحمير، فكل واحد منهم كان لديه قوسه، وكذلك سيفه، وخنجره، وكانوا اثناء سفرنا من سورية إلى فلسطين لم يسمحوا لنا بأي شكل من الأشكال، بترك المدينة حاملين للسلاح.

وبعد مغادرتنا للمدينة نزلنا من الرابية، التي عليها تقوم المدينة، إلى أرض منبسطة، وسافرنا باتجاه الجنوب، جاعلين على يميننا مدينة بئر السبع، التي تشكل الحد الجنوبي الأقصى للأرض المقدسة، وبعدما سرنا قليلاً على الطريق العام بين بساتين مسيجة، اقتاد سائقونا جمالنا إلى خارج الطريق، إلى قلب حقل من الحقول، حيث أناخوا الجمال، وأنزلوا الأثقال من على ظهورها، وقرروا إمضاء الليل هناك، وتجاه هذا كنا

منزعجين كثيراً، لأنه كان ما يزال هناك كثيراً من ضوء النهار، لكن كالينوس الرئيس أخبرنا بأن الأحمال لم تكن مقسمة بالتساوي بين الجمال، وأن سائقي الجمال كانوا يتخاصمون حول ذلك، ولذلك يتوجب في ذلك المساء تنظيم كل شيء، لأننا كنا نحتاج إلى سلام أثناء رحلتنا، وكان اسم الحقل الذي تحولنا إليه «قسمه»، وبناء عليه ترجلنا من على ظهور حميرنا، ونصبنا خياماً حتى نتمكن من الاستراحة تحتهم، وعمل بعضهم لأنفسهم وحدهم أماكن منعزلة، بتعليق أرديتهم وجعلها ستائر، ناموا تحتها، وبعدما نصبنا خيمنا، انتزعنا عصياً من الأسبجة، وطبخنا طعاماً لعشائنا تلك الليلة، ولغدائنا في الغد، فهذا ما يحتاج الإنسان القيام به وعمله، لأنه عندما تكون الجمال محملة تسير بشكل متواصل من الصباح حتى المساء، ولا يمكنها تحمل التمهّل أو الوقوف على طريقها، وبناء عليه فإن الذين يصاحبون هذه الجمال عليهم الارتحال دون توقف، ومن ثم تناول غذائهم وهم على ظهور حميرهم.

ولا يستطيع الإنسان مطلقاً خلال وجوده في القفار تناول طعام ساخن، أو الجلوس لتناول طعام الغداء، بل يتوجب عليه أكل ما طبخه في الليلة المتقدمة، وأخذنا أيضاً من جرارنا مايكفي من خمر لعشائنا تلك الليلة، ولغدائنا في الغد، وأخذنا أيضاً مايكفي من بقسماط، وقسمنا هذه الأشياء ووزعناها بيننا بالتساوي، فكل إنسان كان لديه قارورة فيها تسلم حصته من الخمرة، وعندما بات طعام العشاء، الذي طبخناه على نار واحدة، جاهزاً، جلسنا تحت خيمنا وأكلناه.

وحذرنا بعدم وجوب نومنا جميعاً في آن واحد، بل ينبغي بقاء واحد من الحجاج ساهراً بشكل دائم، وأن يقوم بالحراسة وأعمال الدورية أثناء نوم البقية، وذلك خشية أن يقوم اللصوص مع قاطعي الطرق بالدخول إلى مخيمنا ونحن نائمين، وسرقة حاجياتنا، وفي الحقيقة كانت هذه الحراسات مطلوبة من قبلنا، ضد خدمنا، وسائقي الجمال، وسائقي

الحمير، أكثر منها ضد الغرباء، لأن هؤلاء القوم سرقوا بقسباطنا، وبيضنا، وسرقوا كل شيء استطاعوه، ولم نكن قط قادرين على مداومة الحراسة بشكل جيد، لأننا وجدنا في الصباح بأن سلالنا سرقت وتركنا مفتوحة، وانتزع البقساط منهم، ومثل ذلك سرق بيضنا من سلالنا، وغالباً ما أمسكناهم وهو يقومون بأعمال السرقة، وتجاه ذلك لم ينجلوا، بل بالحري سخرنا منا، ولهذا السبب اجتمعنا معاً بعد العشاء، ورتبنا نظاماً لحراستنا، وكان نصيبي البقاء ساهراً بعد منتصف الليل، في الليلة الأولى، وعندما غابت الشمس، تمددنا تحت خيمنا، واستعدنا للنوم، وجرى تنظيم جماعتنا أثناء الليل وفق مايلي: نصبنا أولاً خيمنا، وأكواخنا، ووضعنا أثقالنا في الوسط، ومن حولنا جلس سائقوا الجمال والحمير مع أبقالهم ودوابهم، وترجماننا، الذي كان لايسمح لأي انسان بالتمدد بنفسه خارج المعسكر، أو السير بعيداً عنه، إلا لمسافة قصيرة، لمقاصد ضرورية، ووفق الطريقة هذه نظمنا الأمور كل ليلة، فقمنا بحراسة الأطعمة والأشربة، وأيضاً استرحنا.

وعند منتصف الليل، قام الفارس الذي كان يتولى الحراسة قبلي بإيقاظي، لأتولى تنفيذ حراستي، وهكذا سرت حول حشد الرب، وأنا أغني المزامير، وممسكاً عصا في يدي، وفجأة انفجر على مقربة منا صراخ وأصوات مرتفعة، وولاوليل صادرة عن عدد كبير من الناس يصرخون ويولولون مع بعضهم، ولم أعتقد أن الأمر كان سوى أصوات أناس قد ارتفعت بالبكاء، ولذلك وقفت حيث أنا وأصغيت، وأنا ممتلىء بالخوف والدهشة، وظننت أن المسألة هي أن المسلمين كانوا يقيمون احتفالاً مامع ألعاب مأساوية أو ساخرة، أو أن مصيبة مرعبة أووباء قد نزل بهم فجأة، أو أن ساطير أو بعض المخلوقات المخيفة، الموجودة في القفار، تولول بقصد منعنا من دخول الصحراء، وإلى هذا اليوم لست أدري ماالذي كانه الأمر، غير أن بعضهم قال لي، بأن ذلك قد صدر عن

مجموعة من الذئاب كانت تعوي، وهذا كان من الصعب عليّ تصديقه، لأن الصراخ بدأ فجأة، وبعد وهلة توقف فجأة، ثم بعد مرور وقت من السكون انفجر ثانية، وبدأت الأصوات وكأنها صراخ ناس يتألمون، ولدى انتهاء الصراخ، سرت متابعاً حراستي، فوجدت ترجماننا المسلم، كالينوس الأكبر، يقوم بالصلاة وبالركوع والسجود، وفقاً لطريقة المسلمين، وعندما سمعني توقف عن الصلاة، وسألني لماذا أنا لست في خيمتي، وعندما أخبرته أنني مستيقظ للقيام بالحراسة رضي بذلك، ثم استدار نحو الجهة الجنوبية من القفار، وأراني نجماً كان لامعاً جداً، كان قد أشرق للتو، وقال لي: ان هذا نجم القديسة كاترين، وهكذا يعرف بهذا الاسم من قبل جميع الناس، ثم استطرد فجأة يقول: «تحت هذا النجم يوجد جبل سيناء، الذي نحوه نحن مرتحلون، وعندما نسير أثناء الليل، لن نأخذ طريقاً سوى الطريق المباشر نحو هذا النجم حتى نصل ونحن تحته إلى ظهر جبل سيناء»، وبعد مغادرتنا لجبل سيناء غالباً ما كنت أقوم بالنظر نحو الخلف، نحو هذا النجم، ولقد رأيته عندما كنت في مصر، وفي الاسكندرية، وعبر مسافة طويلة، عندما كنا مبحرين على ظهر البحر، لكن بعد جوازنا لقبرص، ووصولنا إلى ماين جزر السيكلاد، لم يعد بإمكانني رؤيته، بسبب بعده الكبير، وبسبب تغير الأنواء، وهكذا انقضت تلك الليلة.

الاستمرار بالسفر في القفار

في اليوم العاشر، استيقظنا مجدداً عند بزوغ الفجر، فقوضنا خيامنا، وأزلنا أكواخنا، وجمعنا جميع أثقالنا مع بعضها، وهياناً أنفسنا للمغادرة، وكان سائقو جمالنا بطيئين، وحملوا الجمل وكأنهم متعبون من العمل، ويعملون ضد رغبتهم، وعلاوة على ذلك تركوا أشياء كثيرة على الأرض، حولها كان هناك صراخ كثير، ونشبت خصومات فيما بيننا، ولعنناهم بالألمانية، ولعنونا بالعربية، من دون أن يفهم أي الطرف الآخر، وفي الحقيقة أنا متعب من الكتابة عن الاحراجات التي ألمونا بها كل صباح، أثناء تحميل الدواب، لأنهم اعتادوا عن قصد ترك فراش، أو سلة، أو حقيبة على الأرض، عارفين بأننا سوف نتفقد مثل هذه الأشياء ونراقبها، وقد فعلوا هذا مع غاية أن يقوم الحاج الذي هو صاحب الحاجة المتروكة والذي هو صاحبها، برجائهم لحملها، لأنه مرغم على ذلك، وعند ذلك يقومون من جهتهم، فيطلبون منه مالاً أو خبزاً، أو أن يتظاهروا أنهم عن عمد سوف يتركونها مالم يدفع لهم، وبناء عليه، قمنا في البداية، قبل أن نخبرهم، وقبل أن يعرف أحدنا الآخر، فأعطيناهم كثيراً من المال ومن البقساط، لكن بعدما عرفناهم، وعلمنا أي نوع كانوا، كنا نأمرهم حول هذه الأمور، ونرغمهم على تنفيذ رغباتنا.

وبناء عليه استيقظنا قبل طلوع الشمس، وتخاصم أحدنا مع الآخر حتى اشراق الشمس، ذلك أنهم تظاهروا بأنهم ينوون العودة إلى غزة مع جماهم، وكان هذا أمراً مزعجاً جداً بالنسبة لنا، وقد ضايقونا كثيراً بهذا الادعاء، لكن أخيراً تحدث ترجماننا مغضباً إليهم، وأرغمهم على أخذ جميع أثقالنا، وهكذا غادرنا ذلك المكان، وحقل قسمه، وسرنا فوق أرض منبسطة، كانت في الغالب رملية وجرداء، وبعدما سرنا حوالي الميل ألماني، قام ترجماننا، المعلم Sabathytanco الذي هو كاليينوس

الرئيس، والذي هو رئيس مشفى القديس يوحنا في القدس، وهو أيضاً المسلم الذي قادنا وحكمنا خلال جميع رحلاتنا من يافا حتى هذا المكان، قام بتوديعنا مع ابنه، وسلم قيادتنا إلى كالينوس الأدنى، أي الفحل المسلم، وإليه أوكل أمور سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وعاد إلى القدس، لأنه لم يكن ملزماً بالسفر عبر القفار، حسبما ورد في البند السادس من عقدنا الذي ذكرناه من قبل، يضاف إلى هذا، كنا نتحدثنا من قبل عن هذا الرجل، الذي هو كالينوس الرئيس، وعن كالينوس الأدنى، الذي بقي بصحبتنا، وقد سمعت فيما بعد، بأن كالينوس الرئيس قد مات، وأن ابنه، الذي اسمه إبراهيم قد خلفه في منصبه، ويبدو لي بأنه شاب جيد ولطيف، مع أنه متكبر بعض الشيء، وصاحب أخلاق متشاكخة.

وبعد مغادرة كالينوس، الذي كان حتى الآن حامينا، وأسى أحدنا الآخر، وشجع كل منا صاحبه من أجل تحمل اضطراباتنا بصبر، وهكذا مضينا سائرين على طريقنا، وقد رأينا على جهة يميننا البحر الكبير، الذي لم نكن قد رأيناه منذ اليوم الذي غادرنا فيه يافا، ورأينا في هذا اليوم مدينة بئر السبع، التي هي نهاية الأرض المقدسة، وعلاوة على ذلك رأينا القفار وجبالاً ضخمة جداً، نحوها كنا نسير مع شيء من الخوف، لأنه بدا لنا بأن الأرض كانت مظلمة، والجبال مغطاة بالغيوم، وليس بالندى أو بالأبخرة كما هو معتاد، وأن سبب ذلك ومرده إلى عزلة البلاد، وأثناء متابعتنا لسيرنا وصلنا إلى حقل مليء بمختلف أنواع الأشجار الضخمة، وفي هذا الحقل من المعتقد أن الياس قد جلس تحت شجرة عرعر، وأنعش من قبل ملاك، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٩/٥-٦، وانتصب هنا كثير من أشجار الصنوبر، إحداهن كانت ذات أوراق سميكة، وقد وقفت إلى جانب الطريق، وكانت مزهرة، وصدر عن أزهارها رائحة طيبة جداً، لكن لن تكون هناك ثمار

بعد هذه الزهور الرائعة، بل الذي سيكون بعض الأشواك الحادة، التي هي بيضاء حتى الرأس، الذي لونه أحمر، وكأنه مغمس بالدم، وهذه الشوكة حادة جداً إلى حد أن أخف وألطف لمسة بها تجرح اليد، ويعتقد بعضهم أن رأس الشوكة بطبيعتها مسممة، وهذا هو سبب أن الإصابة بالجراحة بها سهل جداً وأعلن بعضهم أن تاج الرب يسوع المصنوع من الشوك، كان قد حيك من هذه الأشواك، لأنها تنمو حول القدس أيضاً.

ورأينا كثيراً من أشجار الأشواك هذه في أرجاء القفار، غير أنني أرغب في أن أقوم بذكر خاص لهذه الشجرة بسبب الممارسات الخرافية الغيبية للمسلمين وللبداءة العرب المتعلقة بها، ذلك أنه مامن أحد منهم يمر بها من دون أن يمزق قطعة من ثيابه ويعلقها على الشجرة، ولذلك الشجرة مليئة بقطع الأقمشة، إلى حد لو أن انساناً رآها عن بعد لظن أن لها أوراقاً بيضاء، وحول هذه الممارسات انظر ص ١٣١٦، وجرى تبيان أسباب هذه العادة في ص ٦٣، وإلى جانب هذه الأشجار قامت أشجار تين كثيرة، مثل البلوط، محملة بأنواع مختلفة من التين وذلك بالإضافة إلى التين العادي، ولذلك جمعنا بعضاً من هذا التين وأكلناه، ويطلق على هذه الأشجار اسم أشجار تين فرعون، وهن يحملن الثمار سبع مرات في السنة، وثمارهن ليست ثماراً بائسة، بل ثماراً في غاية الجودة.

ومع حلول المساء وصلنا إلى قرية اسمها لبهم Lebhem، حيث أنزلنا الأحمال عن ظهور دوابنا، ونصبنا خيامنا، وأمضينا الليلة، وكنا نحن الحجاج لدينا الرغبة في السير مسافة أطول، لكن أدلاؤنا لم يرغبوا بذلك، وطلب منا كاليينوس أن نكون هادئين، على أساس أننا سوف نصل على الفور إلى أماكن وأيام، سوف — نحن ودوابنا — سنعاني خلالها من التعب والشقاء، لذلك يتوجب علينا عدم التسرع في البداية بل أن ندخل إلى المتاعب والشقاء بالتدريج، ونصبنا خيامنا إلى جانب بركة، وبئر عتيق، كان عظيماً وعميقاً، وكان يحتوي فقط على قليل من

الماء القدر، واسم هذا البئر لدى المسلمين، بئر القديسة مريم، ويقولون أنه عندما كان يوسف آخذاً العذراء إلى مصر مع الطفل يسوع، أرغم بسبب الحاجة إلى الماء على التحول عن الطريق السلطاني العام، وحصل هنا على الماء لأجل ابنه المسيح، ومن أجل أمه، ومن أجله شخصياً، وحيث أننا لم نجد ماء فيه، أرسلنا سائقي حميرنا مع الحمير وروايا الماء إلى بركة أخرى على مسافة بعيدة، وقد جلبوا لنا ماء، وعلى مقربة منا قام مسجد، كان هو المسجد الجامع للقرية، وإليه دخلنا، ونظرنا إليه، وضحكنا وسخرنا من خرافات وحماقة دين المسلمين.

وتخلف واحد من الفرسان الحجاج وراءنا في المسجد، فبعدما هرب بقيتنا منه لخوفهم من المسلمين، بقي هو، ذلك أن النوم قد غلبه، فقد تمدد هناك وراح نائماً، ولدى حلول وقت العشاء لم يظهر بيننا، وشرعنا بالتفتيش عنه بالسهل، لكننا لم نستطع العثور عليه بأية طريقة من الطرق، ولم نكن نتصور أنه كان نائماً في المسجد، بسبب خطورة فعله ذلك، لأنه لو رآه أي مسلم في المسجد، لأقدم إما على قتله، أو أخذه أسيراً، ولقد انزعجنا كثيراً بسبب ضياع رفيقنا، لكن أخيراً بعدما اكتمل نومه، خرج من المسجد، وقدم إلينا، وقد سررنا بشكل مضاعف من أجله، أي أن تقول، بسبب عدم ضياعه، ثم بسبب أن مامن مسلم عثر عليه، وانتشرنا جميعاً فوق السهل لجمع حطب للنار، لنطبخ عشاءنا، وغداءنا من أجل الغد، كما تقدم بنا القول، وبعد تناول العشاء حملنا أنفسنا إلى الاستراحة، إنها عينا من يتولى الحراسة، كما فعلنا من قبل.

السفر إلى قفار قادش برنيع

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان عيد الشهيدين: بروثوس Pro- thus وهيسينثوس Hyacinthus، والشهيدين فيلكس وريغولا Reg- ula المدفون في ثورغو Thurgau، استيقظنا قبل ضوء النهار، واستعدنا للانطلاق، وقد حملنا دوابنا مع قسط كبير من الخصام

والصراخ، وكنا غاضبين جداً من سائقي جمالنا، وهم أيضاً كانوا غاضبين منا، لأنهم تعاملوا معنا من دون اخلاص وصدق، مثلما حدث في البارحة، ولدى مغادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى سهل واسع جداً، وأجرداً، كان من غير الممكن بالنسبة لنا تحديد نهايته إلا من الجهة الغربية، حيث كان يحده البحر الكبير، والذي كان على مسافة بعيدة عنه.

ولم نر في هذه السهول لابشر ولا حيوانات، ولا قرى، ولا بيوت، ولا أشجار، ولا أعشاب، ولا شعراء، بل شاهدنا فقط الأرض الرملية، قد شويت بحرارة الشمس، وسرنا فوق هذه المساحات الشاسعة متعين لساعات طوال، ونحن نعاني من حرارة الشمس، ووصلنا بعد الظهر إلى بقعة فيها عدد من التلال، وكانت غير مستوية، وقاحلة، ونصبنا هنا خيمنا بين رايبتين، وكان ذلك في المساء، وكان اسم هذا المكان بالعربية: الحواطة Chawatha، ووجدنا هنا أدلة كثيرة، على وجود سكنى بشرية قديمة، لأننا وجدنا فوقنا اثنتي عشرة بركة مسورة، كان من حولها كثيراً من القرميد المكسر، وآنية محطمة، ورماد مع مواقد حدادين، وقد بدا لنا بأن هذه البرك لم تعمل من أجل احتواء ماء للشرب، بل لتحضير صلصال من أجل صنع قرميد وفخار، ورأينا في هذه البرك أجساد أفاعي ميتة كبيرة ومخيفة، وحيوانات غير معروفة بالنسبة لنا، ومثل هذا وجدنا مقبرة لغير المسيحيين، ووجدنا في أماكن تجاويف وخنادق محفورة من قبل قوم بحثاً عن رخام أبيض، الذي من الممكن استخراجهم من جوف تلك الأرض، ومن المشهد العام لذلك المكان أعتقد أن تلك المنطقة لا بد أنها قادش برنيع، ونصبنا هنا خيمنا بسرعة حتى نتمكن من أن نطبخ لأنفسنا بعض الطعام، لأننا لم نكن قد تغدينا في ذلك اليوم، وكنا في اليوم المتقدم قد أعددنا لحماً لغداء هذا اليوم، لكن عندما أخرجناه من جعبنا، وجدناه قد فسد، ولذلك رميناه، وتغدينا جبناً

وبقسماً طأً، ذلك أن الحر الشديد الذي شعرنا به عندما كنا نعبّر ذلك السهل الشاسع قد حول لحمنا وأفسده، وأرسلنا سائقي حميرنا مع جرار وروايا ليحضروا لنا ماء من صهريج موجود على مسافة بعيدة، وفي الوقت نفسه نشرنا أنفسنا فوق المنطقة بحثاً عن عصي وحطب للنار، والذي وجدناه فقط بعض الحشائش الجافة، التي نمت مع مطر الشتاء، وجفت الآن تماماً، واقتلعنا هذه الحشائش من جذورها، وعملنا كومة كبيرة من أجل النار، ولم يكن هناك واحد بيننا كان معفياً من القيام بهذا العمل، بل سعى رجال الدين، والكهنة، والكونتات، والبارونات والفرسان جميعاً بكل اتجاه لجمع الحطب أو العصي للاحتراق، وعندما جمعنا جميع ما احتطبناه، انتظرنا طويلاً، ونحن نتطلع إلى الماء، لكن سائقي الحمير تأخروا كثيراً حتى رجعوا، لأن رعاية ذلك الموضع أبعدوهم عن البئر، فضلاً عن هذا، كان البئر بعيداً جداً عنا، وحصلوا أخيراً على الماء بعد صعوبات، وعادوا إلينا مع غياب الشمس مع الروايا وهي مليئة.

وفي البداية كان الماء الذي في الروايا الجلدية مقرف بالنسبة لنا، لأن الماء داخل الأوعية الجلدية يأخذ لوناً مثل لون الدم، ويكتسب طعم الملوحة من الجلد، ويفقد كل خواص عذوبته، ولذلك كان الطعام الذي يطبخ بذلك الماء يحصل على لون وطعم جلد مدبوغ حديثاً، علاوة على ذلك، غدت جرارنا، ودوارقنا، وقواريرنا، التي وضعنا فيها ماء من الروايا الجلدية ملوثة بالرائحة نفسها، ومع ذلك إنه على الرغم من ذلك، غالباً ما أصبحنا عطاشى إلى أبعد الحدود، ذلك أن الماء الذي كان في قواريرنا قد ذهب كله، لذلك كنا نضع أفواهنا على الروايا الجلدية، ونعدّ من الرفاهية امتصاص الماء القذر من القرب الملوثة، وكنا في غاية الامتنان لسائقي الجمال ولسائقي الحمير لمنحنا تلك الشربة لابل غالباً مادفعناهم نقوداً فضية مقابل السماح لنا بامتصاص الماء من الجلود غير

المذبوغة ذات الروائح المقيئة.

وبعد العشاء استلقينا في خيمنا ونمنا، إنما ليس من دون خوف، لأن الأرض كانت مليئة بحفر جحور الأفاعي، وكنا نخشى من لدغهم، لكن بحماية الرب، لم نتعرض لأي أذى في ذلك المكان.

الاستمرار بالسفر نحو الجزء الداخلي من القفار

وفي اليوم الثاني عشر حملنا جمالنا باكراً قبل ضوء النهار، وأسرجنا على حميرنا، وغادرنا الحواطة في الظلام، لكننا أرغمنا على السير ببطء شديد مع الجمال والحمير، لأن الأرض كانت مثل خلية نحل، مع حفر جحور الأفاعي والثعابين، ففي كل مكان كان الموضع مليئاً بالحفر الصغيرة، لذلك كان من الصعب على الدابة أن تقوم بخطوة، أو تضع حافرها دون أن تغطس عميقاً في الأرض، وفي ذلك الصباح لم يكن بين الحجاج واحداً لم يسقط ثلاث مرات أو أربع مع دابته، ورأى واحد من سائقي جمالنا ثعباناً كبيراً وطويلاً، فرماه بنشابه جرحه بها، ونصب الثعبان المجروح نفسه وأعد نفسه للانتقام من عدوه، لكن السائق امتشق سيفه، وقطع الثعبان إلى قسمين، ثم إنه رمى هاتين القطعتين بعيداً عن بعضهما، وطلب منا أن نسير فيما بينهما، خشية أن تتحدا ثانية، لأنه اعتقد أن القسمين سوف يتحدان ثانية ما لم يعبر الناس فيما بينهما، ولست أدري فيما إذا كان هذا وهم فقط، غير أنني رأيت الشيء نفسه يفعل في بلادنا عندما جرى قطع ثعبان إلى شطرين، وسرنا لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات فوق هذه الأرض المملوغة، التي لا يمكن عبورها في أيام الربيع لأن الأفاعي والثعابين تكون خارجة من جحورها.

ووصلنا من هناك إلى منطقة مهجورة وصحراوية، لأن البقعة غدت قاحلة أكثر فأكثر وغير مسكونة، ووصلنا إلى موضع، بدا وكأن ينابيع كثيرة قد تدفقت فيه، أو أنه كانت هناك بحيرة، فقد كانت هناك كثيراً

من الأفنية العميقة، عملت من قبل المياه أثناء جريانها، ومع أن الأرض كانت منبسطة، لكنها كانت غير مستوية أبداً، ولذلك أرغمنا بشكل مستمر على الصعود إلى تله والنزول منها مع كثير من التعب، وعند الظهر وصلنا إلى القفار الحقيقية، وإلى مكان مهجور، حيث لا يمكن لإنسان أن يعيش، وحيث أيضاً ليس هناك من سكان، ذلك أننا خرجنا من السهل إلى منطقة تلية كانت مشوية بحرارة الشمس، وكلها كانت قاحلة، مليئة بجبال صخرية، وروابي رملية، وأودية صخرية ومربعة.

وعندما صرنا في القفار، واجهنا قافلة، أي جماعة من الناس، مع جمال وحمير، وكنا خائفين جداً، من أن يكونوا من لصوص الصحراء، لكن عندما تقابلت الفئتان مرت كل واحدة بالأخرى بصمت، وكنا دوما نرتعب كثيراً لدى مقابلة أية أناس مهما كانوا، لأننا أخبرنا من قبل بأننا لا بد من أن نعاني من كثير من الشرور على أيدي البداة العرب في القفار.

ووصلنا بعد هذا إلى منطقة، رأينا فيها عن بعد خياماً وأكواخاً واقفة على طريقنا، ولدى رؤيتنا لها شعرنا بإحباط كبير، وقررنا بأنفسنا تحمل الاضطرابات، لأن القفار ليست مكاناً يستطيع الإنسان الدفاع فيه عن نفسه، أو أن يقوم بصدد عدو واحد، بل هي مكان على الإنسان أن يتحمل فيه بصبر ما ينزلوه به، وأن يتنازل لهم، وعندما وصلنا إلى هذه الخيم، رأينا أنه قد وقف أمامها رجال شرقيون سود، يحملون رماحاً، وجاهزين للدفاع عن أنفسهم، لكن ليس للهجوم علينا، ولقد نظروا إلينا، غير أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة لنا، فتجاوزناهم بصمت وبسرعة، وكنا مسرورين نحو تصرفهم الهادئ، ولعلمهم كانوا كذلك مثلنا، على افتراض أنهم كانوا أيضاً خائفين منا.

وبمتابعتنا السير وصلنا إلى سهول عريضة، قد أحرقها الشمس، عبرها لاقينا تقدماً جيداً عبر القفار، ورأينا في أماكن كثيرة، قريبة منا

وبعيدة، دخاناً صاعداً من نيران، وقد ارتعبنا تجاه ذلك رعباً شديداً، لأننا ظنناهم نيران معسكر حشود من البداءة العرب، لكن كالينوس أخبرنا، وكذلك التجربة والخبرة علمتنا، أنه لم يكن هناك لانسان ولانار في تلك الأماكن، لكن الرياح أثناء هبوبها تشكل زوابع، يرتفع بها الغبار والرمال الناعمة، وبذلك تبدو وكأنها دخان صادر عن نار.

وعند المساء وصلنا إلى منطقة، حيث الجبال، والتلال، والأرض المنخفضة، وجميع الأماكن التي أمكن رؤيتها بيضاء، ووصلنا أخيراً إلى قعر وهدة وعرة، أسموها غين Gayan حيث نصبنا خيمنا فوق أرض شديدة البياض، وهنا تمكنا بعد صعوبة بالغة وسعي إلى هنا وهناك من جمع مايكفي من حطب لاشعال النار، ولم يتجاوز ذلك حجم عصاتين، لأنه لم يكن هناك سوى بعض النباتات الجافة القليلة، التي خرجت من الأرض في أيام الرطوبة، وعندما كان الحر ليس شديداً، ثم إنها جفت عندما تعرضت لحرارة الشمس، وكان ماجمعناه أشبه بالأعشاب، وكان جميع ماوجدناه شوكياً، وله رائحة طيبة، لذلك صدر عن النار دخان له رائحة عطرة، وطبخنا وتناولنا عشاءنا، وفي الوقت نفسه كان سائقو جمالنا وسائقو حميرنا قد جمعوا كومة من الحطب، لعمل معجنات على الموقد، وكانوا يتصرفون كمايلي: كانوا يوقدون ناراً عظيمة، إلى جانبها يمدون جلداً فوق الأرض، ويضعون فوق الجلد طحينا كانوا قد حملوه معهم، ويصبون الماء فوق الطحين، ويعملون من ذلك عجينة، وعندما تصبح العجينة جاهزة، وبعدما يعملونها على شكل خبزة واسعة ورقيقة، وتكون الأرض قد احترقت بالنار، يكشطون الرماد المحترق عن المكان الذي كانت فيه النار، ويمدون العجينة فوق ذلك المكان الحامي ثم يغطونها ثانية بالرماد والفحم، وبذلك يتم خبزها، وتصبح خبزة طيبة مطبوخة في الموقد بشكل جيد، وبعد حصولهم على الرغبة الساخن، كانوا يفتتونه إلى قطع، يضعونها في قدر، ويصبون عليه زيت الزيتون

حتى تندهن كل قطعة، وهكذا يأكلونها، كما نأكل معجنتنا.

وعندما يأكلون هذا الطعام، يشعرون بالسرور العظيم، ويرون أنفسهم أنهم تمتعوا بطعام لائق بالملك، لكن عندما لا يتمكنون من الحصول على نار، يضعون طعامهم على الأرض حتى تنطبخ في الشمس، التي حرارتها في وسط النهار تشابه حرارة أتون، وفي الحقيقة حرارة الشمس عالية جداً، إلى حد يجد كل طبّاخ أنها كافية لطبخ بعض المعجنات، وقد رأى في القفار القديس بوسستيموس Postumius قدراً مليئاً بالحشائش، وهو يغلي من دون نار، وذلك حسب ماجاء في Speculum Historiale — الكتاب التاسع عشر، الفصل: ١٤، فهم يشوون اللحوم بين حجرتين، ساختين بحرارة الشمس، كما تحدثنا من قبل، وشرعنا في تلك الأمسية نأخذ طعاماً من مخزوناتنا، لأننا استخدمنا جميع الأطعمة الطازجة التي جلبناها معنا من غزوة، وعند غروب الشمس أمرنا كالينوس بإطفاء النيران تماماً، حتى لا يمكن رؤية شرارة أو جهرة منها خلال الظلام، وأمرنا بالاحتفاظ بحراسة يقظة أكثر من ذي قبل، موضحاً بأن هذا المكان لم يكن أميناً بل كان خطيراً، بسبب الغارات المتوالية للبداءة العرب، وهكذا أقمنا حراسة يقظة، وذهبنا إلى النوم، ولم نتعرض لأي ازعاج، مع أننا كنا في بقعة مرعبة جداً.

خطر العواصف في الرمال

واستيقظنا في الثالث عشر بعد مضي منتصف الليل، فقوضنا خيامنا وطوينها، وحملنا دوابنا أنقالنا، وغادرنا قفار غين، ووصلنا مباشرة إلى جبل رملي، تسلقناه بصعوبة، لأنه جلب إلى هنا مؤخراً، بوساطة ريح رملية، ولم يكن الرمل بعد راسخاً، ولذلك غطست الدواب في الرمال، وكأنها كانت تسير خلال ثلج عميق، علاوة على ذلك بدأت الرياح تهب تحت أقدامنا، وتحمل الرمال وتنقلها، وبدأت للمرة الثانية بنقل الجبل

من مكانه إلى مكان آخر، وشرعت هذه الهضبة التي كنا نسافر بجوارها بالتلاشي ساعة تلو أخرى، مثلما يحدث للماء عندما تهب الرياح عليه، ولم يكن بإمكاننا النزول إلى الجانب الآخر هناك، إلى الوادي، بسبب الرمال المتحركة وخشية الوقوع في العاصفة، لأن الذين يقعون في عاصفة رملية في هذه المناطق، يصبحون عرضة للهلاك أكثر من الذين تغرق سفينتهم في البحر، وأرغمنا أخيراً على فعل ذلك، ونزلنا إلى الوادي، لكن ليس من دون اضطراب من الرمال التي انصبت فوقنا، وكان انصباب الرمال هذا أكثر إزعاجاً بمائة مرة من نزول أية كمية مهما كانت من الأمطار، وعندما دخلنا إلى الوادي سرنا فيه فوق رمال قد انتشرت حديثاً، وكان هذا وادياً ضيقاً، محاطاً من كل جانب بتلال رملية، ولولا أن الرياح كانت معاكسة— وهذا بفضل حماية الرب قد وقانا— لانصبت الرمال من كلا الجانبين في الوادي، ولكانت عاصفة هوجاء قد وضعتنا في خطر الاختناق، كما حدث بالغالب للذين يرتحلون خلال الصحراء في هذه الأماكن، وفجأة انحرفنا إلى الجانب، وخرجنا من الوادي، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل كبير، أسماه البداءة العرب وادي Wadalar ، وهناك فوق قعر هذا المجرى آثار واضحة، تبرهن أنه كان مليئاً بالماء في أيامه، وكانت هذه المياه تحمل بوساطة قناة لتصب في البحر الكبير، لأنها جرت مباشرة نحو البحر.

ولم تكن الجبال حول قعر هذا المجرى رملية، بل كانت حجرية، لذلك توفر في القعر بعض النباتات، والأعشاب والحشائش، وكان بين أنواع النباتات، نبتة لها أغصان صغيرة كثيرة، نابعة من جذورها، وهذه الأغصان لا تنمو عالية في الهواء، بل تمتد طويلاً فوق الأرض وتبتعد كثيراً عن الجذر، وعلى هذه الأغصان قد تعلق كثير من التفاح الجميل، ذي اللون الأخضر المشوب بالرمادي، وهي ذات شكل مستدير، وبحجم قبضة الانسان، وعندما رأينا هذه التفاحات، أغرانا جمالهن حتى

ترجلنا من على ظهور حميرنا وقطفناهن، وفي تلك الأثناء تابع أدلاؤنا سيرهم وهم يضحكون، لأنهم عرفوا طعم هذه التفاحات، وهو ما لم نعرفه نحن، لأننا لم نكن قد سمعنا بهن، ولم نشاهدن من قبل، وقام الذين قطفوا هذه التفاحات بوضعهن مباشرة في أفواههم، ناوين أكلهن، غير أنهن كن من المرارة بمكان، أنهن قبل أن تصل أسنانهم إليهن، تقلصت شفاههم، لأنه مهما كانت مرارة أي حيوان مائة مرة ليست بدرجة هذه التفاحات، فلقد كانوا يقطينا برياً، كان يطلق عليهن اسم القثاء البري، وعنهن قيل في (سفر الملوك الثاني: ٤ / ٤٠): « في القدر موت » وأخذنا معنا بعضاً من هذه التفاحات، وكنا نرغب في حملهن معنا إلى موطننا في بلادنا، لكن بسبب مرارتهن الهائلة، لوثوا كل شيء لمسوه، وتلوثت أيدينا بالمرارة لأيام عديدة، وكان من غير الممكن إزالة ذلك لا بالغسيل ولا بالحك، وحدث مثل ذلك لسكاكيننا التي قطعناهن بها، وفي البداية وضعت تفاحتين في سلتنا، التي حفظت فيها اللحم، والبقساط، والجبن، وقد تلوثوا جميعاً بالمرارة، ولذلك لم يعد بالامكان أكلهن بأي حال من الأحوال، ولذلك أرغمت على رمي اللحم، والخبز والجبن، واليقطين كله مع بعضه، وفي الوقت نفسه تلوثت السلة نفسها بطعم المرارة، وهكذا كان كل ما وضعته فيها فيما بعد، قد التقط طعم المرارة.

وارتحلنا على طول قعر مجرى السيل هذا، بين هذه المزروعات الخضراء، باتجاه الغرب، حيث سائرنا طريق القناة، وبعدما سرنا بمحاذاتها لمسافة طويلة، انتهت الجبال الصخرية، ووصلنا ثانية إلى منطقة رمالها ناعمة جداً وعميقة، وقد كانت الرمال تنصب في ذلك الوادي من الجبال، ولم يكن في ذلك الجزء لأعشاب ولا أوراق، ولا أي شيء أخضر، كان من الممكن رؤيته، لأنه مامن نبات يزرع هناك كان يمكنه النمو، على أساس أن البذر كان في أرض متعرجة متناوطة

متبدلة، رملها الجاف يتحرك مع كل هبة للريح، والمحصول الوحيد الذي كان ينمو هناك هو تلك المزروعات التي كانت تنمو بسرعة فائقة، وبفضل التربة والمناخ، يمكنهم منع هجمات الرياح، وفي الحقيقة قد قيل أنه في هذه الأماكن تصل البذور إلى أقصى نموها في أقصى الأيام حرارة وعطشاً بعد زراعتها.

وعندما وصلنا إلى حيث بدأت حافة الوادي تصبح منخفضة، انحرفنا جانباً عن قعر مجرى ذلك السيل، وتسلقنا فوق الطرف الرملي للوادي، على الجانب الجنوبي، ونزلنا على الجانب الآخر إلى قعر مجرى سيل آخر، يجري من الجنوب نحو الشرق، ومن خلاله تصب المياه في البحر الميت، وذلك عندما يكون فيه أية مياه، ولو أن أي إنسان سافر هذا المجرى، لمسافة عشرة أميال، لأمكنه أن يصل إلى البحر الميت، الذي يمتد على شكل لسان طويل من سدوم حتى هذه القفار، وكان قعر هذا المجرى وعراً، وكانت الحجارة والصخور في الجبال على الجانبين هناك بيضاء جداً، وكأنها مغطاة بالثلج.

وسرنا مباشرة عبر مجرى السيل هذا، ولم نسر إلى أعلاه أو نحو أسفله، بل نزلنا من الضفة الأولى، ثم تسلقنا الضفة الأخرى، وعندما صرنا في الأعلى، مضينا مسافرين لجرف لبعض الوقت، لأن الأرض كانت منحدره كثيراً، ومن غير الممكن الصعود مباشرة، لأن الصخور في الأسفل كانت واقفة حادة مثل الأسنان، وعندما امتلكتنا الفرصة للتزول، نزلنا عبر منحدر منزلق، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل عميق آخر، كان اسمه مجدبا Magdabee ، وكان حجرياً وفي غاية الوعورة، وكان كله قاحلاً من دون أي شيء أخضر فيه مهما كان نوعه، وجعلنا جمالنا تنوخ في مكان وعراً إلى أبعد الحدود، في قعر مجرى السيل هذا، ونصبنا خيمتنا، واستعدينا للإقامة هناك تلك الليلة، وبعثنا بسائقي هميرنا ليحضروا لنا ماء من سبخة، قد قيل بأنها ليست بعيدة، لأننا لم

نتجراً على نصب خيمنا مع جميع جماعتنا إلى جانب برك أو صهاريج في القفار، لأن البداءة العرب ينصبون، بشكل عام، خيامهم هناك، ومن الصعب العيش معهم.

ووزعنا أنفسنا حول مجرى السيل، بحثاً عن عصي لنعمل ناراً لأنفسنا، وذلك حتى تحين عودة سائقي الحمير، وتطلعنا بشوق إلى عودتهم، لأننا كنا متشوقين إلى ماء طازج، لأننا أمضينا نهراً مضيقاً، وكنا ظمأين بسبب الحر، ونتوق إلى الماء كثيراً، إنما عندما عاد سائقوا الحمير مع الماء، وصببنا ذلك الماء من الروايا في قدور الطبخ، بدا لنا أشبه بالحليب منه بالماء، لأنه كان أبيضاً وكثيفاً، ومقرّف أكثر من الماء الذي مضى عليه وقت طويل في الجلود، وقد صار لونه أحمر ومالحاً بسبب الجلد، وبناء عليه أخذنا ذلك الماء الأبيض، وطبخنا طعامنا به، إنما استخدمنا الماء الأحمر للشرب، وأخذت كأساً من الماء الأبيض، وكأساً من الماء الأحمر إلى كاليينوس، وسألته أيهما كان صحياً لشربه من الاثنين، فأجابني بأن الماء الأبيض كان سيئاً، وليس صحياً، وأن الماء الذي صار لونه أحمر، وصار حاد المذاق بسبب الجلد، ليس فقط هو غير سيء، بل هو طيب، وجيد جداً للصحة، وعند هذا تشجعنا وأقدمنا على الشرب من الروايا الجلدية من دون خوف.

وعندما عملنا ناراً من أجل عشائنا، فجأة هبت ريح شديدة، وقد جاءت من جهة البحر نحو مجرى سيلنا، ففرقت العصي المحترقة، وأخذت النار، ولذلك لم نستطع طبخ شيء في تلك الليلة، فضلاً عن ذلك أثارت الغبار من الأرض، وملأت خيمنا وفرشنا، وبذلك انتشر الغبار والرمل فوق كل شيء كان لدينا، ووقفنا نحن بصعوبة في الغبار، وكأننا في سحابة كثيفة تتحرك بوساطة الريح التي لم تعرف الهدوء، وصار مجرى السيل كله مظلماً، وبدا الهواء غائماً، والسماء سوداء بسبب كثافة الغبار، وكنا جميعاً مثل أناس عميان، ننظر بأعين شبه مغلقة،

ومامن انسان أمكنه الاستقرار للنوم في ثياب فراشه بشكل جيد، من دون أن تكون الريح والغبار قد اتخذتا سبيلهما بينهم.

وهبت هذه الريح من جهة البحر الكبير، حيث لا بد أنه كانت هناك عاصفة عظيمة في البحر، لأننا رأينا لمعان وضوء البرق باتجاه البحر، الذي كان دوماً يسبب اضطراباً كبيراً، وعندما تمددنا أخيراً لإراحة أنفسنا، جاء الحاج الذي كان دوره بالحراسة تلك الليلة، إلى خيمتنا، وأخبرنا بأن اثنين من المتشردين البداة العرب قد وصلا إلى مخيمنا، وجلسا إلى جانب خيمتنا وسط الحقائق والصلال، فنهضت، لأنني كنت في ذلك الوقت رئيس جماعتنا، فوجدت هذين المتشردين، ففتحت كيساً، وأعطيتهم خبزاً لعشائهما، وملأت جرتها من ماء الروايا الجلدية، وعملت لهما شارات للابتعاد عن خيمتنا وحقائبنا، الأمر الذي عملاه وهما شاكرين جداً للأعطية، ولو أنني لم أعطهما شيئاً لما كانا تركانا، ولسرقا منا ضعف ما أعطيتهم إياه، وبقي هذان الرجلان بصحبتنا لعدة أيام، لأنهما كانا يعرفان بعض سائقي الجمال، ولولا ذلك لما سمحنا لهما بالبقاء معنا.

ويتظر لصوص بداة العرب في البادية هبوب عاصفة، وعندما يظلم الهواء، والناس قد صاروا شبه عميان، يشقون طريقهم إلى إحدى القوافل، ويستولون على كل ماتصل أيديهم إليه، ويرتحلون أحياناً معنا لمدة ثلاثة أيام، وهم أناس مامن أحد يعرفهم، كما ما من انسان يفهم كيف عثروا علينا، وطلبنا من كالينوس طرد هؤلاء الناس غير المعروفين وابعادهم عنا، غير أنه أجابنا بأنه لا يستطيع ابعاد أي انسان أثناء النهار، لكنه سوف يطلب منهم أثناء الليل الابتعاد عن أنقالننا، وقد نصحننا—لابل رجانا—أن لانمنع الخبز والماء عن مثل هؤلاء الناس الذين قد نقابلهم، وقال بأننا سوف نكون أكثر أماناً، إذا مافعلنا ذلك، ولذلك كنا عند المساء ندعو جميع الغرباء ونعطيهم بعض الخبز وبعض

الماء بالمعيار، ونأمرهم بعدم إمضاء الليل قرب خيمنا، بل عليهم الابتعاد، وإذا لم يفعلوا ذلك، سوف نبعدهم عنا بوساطة العصي والهرات، لأننا لم نسمح حتى لخدمنا بالنوم قربنا.

مغامرة الراهب فيلكس فابري المربعة الغربية

وفي اليوم الرابع عشر، الذي هو يوم تمجيد الرب، والذي كان أيضاً الأحد الخامس عشر بعد الثلاث، استيقظنا باكراً، قبل ضوء النهار، وعملنا الاستعدادات للمغادرة، ومن جديد ثار خصام كبير بين الحجاج وبين سائقي الحمير، حسبما كانت القضية كل يوم، وعانينا خلال هذا الجزء من حجتنا من سوء سلوك وحماقة خادميننا، الذين دفعنا لهما مالا كثيراً، واكثريناهما مقابل أجر كبير للقيام بخدمتنا، فكانا غير مخلصين لنا، وسرقا منا كل شيء استطاعاه، حيث كانا أثناء الليل يأخذان طريقهما إلى أكياس بقسطنطينا، ويمزقان فتحات فيهم، ويحصلون على كل ما يستطيعان، وكانا يعملان الفتحات بأسنانهما مثل الفئران، ولم نستطع قط القيام بحراسة جيدة، ولذلك سلبنا في كل ليلة، لأنها كانا لصين بارعين جداً، وبإمكانهما سرقة حاجيات الانسان أمام عينيه، وبالإضافة إلى هذا كانا كسالى في أعمال جمع أثقالنا، ذلك أننا استأجرناهما مع جمليهما لهذه الغاية، وكانا طوال وقت تحميل الجمال يتابعان رمي حاجياتنا والتخاصم معنا، ولم يكونا يتوليان رفع ماريام مالم ندفع لهما المزيد من المال، الذي لم يكن متوجباً علينا، وقاما هذان الشقيان بازعاجنا إلى أبعد الحدود، ولولا خوفنا من التعرض لخطر عظيم، لقمنا بضرهما مراراً ضرباً مؤلماً، لأنه كان بإمكاننا أكلهما، حسب تعابير العامة.

وقمنا بالوقت ذاته بترك كثير مما اقترب بحقنا لانتقام الرب، وتحملنا آثاماً فظيعة، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا قفر مجدبا، ودخلنا إلى بقعة أكثر إرعاباً وأشد قحطاً من الصحراء التي سرنا خلالها بالأمس، أو في

اليوم الذي تقدمه، حيث لم يعد بإمكاننا تمييز أي اثر لانسان أو لحيوان، ولذلك وجهنا خطانا نحو نجم القديسة كاترين، وسرنا نحو الجنوب، دون أي طريق آخر، وذلك فوق مجاري مياه، ووديان، وجبال، وروابي، ودخلنا الآن إلى المنطقة والقفر اللذان اسمهما بالعربية جبل هلال Helell ، ويوجد في هذا القفر جبال عالية جداً، مكونة من صخور منزقة، وقد سافرنا النهار كله بين هذه الجبال، ومع غروب الشمس وصلنا إلى مكان رملي، اسمه في القفار مغارث Magareth، وكان ذلك عند سفح الجبل، وهناك نصبنا خيمنا، وجمعنا حطباً لنطبخ به.

وكان على مقربة منا، كما هو واضح، جبل واحد مستدير، وقد كان عالياً، إنما من السهل تسلقه، وعلى قمته كان هناك نوعاً من أنواع البناء، ولقد أردت الصعود إلى هذا الجبل من أجل أن أشاهد ما كان على قمته، ولأحصل على فرصة مشاهدة القفار من جميع الجهات، ولم أرغب بالذهاب لوحدي، ومع ذلك لم يكن لدي أمل في إيجاد رفيق بين الحجاج، وهكذا شجعت نفسي، وتركت الجماعة وكأنني قصدت القيام بصلواتي، وذهبت وحيداً في داخل السهل، ووصلت إلى أكوام من الرمال، سرت بينها مسرعاً نحو الجبل، دون أن يعرف أحد ما الذي كنت أفعله، وبعد مسير ساعة وصلت إلى سفح الجبل، لكن مظهره خدعني كثيراً، لأنه انتصب بعيداً عن خيمنا أكثر مما قدرته، وكان أكبر وأعلى مما بدا عن بعد، وعلى الرغم من هذا كله، عازمت على إنهاء المهمة التي كنت قد بدأتها، وتسقلت فوق الجانب المتحدر من الجبل بين جروف وصخور صماء، ومع كثير من التعب والتعرق وصلت إلى القمة، التي لم أجد شيئاً عليها سوى كومة من الحجارة، وضعت أحداها فوق الأخرى.

ووقفت حيث أنا هناك، ونظرت من حولي، غير أنني لم أستطع رؤية أي شيء في أي مكان، إلاً قفاراً بلاحدود، تقطعتها، جبال، وروابي،

ومجاري سيول، حيث هي غير مسكونة لابشر، أو طيور، أو حيوانات، ولم أستطع رؤية خيمننا، لأنهم كانوا على مسافة بعيدة، لكنني رأيت جبلاً بيضاء وسوداء، ووجه الأرض كله قد شوي بحرارة الشمس، ولم أشاهد أي شيء أخضر، لا كبيراً ولا صغيراً، بل القحط الملعون ممتد فوق الأرض، وكانت كومة الحجارة على قمة الجبل علامة لتبيان الطريق، لأنه في كل مكان في أرجاء القفار، هناك أكواماً من الحجارة قد وضعت على قمم الجبال، لتري المسافرين أين ينبغي أن يسيروا في الوديان، وحيث لا توجد هذه العلامات، مامن انسان يمكنه الارتحال خلال القفار، لأن القاعدة: هناك بعض الوديان التي لا يمكن عبورها، بل هي مغلقة في النهاية القصوى، لذلك بعدما ينفق الانسان ثلاثة أيام أو أربعة في مسيرة طريق ذلك الوادي، عليه في النهاية العودة ثانية، والشيء نفسه يحدث في البحار الصخرية، حيث كانت هناك أكوام من الحجارة، مقامة فوق التلال كعلامات لتبيان الطريق عبر البحر، وإذا لم تكن هذه العلامات موجودة، تتورط كثير من السفن في ممرات بين الجبال، وتصل إلى صخور خطيرة، وإلى مآزق مهلكة، ومثل هذا هنا يمكن لكثير من الناس أن يهلكوا، إذا لم تتوفر مثل هذه العلامات فوق الجبال، هذا ويستخدم العرب هذه العلامات استخدامات غيبية واهمة، ذلك أنهم يصعدون في بعض الأوقات إلى الجبال، ويدعون إلى محمد ﷺ، لأن هذه الكومة كانت مليئة بأسمال بالية، ويقطع من الأقمشة، ويقمصان، وهم اعتادوا على هذا لإظهار الشريف لأي مكان يعتقدون أنه مقدس، مثلما سلف وتحدثت عن الشجرة، ذلك أنه عندما ينهي أحدهم صلاته، يمزق قطعة من ثيابه، ويلقها هناك، ثم يمضي مغادراً، وأسباب هذه الممارسات الحمقاء، معطاة في ص ١٣٩٥ من القسم الثاني، ولذلك انتزعت جمع هذه الأسمال وقطع الأقمشة من على الحجارة، ورميتهم فوق الأرض، ووضعت صلباناً في مكانهم، ونصبت على القمة صليباً مصنوعاً من القصب، ورسمت صلباناً على أكبر الحجارة، وعلى حجارة

أخرى حادة، لأنني كنت متذكراً تمجيد الصليب، الذي كان يوم عيده ذلك اليوم، وفعلت ذلك من أجل أن المسلمين عندما يأتون إلى هنا، يمكنهم أن يجدوا رمز المسيح، ويمكنهم أن يعرفوا أن مسيحياً قد كان هنا.

ورغبت بعد هذا بالنزول، وحدثت بعناية عبر السهل، حتى يمكنني تحديد مكان خيمنا، لتوجيه خطواتي نحوهم، لكن لم يكن بإمكانني رؤية أي شيء، ولا أي دخان من نارنا، لذلك بدأت أرتعد في خوف رهيب، خشية أن لا أتمكن من العثور على طريقي للعودة إلى رفاقي، عبر تلك المنطقة التي هي بلاممرات ولاطرقات، ولو أنني أخذت ذات اليمين وذات اليسار، لحل بي الظلام وأنا أبحث، ولو أن شيئاً من هذا القبيل وقع لي، لكنت بالتأكيد رجلاً ميتاً، والشيء الوحيد الذي منحني الشجاعة، هو أنني عندما عبرت فوق الرمال تركت علامات قدمي هناك، وأملت بأنني سوف أتمكن من اتباع طبقات قدمي هذه، وهكذا نزلت نحو الأسفل وعند سفح الجبل، وجدت بالفعل علامات خطواتي، غير أنها كانت تقريباً مغطاة، لأن الريح ألقى الرمال فوقها، ولو أنني تأخرت قليلاً فوق ذلك الجبل، لكنت علامات خطواتي قد سترت تماماً، وكان من المؤكد وقتها فقداني لحياتي، لأنني بت في وضع لم أعد أدري فيه أي اتجاه عليّ أن أذهب، لأنه كان هناك سهل كبير عند سفح الجبل، فيه أكوام كثيرة من الرمال، لأن تلك المنطقة صارت كلها تلالاً منخفضة، ولقد تبعت علامات خطواتي مسافة جيدة، لكن عندما وصلت إلى أعلى جزء من الأرض كانوا قد اختفوا تماماً، ولم أستطع إيجاد أثرهم بأية وسيلة، وقمت هنا بالاستدارة وسرت عائداً فوق العلامات الجديدة التي عملتها، إلى المكان الذي رأيت فيه علامات خطواتي القديمة، حتى أستطيع تفحصهم بدقة أكبر، لكنني لم أستطع العثور عليهم، فبت مغضباً من نفسي، ولت نفسي بحدة متناهية من

أجل فضولي وافتراساتي، وكدت أن أمزق لحيتي، ولطمت وجهي، وضربت على صدري أسفاً وقلت مخاطباً نفسي: «بالأسف، كم أنا رجل تعيس، لماذا تركت رفاقي؟ وأية حماقة مني حتى ابتعدت عن إخواني في هذه الأرض التي لا طريق فيها والمرعبة، أين تعتقد أنك سوف تجدهم؟ هاهي الشمس قد مالت نحو المغيب، وحل الليل، ولم أعد فيلكس أنا بين الناس سوى الأكثر تعاسة، فإلى أين سأذهب، وإلى أين سأسعى؟ يارب ساعدني»، وما أن فرغت من هذا حتى انفجرت أقرأ مزامير الغفران السبعة الأخيرة، و Domine exaudi التي وجدتتها صلاة جميلة ومؤثرة.

ومضيت متابعاً أغني هذا المزمور، وأنا غير متأكد حول اتجاهي، وتوليت تكراره أكثر من مرة حتى وصلت إلى كومة عالية من الرمال، فرأيت علامات طبعات قدمي الماضية على طرفها، وكان بإمكانني تقبيلهم لشدة فرحي، ولم أشعر قط بالسروور مثل شعوري برؤية طبعات الأقدام تلك، وعندما كنت بسرور أراقبهم وأتبعهم، وقع إلي أنهم ربما طبعات قدمي واحد من البداءة العرب، وبدأت أشك فيما إذا كنت على طريقي إلى المكان الذي منه قدمت وأثناء هذا الشك، نظرت عن قرب أكثر نحو طبعات القدمين، فوجدتهم طبعات قدمي رجل متنعل في حين يسير البداءة العرب فوق القفار عراة الأقدام، ومضيت ثانية متابعاً السير على طريقي وأنا مطمئن، وبعد قليل رأيت شيئاً أبيض، وخمنت أنهم ثلاثة من المسلمين، أو البداءة العرب، الذين يرتدون ثياباً بيضاء، لكن عندما اقتربت أكثر، كانوا خيمنا، ونظرت نحوهم فشكرت الرب وأنا راكع على ركبتي، وقررت أن لا أفارق أصحابي ثانية، وقد وجدت اثنين من الحجاج وهما يتعشيان في الخيم، وعندما ذهبت إليهما وبخاني لقدومي للعشاء متأخراً هذا القدر، وقالوا بأنهما انتظراني لوقت طويل، فقلت لهما بأنني كنت مشغولاً بشؤوني الشخصية، وبعد العشاء أخذتهما

إلى خارج الخيمة، وأشارت إلى الجبل، وأخبرتهما بالذى وقع إليّ، وقد اندهشا لعودتي بمثل هذه السرعة، وكانت الشمس قد غابت الآن، ووضعنا أنفسنا للاستراحة، وأوى كل انسان إلى فراشه.

متاعب في بحر الرمال

وفي اليوم الخامس عشر، بدأ سائقو الحمير، قبل منتصف الليل بالصراخ، وهم يشكون بأن اثنين من حميرهم، قد فكا من رباطهما وسرقا من قبل اللصوص، وبصراخهم استيقظنا من نومنا، وجلسنا على فرشنا نتحدث حول المسألة، وفي الوقت ذاته بحث سائقو الحمير في المنطقة فوجدوا الحمارين معا، ذلك أنهما فكا نفسيهما وشردا، وعند إعادة الحمارين أمرنا كالينوس بتحميل جمالنا، وأن ننطلق قبل الوقت المعتاد، لأن الوقت كان مايزال مبكراً جداً، أي حوالي منتصف الليل، وهكذا نهضنا، وعندما بتنا مستعدين، تركنا قفر مغارث ووصلنا إلى صحراء قاحلة جداً، وقد دخلنا إلى قسم منها كان بارداً برداً شديداً، وكان هذا على عكس القاعدة العامة في الشرق، وقد عانينا كثيراً من البرد الشديد، حتى أن أيدينا، وأقدامنا، وأنوفنا تيبست بسبب البرد، وأسناننا اصططكت، وعانينا كثيراً من هذا البرد، لأننا حتى الآن كنا نعيش في حر عظيم جداً، والآن دخلنا إلى برد شديد من دون أن نلبس مانحمي به أنفسنا ضده، وبين جميع الأشياء التي تجدد نشاط الحاج خلال القفار، والذي يحدث بشكل رئيسي كل يوم، لابل كل ساعة تقريباً، هو أنه يدخل إلى مناطق جديدة، وإلى تربة حديثة، وأنواء، ويدخل أيضاً إلى مابين جبال ذات أشكال جديدة وألوان، مما يجعل الانسان يعجب مما هو حاضراً، وأن يتطلع بشوق لرؤية ما هو مقبل، وهناك دوماً شيء ما يحدث، ويملاً الانسان بالدهشة والاعجاب، إما نحو المنظر الغريب للجبال، وألوان الأرض والصخور، والأنواع التي لا تحصى من الحصى، أو من الأراضي الشديدة الوعورة، والقحط، والطبيعة القاحلة للبلاد،

وهذه أشياء تبهج العقل السؤول، وأعترف أنا من جهتي بأنني شعرت
ببهجة في القفار القاحلة أكثر مما شعرته في الأرض الغنية والخصبة في
مصر، مع جميع جمالها الجذاب.

ومع حوالي اشراق الشمس، خرجنا من المنطقة الباردة، ودخلنا إلى
منطقة من نوع مختلف، ذلك أننا وصلنا إلى مجرى سيل رملي، وتسلقنا
مع كثير من التعب فوق جبال قد تكومت حديثاً بوساطة العاصفة،
وكان من غير الممكن عبور ذلك الطريق في الوقت الذي كانت فيه تلك
الأكوام الرملية تجلب إلى هنا، لأن الرمل يتطاير هناك فوق الأرض مثل
تطاير الرذاذ أثناء العاصفة في البحر، ويملاً الهواء كله، بحيث لا يمكن
لإنسان أن يقا تل ضده، وكما قلت من قبل يهلك الناس والحيوانات
يوميّاً في القفار، بعد قهرهم من قبل العواصف الرملية، مثلما يحدث في
البحر، حين يُقهرون من قبل الأمواج العاصفة، وهكذا هلك جيش
قممير في الرمال التي أثرت بوساطة ربح جنونية، كما قرأنا في
Speculum Historiale — الفصل: ٥٨.

وكنا الآن في خطر عظيم، لأن الرمال تطايرت نزولاً نحونا، ومامن
إنسان كان بإمكانه أن يرى أو يسمع إنساناً آخر، وكان بإمكانه بصعوبة
بالغة أن يرى بعينه شبه المغمضتين رأس الدابة التي كان يمتطيها، لأن
الهواء كان مليئاً بالرمال، التي تطايرت فوق الأرض مثل نهر سريع
جداً، وكان كل واحد خائف خوفاً شديداً، من أن تفقد دابته طريقها،
وتشرد في أرض أخرى، عن الجماعة الأساسية، لأنني غالباً ماقلت أنه
مامن إنسان كان يمكنه أن ينظر من حوله، لأن أفواهنا وأعيننا كانت
مليئة بالغبار، وكان ردائنا الأسود مليئاً بالغبار، إلى درجة يصعب عليك
فيها أن تقول بأنه كان أسود، وأخيراً في حوالي الظهيرة توقفت
العاصفة، وتسلقنا فوق روابي رملية، وانتقلنا من مجرى السيل ذاك إلى
مجرى آخر، كان كبيراً وواسعاً، وتمتعنا بسفرنا على طول هذا المجرى،

ووقتها دعانا كالينوس جميعاً، وقال لنا: «انتبهوا ياسادتي الحجاج، لديكم الآن حق الاختيار: إذا أردتم اختصار رحلتكم، وأن تسافروا ثلاثة أيام بسلام ودونها انزعاج من العواصف، علينا أن نسير عبر قعر مجرى السيل هذا، لكننا لن نجد لابرك ماء ولا آبار، طوال الطريق يمكننا نحن أو دوابنا أن نشرب منها، واعلموا ان الماء في روايانا بدأ يتناقص، إنما إذا أردتم الحصول على الماء، علينا أن نعبر هذا المجرى، لننزل في مجرى آخر، ربما سنجد عليه آباراً مليئة بالماء، وأنا أعلم بوجود بئر هناك، لكن هل فيه أية مياه أنا لا أعرف، وإذا كان فيه ماء، أخشى أن يكون مطوقاً بالبدة العرب، الذين سوف يرفضون تمكيننا من الحصول على الماء، مما سوف يسبب لنا اضطراباً، وإذا لم تكن فيه مياه، نكون قد قمنا برحلة طويلة خارج الطريق المباشر من دون فائدة، تشاوروا، وقرروا أي طريق تفضلون، وسوف أخاطر بالمضي على أيهما معكم».

وأجبناه على هذا باختصار بأننا بالحري نؤثر الأذى والنهب من قبل البدة العرب على أن نعاني من الجفاف ونموت عطشاً، وقلنا: «دعنا نأمل بأن البدة العرب سوف يتلقون منا خبزاً ومالاً، ونحصل منهم على ماء»، ولذلك خرجنا من قعر ذلك المجرى، وصرنا فوق سهل كبير، كان كله نقياً من الرمل، لأن الرياح قد أطارَت جميع الرمال وأبعدتها، مع أنه كان بإمكاننا أن نرى بوضوح بأنه كان هناك جبال رملية، ولدى متابعتنا سيرنا وصلنا إلى نهاية هذا السهل، ونظرنا إلى منطقة رملية أخرى، وكان دوننا سهل واسع، وهو القفر الذي اسمه الحسا Hachseve، ورأينا كثيراً من الخيم والأكواخ قائمة مع بعضها فوق هذا السهل الواسع مثل بلدة، مع نيران مشتعلة وأناس وحيوانات جيئة وذهاباً، وقد اعترتنا الدهشة تجاه هذا المنظر، فقد كانوا من البدة العرب، يسكنون في القفار، وقد نصبوا خيامهم حول البئر، وقد مضينا نحوهم ونحن نرتجف، ولدى مشاهدتهم لنا وقفوا على أبواب خيامهم

ينتظروننا والرماح في أيديهم، وعندما وصلنا إلى السهل، وصرنا على مسافة رمية حجر عن خيامهم، نصبنا خيامنا وأنزلنا أثقالنا إلى جانبهم، وهنا ركض أولادهم نحونا بسرور وكانوا عراة وسوداً، قد شوتهم حرارة الشمس، وأعطيناهم على الفور خبزاً، وقد تلقوا ذلك بسرور عظيم، وعادوا إلى خيامهم، وبعدهم جاء أطفال آخرون، لهم أعطينا الهدية نفسها، وزيادة على هذا جاءت بعض النسوة، وكان بعضهن كباراً مع طفل، وأخريات مع أطفال على أذرعتهن، ولهن مثل ذلك أعطينا خبزاً، وبفعلنا ذلك كسبنا قلوب هؤلاء البداءة العرب نحونا، الذين طلبوا منا الإقبال والحصول على الماء لأنفسنا ولدوابنا، ولقد ملأنا روايانا الجلدية وجرارنا من دون أدنى معيق، وهو أمر لم نكن نأمل بحدوثه مطلقاً، وكان الماء موحلاً، ومالحاً قليلاً، لكنه كان قابلاً للشرب، وكنا ممتنين للحصول عليه، وليس لدي شك أننا لو طردنا الصغار الذين ركضوا نحونا، ولم نعطيهم خبزاً، لما حصلنا مطلقاً على مائتنا بسلام، لابل كنا أرغمنا على إعطاء الخبز والمال بستان الرمح، وقد أقمنا هناك لمدة ثلاث ساعات، وعملنا صداقات مع هؤلاء البداءة العرب بقدر ما نستطيع، ذلك أن فرساننا الشباب رقصوا مع شباهم فوق السهل، وتراكضوا متسابقين معهم، وبعد هذا، وبعدما حملنا جمالنا بسرعة، وكنا على وشك المغادرة، استدعينا مقدم هؤلاء البداءة العرب إلينا، وصدوراً عن كرمنا أعطيناه دوقية، لأنه تعامل معنا بسلام، وتسلم البدوي قطعة الذهب باحترام كبير، وأخبرنا أننا إذا رغبنا، سوف يصاحبنا ويدافع عنا ضد كل هجوم، غير أننا استأذنا منه وودعناه، وتركنا البئر، وارتحلنا مسرعين.

وعند غياب الشمس دخلنا إلى قفر خفيف اسمه منشين Mins-chene حيث كان هناك مجرى سيل كبير محاطاً بالصخور، وبجبال حجرية، كلها كانت شديدة البياض، وكانت الأرض مثل كلس محروق،

ونصبنا خيامنا في قعر هذا المجرى لإمضاء الليل، ومع كثير من السعي إلى هنا وهناك تمكنا بصعوبة من جمع مايكفي من أجل النار، ولا بد أنه كان قبلنا قافلة من الجمال مرتاحة هناك، لأنه كان هناك كثيراً من الروث في ذلك المكان، وكان الروث آنذاك جافاً، وقد جمعناه واستخدمناه من أجل النار، لأنه لم يكن في ذلك المكان أية نباتات نامية.

وفي اليوم السادس عشر، أيقظنا كالينوس بعد منتصف الليل، حتى نشرق بسفرنا، ونهضنا ونحن نتذمر بضيق، لأن تعب رحلتنا بدأ ينهكنا ويعيينا، ولا سيما بالنسبة للمرضى منا، فهؤلاء اشتكوا فيما بعد بصوت مرتفع بسبب قسوة السفر، لأن الارتحال طوال النهار في الحرارة المحرقة للشمس، مع شطر من الليل في البرد والندى، ومن دون أي طعام مطبوخ، مع مثل هذا العطش الكبير، كان مؤلماً حتى بالنسبة للإنسان السليم، فكيف للإنسان المريض، وغالباً ماتساءلت وأنا في القفار، لماذا تولت الكتابات المقدسة نقد ولوم بني إسرائيل بمثل هذه القسوة، لتذمرهم، وأنه ينبغي عقوبتهم بشدة متناهية لتذمرهم، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ١٠، حيث جاء بأن الذين تدمروا قد جرى تدميرهم بالأفاعي، مع أنهم تدمروا بسبب متاعبهم (العدد: ١١)، أو بسبب جوعهم وعطشهم (الخروج: ١٦)، أو بسبب مطالبهم البشرية، وقد تعرضوا دوماً لعقوبات شديدة ومؤلمة كثيراً.

وأصبحت مضطرباً في تفكيري، وغالباً ماخشيت من الغضب الرباني، بسبب تذمرنا، وتساءلت عما إذا كان تعبنا قد عدّ بالنسبة لنا صالحاً ومفيداً، عندما نتذمر هكذا كثيراً، ولذلك حملنا الجمال، وأسرجنا الحمير، وغادرنا قفر منشين، وعند شروق الشمس كنا نسير في قفر وعمر، ومنطقة هي الأكثر قحطاً، وهي التي أسماها بنو إسرائيل — اذا جاز لنا القول — المكان الشرير (العدد: ٢٠)، واسم هذه المنطقة قفر La-rich، وكان هناك على يميننا، ومثل ذلك خلفنا، جبلاً عظيمة البياض،

كما كان باتجاه الشرق سهولاً واسعة جداً، فيها كانت الحجارة والرمال سوداء، ومشوية وكأنه كانت هناك نيران قد أحرقت كل شيء كان هناك قابلاً للاحتراق، علاوة على ذلك صدرت رائحة النار من الأرض، ولم يكن باستطاعتنا رؤية نهاية هذا السهل الشاسع، الذي لم يكن محاطاً بجبال أو تلال، ودهشنا نحو هذا القفر المرعب، وسألنا كاليينوس المسلم عن نهاية هذا السهل، فأجاب بأنه لا يوجد انسان حي قد وصل قط إلى نهاية هذا السهل بوساطة هذا الطريق، وقال: «لو أن انساناً قُدِّر له أن يسافر بشكل خاص، وأن يقطع عشرة أميال ألمانية كل يوم، فانه لن يتمكن بعد مضي شهرين من الوصول إلى ماء أو إلى انسان حي، علاوة على ذلك إن الحرارة هناك عظيمة إلى حد أنها شوت هذه السهول، ولهذا فإن أي انسان وان امتلك ماء لا يمكنه الوصول إلى نهايتهم وهو حي».

ولقد قيل بأن حدود هذه السهول قريبة من جبال الفردوس الأرضي، ولذلك فإن بريق السيف الناري، الذي وضعه الرب أمام مدخل هذا الفردوس، قد أحرق هذه السهول ليمنع الجميع من الاقتراب، وفي الحقيقة يمكن للانسان أن يفترض بأن هذه الحقول هي «حقول البهجة» التي هي سهول كبيرة جداً وواسعة، وهي خالية من السكان البشر، حيث لا يمكن للإنسان حي السكن فيها، وإلى هذه الحقول — وفقاً للشعراء — أحضر ميركوري الأرواح وأعادها من المناطق السرمدية، لأنهم اعتقدوا بأن أرواح الناس قد خلقت مع بعضها في البداية، وبعد ذلك وضعت هذه الأرواح في البشر أثناء الحمل بهم، وأننا عندما نموت تذهب الأرواح إلى المناطق التي في الأسفل، وهناك تتعذب، حتى تكون الذنوب التي اقترفتها في الحياة قد تطهرت منها وزالت، وبعد هذا يخرجهم ميركوري من «حقول البهجة»، ثم انه بعض مضي ألف سنة يأخذهم ميركوري إلى نهر النسيان حتى يمكنهم أن

يشربوا منه، وينسون متاعب هذه الحياة، وبذلك يمكن أن ترغب هذه الأرواح بالعودة ثانية إلى الأجساد، التي إليها أرسلها ميركوري.

ويقول الذين قاموا بأعمال استكشاف أوسع في هذه السهول بأنهم وجدوا ضريحاً أو قبراً بني من الحجارة في ذكرى واحد من العمالق الهائلين، ويعتقد بعضهم أن عوج ملك باشان، المذكور في سفر التثنية: ٣، قد دفن هناك، لأن سريرته أو مهده، الذي تمدد فيه وهو طفل، والذي كان مصنوعاً من الحديد، جرت العادة على عرضه في ربّات، وكان طوله تسعة أذرع، وعرضه أربعة أذرع، ونما هذا العملاق إلى إنسان ضخّم، إلى حد أن حقلاً شاسعاً، احتيج إليه لضريحه، وهكذا كانت سعة هذا الحقل، إذا توجب علينا قبول الشرح العبري، للنص المتقدم الذكر، الذي حدثنا بمثل هذه الحكايات العجيبة حول ضخامة هذا الإنسان، وأقصد هنا سفر التثنية: ٣، وواضح مع ذلك أن المؤمنين المسيحيين يحكون حكاية أولى حول هذا الحقل، وأن اليهود يحكون حكاية ثانية، والشعراء حكاية ثالثة، والسكان المحليون هناك يحكون حكاية رابعة، فنحن المسيحيين نقول بأن هذا الحقل قد شوي بأشعة السيف الناري، وإذا كان هذا صحيحاً، فإنها تصل حتى أرض الفردوس، ويقول اليهود بأن هذا الحقل هو من بعض الجوانب يشكل حدود «حقول البهجة»، غير أن السكان المحليين يعتقدون بأن هذا السهل يمتد من هنا حتى المنطقة الحارة، وأن بإمكان الإنسان العبور خلاله حتى المنطقة الحارة، والبقاء حياً.

وسافرنا طوال ذلك النهار كله خلال أرض العجائب هذه، وكان على يميننا جبال احترقت فصارت جرداء وبيضاء بسبب الحرارة، وعلى يسارنا «حقول البهجة»، وهي مشوية سوداء، حيث لاعشب أخضر، أوورقة نبات يمكن العثور عليها، وعندما كانت الشمس على وشك الغياب، وصلنا إلى مجرى سيل وعر، وهذا السيل يجري في موسمه على

شكل سيل عنيف، ونصبنا في مجرى السيل هذا خيامنا، وعملنا الاستعدادات لإمضاء الليل فيه، وبعد نصب خيامنا، ذهبنا — كما اعتدت — إلى كاليئوس، لأسأله عن اسم المكان، وفي هذا المساء، عندما ذهبنا إليه كما أنا معتاد، وسألته عن اسم هذا القفر والمجرى، ففكر لبعض الوقت، ثم قال، وهو يضحك، إن اسم هذا المكان هو «البراق»، وكان هناك بعض البداءة العرب والمسلمين واقفين هناك، وقد ضحكوا مثله عندما سمعوه، وعملوا شارات لي لأن أكتب كلمة «براق»، لأنه كان وقتها بيدي قلم وحبر، وورقة للكتابة، وهكذا عندما أخبروني كتبت «البراق»، أمام أعينهم، وعندما كتبت الاسم وقرأت الذي كتبه، ضحكوا كثيراً، ولم أعرف في ذلك الوقت سبب ضحكهم، لكنني عرفت ذلك فيما بعد؛ فقد مزح كاليئوس والمسلمون الآخرون معي، وقد أخبروني باسم دابة محمد ﷺ عوضاً عن اسم هذا المكان، وكان هذا سبب ضحكهم، فقد قرأنا في القرآن، أن محمد ﷺ كان واقفاً في أحد الأيام عند باب بيته في مكة، فجاء الملاك جبرائيل إليه، وإليه اقتاد بعنانها أعظم الدواب جمالاً وسرعة، وكان اسمها «البراق»، وكان شكل هذه الدابة هو كما يلي: كانت أكبر من الحمار، وأصغر من البغل، وكان لها وجه جميل كأنه وجه إنسان، وكان شعرها من اللآلئ، وصدرها من الزمرد، وذنبها من الياقوت، وكانت عيناها مشعتان أكثر من الشمس، وكانت قدماها وحوافرها مثل قدمي وخفي الجمل، وكان سرجها أثمن مما يستطيع عقل إنسان أن يتصوره، ولم تكن هذه الدابة تسمح لأي إنسان بركوبها ما لم يشهد جبرائيل على صلاحه، وأقسم جبرائيل بالله الحي أنها لم تقابل إنساناً قط خيراً من محمد ﷺ، ولذلك يتوجب عليها حملة على ظهرها، وعندما سمعت الدابة بهذا، قالت بأنها لم تحمل قط أي إنسان بمثل الرغبة التي ستحمل بها محمد ﷺ، وهكذا ركب محمد ﷺ وجبرائيل ممسك بالركاب، وعندما صار على السرج، قدمت مجموعة كبيرة من الملائكة، ووقفت حول الدابة، ثم شرعت الدابة

بالذهاب سائرة بشكل لطيف وهادىء لايمكن لأي لسان أي يصفه، وكانت سرعتها مثل سرعة الريح، ووصلت حتى القدس إلى المسجد حيث وجد جميع البطارقة والأنبياء، الذين أرسلوا إلى هناك من قبل الله، حتى يقوموا باستقباله وتشريفه، وقد شاهد كثيراً من الأشياء العجيبة هناك (١).

وبهذه الحكاية خدع محمد ﷺ كثيراً من الناس البسطاء، لكنه في أحد الأيام عندما كان يروي ماحدث لحشد كبير من الناس، فارقه ستون ألفاً (كذا) من الناس لأنهم تصوروا أن الواقعة كانت غير صحيحة، ومن الممكن الوقوف على هذه الحكاية في « حصن الايمان »، وهو كتاب يعالج حروب المسلمين، في الفصل الموقوف على الشرائع التي أعطاهها محمد ﷺ، ومن الممكن أن يكون كالينوسنا، قد اعتقد بأن اسم البراق يمتلك في نفسه بعض القدرة الربانية، يمكن أن تؤثر على عقلي، ضد إرادتي، أو بدون معرفتي، لكن هذه الحكاية القرآنية هي حمقاء أكثر من أي حماقة بشرية (كذا).

منطقة مدهشة حقاً

وفي اليوم السابع استيقظنا في المجرى المتقدم الذكر، باكراً قبل ضوء النهار، وبعدما حملنا دوابنا، تسلقنا مباشرة الطرف المنحدر لهذا المجرى، القائم على جهة اليمين، ونزلنا عبر طرف آخر إلى مجرى سيل آخر، وكان هذا المجرى وعراً جداً وملئاً بالحجارة، وكانت حجارتها، وصخوره، والحصى فيه سوداء، وكأنها أحرقت بالنار، لكن قمم التلال على الطرفين كانت شديدة البياض، وكأن ثلجاً جديداً قد انتشر فوقهم، مع أنه لم يكن هناك ثلج، ومن المرجح أن الثلج لم يسقط هناك قط أو سوف، يسقط قط، مثلما أنه ليس هناك في الأسفل نار تقوم بتسويد

١-- واضح أن فابري اعتمد هنا على ترجمة لواحد من نصوص كتب الاسراء والمعراج، وليس على ترجمة للقرآن الكريم كما ذكر أعلاه.

الحجارة، لكنها الشمس بقوتها العجيبة قد سودت الجهة الأولى، وبيضت الجهة الأخرى، ومثل هذا تحوّل هي بقوتها بعض الأشياء فتجعلها ناعمة، وأشياء أخرى قاسية، وهي تعمل بعض الأشياء حلوة وأشياء أخرى مرة، وتصنع السمات المتعاكسة بعملية القدرة نفسها، وذلك وفقاً لطبيعة المادة التي تعمل عليها وتؤثر.

ولدى متابعتنا رحلتنا وصلنا إلى حيث صار مجرى السيل عريضاً، وواجهنا هناك ريحاً باردة كثيراً، حيث أخذنا نرتجف منها بشدة، وتمنينا لو أننا كنا نرتدي ثياباً شتوية، وتسلقنا بعد هذا حافة مجرى السيل، ووصلنا من الجهة الأخرى إلى وادٍ عظيم، لم يكن لاحجرياً ولا رملياً، ولكن موحلاً، مكوناً من صلصال أبيض دبق، مناسب للاستخدام من قبل الفاخوري، ووجدنا أنه من الصعب جداً السير خلال هذا الوادي، لأن الماء عمل الأرض وعرة، كما أنه كان مليئاً بأقنية كبيرة ومنزلة، ولذلك توجب علينا دوماً إما الصعود إلى رابية أو النزول من رابية، وهو أمر لم يكن مناسباً لطريقة الجمال بالسير، وكان متعباً جداً لحميرنا، ومزعجاً لنا أنفسنا، ولو كانت هذه الأقنية مليئة بالماء — كما كانت من قبل — لما كان بإمكاننا شق طريقنا خلال ذلك الوادي، وجاهدنا لساعات كثيرة على طول هذا الطريق السيء، وكان علينا أن نؤثر عليه طريقاً كله صعوداً إلى التلال أو هبوطاً منها، وأن تكون المنطقة حجرية أو رملية، وأن لا نستخدم هذا الطريق الذي عنه أتحدث.

ووصلنا أخيراً عند نهاية هذا الوادي إلى أرض مستوية، كان الطريق فوقها جيداً، وعلى بعد كانت هناك بعض التلال المنبعثة من هذه الأرض المستوية، وكانت كلها طويلة، ولم تكن عريضة أو واسعة، وسرنا نحوهم لعدة ساعات، وذلك قبل أن نصل إليهم، وعندما وصلنا إلى قرب هذه التلال دهشنا نحوهم دهشة لم تكن قليلة، لأنهم انتصبوا — كما قلت — من الأرض المستوية، وكان لونهم أبيض، وكانوا

مستديرين، وكانهم عملوا على دولاب، ولم يكن من السهل القول فيما إذا كانوا قد عملوا بالصنعة أم من قبل الطبيعة، ويعتقد بعضهم أنهم أضرحة لملوك مصر القدماء، الذين كانوا قد اعتادوا على الاهتمام بإقامة مثل هذه المنشآت فوق أضرحتهم، كما رأينا بأعيننا في مصر فيما وراء النيل، قرب طيبة، كما سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد في الصفحة: ٧٩ظ.

ولدى اقترابنا منهم، رأينا أنهم من عمل الخالق النافع، ولم يعملوا بصنعة انسان فاني، وذلك ما لم يقع اختيارنا على الرواية التي نتحدث بشكل اسطوري عنهم، ويتناقلها العامة الجاهلاء، الذين يقولون بأن هذه التلال قد وضعها هرقل على ظهر تيتان، الذي حملهم إلى هذا السهل، من أجل أن يضع احداهن فوق الأخرى، حتى يتسلق إلى السماء، وهذه حكاية من السهل أن يتمكن انسان من أن يقنع بها رجل أحق وأن يصدقها في هذا المكان، أو أنهم بنات أطلس، اللاتي حوّلن فيرسيوس Perseus إلى تلال، وبين هذه التلال واحدة أعلى من البقية، وهي بالفعل مذهشة جداً، ذلك أنها جادة، وكأنها صيغت ببراعة بيد عامل ماهر، ولهذا السبب نالت لنفسها اسماً دون سواها، واسمها لدى البداية العرب Calpis ، والذي أعتقده أن هذا الاسم لم يمنح لها بالصدفة، أو حسب عادات العوام، بل إنه أخذ من واحد من عمودي هرقل، الذي اسمه الاسم نفسه أي Calpis، لأنه هناك جبلين هما: أبيلا Abi-la، وCalpis، وهما مرتفعان كثيراً حيث يصلان إلى السماء، وهما يقفان أحدهما مقابل الآخر، ويقف الأول من هذين الجبلين في موريتانيا، (للغرب) والثاني في اسبانيا، ومن بينهما يتدفق البحر المتوسط إلى وسط الأرض.

ويؤكد بعض الناس أن هذين الجبلين هما أعمدة هرقل، ونجبرنا بعض القدماء بأن هذين الجبلين كانا فيما مضى متصلين في جبل واحد،

وأن البحر المتوسط لم يكن بعد قد أرسل من قبل المحيط، لكنه كان مغلقاً بكتلة جبلية لا يمكن تحطيمها، لكن قوة هرقل خرقت فيما بينهما، وتدفق البحر إلى البلاد صدوراً عن المحيط، وذلك إلى أماكن لم يكن فيها بحر من قبل، وصار هذا البحر يعرف باسم البحر المتوسط، كما هو الحال في هذه الأيام، وبذلك فصل هرقل أوربا عن أفريقيا بمضيق ضيق، والآن إنه بسبب أن هذا الجبل في العربية يشبه ذلك الذي هو في اسبانيا، أطلق عليهما مع الاسم نفسه، هذا وهناك جبل آخر في صقلية، يدعى بهذا الاسم نفسه، للسبب نفسه.

وغادرنا جبل Calpis، وتركناه خلفنا، وبعدما عملنا رحلة طويلة في ذلك اليوم، وصلنا إلى القفار التي يدعوها البداءة العرب باسم مسمار Meschmar، ودخلنا هنا إلى مجرى سيل جاف جداً حيث أنزلنا حموله دوابنا، ونصبنا خيمنا، وبعد صعوبة بالغة تمكنا من جمع مايكفي من حطب لعمل نار نستطيع أن نطبخ عليها أي شيء، وكان على يسارنا جبل مرتفع ممتد لمسافة طويلة، لكن لم يكن بعيداً عنا، وذهبت إلى هذا الجبل وحيداً راغباً في رؤية مايمكن أن يوجد عند سفحه، وقد رأيت هناك كهوفاً كثيرة وممرات تحت سطح الأرض، تؤدي إلى قاعدة الجبل، وتصورت بأن هذه الأماكن كانت حيث حفرت المناجم في العصور القديمة، وعندما نظرت إليهم، تذكرت على الفور، كيف قرأنا بأن كثيراً من الآباء المقدسين للكنيسة قد اختاروا السكنى في بيوت مثل هذه مهجورة، كانت لعمال التعدين، ومن هؤلاء الآباء على سبيل المثال القديس هيلاريون Hilarion ، والقديس بولص، الذي كان الناسك الأول، الذي أثناء قيام جيروم في رسالته بامتداح القفار قال عنه، بأنه سار مسافة طويلة في القفار إلى جبل مفرغ حيث وجد كهفاً كبيراً مغلقاً بحجارة، وعندما أزال الحجارة، رأى في داخله قاعة كبيرة ومبينة بقوة، وهي مضاءة بوساطة فتحة في الصخر، ولقد كانت هذه مكان ضرب

العملة غير القانونية التي ضربت في الأيام التي كان فيها أنطونيوس مُفتناً من قبل كليوبترا، وعلى مقربة من هذه القاعة كان هناك عدداً كبيراً من القاعات، كان فيها مقاعد(?) لابل حتى سندانات ومطارق، وذلك حيث كانوا يضربون النقود، ومثل هذا وجدت كهوف العمال القدماء في المعادن، ونظرت في هذه الكهوف بقدر ما استطعت، لكنني لم أتجرأ على الدخول إليهم، خشية أن يكون هناك مأوى لحيوانات شريرة، ولم تكن الكهوف معمولة من قبل الطبيعة في الجبل، بل محفورة بصناعة انسانية، وعندما نظرت من حولي وأنا مندهش وجدت كومة قديمة جداً من الفضلات، التي كانت عبارة عن الخبث الذي استخرج من المعادن لدى تصفيتها في النار، ولم يكن هذا الخبث فضلات حديد أو أي معدن عادي آخر، بل أفضل أنواع ذهب العربية، الذي استخرج بالحفر من هنا، ولهذا أطلق القديس جيروم في مصنفه «حول المسافات بين الأماكن» على هذه الجبال اسم *Catachrysia*، وقال بأن بني اسرائيل قد أقاموا قربهم لبعض الوقت، عندما كانوا يسكنون في القفار، وأن موسى كتب سفر التثنية هناك، ومامن شك لدي بأن الرهبان المقدسين القدماء قد بنوا لأنفسهم قلايات في هذه الكهوف، لأننا غالباً مانقرأ في «حياة الآباء» بأن القديسين سكنوا في الصحراء في كهوف رجال التعدين، وقد أخذت بعض القطع من الخبث، وجلبتهم إلى موالى الفرسان، الذين طلبوا مني منحهم هذه القطع بمثابة هدايا، لأنه كانت لهم أشكال غريبة.

يوم سفر شديد

وفي اليوم الثامن عشر، وبعد منتصف الليل ارتحلنا من قفار مسمار ومن جبال *Catachrysia* ، ووصلنا إلى منطقة كان فيها على يميننا جبال بيضاء كأنها غطيت بالثلج، وعلى يسارنا جبال حمراء كأنها صبغت بالدم، وكان وجه الأرض مغطى بالواح ناعمة من الحجارة، وكأنها

رصفت بشكل طبيعي بألواح مصقولة من الصخر الأصم، ولذلك سارت دوابنا عليهم بخوف، وذلك خشية الانزلاق، وبعد هذا صعدنا إلى رابية منحدره ثم وصلنا إلى مجرى سيل آخر، حيث توفر سير ناعم وجيد، ويبدو أن هذا المجرى كان في بعض الأوقات مليئاً حتى حافته بمياه وافرة، ومن هناك نزلنا إلى سهل، وجدنا عليه نباتات وأعشاب، وعليق أخضر، ولدى رؤيتنا لذلك سررنا كثيراً حتى أملنا أن نجد ماء هناك، على أساس أن هذه النباتات لا يمكنها النمو إلا في أماكن رطبة، وسرنا بين هذه النباتات، ووجدنا أنه بالفعل قد كانت هناك مياه، لكن لا يوجد شيء منها الآن، وعلى كل حال وجدنا هذا الموضع المنعش هناك، حيث كانت أغصان وأوراق النباتات مبللة بندى الصباح، وبالنقاط التي تجمعت هناك أثناء الليل، وقام واحد من الحجاج، وكان عطشانا، فقطع غصنا ووضع في فمه، على أمل انعاش نفسه بلعق الندى، لكن وهو يعتقد أنه يلحق ندى منعشاً، وجد فمه مليئاً بملح مذاقه حاد جداً، فأصيب بالرعب، ظاناً أن مصيبة أو كارثة قد نزلت به من عند الرب، ولذلك طلب من رفيقه الحذر من الندى، لكنه لم يقل شيئاً حول مرارته، وفي الحقيقة وجدنا نحن جميعاً بأن الندى لم يكن سوى ملح ذائب، له طعم حاد جداً، وبذلك علمنا بالخبرة بأن هذه كانت «الأرض الملحة» التي تحدث عنها إرميا (٦/١٧) حيث قال الرب للمذنب بأنه سوف يكون مثل العرعر في الصحراء، الذي له أوراق مرة مغطاة بندى ملحي.

وهكذا تابعنا سيرنا خلال هذه النباتات العرعرية، ولم نجد ماء، وفي الحقيقة كنا في ضائقة كبيرة بسبب الحاجة إلى الماء، ولهذا قمنا في هذا اليوم بفتح الجرار التي جلبناها وهي مليئة بالماء من غزة، لأنهم أخبرونا في غزة بأن الماء لن يأسن إذا مابقي في جرار محكمة الاغلاق، وأنا يمكننا استخدام ذلك الماء وقت الحاجة، ولكن عندما فتحنا الجرار

صدرت رائحة مقبحة من الماء الآسن، إلى درجة أن مامن انسان كان يمكنه أن يلمس ذلك الماء، فكيف بشربه، لابل أكثر من هذا، لم تستطع حيرنا على الرغم من عطشها الشديد، الشرب من ذلك الماء، وهكذا أرغمنا على رمي المياه التي جلبناها معنا لمسافات طويلة، عبر القفار، والتي حول حملها تخاصمنا كثيراً مع سائقي جمالنا البداة العرب، والتي من أجلها دفعنا مبلغاً كبيراً، لأننا أملنا أننا في وقت الضيق الشديد سوف نستفيد منها، والآن وقد خاب أملنا، ولم يعد بإمكاننا تحمل العطش وقتاً أطول، دعونا كالينوس لإعطائنا ماء، ورجونا ورجونا أدلاءنا، بأن لا يجعلوا رحلتنا أطول، بل أن يقودونا خلال أي طريق جانبي في القفار، إلى أي ماء أو سباح حيث يمكننا الحصول على ماء، ووافقوا على هذا، وانحرفوا جانباً نحو اليمين، بعيداً كثيراً عن الطريق الحقيقي، فوصلنا إلى سهل قاحل تماماً، وقابلنا فوق هذا السهل قافلة، أي مجموعة من التجار المدنيين، كانوا يحملون سلعاً من البحر الأحمر، وكان هؤلاء الناس لأيام كثيرة من دون ماء ورجونا بالحاح أن نعطي كل واحد منهم شربة ماء، لأنهم كانوا على حافة الاغماء، ولذلك أعطيناهم ما كان قد بقي معنا من مائتنا، لأننا كنا سنصل إلى بعض السبخ قبل المساء، وبعد ساعة من الزمن قابلنا قافلة أخرى قادمة من أطراف الشرق، ومرّ هؤلاء الناس بنا بصمت وحدثوا بنا بملامح مقبحة مكفهرة، حسبما يفعل الشرقيون والغربيون، عندما يقابل أحدهم الآخر، ولولا أن العقل يضبطهم لإنقض أحدهم على الآخر مباشرة، مثلما تفعل الكلاب المسعورة عندما تلتقي، أو الخيول الشريرة التي يحیی أحدها الآخر بالعض.

ووصلنا ونحن نتابع سيرنا فوق هذا السهل، أخيراً إلى موضع سفوحه منحدره نحو الأسفل، ونزلنا هنا عبر هضبة طويلة متعبة، ونحن نعاني من حرارة الشمس، التي لا تحتمل ومن العطش ووصلنا

بعد لأي إلى حافة مجرى سيل عميق جداً ومخيف يسمونه Hallicub، وكان مغلقاً من على جانبيه بجدارين عاليين من الصخر، وكان عميقاً وهاوية ضيقة، أن تنظر إليه تصاب بالرعب، ولم نكن نستطيع لأن نشاهد أو نسمع صوت أي ماء فيه، مع أن الوادي كله كان موائماً لأن يجري فيه نهر عظيم، وتدمرنا ضد كالينوس لأنه اقتادنا عبر مجرى سيل جاف، بعدما كان قد وعدنا بالماء، حيث لا يوجد شيء من هذا هناك، وكان كالينوس رجلاً يتكلم بشكل ناعم، فقد طمأننا، قائلاً صحيح بأن مجرى السيل ليس فيه مياه متدفقة، لكن هناك مياه راكدة في بعض الكهوف، والحفر في الصخور، والبؤر في الأرض،

وطلب منا الترحل من على ظهور حميرنا، وإعطائهم إلى سائقي الحمير، في حين نزلنا نحن في تلك الهاوية إلى مكان مامن انسان يستطيع أن يتسلق نزولاً جانبيها الصخريين، وهكذا اقتاد سائقو الحمير مع سائقي الجمال الدواب بعيداً عنا إلى بقعة مستوية على ضفتي الهاوية، وهناك أنزلوا الأثقال عنهم، وسعينا نحن نحو الحافة، نبحت عن طريق فوق الصخور، وعندما عثرنا على طريق نزلنا إلى القعر، فوجدنا ماء في كهوف وجروف الصخور، كان قد بقي هناك منذ أن كان مجرى السيل مليئاً بالماء قبل بضعة أشهر، وكان هذا الماء دافئاً، وله رائحة كثيفة جداً، وكثيفاً، مثل القار، وكان لونه أخضر، وكان موجلاً، وكان مليئاً بالعلق الذي يتكاثر في الماء الأسن، لكن طعمه لم يكن مكروهاً، ولم نعبأ بهذه السمات المنفرة للماء، وانبطحنا فوراً على صدورنا، ونضحنا الماء بأيدينا، وشربنا منه بشره كبير، دوننا أدنى اهتمام أو تأني للماء، لأن الانسان العطشان لا يهتم ولا يري ما يشربه، بل يبادر مسرعاً إلى الشرب، وأعتقد بشكل أكيد لو ان انساناً شرب من هذا الماء لإطفاء مجرد عطش عادي، ماكان لينجو مطلقاً من التعرض لأذى شديد، لكن العطش المحرق، والعمل الشاق قبل الشرب وبعده كان يدمر كثيراً ذلك الأذى.

وبعدما ملأنا أجوافنا بالماء، وأطفأنا عطشنا، تفتحت أعيننا، فرأينا أن الماء كان قذراً مليئاً بالعلق المتحرك، لكننا كنا قد ابتلعنا كل شيء، وأوساخ وعلق، وأقدر أنني شربت مع الماء ما يزيد على مائة علقه حية، ومثلي فعل الآخرون، وهكذا صفينا الماء من خلال قطع أقمشة وملأنا جرارنا الفارغة والروايا الجلدية، ورمينا بالعلق والفضلات الآسنة، التي من قبل شربناها بسبب اهمالنا، ولذلك صرنا خائفين على حياتنا، وانتظرنا فعل وتأثير الشراب المضر بخوف وأسف إنما بحماية الرب لم نعان من أي أذى كان، ولم نشعر بأدنى ضيق، ولو أننا وصلنا بعطشنا اللامحدود إلى ماء طازج بارد، وصافي، لسبب ذلك موتنا بدون أدنى شك، من خلال قابليتنا للشرب غير المحدودة، وأخيراً عثر أدلاؤنا هناك على طريق نحو الأسفل، فأنزلوا الجمال والحميز وسقوهم، ولم تشرب هذه الحيوانات من دون انتباه كما فعلنا، بل امتصت الماء من الأعلى، حتى لا تبتلع العلق مع الماء، وصعد بعض الحجاج نحو الأعلى وأنزلوا الأناس المرضى إلى الوادي لانعاشهم، لأن الوادي كان عميقاً وظليلاً، وبسبب الصخور الخطيرة والحجارة المفصولة المعلقة فوقه، وكان في الوادي شعراء وصفصاف، وكهوف فيها جلسنا وغسلنا رؤوسنا وأجسادنا وثيابنا ومناديلنا، ونظفنا أنفسنا من حشرة اسمها القمل، التي لم يكن واحد منا، مهما كان أصله نبيلًا، متحرراً منها وهذا القمل يشكل واحداً من المزعجات الرئيسية للمسافر في البحر أو في الصحراء، لأن القمل يتكاثر في كل لحظة بأعداد هائلة.

وغالباً مانعجب من تكاثر القمل السريع، لأنه ما أن يقوم انسان بتنظيف نفسه في إحدى الأمسيات، حتى يجد على نفسه مباشرة في المساء التالي المزيد الكثير من القمل، ومن ذوات الحجم الكبير، وكأنه لم يتفقد قميصه منذ شهر، والويل للذين شعورهم طويلاً، لأنهم يحملون معهم مأوى ومكاناً لحفظ القمل، والويل أكثر للذين هم كسالى جداً حيث

لا يقومون بتنظيف أنفسهم كل ليلة، وكان هناك فارس شجاع في جماعتنا لم يلمس قملة قط باصابعه لإمسакها أو لقتلها، بل كان يأخذ دوماً حجرين، وعندما كان يرى قملة على قميصه، اعتاد أن يضع القميص على الحجرة الأولى، ويضرب القملة بالحجرة الأخرى حتى يقتلها، وكنا نضحك من هذا الفارس، ومن طريقته في قتلهم.

وبعدما فرغنا من تنظيف أنفسنا، أشعلنا ناراً في الوادي، وطبخنا طعاماً لعشائنا مع سرور عظيم، ولم نمتّع أنفسنا خلال الرحلة كلها أفضل مما عملناه هناك، وكتبت في هذا الوادي عرضاً عن الرحلة كلها من غرة إلى هذا المكان، لأنني عندما كنت أجلس على ظهر حماري كنت أكتب حول طبيعة المنطقة واتجاهات الطرق على لوح شمعي، حملته معي في جعبتي، وكتبت هنا كل ما كنت قد كتبت في كتاب، ومسحت الشمع حتى أتمكن من كتابة المزيد عليه فيما بعد، وغالباً ما كنت أترجل من على ظهر حماري، وأكتب وصف الطرق، والجبال، والوديان، لأن مامن انسان يمكنه أن يحتفظ بهذه الأشياء جميعاً في عقله، ما لم يحم بتدوينهم كل ساعة تقريباً، وبعد العشاء نوينا امضاء الليل في الوادي، وبدأنا في اعداد الأماكن لننام تحت الصخور، لكن عندما سمع كالينوس بهذا نزل إلينا، ومنعنا من النوم هناك، مهما كان الأمر، بل جعلنا نصعد إلى أثقالنا، وبناء عليه صعدنا إلى المكان الذي كانت فيه الأثقال والدواب، ونصبنا خيمنا، وأعدنا أنفسنا للنوم، وكان اسم هذا القفر، أي السهل والوادي بالعربية الفوجيا Elphogaya.

متابعة سفرنا الأكثر انهماكاً

في اليوم التاسع عشر استيقظنا عند منتصف الليل، وارتحلنا من قفر الفوجيا، ووصلنا الآن إلى واد في غاية الوعورة، وسرنا بتعثر متابعين سفرنا في الظلام فوق الصخور والحجارة، ومع أن القمر كان مشرقاً، لم تستطع أشعته الوصول إلينا، لأن بعض الجبال كانت بينه وبيننا، وأخيراً

خرجنا من هذا الوادي، وشرعنا بصعود جبل مرتفع، وتسلقنا سائرين فوق سفح شديد الانحدار، ووعراً للغاية، وتابعنا السير على هذا الطريق المتعب حتى اشراق الشمس، وعندما أشرقت الشمس كنا قد أنهينا تسلقنا، ووصلنا إلى قطاع قاحل كان فيه سهول قاسية وواسعة، وكان اسم هذه المنطقة Rachhaym، وكانت أرض، وحجارة، وصخور هذه المنطقة حمراء، وظهروا وكأنهم فوق نار، وتابعنا السير باتجاه الجنوب، وتواجهنا مع ريح باردة، وقوية، وقارسة، ومعاكسة، لأننا كنا في منطقة مرتفعة، وليس لدينا جبال تحمينا من قوة الريح، ولذلك عانينا بألم من البرد في ذلك الصباح.

وبعدما تابعنا سفرنا لمدة ساعة أو أكثر فوق هذه الأرض المرتفعة، وصلنا إلى نهاية تلك السهول، وتلك المنطقة، التي منها يقود الطريق نزولاً عبر منحدر في غاية الوعورة والانزلاق إلى القفار في الأسفل، وعندما كنا واقفين على حافة هذه الرايبة، ونرتجف ونحن ننظر نحو الأرض المنخفضة البعيدة تحتنا، شرع سائقو الجبال يلقون نظرات فرحة نحونا، وأشاروا بأصابعهم إلى شيء ما في الجنوب، غير أننا لم نفهم لا كلماتهم ولا إشاراتهم، وعلى كل حال جاء كالينوس وأرانا منطقة بعيدة، جبلية مكتظة، وكانت هذه الجبال عالية جداً، وبدت بالنسبة لنا ضبابية ومظلمة بعض الشيء، لأنهم كانوا بعيدين جداً، وأشار بين هذه الجبال إلى واحد كبير جداً، ومرتفع كثيراً، كانت له قمتان، كأنهما رأسان، كان الأول بينهما أعلى بكثير من الآخر، وعندما كنا جميعاً ننظر نحو هذا الجبل قال: «انتبهوا ياسادتي الحجاج، هذا هو جبل حوريب المقدس؛ وجبل سيناء، الذي عنده سوف ينتهي حجكم المتعب».

وعندما سمعنا هذا، ترجلنا على الفور عن ظهور حميرنا، ومددنا أيدينا نحو الجبل المقدس، وصلينا إلى الرب على ركبنا، ولدى فراغنا من صلاتنا، نهضنا فرأينا شطراً كبيراً من البحر الأحمر على جهة يميننا، وبدا

لنا أن البحر الأحمر كان قريباً تماماً منا، وكأن الانسان يستطيع الوصول إليه على ظهر فرس في ست ساعات، غير أن كاليينوس أخبرنا أنه يبعد مسافة سفر ثلاثة أيام طوال، وعند لحف الجبل الذي وقفنا عليه، كان هناك سهل شاسع، كان خلفه جبال ارتفعت باستمرار حتى وصلت إلى المنطقة الجبلية الأكثر ارتفاعاً في قفار سيناء، ولدى رؤيتنا هذا كله، أحضرنا أطعمتنا من جعبنا، وتناولنا طعام الافطار، ونحن جلوس مع بعضنا، وبعد هذا أنزلنا مرضانا من السلال من على ظهور الجمال، حتى يمشون معنا على الأقدام، وينزلون المنحدر الكبير، ولم يكونوا راضين بالقيام بذلك، ومع ذلك كان من الضروري أن يسيروا بأنفسهم، نزولاً عبر ذلك المنحدر الخطير جداً.

ونزلت الجمال أولاً مع خوف وارتجاف، وكان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى بعد الثانية بحذر عظيم جداً، وكانوا يخشون على أنفسهم، وعلى أحماهم، وقد ساروا ببطء شديد، فبعدها كان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى، كان ينتظر طويلاً قبل القيام بالخطوة الثانية، لأن المنحدر كان منزلقاً وخطيراً، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق نزولاً من هذا الممر، حدث لجمل كان يحمل على جانبه واحداً من الحجاج المرضى، وكان واحداً من خيرة جماعتنا وأكثرهم نبلاً، وكان هذا الجمل قد حمله طوال الطريق عبر الصحراء، والذي حدث هو أن هذا الجمل حاول النزول من فوق إحدى الصخور، لكنه عندما مدّ قدميه الأماميتين، بقي واقفاً على الصخرة أعلاه، وفجأة انزلق القتب من على ظهره مع جميع حمله، وصار فوق رقبة الدابة ورأسها، ثم سقط يتدحرج طوال الطريق نحو الأسفل، وقد تحطم كل شيء كان في السلتين قابلاً للتكسير، وتعرض للتلغ، وكان في السلة الأولى من هاتين السلتين قوارير الأدوية، والمنعشات، والماء المقطر، فهذا كله تلف، لأن هذا الجمل قد حمل صندوق أدوية الحجاج، ولو أن اللورد المريض بقي في سلتة — وهذا

ماكان يفضل فعله — لكان قد صار مائة قطعة، ولو كان له ألف رقبة، لكانوا قد تحطموا جميعاً.

وإنه لمفيد للرجل المريض أن لايسمح له بفعل مايرغب بفعله، ذلك أن هذا الرجل قد رجانا كثيراً حتى نتركه ينزل وهو في سلته، غير أننا لم نصغ لتوسلاته بأي شكل من الأشكال، لأننا كنا نستطيع رؤية الخطر الذي منعه مرضه من رؤيته، وبعد بذل جهد كثير تمكنا من جمع الذي استطعنا العثور عليه من الأشياء التي وقعت، وأعدنا تحميل الجمل، ومن ثم تابعنا سيرنا مع حذر أكبر من ذي قبل، ومكثنا مدة خمس ساعات ونحن نبذل جهودنا نازلين وذلك قبل أن نصل إلى أرض مستوية، وعندما وصلنا أخيراً السهل الموجود عند لحف الجبل، استدرنا ونظرنا إلى الخلف إلى طرف الراية الذي نزلنا منه، لكننا لم نستطع رؤية الطريق الذي نزلنا عليه، بسبب الصخور المتقطعة، والجروف المنحدرة، والممرات المنزقة والمتعرجة، لذلك عجبنا كيف استطعنا النزول نحو الأسفل، لأنه بدا لنا تعذر النزول واستخدام مثل ذلك اللحف المنحدر بحيوانات محملة، فضلاً عن هذا تعجنا كيف استطعنا النزول سالمين من قمة الجبل، لأن القمة بدت لنا معلقة فوق الجزء الأدنى من طرف الجبل، ولذلك لا بد أننا قفزنا من قمة الجبل نحو الأسفل، أو تدلينا فنزلنا بوساطة حبال، ولقد اعترف موالي الفرسان الذين رأوا كثيراً من أجزاء العالم، أنهم لم يشاهدوا قط طريقاً بمثل هذه الخطورة.

وعندما كنا على السهل في الأسفل، بدا لنا الأمر حقيقة، أننا كنا في عالم آخر، لأن القفار هنا بدأت تظهر أنها أكثر حضارة، حيث توفرت بعض الشجيرات والنباتات، كما أنه في أماكن هناك كان يمكن للرعيان وقطعانهم، أن يعيشوا، وهنا لم يعد الندى مالحاً كما كان من قبل، بل مذاقه مذاق العسل والمن، كما سوف أتحدث من بعد، فهنا بداية أرض مدين التي تحتوي بعض القبائل، بعضها مستقر وبعضها الآخر رحل،

وسافرنا عبر السهل وكان بإمكاننا السفر في ذلك اليوم حتى الجبال، لكن إخواننا المرضى صرخوا وتذمروا بسبب التعب، ولذلك من أجلهم نصبنا خيمنا في ذلك السهل، في مكان يدعوه العرب باسم رمثايم Ramathaim وكان يوجد في هذا المكان كهوف في الصخر، ليست كثيراً تحت الأرض، وأجلسنا أنفسنا في هذه الكهوف للاستراحة أثناء حرارة الشمس، التي خرقت خلال أقمشة الخيام وجعلت داخلها مثل أفران، ولهذا السبب امتلك المدينيون والأحباش خياماً معمولة من الجلد لرد حرارة الشمس (حقوق: ٧/٣).

وهكذا استرحنا في كهوف الصخر هناك حتى المساء، وعندما جاء المساء، جمعنا عصياً، وطبخنا طعامنا، وبعد تناول طعام العشاء، وعند غياب الشمس رغبتنا بالنوم في الكهوف، لكن كاليانوس أرغمنا على النزول إلى الأرض المنبسطة إلى خيامنا، وكان هذا السهل مليئاً بأجمل الحصى، الذين كانوا براقين، وشفافين ولهم ألوان متنوعة: أسود، وأبيض، وأحمر، ورمادي، وأزرق، وأخضر بحري، وقد أعجبنا بهم، وجمعنا بعضاً منهم، ووجدنا أيضاً هناك طبقات أقدام نعومات، وهو طائر كبير يركض بين القفار، ولسوف نتحدث عن هذه الطيور وعن مظهرهم في ص ٨٣، وقد وجدنا آثارهم في أماكن أخرى من القفار.

متابعة الترحال

واستيقظنا قبل ساعتين من ضوء نهار صباح اليوم الثاني والعشرين، وغادرنا المكان المتقدم الذكر، وعندما وصلنا إلى نهاية السهل الصحراوي، دخلنا بين جبال وعرة جداً، عن طريق واد جميل وواسع، وكانت الأرض في هذا الوادي مغطاة بالأزهار والأعشاب، وانتصبت هناك أشجار شوكية عالية، كانت مزهرة آنذاك، وقد ملأت الوادي كله بأجمل الروائح وأطيبها، ولا أعتقد أنني شممت قط مثل هذه الروائح الطيبة التي صدرت عن هذه الأشجار الشوكية، لأن هذه الأشجار

لا تحمل ثماراً غير الأشواك، وكنت قد توليت في ص ١٣٠٢ وصف هذه الأشجار من قبل، عندما حدثتكم عن الممارسات الخرافية التي يقوم بها المسلمون بالنسبة لهذه الأشجار، ذلك أنهم يقلدون في كثير من القضايا أخطاء الكفار القدماء، الذين اعتادوا على تكريس أشجاراً مزهرة ونباتات أخرى من الأنواع ذوات الروائح الطيبة إلى Ham-adryads مع Dryads ربي الحدائق، والورد، والأشجار، ووفقاً لهذا أعتقد أن هذا الوادي مع أشجاره ووروده، كان مكرساً بشكل خاص إلى هذين الربين، لأن اسم هذا الوادي الذي هو Hinischenam يقترح ذلك.

والجبال التي تحيط بالجبل من الجانبين هي عالية جداً، وصخرية ولونها أحمر، وفي الأماكن التي تسقط فيها أشعة الشمس عليهم يلمعون مثل لمعان الصخور التي دهنت بالزيت، وقد عجبت من ذلك كثيراً إلى درجة أنني سرت نحو الجدار الأول من الصخر، ونظرت إليه عن بعد فرأيت أنه وكأنه مرطب مبلل بالزيت، ومع ذلك برهنت باللمس بيدي أنه لم يكن رطباً، وأن لمعان تلك الصخور كان مرده إلى نعومتها العظيمة مثلما يكون الحال مع الأحجار المصقولة.

وعند الظهر رأينا على قمة الجبل حيواناً ينظر نحونا، وعندما رأيناه خيل إلينا أنه كان جملاً، غير أننا تساءلنا كيف يمكن لجمال أن يعيش وحده هناك، وتحول السؤال بيننا إلى هل هناك جمال وحشية، لكن كالينوس جاء وقال بأن ذلك الحيوان هو وحيد القرن، فضلاً عن هذا أشار إلى قرن واحد نابت على جبينه، وحدقنا برغبة صادقة نحو هذا الحيوان الفخم جداً، وغضبنا لأنه لم يكن قريباً منا حتى نراه عن قرب، وهذا الحيوان متفرد في كثير من الجوانب، فهو في المقام الأول — كما يقولون — حيوان حاد جداً، وله قرن قائم في وسط جبينه، وأربعة أرجل طويلة، وهو حاد وقوي إلى حد أن كل شيء ينطحه إما أن يطوح

به في الهواء، أو يتولى خرقه من وسطه (كذا) ويلقي به على الصخور، وقرنه يلمع بشكل عجيب، ويعدّ عظم ذلك القرن باهظ الثمن وثميناً مثل الحجارة الكريمة، ويوضع في الذهب والفضة [٤٠] وهو قوي إلى حد أنه لا يمكن انتزاعه بأية وسيلة من وسائل القوة، وذلك من قبل الذين يصطادونه، وقد قيل من قبل كتّاب حول التاريخ الطبيعي أنهم يضعون عذراء شابة على طريقه، وهي تقوم بالكشف عن صدرها وهو يركض نحوها، وأن ذلك يفقده كل حدته، ويضع رأسه (في حضنها) وبذلك يمسك، وبعد تجريده من قواه وقوائمه، يؤخذ للذبح بسكاكين الصيادين، وإذا ما أمسك حياً، لا يمكن الاحتفاظ به ضد إرادته، وإذا ما ربط بشدة يموت فوراً لشدة غضبه، لأنه حيوان لا يمكن ترويضه، وهو قوي إلى حد أن قوة الرب في الكتابات المقدسة (العدد: ٢٣/٢٢) شبت بقواه، وكذلك ورد الأمر نفسه في أيوب: ٩/٣٩ على صيغة سؤال نصه: «أيرضى الوحيد القرن أن تربطه برباطه في التلم؟» الخ، وذكر داوود أيضاً في مزاميره الوحيد القرن اطراء وهجاء، وهو حيوان ضخّم، له جسد حصان، وأقدام فيل، وذنب خنزير، ولونه لون خشب البقس، وخواره مربع، وهو يشن الحرب ضد الفيل، ويتغلب عليه بنطحه بقرنه في الأجزاء الناعمة من جسده، وكما قيل هو يظهر احتراماً غريباً للعدارى.

وقد أحضر بومبي الكبير وحيد قرن إلى روما للعرض، فهذا ما أورده ألبيرتوس في كتابه عن الحيوانات، ولذلك توقفنا طويلاً عند سفح الجبل الذي وقف الحيوان عليه، وبدا لنا أن النظر إليه أمر مفرح بالنسبة لنا، وكذلك مشاهدنا بالنسبة له، لأن الحيوان وقف دونها حراك، ولم يهرب حتى بعد مغادرتنا له.

وبعدما مضينا على طريقنا رأينا راعياً يقود قطيعه عند لحف الجبل، وكان هذا أمراً رائعاً بأعيننا، لأننا منذ مدة طويلة لم نر انساناً ولا حيواناً

مدجناً، ووصلنا بعد هذا إلى مكان أدركنا أن البداية العرب لابد قد أقاموا فيه مؤخراً، لأن بعض الأكواخ من الأغصان كانت ماتزال قائمة، وكان بعضها مايزال يحترق، وكانت النيران مشتعلة تماماً هناك، لذلك خفنا من أنهم سوف يلقوننا في مكان ما، وهذا ماوقع لنا بالفعل، كما سوف نتحدث عن ذلك في مكانه، ومع حلول المساء دخلنا إلى القفر الذي اسمه Schoyle، ونصبنا خيامنا في واد كبير، وبقينا نحرس طوال الليل بعناية أكبر مما هو معتاد، خشية أن ينقض البداية العرب علينا بشكل مفاجئ.

ترحال يوم شاق خلال القفار

وفي اليوم الحادي والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس متى الرسول والانجيلي، والذي كان الأحد السادس عشر بعد التثليث، غادرنا Schoyle في الصباح الباكر، وسرنا عبر واد جيد، كان على جانبينا صخور وجبال عالية، وكانت هذه الجبال غريبة ورائعة بأشكالها، وكأنها كانت مكللة بشجر البرقوق، بينما الأرض في الأسفل كانت طينية ومعشوشبة ومن الممكن بسهولة فهم أشكال هذه الجبال من الحكاية الشعرية التالية، التي تفترض بأن الجبال الداخلية قد وجدت قبل صنع الجبال الخارجية، وتمضي الحكاية لتقول بأن ديانا ربة الجبال، وصائدة وحيد القرن، وحامية الطرق، قدمت من شواطئ البحر الأحمر في أرض مدين، وكانت راكبة لعربة ثمينة جداً، يجرها وعول بيضاء، ومضت نحو أعلى الجبال، التي كان القدماء يسمونها الحدائق، والتي بعد منح الشريعة إلى موسى صار اسمها حوريب وسيناء، وقد أرادت أن تصطاد هناك، وعندما وصلت إلى موضع هذا الوادي الذي لم يكن آنذاك وادياً، توقفت الوعول التي كانت تجرّ عربتها عن سيرها، لأنهم غطسوا بالأرض، لأن الأرض كانت موحلة، مشكلة من صلصال سميك دبقي، فيه توقفت الوعول والعربة عن التحرك،

ولدى رؤية ديانا لذلك دعت هرقل للقدوم إلى مساعدتها، فجمع على الفور تيتانه Titans ، وأمرهم بالطاعة أوامر ديانا، وبما أنها كانت حامي الطرق والجبال أمرت الطين الذي غطى وجه الأرض، بأن يتجمع على شكل أكوام، وأن تقف كل كومة من هذه الأكوام على قمة واحدة أخرى على الجانبين من الطريق، وذلك قبل الوقت الذي شوتهم فيه حرارة الشمس وحولتهم إلى صخور، وعلى هذا اعتاد هؤلاء التيتان على حمل جبال تجمعت على شكل أكوام، ثم كدست الأكوام كلها على الطرفين قبل أن يقسو هؤلاء ويتحجروا بوساطة الشمس، والذي حدث هو أن الأكوام السفلى ضُغت عليها بالأكوام التي هي فوقها، فتسطحت بسبب وزنها، وبناء عليه فإن الطبقة الدنيا منهم هي الأكثر انتشاراً بينهم، والطبقة الثانية هي الأقل تسطحاً، ثم ان الثالثة أقل منها، وهكذا حتى نصل إلى القمة، حيث واضح أن الكتل والقطع باقية كما هي لم تتغير، وعلى هذه الشاكلة بدا الطريق وكتل الجبال إلى جانب الطريق قد تشكلوا، لأن هذه الجبال ليست معمولة من تجمع لكتل من الصخور، مثل الجبال الصخرية الأخرى، بل من كتل من الصلصال الأرضي الترابي، التي لم تكن في البداية جافة أو مشوية، لكن من بعد ذلك صارت قاسية، وهكذا نستطيع من خلال هذه الحكاية تتبع أصول شكل هذه الجبال.

وفيا نحن سائرون على طول هذا الوادي، رأينا حشداً كبيراً من الناس من رجال ونساء وأطفال، مع جمال، وحمير، وخيول، كانوا جميعاً وقوفاً عند سفح الجبل على استعداد لاستقبالنا، وعندما اقتربنا منهم، ركض رجالهم نحو الأمام لملاقاتنا مع صرخات غاضبة وحركات، وانقضوا أولاً على الجمال، وأنزلوا من عليهم الأثقال، وخلال ثورتهم وعنفهم مزقوا واحداً من أكياس البقساط، ونثروا البقساط على الأرض، في حين بدأت نساؤهم وأطفالهم بالتقاطهم، علاوة على ذلك،

عاملنا سائقو جمالنا بسوء وغش، فقد ساعد بعضهم البداية العرب على سلب أشياء من الجمال، وبما أن أدلاءنا لم يهتموا بصراخنا، وكانت حاجياتنا تتناثر فوق الأرض، ركضنا نحو الأمام وانتزعنا بقوة أكياس البقسماط من أيديهم، واتخذنا موقفاً صارماً منهم وأظهرنا غضبنا نحوهم، وعندما شاهدوا ذلك أوقفوا عنفهم، واستداروا نحو كاليينوس الذي أزعجوه بقسوة متناهية، وأفترض أنهم انقضوا عليه لأنه سمح لنا بمقاومتهم، وجعنا الأشياء التي انتزعت من الجمال، ووقفنا حولها مع أسلحتنا بأيدينا لحراستها، ومع ذلك لم نتوقف عن منح البقسماط إلى النساء والأطفال الذين قدموا إلينا وحذرنا كاليينوس من أن نكون متعنتين، بل ينبغي جمع مبلغ مامن بيننا، بحيث يسهم فيه كل حاج بدفع مبلغ مندوس أو مندوسين، وعندما نجمع هذا المبلغ نعطيهم إياه كخفارة، وقد تصرفنا هكذا وعملنا اتفاقاً مع مقدمهم مقابل عدد من المندوسات، وبعدما دفعنا هذا المبلغ، سمحوا لنا بمتابعة سيرنا على طريقنا، لكن بعض الشباب بقيوا معنا حتى جبل سيناء.

وبعد رحلة طويلة خلال ذلك الوادي، وصلنا إلى نهاية الوادي، وعبرنا ثانية إلى سهل فسيح، يوجد على جانبه الآخر جذور الجبال، التي كان بينها جبل سيناء المقدس، وسرنا عبر هذا السهل نحو الجبال التي كانت قائمة في مواجهتنا، ودخلنا إلى واد، عملنا فيه استدارات إلى هنا وإلى هناك، فقد كنا ساعة على هذا الجانب وساعة أخرى على الجانب الآخر، وذلك تبعاً لتعرجات الوادي ومنحنياته، وجرى اقتيادنا جانباً بعيداً عن الممر المستقيم نحو الجبل المقدس، وعبرنا ودياناً بدت وكأنها تقود إليه مباشرة، لأن جبل سيناء وقف مباشرة إلى الجنوب منا، ولكن بما أن الوادي اعترض طريقنا، ارتحلنا مسافرين الوديان المتعرجة، الآن نحو الشرق، وبعد قليل نحو الشمال، وأحياناً نحو الغرب، مما أزعجنا كثيراً، بسبب أننا رأينا أحياناً جبل سيناء يقف تماماً خلفنا.

ووصلنا حوالي الظهيرة إلى مكان حيث انحرف الوادي وعمل استدارة أخرى نحو الجنوب، وخلفنا هنا الجبال المرتفعة خلفنا، ورأينا قمة جبل سيناء أكثر وضوحاً، فوق قمم الجبال الأخرى، وفي الحقيقة يوجد في قفار سيناء مناطق مدهشة، هي في غاية الارتفاع وجبال حادة القمم، وبعدما سرنا مسافة قصيرة، ونحن مسرورين، باتجاه الجبل المقدس، تركنا الوادي الذي يقود نحو الجنوب، والذي بدا بأنه يقود نحو سفحه مباشرة، وقمنا ونحن نتبع أدلاءنا، فانعطفنا إلى جانب وادي يقود نحو الشمال، وبذلك أدركنا ظهورنا لجبل سيناء للمرة الثانية، وقد تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن نتدمر، وكنا غير راضين تماماً، ولقد تردد بين الحجاج بأن البداية العرب الذين كانوا يتولون سوق جمالنا، اقتادونا عن عمد عبر هذه الممرات الملتوية في القفار، في محاولة منهم لإنهاكنا، حتى ندفع لهم مالاً، من أجل الذهاب عبر الطريق الأقصر.

وفي الحقيقة ابتعدوا عن الوادي الذي بدا بأنه يقود نحو البقعة المرغوب بها، ونزلوا إلى وديان قادت نحو الاتجاه المعاكس، ولذلك فإن الحجاج الذين شعروا بأنهم خدعوا وتوجسوا بأنهم اقتيدوا عن عمد بعيداً عن طريقهم ثاروا، ولعنوا كاليونس، ولعنوا الأدلاء، هذا من جهة ومن جهة أخرى قال بعض الحجاج، بأن هذا لم يكن تصرفاً صحيحاً، وأنه ليس هناك خدعة حول القضية، ووجه هؤلاء اللوم إلى الذين ثاروا من أجل الشتائم، وبناء عليه تخاصم اثنان من الفرسان أحدهما مع الآخر، وشرعا يتبادلان الشتائم ولغة قدرة، وقد لعن أحدهما الآخر، وأصبح هذان الفارسان غاضبين إلى حد أنها ترجلا عن حماليهما، وامتشقا سيفيهما وخطا أحدهما نحو الآخر خطوات مع تسديد رأسي السيفين كل واحد نحو الآخر، وكان كل واحد من الفارسين بارع في المدافعة، ومنع بذلك كل واحد منهما الآخر من طعنه بسيفه، وعندما رأى بقية الحجاج هذا ركضوا وسعوا للفصل بينهما، لكن مامن واحد

تجراً على الاقتراب منها خوفاً على جلده، لأن كل واحد منها كان غاضباً جداً، ولوحا بسيفيهما من دون حذر، وركض البداة العرب الذين كانوا معنا نحوهما، ومع أنهم كانوا عراة، وضعوا— دونها خوف— أنفسهم بينهما، ووقفوا تحت سيفيهما، وبهذه الوسيلة انتهت المشاجرة، لأن مامن واحد منها كان بإمكانه طعن الآخر، من دون أن يجرح الأبرياء العرب، ولولا أنه تمّ الفصل بينهما بهذه الطريقة، لكان أحدهما، أو كلاهما، قد هلكا، ومركز البداة العرب على هذه الصورة أنفسهم ووضعوها في هذا الخطر العظيم، ليس بسبب شجاعتهم، بل بسبب مبادئ إيمانهم..... لأنهم يعتقدون أن ساعة موت كل انسان وشكل ذلك محددة من قبل الله، وأن هذه الساعة لا يمكن تقديمها أو تأخيرها، حتى وان ضرب انسان نفسه بالسيف ليموت، أو رمى نفسه من شاهق إلى مكان منحدر لتدمير ذاته، وهم يعتقدون أنهم لا يمكن أن يموتوا، ولا يمكن أن يقتلوا إذا لم تكن ساعتهم المقررة، ولذلك يمضون إلى القتال من دون دروع واقية للجسد.

وبعد الفصل بين هذين، استطعنا بعد صعوبة أن نقنعهما بأن يقسما بالمحافظة على السلام في الوقت الحالي، وقد أقسما بالحفاظ على السلام حتى الوصول إلى القاهرة، لأن الملك السلطان موجود هناك مع قضاته، وأنهما يرغبان بالثول أمامهم، والخضوع لحكمهم، وعانينا أثناء ذلك القتال من خوف رهيب، لأنه لوجرح أحدهما الآخر لهبّ رفاقه إلى مساعدته، ولانقضوا على الآخرين، وكان رفاق الآخر سيقفون إلى جانبه مساندين له، لأننا كنا مقسمين إلى ثلاث مجموعات، كما تحدثت عن ذلك من قبل، علاوة على ذلك، كان سيلقى بنا في السجن، ومن ثم الثول أمام السلطان بسبب خرقنا جواز الأمان المعطى إلينا، وهكذا مضى كاليانوس إلى المتنازعين، وأمرهما بالحفاظ على السلام باسم السلطان، لكنهما لم يباليا، لأن القضية كانت معلومة أمام الناس جميعاً.

وعندما انتهى هذا الشجار، سرنا مسافة طويلة، ونحن مديرين لظهورنا إلى الجبل المقدس، لأن كاليئوسس مع البداية العرب أخبرونا بأننا لن نتمكن من الوصول إلى سفح جبل سيناء، من خلال أي وادي، باستثناء واحد، علينا أن نشق طريقنا نحوه، وهو الوادي، الذي ذهب من خلاله آباؤنا من بني إسرائيل، إلى الجبل المقدس، وبعدما سرنا مسافة طويلة، انعطف الوادي نحو الجنوب، أي إلى الجبل المقدس، وسرنا على طريقنا ونحن مسرورين، لأن جبل سيناء بات أمام أعيننا، وعند غياب الشمس وصلنا إلى سهل شاسع، محاط من كل جانب بجبال عالية، وكان شكل هذا السهل مستديراً في وسط الجبال، وكانت التربة معشوشبة وجميلة جداً، وكان في وسط السهل كثيراً من الصخور والحجارة المنبعثة من الأرض في مكان واحد، مشكلة بذلك جبلاً صغيراً، ونصبنا عند سفح هذه الجروف والشعاب خيمنا، وقررنا إمضاء الليل هناك، وكان اسم هذه المنطقة والسهل بالعربية Machasea، وكان السهل محاطاً بالجبال إلى حد أننا لم نستطع أن نرى أي طريق للخروج منه، كما أننا لم نتمكن من رؤية الطريق الذي جئنا عبره، وفي هذا الطريق أطعم موسى قطعان يثرو (شعيب) الذي كان ختته، والذي عنه قرأنا في سفر الخروج: ٤، ومن هناك قاد قطيعه إلى الجانب الخلفي من الصحراء، وإلى سفح جبل سيناء، الأمر الذي لم يتجرأ أي راع قبله على فعله، بل كانوا يقيمون جميعاً في الخارج، في هذا المكان، أو في مكان آخر بين الوديان، كما سوف أحدثكم.

وعلى الجبل المجاور لنا، أشار أدلاؤنا ودلوننا على مكان بين الصخور، موائم للإنسان ليقف عليه، حيث من هناك مشهد عبر السهل كله، ويقال بأنه هنا قد اعتاد موسى على الجلوس عندما كان يطعم قطعان يثرو، كاهن مدين، ولكي نفهم هذا بشكل أوضح، علينا أن نعرف بأن مدين كانت مدينة على شاطئ البحر حتى الأحمر، ومن اسمها عرفت

المنطقة كلها الممتدة من شاطئ البحر القفار باسم مدين، وفي هذه المدينة عاش رئيس المنطقة، وكان يعرف باسم كاهن مدين، وكان الكاهن في أيام موسى هو يثرو، وكان أيضاً يعرف باسم رعوثيل، وسيفوس Civeus و أوباب Obab ، وإلى هذا الرئيس إلتجأ موسى عندما هرب من مصر (الخروج: ٢)، وبما أن موسى خدمه بشكل جيد، أعطاه احدي بناته زوجة له، وجعله راعياً لقطعانه من الأغنام، التي كانت شيئاً عظيماً، لأن ثروة الناس كلها في القديم تمثلت بقطعانهم وأسراهم.

وأقام موسى مع قطعان الأغنام في الأماكن المعشوشبة من القفار، مثل التي توفرت في وديان قفار سيناء، وكان هو وبقية الرعيان يترددون على هذا الوادي أكثر من سواه، لأنه كان واسعاً، وجيداً لإطعام الأغنام، وقد رعى أغنامه هناك لسنوات كثيرة، وكان من وقت لآخر يذهب إلى المدينة، التي كانت بعيدة، وذلك لرؤية زوجته، لكن في القسط الأكبر من السنة كان في القفار مع الأغنام، مثلما يفعل رعاة البقر (في بلادنا) الذين يسكنون في الألب، فيبقون معهم قسطاً كبيراً من السنة، وكان هذا السهل يشكل التخم بالنسبة للمراعي، ومامن راعي تجرأ على أن يقود قطيعه خلفه نحو جبل سيناء، لأن الذي كان رائجاً بشكل عام بأن هذا كان جبل الرب، وأن الرب قد سكن فيه، ولذلك مامن انسان كان يتجرأ على الاقتراب منه، خاصة وأن بعض الذين دخلوا إلى هناك، لم يشاهدوا بعد ذلك وماتوا فيه.

ومن هذا واضح أنه من قبل أيام موسى كان هذا الموضع مع الجبل محل تقدير، إنما مع كثير من أوهام الكفار واعتاد بعضهم بأن يقول بأن أرباب الجبال قد اتخذوا هناك حدائق جعلوها مكاناً للالتقاء فيه، ولم يكونوا يسمحون لأي انسان حي بالحضور معهم، ولهذا أطلق الأرباب على هذه الجبال اسم الحدائق، وقال آخرون بأن هذا الجبل كان مقدساً

لدى أبولو الذي كان راعي قطيع أدमितوس Admetus ملك ثيسالي Thessaly، وعمل رياً للحكمة، واعتاد آخرون على عبادة موبسوس Mopsus هناك، الذي كانت له السلطة في سهول Grynean، والذي اعتاد بعد موته على إعطاء الهواتف في الهيكل الذي بني هناك.

إنما موسى، لكونه مؤمناً حقاً، كانت لديه آراء أخرى حول هذا الجبل، وفي الحقيقة كان رجلاً عظيم الحكمة، وكان الأول الذي أعطى اليهود أبجدية، التي منها اشتق الفينيقيون أبجديتهم، ومن الفينيقيين تلقى الاغريق أبجديتهم، كما تعلمنا من الفيلسوف يوبوليوس upolius الذي أعلن أنه هو الذي اخترع أسلحة الحرب، وأعطى الأبجدية إلى الكهنة المصريين، وكان رجلاً عظيم القدر بين المصريين، حتى أنهم اتخذوه مثل الاله ميركوري، علاوة على ذلك لقد وصف مظهره قائلاً بأنه كان رجلاً طويلاً، له بشرة شقراء، وشعر شائب، وكان شعره طويلاً وكذلك لحيته، وعبر في وجهه وشكله عن جلالته لا يمكن وصفها.

وكان هذا الرجل العظيم، بعدما طرد من مصر — كما سلف وقلنا —، يقوم برعي القطعان في هذا المكان، وهنا غالباً ماجرى تحريضه — بدون شك من قبل الروح القدس — ودفعه للدخول إلى الجزء الأقصى الداخلي من القفار، وهكذا قام في وقت كان محدوداً من قبل الرب بقيادة قطيعه إلى قلب المكان هناك، حتى سفح الجبل المقدس، كما سنوضح ذلك في مكانه، وهكذا نمنا في الخارج تلك الليلة، ناوين أن ندخل في الغد مثلما دخل موسى.

مقال لاهوتي حول المن الذي وجدناه

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس موريس ورفاقه، استيقظنا مبكراً جداً، وحملنا دوابنا، وتبعنا نجمة القديسة

كاترين، العذراء المباركة، التي بدت قائمة على مقربة منا، وسرنا نحو جدار الجبل، الذي كنا مطوقين من قبله، وعندما وصلنا إلى هذا الجدار الصخري، وجدنا فجاً ضيقاً في الصخر، أعطانا مدخلاً، ومن خلال هذا الفج عبر موسى مع قطيعه إلى الأجزاء الداخلية القصوى من القفار، وكان من الصعب على جمل محمل المرور من خلال هذا الممر الضيق، وعندما أصبحنا في الداخل، دخلنا إلى سهل آخر، جميل جداً، يوجد فيه عشب، ونباتات وشجيرات، وهنا أنعشنا أنفسنا بالندى المتساقط، الذي كان أحلى من العسل، ويختلف اختلافاً كلياً عن الندى الذي تذوقناه في اليوم الثامن عشر، كما ذكرنا من قبل، ذلك أن الندى الذي يتساقط هناك حول تلك الأماكن المقدسة يرينا كم كان حلواً مذاق المن الذي أعطي هناك إلى البطارقة، وفي هذه الأيام يتساقط المن، أو ندى المن، حول جبل سيناء لمدة شهرين هما: آب، وإيلول، ويقوم البداة العرب بجمع هذا المن، ويبيعونه للحجاج، ورأيت أنا شخصياً هذا المن وأكلت منه، وقال فنستوس في مصنفه *Speculum Naturale* — الكتاب الخامس، الفصل: ٨٥، بأن المن هو ندى يتساقط فوق الأوراق أو الحجارة، وهو كثيف مثل العسل، ويغدو جافاً مثل الصمغ، ثم يصبح قاسياً وبعد ذلك يجري جمعه، وفي الشرق يتساقط في الليل، لكن بما أنه يعثر عليه بكميات قليلة، يغش كثيراً، وعندما يكون نقياً، وليس ممزوجاً مع أشياء أخرى، تكون رائحته طيبة جداً، ويكون ثميناً، ولونه أقرب إلى البياض، وأحلى من أي شيء آخر في العالم، وهو حلوى طيبة جداً، ويقال بأنه من النوع نفسه الذي عاش عليه العبرانيين في القفار لمدة أربعين سنة، وتشكل ذلك المن بمعجزة ربانية، ولذلك فإن شكله وطعمه قد تغير وصار مالحاً، أما بالنسبة لهذا المن الطبيعي فإنه يتساقط أدنى من المن الاعجازي، على أساس أن المن الطبيعي لا يتوفر كل ليلة، أو كل موسم من مواسم السنة، بينما كان يتم العثور على الآخر كل صباح، حيثما كان شعب الرب مقيماً، ومثل هذا هو موجود

في بعض مناطق بلاد الاغريق.

وفيما يتعلق بالمن الذي أعطي إلى بني اسرائيل، نقرأ في سفر الخروج: ١٦-١٤: « وفي الصباح كان سقيط الندى حول المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذ على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور، دقيق كالجليد على الأرض»، ومعنى هذا النص أن الجليد سقط فوق الأرض، ثم تبع ذلك سقوط المن عليه، وبعد ذلك تجمد بعض الندى عليه، وعلى هذا الأساس كان المن بالفعل موجوداً بين طبقتين، مخزوناً بذلك بشكل نقي بين غلافين، الغلاف الأول هو الجليد، والغلاف الثاني هو الندى، لكن الندى الذي يتم العثور عليه في هذه الأيام لا يغطي وجه الأرض، إنما يتعلق فوق أوراق النباتات، وعلى رؤوس الأحجار، مثل الندى المعتاد وليس له طعم حلاوة الحلوى نفسها، بل إنه يحصل على الحلاوة من طبيعة النباتات، أو الأعشاب، أو الحجارة التي عليها يتساقط.

واعتماد القدماء على أن يقولوا بأن الندى هو ابن القمر والهواء، ويتساقط الندى بشكل غير مرئي، فينعش الأرض، ويجعلها خصبة، وهو حلو وشفاف، وقليل من الحرّ يجففه، ويسبب الندى المتساقط الخصوبة، وعندما تحمله النحلات إلى خلاياها يتحول إلى عسل حلو، وعندما يتساقط في الأصداغ البحرية يتحول إلى لآلىء ثمينة، وهكذا مصبنا في ذلك الصباح، الندى الحلو للقفار مع الشعور بالسرور، وعندما صرنا في دير القديسة كاترين اشترينا منا، لكن وجدناه قد تعرض لكثير من الغش والتزييف، وذلك حسب تصوري مما قد قيل، وفي الحقيقة لاقينا النصيب نفسه الذي لاقيناه مع المن هنا مع البلسم فيما بعد.

وبعدما عبرنا خلال الفج الضيق المتقدم ذكره، وصلنا إلى واد فسيح، مليء بنباتات طيبة الرائحة، وكان هذا الوادي مطوقاً بصخور عالية جداً، ذات لون أحمر، ففي هذا الوادي وفي أحوازه المحيطة بجبل سيناء،

سكن بنو اسرائيل، في خيم وأكواخ وفقاً لأسباطهم ولأسرهم، وذلك في الوقت الذي كان فيه موسى مع الرب في الجبل، وهذه مسألة سوف أتوسع حولها كثيراً في ص ٨٣ ظ.

وسرنا لبضع ساعات نحو الشرق، وتخلينا أخيراً عن السير في ذلك الاتجاه، وانعطفنا نحو الجنوب، ودخلنا إلى وادٍ آخر كبير وجميل، وبعيداً عنا وأمامنا، رأينا جداراً جبلياً عالياً جداً ومرعباً مكوناً من الصخر، وباتجاهه تسلقنا، وتساءلنا في أي مكان سوف نخرج من ذلك الوادي، لأنه لم يوجد أمامنا، كما أننا لم نشاهد على أي من الجانبين من حولنا أي ممر يقودنا إلى خارجه، والذي رأيناه أنفسنا فقط محصورين من قبل جدران جبلية صخرية وعالية جداً، وعندما وصلنا تقريباً إلى الجدار الجبلي الكبير الذي وقف أمامنا، فجأة ظهر أمامنا فج في الجبل على يميننا، ممتد من القمة إلى القعر، من خلاله، وليس من خلال طريق آخر، هناك طريق يقود إلى سفح الجبل المقدس، ولذلك سرنا عبر هذا الطريق الضيق، ووجدناه وعراً جداً للسير عليه، ومرعباً للحمير وللجمال، وبعدما سرنا قليلاً خلال هذا الممر وعندما أخذ الوادي يتسع قليلاً، رأينا أبنية، ومساكن بشرية، وكنيسة لها شكل مستطيل، وقد كانت دير القديسة كاترين، العذراء المباركة جداً، وما عرف باسم كنيسة ومصلى العذراء مريم المباركة، عند العليقة، وذلك عند سفح جبل سيناء العظيم القداسة، وعندما رأينا هذا كله ترجلنا من على ظهور حميرنا، وجثونا بسرور عظيم على ركبنا، وتعبدنا نحو المكان، ففي المكان نفسه الذي يقوم عليه الدير، رأى موسى المعجزة المشهورة، وهي الأجمة (العليقة) التي كانت تحترق من دون أن تتأذى أوراقها الخضراء وثمارها، ولم تتعرض أغصانها التي كانت تحمل ثماراً مطلقاً للخدش بالنار، مع أن لهيب النار كان حاداً وسريعاً.

ووقفت العليقة المدهشة في المكان الذي يقوم فيه الآن مزار القديسة

مريم عند العليقة، عند رأس الكنيسة، وكان موسى عندما شاهد هذا عجب وقال: «أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة، فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه»، وهكذا إلى آخر ما نقرأه في سفر الخروج: ٣/٣-٤.

وسرنا مسرعين من هذا المكان خلف الجبال والحمير، وذلك باتجاه الدير، وعندما وصلنا إلى الدكة الواسعة أمام باب الدير، وجدنا كثيراً من البداة العرب يجلسون هناك مسلحين وفق طرائقهم، وخرج هؤلاء الناس مرغمين من القفار بسبب الجوع، وأجبروا على الذهاب إلى الدير من أجل لقيات من الخبز، وعندما رأيناهم بتنا خائفين جداً، وخشينا من أن نبلى بهم أمام باب الدير، كما أن كثيراً من البداة العرب قد ذهبوا معنا، وكانوا قد لحقوا بجماعتنا في القفار.

وبناء عليه أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، وجمعنا أثقالنا في مكان واحد، ووقفنا من حول حقائبنا، خشية من اللصوص الذين كنا بحضرتهم، فقد خفنا من أن يستولوا على أي شيء منا، وعندما سمع الرهبان بحضورنا، وبوجودنا هناك، قدم بعضهم ورحبوا بنا بلطف، كما أنهم ساعدونا في حمل جميع حقائبنا إلى الداخل، أي إلى بيت الضيوف، وكان في بيت الضيوف كثيراً من القلايات الفارغة، عليها وزعنا أنفسنا، وذلك تبعاً لتوزيع جماعاتنا، فضلاً عن ذلك كانت هناك بيعة للطقوس اللاتينية وفيها مذبح، وهنا، بما أن الظهيرة لم تكن قد مضت قام واحد من الحجاج بقراءة قداس لنا، أصغينا إليه بخشوع، واشترينا بعد القداس حطباً للنار من الرهبان، لنطبخ به، وطبخنا وأكلنا بعض الطعام الذي جلبناه معنا من الأرض المقدسة، وتمددنا بعد هذا للاستراحة، وعندما انتهت استراحتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وإلى مصلى القديسة مريم عند العليقة، وزرنا أماكن مقدسة أخرى، سوف أتولى وصفها في أماكنها، وبعدما قمنا بهذا كله، أقمنا في داخل الدير وعلى

أرضه ولم نذهب إلى خارج الأسوار في ذلك اليوم.

الاضطراب الذي ألم بالحجاج

وكنا في اليوم الثالث والعشرين مستعدين للصعود إلى جبال: سيناء، وحوريب، والقديسة كاترين، ولكن إخواننا المرضى سألونا انتظارهم حتى الغد، حتى يكونوا قد استردوا قواهم، وأن يكونوا قادرين على الصعود معنا، وأصغينا إلى توسلهم، وبصبر بقينا مرتاحين، وحدث أنه بعد تناول طعام الغداء، أن زرنا ثانية الأماكن المقدسة في الدير، حتى نتمكن الحصول على غفرانات(+) وتجولنا في جميع جهات الدير، ورأينا كل طرف من أطرافه.

ومع حلول المساء، وصل واحد من المقدمين العرب، وكان رئيساً للصوص الصحراء، وقد قدم معه كثير من الأتباع المسلحين، ودخل إلى الدير، وعسكر مع رجاله قرب أماكن إقامتنا، حيث راقبوا دخولنا وخروجنا، ذلك أنهم قدموا بسبينا، علّهم يستخرجون مكوسهم غير العادلة منا، وقد أزعجنا هذا كثيراً، وأغضبنا، وألقى ظلالاً على سرورنا، لأنه لم يعد بإمكاننا العبور من أماكن إقامتنا إلى كنيسة القديسة كاترين، لأن البداية العرب جلسوا في الساحة ليلاً ونهاراً، وراقبونا عن قرب لدى صعودنا ونزولنا من على السلام، كما أننا لم نستطع الذهاب إلى البئر للحصول على الماء إلا بالمرور من وسطهم، ولم يفعلوا شيئاً لنا، إن كان خيراً أو شراً، كما أنهم لم يصرخوا علينا، ومع ذلك كان جلوسهم هناك مزعجاً لنا.

وعندما اقترب ميقات العشاء، طبخنا طعاماً من أجل عشائنا، وكذلك من أجل غدائنا في اليوم المقبل، حسبما اعتدنا أن نفعل في القفار، لأنه في الغد لن يتوفر لدينا وقت نقوم به بطبخ طعام الغداء، كما سوف نرى.

كيف صعد الحجاج إلى جبل حوريب وسيناء المقدس، وكيف
وقعت لهم حوادث متفرقة وهم على طريقهم أثناء صعودهم،
مع وصف للجبل وللطريق

استيقظنا في اليوم الرابع والعشرين قبل شروق الشمس، وأقمنا
قداسات في البيعة اللاتينية، وبعد انتهاء هذه القداسات، جاء راهب،
هو الحافظ لمقداسات الدير، واسمه نيقوديموس، جاء ليقودنا لدى
الصعود إلى الجبال المقدسة، وقام باستعراض جميع الحجاج، ونظر إلى
كل واحد منهم عن قرب، ولم يسمح مطلقاً للذين نظر إليهم على أنهم
مرضى بالانطلاق معنا، لأنه قال بأن الممر شديد الانحدار وشديد
الانهاك، ولذلك بقي بعض الحجاج المرضى خلفنا، لكن بعضهم،—
وإن كانوا مرضى— رفضوا جميعاً البقاء والتخلف، وحملنا مزاول طعامنا
مع طعامنا، وقوارير مليئة بالخمرة، وجراراً من الماء، تكفيناً لمدة يومين،
وأعطيناهم إلى سائقي حميرنا لحملهم، لأنهم كانوا على استعداد للذهاب
معنا، والقيام بخدمتنا.

ولدى فراغنا من هذه الاستعدادات، اقتادنا الراهب نيقوديموس إلى
خارج الدير من خلال الباب الذي دخلنا منه، وشرنا باتجاه الجنوب
عند لحف الجبل المقدس لسيناء وحوريب، والذي على جانبه هناك
جرى بناء الدير، وفي الحقيقة لهذا الجبل المقدس اسمين هما: لقد عرف
من الدير حتى بيعة القديس إلياس باسم سيناء، ومن هناك حتى القمة
عرف باسم حوريب، وجرى منح هذين الاسمين له، وفقاً لما تم عمله
هناك، فلأن الوصايا والشريعة قد أعطيت هناك، أطلق عليه اسم
سیناء»، أي «العقيدة»، وكذلك لأن الرب ظهر هناك في نار ودخان،
وكان الجبل كله فوق نار ودخان مثل أتون، كما قرأنا في سفر
الخروج: ١٩، فقد أطلق عليه اسم حوريب، أو خوريب، أي «حرارة».

ولدى شروعا بتسلك الجبل المقدس، وعندما كنا سائرين بصمت،

ووقار وخشوع، تفجر نزاع وصراخ، وخصام، بين سائقي حميرنا الذين حملوا أثقالنا، والبداءة العرب الذي رافقونا، حيث لم يسمح البداءة العرب لسائقي حميرنا بخدمتنا بل قالوا بأن هذا اختصاصهم، وعليهم تقديم هذه الخدمات، وذلك مثلما قالوا بأن جواز الأمان والخفارات من أجل عبور الصحراء، واقعة في منطقتهم، وهكذا بذل البداءة العرب جهودهم من أجل الحصول على حقائبنا، ورفض الآخرون اعطاءهم إياها والتخلي عنها، ونظرا لقيام هذا الاضطراب ووصوله إلى هذا الحد، أخذنا بأنفسنا حقائبنا، ورفضنا اعطاءها لأي فريق منهما، بل وضعناها على أكتافنا، واستدرنا، وعدنا على خطانا نحو الدير، لإنهاء ذلك الخلاف بمساعدة كالينوس، وراعي الدير، ومقدم البداءة العرب، وذلك حتى نتمكن من صعود الجبل بسلام، وعندما شاهد البداءة العرب مع سائقي الحمير ذلك، صاروا أصدقاء مع بعضهم بعضاً، ووعدوا أن سيكونوا هادئين، وسيحافظوا على السلام، ورجونا بعدم العودة إلى الدير فقط، وأخذوا الأثقال ثانية منا، ومضوا من دون أي ازعاج.

وعندما صعدنا إلى الأماكن المنحدرة، ووصلنا إلى الجزء الأعلى من الجبل، فإن الحجاج المرضى أغمي عليهم، ولم يعد بإمكانهم متابعة الصعود، لذلك أعيدوا مباشرة إلى الدير، وتابعنا التسلق، وصعدنا على الدرجات الحجرية، التي عملها الرهبان هناك، ومن دونها لا يمكن لانسان الصعود إلى الأعلى، بسبب شدة انحدار طرف الجبل، والجدران الصخرية العالية، وكان هناك في هذا المكان فج مظلم ومخيف في الجبل، في وسطه هناك درجات للصعود عليها مع وجود جروف على كلا الجانبين، لذلك مامن انسان كان يستطيع السير على تلك الدرجات على قدميه، بل توجب عليه التسلق بوساطة قدميه ويديه، وذلك مثلما تسلق يوناثان على يديه وقدميه كما جاء في سفر صموئيل الأول: ١٤/ ١٣، وأثناء صعودنا نحو الأعلى، وصلنا هناك إلى نبع ماء عذب، تفجر في

البداية هناك بوساطة معجزة، سببها سوف أحدثكم عنه بعد قليل، ومع أننا كنا مانزال صائمين، شربنا من النبع، لأننا كنا لتعبنا نتصبب عرقاً، وكنا عطاشى.

وفي أثناء متابعتنا للسير في الفج صعوداً في الجبل، وذلك عبر طريق وعر للغاية وكثير الحجارة، وصلنا إلى بيعة شرفت بحمل اسم مريم المباركة، والتي بنيت عقب ماسوف نتحدث عنه فيما يلي، وكان هناك واحد من رهبان الدير يسكن إلى جانبها في كوخ مائل في مواجهة البيعة، وقد فتح الباب لنا، وعندما كنا داخلين إلى البيعة، حدثنا دليلنا الراهب نيقوديموس بالحكاية التالية، حول أصل النبع والبيعة، وكان يتحدث باللغة الايطالية: حدث فيما مضى من زمان أن الأفاعي والثعابين، والعلاجيم، ومخلوقات سامة أخرى، ازدادت وتضاعفت في داخل الدير، ومن حوله إلى درجة أن الرهبان لم يعد بإمكانهم العيش هناك، بل قرروا هجر المكان، وترك الدير، ونقل أنفسهم إلى بقعة آمنة ونظيفة، وبناء عليه، دعا راعي الدير في اليوم المحدد جميع الرهبان إلى الاجتماع، وأمرهم بالقيام بمسيرة وقورة وخاشعة إلى جبل سيناء المقدس، وبعد انتهاء المسيرة إلى الجبل المقدس، أومى بأنه سوف يرتحل من ذلك المكان، ولذلك حملوا صلبانهم، وآثارهم المقدسة، وصعدوا وهم يغنون الترانيم إلى الجبل المقدس، حتى القمة، حيث تسلم موسى الشريعة والألواح من يد الرب.

وبعدما قبلوا الأماكن المقدسة وهم يكون، نزلوا بوضع حزين، لأنهم كانوا كارهين ترك المكان ومغادرة الجبل المقدس، وهو ماكانوا عازمين على فعله والمضي من هناك في اليوم التالي، وهم يحملون معهم جميع أثاث الدير، لأنهم طردوا من هناك بسبب الضرورات التي تقدم ذكرها، وعندما كانوا على طريقهم نازلين، وصلوا إلى المكان الذي تقوم فيه البيعة الآن، وفجأة تفجر ضوء عظيم، وظهرت لهم العذراء المجيدة،

الأم العذبة للرب، بجلال، وأمرتهم بعدم مغادرة المكان الذي هو عظيم القداسة، ووعدهم بأنهم سوف يكونوا بأمان، واختفت، واطمأن الرهبان بهذه الرؤيا، وتابعوا النزول، لكنهم تعرضوا إلى اغواء مؤلم، وأن مارأوه كان مجرد وهم، ولذلك عندما وصلوا إلى هذا المكان، حيث مكان النبع، حيث لم تكن هناك مياه، توقفوا، وصلوا للرب بخشوع عظيم، وسألوه إذا كانت الرؤيا صحيحة ليتلطف ويمنحهم علامة على ذلك، وحدثت معجزة، ففي أثناء صلاتهم، تفجر نبع ماء عذب من الصخر الأصم إلى جانبهم، حيث لم يكن هناك أثر يمكن أن يرى لماء هناك، وقد سبب ذلك لهم سروراً عظيماً أثناء صلاتهم، وهذا النبع لم يتوقف من ذلك الحين حتى هذا اليوم عن الجريان، وأثناء تدفق المياه من بين الصخور نراها تمنح الراحة للذين يصعدون الجبل أو ينزلون منه، وبعدما تلقى الرهبان هذه العلامة، نزلوا فرحين، فوجدوا الدير كله والمنطقة كلها من حوله قد تنظفت من الهوام، التي لم تكتف فقط بالفرار بعيداً في ذلك الحين، بل إنها لم تقارب المكان حتى هذا الوقت، وفي الحقيقة إذا ماظهر ثعبان في الخارج، فإنه يموت بمجرد اقترابه من الأسوار.

وبعدما حدثنا الراهب نيقوديموس بهذه الحكاية، حمدنا الرب، ودخلنا إلى البيعة، حيث سلمنا على مريم العذراء الطاهرة، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، حيث تلونا الأغنيات التجاوبية، والترانيم الجماعية، وجمعنا ما هو معيناً في كتب مسيرات الأرض المقدسة.

وغادرنا هذا المكان أخيراً، وتسلقنا نحو الأعلى مع كثير من التعب، حتى وصلنا إلى قنطرة حجرية، ممتدة من طرف الهوة الأول إلى الطرف الآخر، وهي منحنية تشبه بوابة، ومعمولة من حجارة مربعة قديمة جداً من حيث البناء والعمل، ولا يوجد أي طريق نحو الأعلى، إلا من خلال هذه البوابة، التي ينقصها أبواب، وعلمنا هنا بشكل مؤكد وصحيح أن

مامن يهودي يمكنه المرور من خلال هذه البوابة، وهو أمر، قالوا بأنه غالباً ماتبرهنت صحته، لأن الذي يحدث إما بسبب رعب أو بسبب معجزة، عندما يصلون إلى هنا يصدون ويطردون حتى وإن حاولوا التمويه يجري كشفهم، وهم يتشوقون برغبة عارمة لرؤية المكان الذي جرى فيه منح شريعتهم، وذلك مثلما نتشوق نحن لرؤية مكان صلب معطي شريعتنا، لكنهم يقفون تحت هذه البوابة مقصرين، ومتيسبين، ثم يغمى عليهم، ويرتجفون، ويجري طردهم بواسطة معجزة ساءوية.

وقد حدث قبل بضع سنوات مضت أن يهودياً غير من شكل ملايسه، وأخفى يهوديته، والتحق بجماعة من الحجاج المسيحيين، وقد ارتحل معهم عبر القفار حتى هذا المكان، وعندما عبر الحجاج الذين مضوا قبله خلال البوابة، لحق بهم حتى المكان نفسه، لكنه لم يستطع المتابعة ووقف دونها حراك، وعندما سأله عن الذي حدث معه، ولماذا لم يدخل، أجابهم بدموع وبتنهيدات عميقة: «أيها الحجاج، ويا إخوتي، إنني أراه مصلوباً فوق القوس، ولا يسمح لي بالدخول، وهو محق بهذا، فأنا لأسفي، أعترف بأنني يهودي، وأنا حتى هذا الوقت كنت دوماً عدواً للمسيح المصلوب، وقد موهت نفسي على أنني حاج مسيحي، من أجل أن أقوم هنا بتقديس موسى، معطي شريعتنا، غير أنني أرى بوضوح أنني لا أستطيع الوصول إلى موسى إلا من خلال الذي صلب، وبناء عليه إنني من الآن فصاعداً، أو من بالمسيح المصلوب، وأعد بأنني سوف أتعمد، ذلك أنني أرغب في أن أموت مسيحياً» وما أن فرغ من التفوه بهذه الكلمات حتى اختفى الصليب، ودخل مع الآخرين دونها معيق، وهو يمجد الرب، وتلقى بعد هذا العباد وقص على كل من قابله ما حدث معه، وكان ذلك بمثابة شهادة ضد عمى اليهود، ومنذ ذلك الحين مامن يهودي قد غامر بالصعود، وفي الحقيقة لو أنهم كانوا قادرين على الجواز بدون عوائق، لتوفر دوماً حجاج يهود هناك.

وسرنا من هذه البوابة مسافة لا بأس بها، فوصلنا إلى بوابة أخرى، إلى جانب البوابة المتقدم ذكرها، وعبرنا خلال هذه البوابة، فوصلنا إلى سهل رائع، الذي يشكل نهاية امتداد جبل سيناء، ومن هذا السهل، ينبعث متصباً هناك جبلاً مستديراً وعالياً، صخرياً كله، هو الذي اسمه جبل حوريب، ويطلق في بعض الأحيان اسم حوريب، على الجبل كله، أي الجزء الأسفل وكذلك الجزء الأعلى، ويقال في بعض الأحيان للجزء الأعلى، صخرة حوريب، بسبب وعورة هذا الجزء وكثرة صخوره.

وهكذا بعدما عبرنا من خلال البوابة، مضينا عبر السهل المعشوشب، القائم هناك بيننا وبين حوريب، لأن السهل ينحدر انحداراً كبيراً، ويصل إلى كنيسة كبيرة وجميلة، فهناك ثلاث بيع كلها متصلة ببعضها، وهي محاطة بسور واحد، والبيعة الأولى هي بيعة القديسة مارينا، والبيعة الثانية هي بيعة النبي المقدس الإشع، والثالثة هي بيعة النبي المقدس إيليا، والمدخل هو من خلال باب صغير ومنخفض، ومن خلال البوابة المنخفضة، دخلنا إلى بيعة العذراء القديسة مارينا، حيث انكبنا بأنفسنا نحو الأرض، وقرأنا الصلوات المحددة، من كتاب المسيرات، وحصلنا على غفرانات(+).

وهناك حكاية بديعة حول هذه العذراء المقدسة في «حياة الآباء». تحدثت كيف أنها عاشت لسنوات طويلة في دير الرهبان، دون أن تكتشف بأنها كانت امرأة، وكيف أنها بصبر تحملت الملامة لأنها أغويت وهي فتاة، وكيف أنها تابت توبة قاسية جداً بسبب هذه الخطيئة، وكأنها كانت مذنبة، وهناك أنها أيامها، وقد أصبحت فيما بعد مشهورة، وعملت معجزات رائعة، ولقد اعتقد أنها جديرة ببيعة هنا في هذا المكان الأعظم قداسة.

ثم إننا دخلنا إلى بيعة النبي المقدس الإشع، وغنينا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وعندما كان الإشع هذا حياً عمل معجزات

عظيمة جداً، وعندما كان ميتاً أقام رجلاً ميتاً وبعثه إلى الحياة، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ١٣/ ٢١، ومن المعتقد أنه غالباً مازار هذا الجبل المقدس، تقليداً لإيليا معلمه، ذلك أنه كان تلميذه، وأخبرنا أيضاً بأن إيليا قد حمل ورفع في عربة نارية، وكما قرأنا أيضاً في سفر الملوك الثاني: ١١/ ٢، بأن الإشع ذهب إلى هذا المكان، وبحث عنه، ظاناً بأنه قد حمل إلى هنا، أو أنه طلب من أناس البحث عنه هنا، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ١٧/ ٢.

ودخلنا بعد هذا إلى البيعة الثالثة، وهي بيعة إيليا، حيث قرأنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مزدوجة(++)، ففي البيعة، وأعنى في كهفه، الموجود خلف المذبح، وهو الكهف الذي سكن فيه إيليا، أكثر أنبياء الرب حماسة وغيره، وقد جاء سكناه بعدما أنجز ذلك العمل المتميز جداً في اقناع أنبياء بعل، وقتل أربعمائة وسبعين رجلاً، الذين ذبحهم إلى جانب جداول قيشون، كما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٨، وكان عندما علمت ايزابل، تلك المرأة الشريرة جداً بهذا، أقسمت بأنها سوف تقطع رأس إيليا، ولذلك خاف وهرب عبر القفار، واختبأ في هذا الكهف، ووردت حكاية النبي إيليا هذه بالتفاصيل في سفر الملوك الأول: ١٩، وكهف إيليا عبارة عن مغارة ضيقة في الصخر، فيها لا يمكن لانسان أن يقف قائماً منتصباً، بل يمكنه الوقوف مستنداً أو الجثو، أو الجلوس.

وبعد فراغنا من رؤية هذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ونظرنا فوقها، فوجدنا معلق فوقها صخرة عظيمة مستديرة، حيث تحدثت الحكاية بأن الغراب الذي جلب الطعام إلى إيليا اعتاد على الوقوف فوق هذه الحجرة، واعتاد إيليا على الخروج من الكهف، والتسلق إلى هاهنا وأخذ الطعام، لأن الرب اعتاد أن يتدبر تأمين حاجيات نبيه المقدس بوساطة الغربان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٧/ ٦ قوله:»

وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساءً.

وغادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنا، فتسلقنا إلى حوريب، الذي هو جبل الرب، ويوجد على مقربة من الممر صخرة كبيرة، مكسرة إلى قطع، وهي مقطوعة من صخرة كبيرة موجودة في الأعلى، كانت قد سقطت نحو الأسفل، وهي تشكل عقبة على الطريق الذي يقود نحو الأعلى، حيث بات على الانسان بسبب هذه الكتلة الصخرية أن يستدير من حولها، وهم يقولون بأن هذه الصخرة قد تحطمت وانفصلت في أيام النبي ايليا، عندما أمره الرب بالخروج من الكهف، وعندما كان واقفاً بحضرة الرب: « رأى الرب عابراً، وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور » [الملوك الأول: ١٩ / ١١]، وفي الحقيقة يوجد إلى جانب هذا الشطر من الجبل تصدع كبير في الصخور، وصخور مقلوبة عاليها سافلها، ومن الواضح أن هذا قد حدث، على مشهد من ايليا، ليس فقط أمام عقله، بل أمام ناظره الجسديين أيضاً، ولذلك قال مصنف Speculum Naturale بأن هذه العلامات الثلاث التالية هي التي لم يكن الرب فيها حاضراً، ومع ذلك كانوا جميعاً حقيقة مادية، أولاًهن: الريح القوية جداً، التي شقت الصخور، وثانيهما: الزلزلة التي قلبت الجبال، وثالثهما: النار العظيمة التي أحرقت الصخور والتهمت، والآثار المرعبة لهذه العاصفة، من الممكن مشاهدتها حتى هذا اليوم.

وتسلقنا خلال هذه الحجارة المكسورة، وأزحنا بعض الصخور مع كثير من التعب والتعرق، ووصلنا تقريباً إلى قمة الجبل، عندما وجدنا تحت القمة، على رقبة الجبل، صخرة فيها نقرة وهذه النقرة هي التي ورد الحديث عنها في سفر الخروج: ٣٣، فعندما كان موسى يتحدث مع الرب، رغب في أن يرى وجه الرب، ومجد الرب، لكن الرب قال له: « لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الانسان لا يراني ويعيش »، وقال الرب له: « هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي

أنى أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز»، ولذلك صدوراً عن التقوى وضعنا جميعاً أنفسنا في النقرة، حيث مدد الرب موسى على معدته، وفي تقليد منا للنبي لوينا أنفسنا بصعوبة في هذه النقرة، والنقرة عالية قليلاً فوق الأرض، ومنخفضة وليست مرتفعة، ولذلك يمكن لانسان واقف فوق الأرض أن يمد ذراعيه ورأسه نحو داخلها، وإذا ما أراد أن يدخل صدره إلى النقرة، عليه أن يرفع نفسه قليلاً فوق الأرض، وبذلك يمكنه أن يضع ذراعيه، وصدره ورأسه في الحقيقة فيها، لكن ساقيه مع الأجزاء الخلفية من جسده، تبقى معلقة في الخارج حتى سرتة، وهكذا يجلس الانسان وكأنه بين حجري طاحون، لأنه يجلس وهو مستند حتى معدته على الصخرة في الأسفل، وتلمس الصخرة الموجودة في الأعلى ظهره، وإذا ما اختار انسان يمكنه أن يضع نفسه جميعاً في النقرة، لأنها عميقة، لكنني لا أستطيع أن أرى كيف يمكنه أن يخرج ثانية من دون مساعدة، ووجود انسان آخر يشده ويخرجه، لأنه لا يمكنه أن يحرك نفسه نحو الخلف مثل السرطان، لأنه يكون معاقاً عن التحرك بوجود الصخرة التي فوق والأخرى التي هي تحت، يضاف إلى ذلك لا يوجد متسع لأمامه ولاخلفه، لأنه لا يوجد مكاناً يستطيع أن يتحرك فيه ومن ثم اخراج رأسه أولاً، وتبعاً للأخبار الدينية، هذه هي النقرة في الصخرة التي وضع الرب فيها موسى ليرى الأجزاء الخلفية من الرب، وإذا ما أراد أي واحد أن يعرف ماهو وجه الرب وما هي الأجزاء الخلفية للرب، يمكنه العودة إلى ماكتبه نيقولا دي ليرا حول هذا النص.

وعندما أردنا فحص هذه النقرة، صعدنا حتى القمة العليا لهذا الجبل الأعظم قداسة، وذلك فوق الصخرة حيث توجد الصخرة المتقدم ذكرها، فهذه هي الصخرة التي أمر الرب موسى أن يقف عليها (الخروج: ٣٣) قائلاً: «هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة»،

فعلى هذه الصخرة قد بنيت بيعة في هذه الأيام، واسمها كنيسة القديس المخلص، وهي مغلقة بثبات بوساطة باب معدني، وهي قائمة فوق المكان الذي تسلم فيه النبي المقدس موسى الوصايا وقد كتبت باصبع الرب فوق لوحين حجريين، وعندما وقف موسى وحده مع الرب فوق قمة الجبل، حسبما جاء في سفر الخروج: ٣٤، أعطيت الشريعة له، وكان ذلك في السنة ١٤١٥ قبل ميلاد الرب.

وعندما قام الراهب نيقوديموس، الذي رافقنا من الدير بفتح باب البيعة، خلعنا أحذيتنا، ودخلنا حفاة احتراماً منا لقداسة المكان، وكما هو متوجب انكبنا بأنفسنا نحو الأرض بخشوع خاص، وقبلنا المكان الذي عليه تلقى موسى الشريعة وتسلمها من يد الرب، وهذا المكان معلم بحجرتين، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة في مسيرات الأرض المقدسة، حصلنا على غفرانات مطلقة، وبعدما تفوهنا بصلاتنا ذهبنا إلى السدة، وسرنا من حول المذبح، ونظرنا متفحصين إلى المكان بخشوع عظيم وبسرور كبير، وغالباً ما قبلنا أماكن خطوات الملائكة الذي ظهرنا هناك إلى موسى، ورأهم بأشكال جسدية مشاهدة، ومثل ذلك قبلنا أماكن خطوات النبي المقدس موسى، وكما قلت هناك حجرتين عند مدخل السدة، وهما تغطيان موضعي الخطوات المقدسة، ففي المكان الأول وقف الملاك، وفي المكان الثاني جثا موسى وطوى ركبتيه، فهناك حجرتين من الرخام الأبيض موضوعتين في البلاط، وقد قيل بأنه تحت هاتين الحجرتين من الممكن حتى الآن رؤية علامات ركبتي موسى على الصخرة.

وبعد رؤيتنا لهذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ولبسنا أحذيتنا مجدداً، وسرنا نازلين قليلاً، مايقارب خمس عشرة خطوة، إلى جانب البيعة، ودخلنا إلى كهف تشكل بوساطة الصخرة المعلقة من فوق، وهنا انكبنا بأنفسنا نحو الأرض، وتفوهنا بالصلوات المحددة، وحصلنا على

غفرانات (+)، ففي هذا الكهف أقام موسى عندما لم يرغب الرب في عقد مؤتمر معه، وصام هنا لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، حتى يكون جديراً باستلام شريعة الرب، وهذا الكهف واسع وكبير، وليس فيه ضوء إلا ما يأتي من المدخل، وهو موائم للسكنى لراهب متأمل، ومقابل الكهف موضع مرتفع بني عليه مسجد، وإلى جانبه جلس كثير من المسلمين، كانوا مثلنا أنفسنا قد تسلقوا الجبل في سبيل زيارة المكان المقدس، وفي الحقيقة يقوم بداءة عرب، ومصريون، ومسلمون، وأتراك بالحج إلى هنا من أماكن نائية في العالم، صدوراً عن الاحترام لموسى، فباستثناء اليهود يتدفق الناس من جميع الديانات والطوائف، مع بعضهم إلى هذا المكان، ولا يستطيع اليهود الصعود، حتى وإن استطاعوا، فإن الشعوب لن يسمحوا لهم، بأي حال من الأحوال، بالدخول، هذا ولا يتحمل المسيحيون وجودهم معهم، والصلاة هناك بجوارهم.

علاوة على ذلك، يوجد على هذا الجبل بئر كبير، يحتوي على ماء جيد، وبارد، وصحي، لكن لم نتمكن من الحصول على أي من هذا الماء، لأن البئر كان عميقاً جداً، ولم يكن معنا شيئاً ننضح به الماء، وهم يطلقون على هذا البئر اسم جب موسى، لأنه منه شرب، لكن هذا لا يتوافق مع الكتابات المقدسة، التي تقول بأنه صام هناك.

وتجولنا حول قمة الجبل، وتفحصنا كل شيء هناك، وقد شاهدنا خرائب كبيرة لأسوار قديمة كانت من حولها، ومن المعتقد أنه كان هناك دير، كله قد خرب باستثناء كنيسة، إلى جانبها يقيم دوما اثنان من رهبان دير القديسة كاترين بشكل مستمر.

وهذا الجبل متميز في أن الجزء الأعلى منه مستدير، وليس متصلاً بالجبال الأخرى، وهو ليس أعلى من الجبال الأخرى، لكنه قائم بذاته، وأكبر صعوبة في التسلق، ويوجد من الدير إلى قمة الجبل حوالي سبعة آلاف خطوة، ليس فيها الأماكن التي يصعد الإنسان إليها، ليس

بالخطوات بل بوساطة درجات سلام، ويوجد من هذا الجبل مشهد للمناطق النائية، لكن هذه المناطق من الممكن رؤيتها بوضوح أكبر، من جبل القديسة كاترين، ولسوف أتحدث عن هذه المناطق أثناء وصفي لهذا المكان، ووصف الجبل المقدس واضح مما قد قيل، أما مايتعلق بإطرائه وقداسته فمن الممكن جمعها من كثير من المواضع من الكتابات المقدسة القانونية، من ذلك على سبيل المثال من سفر الخروج: ٣، ١٩، و٢٠، ومن سفر التثنية: ٥، حيث ورد الخبر بأن الجبل احترق بنار وصلت حتى السموات، وكذلك من خلال التوراه، والمزامير والأنبياء، فمن هذه الأماكن كلها علمنا بأن جبل حوريب من سيناء هو جبل رائع جداً ومرتفع، وأنه جبل مسكون من قبل الرب، وتتردد الملائكة عليه، وهو جبل الضياء، والنار، والاحتراق، وهو جبل غيوم مخيفة وظلام، وكذلك جبل حكمة وتعلم، وأيضاً جبل رحمة ووعد، وصلاح ولعنة، وجبل أبواق وصراخ وضجة، وجبل لطف وتحالف، وجبل شفقة وعدالة ومساواة، وقبل قربان وصلاة، وجبل خصب، وجبل رؤيا وتأمل.

وعندما فرغنا من رؤية جميع الأماكن المقدسة على هذا الجبل، جلسنا وتناولنا الطعام، حيث أكلنا وشربنا ما كنا قد جلبناه معنا، وبقينا لمدة تزيد على الساعة فوق الجبل المقدس، لأننا احتجنا إلى ثلاث ساعات للوصول من الدير إلى قمة الجبل، وبعدما عملنا هناك كل ماتوجب علينا عمله على الجبل المقدس، أعددنا أنفسنا للأعمال المتبقية، وانطلقنا على طريقنا كما يلي.

متابعة الحج

نزول الحجاج من جبل حوريب، وصعود بعض الحجاج إلى جبل القديسة كاترين

وبعدما تناولنا طعامنا، وأرحنا أنفسنا لوقت قصير، نزلنا من الجانب الغربي من الجبل، عبر طريق منحدر وخطير، ونخيف وكثير الشعاب، إلى حد أننا أرغمنا في بعض الأحيان بأن ندع أنفسنا ننزلق نحو الأسفل عبر صخور منحدر، وذلك بالانبطاح على أمعائنا، وغالباً ما اصطدمنا أثناء نزولنا برؤوس صخور، كانت معلقة فوق ممر ضيق، حيث إذا ما انزلقت، كان معنى ذلك الموت، لأنه كان في الأسفل جدراناً عالية من الصخر، أية خطوة خاطئة عندها كانت ستسبب سقوط الإنسان في وديان مرعبة، وأخيراً وصلنا إلى دير عرف باسم دير «الأربعين قديساً»، حيث دخلنا إلى الكنيسة وصلينا، وحصلنا على غفرانات (+)، وفي ذلك الوقت جلب لنا اثنان من رهبان دير القديسة كاترين، كانا مقيمان هناك، تيناً، وتمرراً جافاً، وماء، بهم أنعشنا أنفسنا.

وبعد هذا، لم يكن الوقت قد وصل إلى الظهر، لذلك جلسنا وتناقشنا: هل سنصعد جبل القديسة كاترين أيضاً في ذلك اليوم نفسه، أونستريح حتى الغد، وقد توصلنا إلى قرار هو أن الشباب والرجال الأقوياء منا، وكل من يرغب، يقومون بالصعود إليها وقتها، وأن يعودوا بعد زيارة المكان، قبل غياب الشمس، في حين يستفيد الحجاج الأسن والأضعف من برد الصباح من أجل القيام بصعودهم، وقام عشرة من الحجاج الأقوياء، واستعدوا للقيام بالصعود في الحر الشديد، وأسماؤهم كما يلي: اللورد جون، كونت سولس، وهو فارس، واللورد هري أوف سكومبيرغ وهو فارس، واللورد سغسموند أوف مارسباخ، وهو فارس، واللورد كاسبر أوف سيكولي، وهو فارس، والمعلم

لازينوس، وهو رئيس شمامسة وقانوني كنيسة ترانسلفانيا في هنغاريا، والراهب فيلكس من أولم، من طائفة القديس دومينيك، والأب باولوس غوغلنغر من طائفة الفرنسيسكان، والراهب توماس، وهو راهب علماني من الطائفة نفسها، وخادمين للكونت، اسميهما: جون، وكونراد، وقد رافق هؤلاء بعض البداة العرب، وقد شرعوا بتسلك الممر الشديد الانحدار، صعوداً إلى جبل القديسة كاترين.

وصعدنا إلى الجبل عبر ممر طويل، ووعر، وخلال وديان بلامترات، وفوق جروف منحدر، وفوق حجارة معلقة، وصخور خفيفة، وطرق منحدر مرعبة وشعاب صخرية، تحت شمس محرقة جداً، ووجدنا على كل حال ماواسانا، وتمثل ذلك بنبعين لمياه باردة، على طريقنا صعوداً، وعندهما أنعشنا أنفسنا، وغلب واحد من الفرسان بالعمل الشاق، ووقع كلياً، وجلس في واحد من الأماكن الشديدة الانحدار، عاجزاً عن متابعة صعوده، وكنا قد تجاوزنا أكثر من منتصف الطريق، وكان بإمكاننا رؤية قمة الجبل، ومع ذلك قد بقي طريق طويل أمامنا، وبناء عليه عندما رأى الفارس الضعيف أنه لن يكون بإمكانه الوصول إلى القمة، رجانا بمتابعة الصعود، وأن ندعه ينتظرنا لوحده، وكانت إجابتنا لذلك تشجيعه وإرغامه أن يمضي قليلاً بعد نحو الأعلى، ولكن عندما رأيناه قد سقط مراراً من أيدينا على الأرض وكأنه بدون وعي، ربطنا منشفة طويلة حول حقويه، بها جرّه بعضنا، في حين أمسك آخرون بيديه، وشدوه بذراعيه، ووقف آخرون خلفه ودفعوه صعوداً، وبناء عليه عملنا عملاً رائعاً، وبذلنا جهوداً كبيرة مع ذلك الحاج، وأخيراً وصلنا بعون الرب إلى قمة جبل سيناء، إلى الضريح الملائكي للقديسة كاترين، العذراء الأعظم مباركة، وانكبنا هنا أرضاً، وبخشوع قبلنا المكان الذي إليه جلبت الملائكة جسدها المقدس، وحصلنا على غفرانات (+)، وغنينا أولاً القداصات المعينة في مسيرات الأرض

المقدسة، وجلسنا بعد الصلاة، وبدأنا نتحرق رغبة إلى خبز وماء، وقد رغب كل رجل منا لو أن معه سلته وقارورته.

ولست أدري لأي سبب، أنني وحدي كان معي سلة مليئة بالبقساط، ويبيض مسلوق، ولحم مدخن، وجبنة، وكنت قد جلبت ذلك لي وحدي، في حين ترك الآخرون جميع زادهم مع الحجاج الذين بقيوا في الأسفل، وبدأ واحد منهم يرجوني منحه قطعة من اللحم، وآخر قطعة من الخبز، وثالث لقمة من الخبز والجبن، وطلب مني آخرون جرعة من الخمرة، وعندما رأيت هذا دهشت، ولم أعط شيئاً لأي واحد منهم، بل أخذت سلتي وصبيت ماكان فيها على صخرة مقعرة كانت ملاصقة لنا، وذلك في المكان الذي وضع فيه رأس القديسة كاترين فيما مضى، وهكذا قمت بأريحية بدعوة النبلاء والحجاج قائلاً: «اعلموا ياسادتي إنه قضي بالحكمة الإلهية، بأن تكونوا هنا جميعاً ضيوفاً، وأن أكون وحدي مسؤولاً عن تكميمكم، الأمر الذي أنا على استعداد للقيام به، حيثما أنا قادر على تقديم ضيافة جيدة لكم، لأنه في هذا البيت، وفي هذه القاعة، وفي هذا الفراش، أقامت ونامت لمدة تزيد على الثلاثين سنة، بعد آلامها، القديسة كاترين، أحب الطاهرات إليّ، التي خطبت إليّ، من بين جميع الفتيات الثمينات جداً لمملكة السماء، وقد كان هذا في يوم عيد هذه العذراء من عام ١٤٥٢، فصدوراً عن حبها تخلّيت عن الدنيا، ولبست رداء الرهبان المبشرين، وبعد مضي سنوات، قمت في اليوم نفسه بالاعتراف بشكل علني مهيب بالطاعة (إلى هذه الطائفة)، وبذلك ربطت نفسي بشكل أبدي بخدمة الرب وبخدمة هذه العذراء وبناء عليه، أقبلوا أنتم جميعاً الذين هنا، وكلوا بسرور»، وعند هذه الدعوة أقبلوا جميعاً، وأكلوا بسرور كل ماكان لدينا، وفي وليمتي هذه، كان هنالك كونتات، وفرسان، وكهنة، ورهبان، فضلاً عن ذلك كان هناك رجال علمانيون: مسيحي هرطقي، وبداءة عرب، ومسلمون،

أكلوا جميعاً مما كان في السلة، وكانت هناك كميات وافرة من الخمرة، بسبب أن الحجاج الآخرين قد جلبوا قواريرهم، إنما كانت هناك حاجة إلى الماء.

وعندما رأى ذلك واحداً من البداة العرب من ضيوفنا، أخذ جره، ولم يركض، بل انزلق نحو الأسفل من طرف الجبل، وبعد وقت قصير عاد، وهو يحمل جرة مليئة بالماء الطازج، جلبه من واحد من الينابيع لم يكن معروفاً بالنسبة لنا، وبناء عليه مزجنا خمرتنا بالماء، وعندما أكملنا تماماً أكل جميع طعامنا حتى أصغر لقمة، وفرغنا من شرابنا، أنهينا وجبتنا، ولم يحدث قط خلال حجبنا كله أن فرغت حقيتي تماماً، وصارت نظيفة مثلما حدث في هذا المكان، وفي الوقت نفسه بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وأنذرنا البداة العرب للقيام بالنزول قبل غيابها، ولذلك نهضنا وركضنا مسرعين نحو الأسفل، والتحقنا برفاقنا بعد الغياب مباشرة عند دير الأربعين قديساً، وفيما يتعلق بوصف الجبل، وبطبيعة الأرض، فسوف تظهر فيما يلي:

صعود جبل القديسة كاترين

وفي الخامس والعشرين، استيقظنا قبل ضوء النهار، ونهضنا من فوق الأرض التي تمددنا عليها في الهواء الطلق، في ساحة الدير، عازمين على تسلق الجبل للمرة الثانية، مع جميع اخواننا الذين بقيوا خلفنا في اليوم المتقدم، وعلى كل حال بقي الجزء الأكبر من الذين صعدوا في اليوم المتقدم دونها حراك، وأخذنا معنا خدماً من البداة العرب، وسائقي حمير، أعطيناهم حقائب أطعمة وجرار ماء لحملها، وتبعنا دليلنا الراهب نيقوديموس، بخطوات لطيفة تقديراً منا لمرضانا والضعفاء منا، ويقود الطريق من الدير ويسير لمسافة كبيرة خلال حدائق وأجسام امتداداً حتى سفح الجبل، وامتلك طريقنا هذا ضوء القمر، ولكن عندما وصلنا إلى حيث نبدأ بصعود الجبل، دخلنا إلى واد كان مغلقاً بجدران عالية من

الصخور، ومضينا صاعدين من هذه الأعماق، فوق طريق وعر للغاية، ومن دون أي ضوء، لأننا كنا مطوقين بجروف من الصخر، ولذلك لم يكن بإمكان نور الشمس الوصول إلينا، وشعرنا في هذا الوادي بالبرد، إلى حد أن أسنانا أخذت تصطك، وتمنينا أنه لو كانت لدينا نار، لكن لم يكن معنا مانعمل به ناراً، وعلى كل حال قام البداة العرب شفقة منهم علينا لما كنا نعانيه، فجمعوا بعض الخشب الجاف، وحكوهم ببعضهم بالأيدي، حتى صاروا جاهزين لالتقاط النار، ثم أخذوا حجرتين من قعر المجرى، وضربوهما ببعضهما بشدة حتى أعطيا شرارة أشعلت الأعشاب، وجعنا عصياً وعملنا ناراً كبيرة، وقفنا من حولها وأدفتنا أنفسنا.

وأعتقد أن البداة العرب لا بد أنهم تعلموا استخراج النار من الحجر الصوان من بروميثيوس بن يابيتوس - Prometheus son of Iapetus الأسوي، ومن حورية، كان في أيامها — كما أخبرنا الشعراء — هناك رجل صاحب حكمة عظيمة، فهو بعدما عمل شكل إنسان من الصلصال، وضع فيه حياة بسرقة نار من السماء، وكان الإنسان الأول الذي علم بني البشر، أن النار من الممكن استخراجها من حجارة الصوان، ويقال بأن النار قد اكتشفت أولاً من قبل فولكان Vulcan، لأنه عندما احترقت شجرة بسبب البرق، لقطت بقية الأشجار النار منها، واحترقت الغابة كلها، وفرح فولكان بسبب الحرارة، ووضع وقوداً جديداً عندما بدأت النار تحمد، وبذلك أبقى النار مشتعلة، وأظهر للناس أنه هو الذي اخترعها، وبذلك حصل على جائزته بتعيينه ملكاً على مصر كلها.

وبعدما شعرنا بالدفع وبالراحة، أخذنا بعض الجمرات المحترقة، وتابعنا سيرنا عبر الوادي ونحن نحملهم معنا، ووصلنا في الوادي إلى أماكن حيث هناك جروف، وجدران من الصخر، عليهم تسلق البداة

العرب، ثم قاموا بسحب الحجاج واحداً تلو الآخر، وغالباً ماتتفكرت في ذلك الصباح كم هي مذهشة طرق الرب، ففي الأمس كنا بصعوبة بالغة نستطيع التنفس بسبب الحر، واليوم بصعوبة بالغة يمكننا العيش بسبب البرد، لأننا كنا كلما صعدنا أكثر، شعرنا بشدة البرد أكثر، ووصلنا في الوقت نفسه إلى نبع، إلى جانبه مجدداً أشعلنا ناراً، وعلى الفور بدأننا نتمتع بحرارة النار، مثلما متعنا أنفسنا في اليوم المتقدم ببرودة الماء في تلك البقعة، وبعدها أدفئنا أنفسنا للمرة الثانية، مضينا نسير على طريقنا، فتسلقنا منحدرًا طويلاً منزلقاً، وعند رأس هذا المنحدر وصلنا إلى جدار كبير من الصخر، من حافته كانت تتساقط مياه نقية جيدة، مع أننا لم نهتم بالشرب منها، لأن الوقت كان ما يزال الصباح الباكر، وكنا نعاني من البرد كثيراً، وتتساقطت هذه المياه في مكان مقعر من الصخرة، وعملت هناك نوعاً من أنواع الصهاريج، وأشعلنا مجدداً ناراً إلى جانب هذا الصهريج وأنعشنا أنفسنا بحرارتها، ذلك أن البرد كان عظيماً إلى درجة أننا لو لم يكن لدينا نار، لأغمي علينا ونحن نرتجف.

ولدى متابعتنا سيرنا، تسلقنا الأماكن الصخرية، ووصلنا إلى منحدر كان منزلقاً جداً، وكان ناعماً— أي بدون صخور أو نباتات— وكان هذا المنحدر مليئاً بالأعشاب مثل مرج من المروج، وعندما كنا ندفع أنفسنا صعوداً، فجأة أشرقت الشمس، وازدادت الظلال، ورأينا بعيداً فوق هذه الشقة الضيقة رأس الجبل، وهو مشهد وقفنا نحوه مندهشين، مندهشين تجاه الارتفاع المتبقي، وذلك بعد صعودنا لمثل هذه المسافة الطويلة، ورأس هذا الجبل أو قمته، من غير الممكن رؤيته من الأسفل من قرب سفحه، لأن شكله هو كما يلي: أولاً، له قاعدة واسعة جداً، حيث ينبت فيها كثيراً من العليق والنباتات والشجيرات، ووصلنا بعد هذا إلى صخور طويلة يتخذ الإنسان طريقة فيها صعوداً خلال فجاج تقوده إلى جوف الجبل، الذي يتنامى ويتسع كثيراً من كتلة الجبل، وكأن

الأرض نسفت نفساً، وبسبب هذا الاتساع لم يكن بإمكان الإنسان أن يرى من الأسفل لأرأس الجبل ولارقبته، وعلى هذا المكان المتسع طريق واسع، يحتوي على كثير من الأماكن المعشوشبة، هي ممتازة لحمل عشب جيد، وجوف الجبل هذا يحتوي أيضاً على عمر طويل يقود إلى قمم الجبال المجاورة، بطريقة أن الإنسان يمكنه العبور على طول الجرف إلى قمم الجبال الأخرى، وعند نهاية هذا الجوف تقف تلة جبل سيناء، لأن كثيراً من الصخور الملتوية والوعرة تنبعث مرتفعة في ذلك المكان، مندفعة من الأرض المنتفخة، وذلك مثلما تنمو رقبة الإنسان من جسده.

وهذه الرقبة عالية إلى حد أن الإنسان يرتجف لدى التحديق بها، وفوق الرقبة هناك رأس الجبل، وتنصب الصخرة المشكلة للرقبة مباشرة نحو السماء، وهي مشكلة بوساطة جروف عالية وحادة، حتى أن الإنسان الذي يقف في الأسفل، لا يمكنه أن يتصور أنه ممكن لأي إنسان الصعود إلى القمة، وفي الحقيقة إنه قبل ظهور القديسة كاترين هناك، مامن إنسان غامر بتسلقه، ولذلك نقرأ في *Speculum Historiale* — الكتاب: ١٩، الفصل: ١٧، عن بعض الرجال المسنين الذين عندما كانوا يزورون آباء الكنيسة يقولون لهم: «انظروا إلى قمم جبل سيناء، التي رأسها يمتد حتى السماء، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاقتراب منه».

ولم نعبأ بجميع هذه المعيقات، بل أعددنا أنفسنا برجولة للمهمة التي بدأناها، وقد وصلنا حتى الرقبة، على طول حافة الجبال الأخرى، وبدأنا الآن بالصعود إلى الرقبة نفسها، التي كانت منحدره جداً، وتسلقنا فوق الصخور والجروف مثل إنسان يتسلق شجرة، حيث كنا نشد أنفسنا من صخرة إلى أخرى، ومضى الأقوى منا في الأمام، ومدوا أيديهم إلى الذين تبعوهم، وبذلك سحبوهم نحو الأعلى، ولم يكن هناك مكان لرجل ضعيف القلب، أو لأناس يفقدون توازنهم لدى نظرهم

من الأسفل إلى الأعلى، ولم نتسلق بشكل نظامي واحداً تلو الآخر، بل كل واحد صعد إلى المكان القريب منه شخصياً، وإلى حيث فكر أنه الأفضل، لأنه كانت هناك كثيراً من الأشياء ليمسكها الانسان بيده، وليرتاح عليها بقدمه، وهكذا صعدنا نحو الأعلى، ونحن نزحف حول كتلة الصخور الممتدة من وجه الجروف، وكنا مثل نملاات تتسلق شجرة، وأخيراً بما أن «التعب الذكي يتغلب على كل شيء»، وصلنا إلى رأس أو قمة الجبل المقدس، وعندما كنا هناك، كانت هناك ريح قاسية جداً، وباردة، وقوية، ثائرة، لذلك لم يكن بإمكاننا تلاوة صلواتنا أو فعل أي شيء جيد من دون نار.

وجمع البداة العرب على الفور حزماً من الأخشاب، وعملوا كومة منهم، وأشعلوا ناراً كبيرة، وقفنا إلى جانبها، حتى علت الشمس — التي كانت قد أشرقت منذ بعض الوقت — أكثر، وصارت حدة الريح أقل قسوة، وعندما شعرنا بالدفء، وانتعشنا بعض الشيء، مضينا إلى الضريح الذي إليه حمل الملائكة القديسة كاترين، العذراء المجيدة، وبسرور رتلنا القداسات المحددة في كتب مسيرات الأرض المقدسة، وصلينا بخشوع عظيم، وتأملنا لوقت طويل بصمت، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) .

وشعرنا بسرور خاص فوق هذه البقعة المتميزة، لأنه حتى الآن حملتنا أسفارنا بشكل دائم بعيداً عن وطننا وديارنا، والآن شرعنا من هذا المكان المرغوب فيه بالاستدارة بأنفسنا نحو العودة، وصرفنا وجوهنا بثبات نحو اتجاه مواطننا، وبلداننا، وكم هو ممتع وسار شيء لايمكن أن يفهمه انسان، إلا الذي أقام مدة طويلة في أجواء بعيدة، والذي عاش منفياً في أرض غريبة بين قوم لايعرفهم، ولايعرف طباعهم، ولايفهم لغاتهم، والذي سكن لبعض الوقت مع شعب له طائفة غريبة، ودين غريب، ويعبد مايبدو رباً غريباً، وإنني أقول هو وحده قادر على أن

يفهم قول الشاعر: « هذا لي، وهذه أرضي الخاصة»، وهذا ما يشهد عليه هوغو رغيولير Hugo Regularis عندما قال:

« عزيز على كل فاني وطنه

فنحن لانستطيع نسيانه أينما تجولنا»

وبناء عليه شعرنا في هذا المكان المقدس بسرور مزدوج، وكان السرور الأول صادر عن تذكركنا، الحديث لبلادنا الخاصة، التي نحوها كنا الآن ندير وجوهنا، وسرور آخر من وجود قبر العذراء الذي رأيناه بأعيننا، وتعاملنا معه كما نحب، ويقوم هذا القبر كما يلي: يتشكل رأس أو قمة جبل سيناء كله من قطعة واحدة من الصخر، هي في القمة مسطحة، مشكلة ما يشبه موضعاً مستديراً ليس واسعاً جداً، قياسه حوالي ست خطوات عبره كله، وأرض هذا الموضع هي قشرة الصخرة ويدور من حوله عند الطرف جدار من الحجارة الجافة، يشبه سياجاً، وقد بني خشية أن يسير أي انسان بلا انتباه فيسقط متكسباً نحو الأسفل، وأيضاً خشية أن يصاب الذين ينظرون نحو الأسفل بالدوار، من أي جزء نظروا، بسبب الارتفاع العظيم، وكذلك من أجل أن يسير الانسان هناك ويتجول مع حرية أعظم وخوف أقل، وفي وسط هذه الأرضية الحجرية هناك مكان مجوف لتلقي جسم انسان مسطح ومتمدد على طوله تماماً، وهذا التجويف ليس عميقاً جداً في الصخر، بل إنه عميق بما فيه الكفاية لاستيعاب جسم انسان متمدد حيث أنه يملأ التجويف، وبذلك يصير مستوياً مع بقية الأرضية، وهذا التجويف ليس مصنوعاً بأية أدوات معدنية، أي بعمل انساني، بل إنه مضغوط في الصخر بوساطة معجزة، لأنه عندما حمل الملائكة جسد العذراء إلى هنا من الاسكندرية ووضعوه فوق هذه الصخرة القاسية جداً، والناعمة، قامت الصخرة على الفور فانفجرت بقوة عمل ملائكي لاستيعاب جسد القديسة، وصارت الصخرة لينة مثل الشمع تنفرج وتنضغط تحت

أي شيء قاس وثقيل يمدد فوقها، وهكذا ضغط جسد القديسة موضع لحد له يتوافق مع شكله، فهناك تمددت مرتاحة لمدة ثلاثين سنة، غير معروفة من قبل البشر، ومحروسة من قبل الملائكة.

والبرهان المقدم على هذه الحراسة هي الأماكن المجوفة على الجانبين بشكل موائم للجلوس فيها، وكأن انسان ما قد جلس هناك، وفي الحقيقة يقال بأن الملائكة الذين تولوا حراسة جسدها قد سكنوا هناك، ربما بأجساد مادية، مثلما ورد في الكتابات المقدسة وقيل بأنهم جلسوا، وساروا، وطاروا، فالملائكة الذين أعلنوا عن قيام الرب، قيل بأنهم جلسوا على حجرة الضريح (متى: ٣٨، مرقس: ١٦/٥)، وعلى كل حال، إذا ما أراد ملاك استعارة جسد مادي، عندما يرغب بالجلوس، هو لا يحتاج إلى مقعد أو كرسي، وكذلك هو ليس بحاجة لإراحة نفسه بالجلوس، ومع ذلك صنع الملائكة أماكن مناسبة للجلوس إلى جانب الجسد المقدس للعدراء، حتى يظهروا أنهم يحرسون الجسد المقدس، وباقين دوماً إلى جانبه، أما كيف تم العثور على جسد العدراء هنا، وكيف جرى نقله من هنا إلى الدير فقد تقدم تبياناه من قبل.

وانكبنا بأنفسنا نحو الأرض أمام المكان الذي تمددت فيه العدراء، ووضعنا أنفسنا فيه، ليس من باب الرياء، أو الفضول، بل من باب التقوى، ولقد استخلصنا أنها لا بد قد كانت طويلة القامة، وأخيراً بعدما قدمنا جميع التشريف المستحق، أو في جميع الأحوال جميع التشريف الذي كنا قادرين على تقديمه إلى هذا المكان المقدس، غادرنا لمشاهدة الأشياء الأخرى.

بلدان العالم التي رأيناها في أطراف الدنيا الأربعة من قمة هذا الجبل المقدس، ووصف للأراضي، والمياه وهكذا دواليك.

ووقفنا على حافة جبل القديسة كاترين، وألقينا نظرة على الأراضي،

والمناطق، والمقاطعات القائمة في تلك الأحواز، واستطعنا أن نرى بعض المناطق البعيدة من العالم، لأننا كنا واقفين في أماكن عالية جداً، ولم تكن مشاهدنا محجوبة بأية غيوم أو بأية معيقات، وألقينا أولاً بأبصارنا باتجاه الشرق، نحو مساحة كبيرة من الماء، أي نحو الخليج العربي، الذي يعرف أيضاً بالبحر الأحمر، الناشئ عن المحيط الهندي، وباتجاه الشرق لم يكن باستطاعة أعيننا رؤية شيء سوى المياه، التي امتدت حتى جبال مدين، وكذلك رأينا البحر الأحمر وهو يحيط بجبل سيناء.

والملاحه في البحر الأحمر صعبة جداً وخطيرة، ولذلك فإن القديس جيروم في رسالته عن الحياة الديرية التي وجهها إلى الراهب روستيكوس Rusticus قد قال عن هذا المكان كما يلي: « يصل الذين يبحرون فوق البحر الأحمر إلى مدينة كبيرة، وبعد كثير من المصاعب والمخاطر، لأن الشواطئ مسكونة من قبل قبائل أناس متنقلون، أو بالحري من قبل أكثر الناس وحشية، وعلى الملاحين أن يكونوا دوماً محترزين، والأسلحة دوماً في أيديهم، وأن يحملوا معهم أطعمة لمدة سنة كاملة، فالبحر مليء بصخور غاطسة، وضحله قاسية جداً، لذلك يتوجب على القبطان أن يجلس على رأس السارية، ويصرخ معطياً أوامره من هناك لعمل السفينة، وسوف تكون رحلة سعيدة، إذا ماوصلت السفينة إلى ميناء البلدة المتقدم ذكرها خلال ستة أشهر، وهي التي يبدأ بعدها المحيط بالانفتاح بنفسه، وبصعوبة يمكن أن تصل عبر هذا المحيط إلى الهند خلال سنة ابحار متواصل، حيث تصل إلى نهر الغانج، وهو الذي تدعوه الكتابات المقدسة باسم فيشون Phison، حيث ينمو هناك كل شيء مرتفع الثمن كثيراً جداً، وحيث هناك جبال من الذهب، مامن انسان يستطيع الاقتراب منها بسبب الغريفونات (الأسود الخرافية المجنحة) والتنينات، والمخلوقات الرهيبة الأخرى ذوات الأحجام الهائلة، هذا ما ذكره القديس جيروم.

ويمتد من بحر الهند هذا نفسه خليج كبير آخر، باتجاه الشرق، هو الخليج العربي، فهو يمتد داخل البلدان العربية، ومنها قد نال اسمه، وعلى مقربة منه البلاد التي اسمها في الكتابات المقدسة فارس، وهكذا اسمها الإغريق اشتقاقاً من اسم فرسوس Perseus، ملك الأرغيفيين Argives، الذي استولى عليها بعد كثير من المعارك، وأجبر الناس الذين كانوا حتى ذلك الحين بدائيين، على الاستقرار والعيش وفق طريقة حضارية، كما أنه منح تلك البلاد اسمه، وحول فرسوس هذا يروي الشعراء كثيراً من الأساطير، هذا وتقدم لنا الحديث عن حصانه المجنح من قبل، وكان في هذه البلاد فيما مضى مدينة قوية جداً، اسمها فيرسيبولس Persepolis وهي التي قد تأسست من قبل فرسوس، وحدثنا بليني في كتابه الخامس، بأن التفاح الفارسي الذي نسميه نحن في ألمانيا الدراق، كان يحمل من تلك البلاد إلى بلادنا، ولذلك أطلق عليه اسم التفاح الفارسي، وهذا التفاح سام في بلاد فارس، لكنه هنا حلو، وطيب المذاق، وذلك وفقاً لما ورد في «الكاثوليكون Catholicon» [رسالة حول فلسفة الزهد]، وهذه البلاد متصلة بميديا، وفقط مفصولة عنها ببعض الجبال العالية، القائمة بينهما، وذلك مثلما إيطاليا هي منفصلة عن ألمانيا، وكانت في القديم مملكتان عظيمتان، وحدهما قورش في مملكة واحدة.

وبلاد ميديا واقعة إلى الشرق من جبال القوقاز، وإلى الجنوب من فارس، وإلى الشرق من بلاد الفرس بلاد الهنود، وإلى الجنوب البحر الأحمر (الخليج العربي)، وكان في بلاد ميديا فيما مضى Egbathanis، وكانت مدينة قوية جداً بناها أرفخشذ، حسبما جاء في سفر يهوديت: ١، ومدينة سوسة التي قرأنا عنها في سفر أستير.

وألقينا بعد ذلك بأبصارنا نحو الجنوب، في خليج البحر الأحمر، وقد رأينا خلف مجراه جبلاً عالية جداً، وفي هذا المكان أكثر القفار عزلة،

وهي قفار طيبة Thebaid ، التي عاش فيها فيما مضى أكثر الرهبان قبولاً، ويتاخم هذه القفار من الجنوب المحيط، ومن الغرب النيل، نهر مصر، ففي هذه القفار، اعتاد أن يعيش القديس أنطوني الكبير، وهو صاحب اسم مشهور في العالم كله، ومثله فعل القديس أرسينيوس Ar-senius ، وكذلك القديسون الثلاثة، الذين كان اسم كل واحد منهم مكاروريوس، مع قديسين آخرين ذوي قداسة عظيمة جداً.

والأشياء الأولى التي رأيناها في البحر الأحمر كانت جزراً مهجورة، كانت صخورها تلمع بملح أبيض، هذا ويوجد في هذا البحر كثيراً من الجزر الثمينة جداً، التي لم يكن بإمكاننا رؤيتها، ورأينا على شاطئ البحر الأحمر، الذي كان على طرفنا ميناءً بحرياً متميزاً جداً، الذي كان اسمه فيما مضى Berenice أو Arolech واسمه الآن الطور، وتلقي السفن التي تأتي من الهند حاملة العطور والتوابل مراسيها في هذا الميناء، ومن هناك يجري حمل التوابل إلى مصر، ومن مصر عبر البحر المتوسط حتى بلادنا، وهذا أقصى ميناء في الشرق معروف بالنسبة لنا، وهناك يوجد دوماً سفناً هندية كبيرة كثيرة، وهي معمولة ومبينة مع بعضها بحيث ليس فيها حديد، كما أنهم لا يتجرأون على امتلاك مراسي حديدية، أو سلاسل، أو صحنون، أو مسامير، ولا أية أسلحة معدنية، ولا فؤوس، ولا حراش، ولا أية أدوات حديدية مهما كان نوعها، وسبب هذا هو أنه هناك على شواطئ البحر الهندي فجاج وجبال معمولة من حجر المغنطيس، ومن قرب هذه الأماكن السفن المتوجهة نحو العربية تحتاج إلى المرور، وبناء عليه إذا وجدت أية سفينة تحتوي على أي حديد، وعليها المرور بتلك الأماكن التي فيها حجارة مغنطيس، فإن المغنطيس سوف يجذب السفينة فوراً بسبب الحديد، وبذلك سوف تصطدم بالصخور وتغرق، لأن المغنطيس يجذب الحديد إلى نفسه بشكل عجيب جداً، والذي يهيمه أن يقرأ أكثر حول هذا، عليه أن ينظر في Spec-

ulum Historiale — الكتاب: ٢٠، الفصل: ٢٠.

علاوة على هذا، في عدة مناطق من الشرق هناك صخور، لها مثل هذه الطبيعة، أي أنهم يجذبون إليهم أناس يرغبون بعبورهم، وذلك مثلما يجذب المغنطيس الحديد، وعندما يُجذب مثل هؤلاء المسافرين، يضحكون، ويصبحون مسرورين، ثم يصطدمون بالصخور، ويهلكون، وقد تحدث كونسيلياتور Conciliator عن هذه الصخور في كتابه Doctrina — الفصل: ٦٧، حيث قال بأنه بسبب العواصف ما من إنسان يمكنه أن يبحر إلى أجزاءنا من الأرض، حتى وإن لم يمنعهم الاتساع الهائل للمحيط.

وأخبرنا الراهب نيقوديموس، أن رهبان القديسة كاترين يتقاسمون مع سلطان مصر المكوس التي تدفعها السفن المحملة المستخدمة لهذا الميناء، وأنهم يمتلكون إلى جانب شاطئ البحر بستان أشجار نخيل كبيرة، منها يجنون ثوراً كثيرة كافية لهم طوال السنة، ومع ذلك فإنهم يبيعون الجزء الأكبر من هذه الثمار.

ورأينا عندما نظرنا نحو الغرب، خلف هذا الخليج البحري باتجاه الجنوب، جبلاً عالياً اسمه أولبوس السودان، لتمييزه عن أولبوس مقدونية، ويتدفق هذا الجبل عند شروق الشمس بلهب على شكل مخيف لمدة خمس ساعات، ومن هذا الجبل تبدأ بلاد السودان، وهي بلاد كان اسمها في القديم أطلنطا، ويحدها نهر النيل، وهي بلاد واسعة جداً، وتنتج رجالاً غريبين مع حيوانات رائعة في قفارها، وينظر بعض هؤلاء الرجال نحو الشمس عندما تشرق، وعندما تغيب مع لعنات مرعبة، وهم دوماً يشتمون الشمس بغضب، بسبب معاناتهم من الحرارة، وهناك يسعى ساطير ويتجول، وهو الذي يشبه الإنسان إلى حد أنه يعد إنساناً حقيقياً، ويحد هذه البلاد ليبيا، وهي منطقة واسعة من مناطق أفريقيا، وكذلك تحدها مصر.

وسحبنا أعيننا من هناك، وعن التطلع إلى تلك المناطق النائية، وثبتناها على السهل الصحراوي الواقع بين جبل سيناء، والبحر الأحمر، ودهشنا تجاه حجمه وعزلته، وأخبرنا الراهب نيقوديموس أنه كان يوجد في تلك القفار دير لرجال مقدسين، وهذا الدير لم يستطع انسان في العصر الحديث أن يعثر عليه، مع أن أصوات النواقيس تسمع كل يوم، وهو تقرر في الساعات القانونية، ولقد حاول بعض رهبان دير القديسة كاترين العثور عليه، وقد أعلنوا أنهم سمعوا صوت النواقيس، لكنهم لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل العثور على الدير نفسه، وهم يعتقدون بأن هذا المدير مخفي بنعمة الرب، بسبب ذنوب البداءة العرب، ولكي لاينزعج الذين يسكنون فيه، بسبب وقاحتهم، مثلما يحدث للديرة الأخرى في الصحراء، وفي هذا الطريق نفسه اختبأ لوط من شعب سدوم (التكوين: ١٩)، وأخفيت مدينة دوثنان عن السوريين، حتى لايتمكنوا من اعتقال النبي الإشع (الملوك الثاني: ٦)، وكان على كل حال هناك بعض البداءة العرب مع الراهب، وقد أعلنوا — وربطوا اعلانهم بالقسم — أنهم قد كانوا في ذلك الدير، ولكن بعدما خرجوا منه أضاعوا مباشرة الدير والطريق إليه.

ويختفي في بعض الأحيان بعض رهبان القديسة كاترين، ولايعرف انسان إلى أين ذهبوا، ومن المعتقد أنهم نقلوا إلى ذلك الدير ليشغلوا أماكن الذين يموتون من وقت إلى آخر، وينبغي أن لايستخف أي انسان بهذا وينظر إليه على أنه صبياني أو خيالي، فقد قرأنا مثل هذه الحكاية في « حياة الآباء»، وكان ذلك حول الصحراء نفسها، وتقول الحكاية بأنه سكن هناك رجل مقدس، لم يستطع أي انسان العثور عليه، وكان راعي الدير بوستوميوس Postumius في زيارة للآباء والقديسين الذين كانوا يسكنون في القفار، وقد بحث عنه لوقت طويل، لكنه لم يستطع العثور عليه، لأنه كان كلما حاول رجل أن يقابله، كان يهرب

بعيداً في داخل القفار إلى بقعة غير معروفة، ويتجنب الحديث مع أي واحد من بني البشر، ومع ذلك لقد قيل بأنه التقى براعي الدير، الذي كما افترض، حصل على هذه الفضيلة بسبب قوة إيمانه، وعندما تحدثا، سأله راعي الدير، لماذا يتشدد في تجنب بني البشر، أجابه «إذا كان الرجال سوف يتحدثون معي، فإن الملائكة الذين أتحدث الآن معهم، سوف يهربون مني»، وقرأنا الشيء نفسه عن القديس هيلاريون، الذي عرفه اللصوص الذين يتصيدون في القفار، وغالباً ما بحثوا عنه، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل العثور على قلاية الرجل العجوز، انظر Speculum Historiale — الكتاب: ١٧، الفصل: ١٩، والكتاب: ١٩، الفصل: ١٧، وجيروم في كتابه «حياة القديس هيلاريون»، الفصل: ٩، الذي هو النص الأصل.

وتحولنا من هناك واتجهنا نحو الشمال، حيث يتصل بالشرق، وألقينا بأبصارنا باتجاه بلاد العربية التي تحتوي على صحارى شاسعة جداً، وهي مليئة في كثير من أجزائها بعطور ثمينة متنوعة، ولهذا السبب عرفت باسم «العربية المباركة»، وهي تمتد فيما بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وتدعى باسم «المباركة» بسبب الجودة الخاصة للتربة، لأنه عندما يجري حفر الأرض في بعض الأماكن تخرج بعض الكتل الترايبية ذات الرائحة الطيبة، ويتم العثور عليها، ويستخرج الذهب من تلك البلاد بعد الحفر عليه، ولا يتم تذويبه بالنار كما يجري عادة العمل في المناطق الأخرى، بل يستخرج من الأرض على شكل قطع بحجم اللوز، والكستنا، ولونه لامع إلى حد أنه يغري بجلب الأحجار الكريمة ووضعتها في ذلك الذهب، وفي العربية هذه بلدة مكة، وهي مدينة النبي محمد ﷺ، وفيها معبد ضريحه (كذا)، الذي يقال بأنه معلق ببراعة متناهية، بوساطة أعمال آلية، يعتقد الذين لم يعرفوا كيف عملت، أن الضريح معلق بالهواء بوساطة بعض القوى الربانية، والحقيقة هي أنه

هناك أحجار مغناطيس تحمل أجزاء متساوية بين قسم وآخر، فقد جرى وضع قسم من الأحجار في الأرض من تحت، ثم قسم آخر في سقف مقبب من الأعلى، وتابوت محمد ﷺ، الذي هو من حديد، معلق في الهواء بين هذين القسمين من الأحجار، وكأنه مثبت هناك بوساطة إرادة ربانية، وهناك شيء مشابه قد صنع من الحجارة وفق الطريقة نفسها في مشكاة فينوس، التي يندهش الكفار نحوها، علاوة على ذلك كان هناك في واحد من الهياكل صنم حديدي معلق في الهواء وفق الطريقة نفسها، كما ورد إلينا الخبر في *Speculum Historiale* — الكتاب: ٩، الفصل: ٢٠، وفيما هو مقلد في ص ٧٢ ظ.

واستدرنا الآن أكثر نحو الشمال، ونظرنا باتجاه بلاد الكلدان، التي تحدها العربية، ففي هذه البلاد بنيت مدينة بابل العظيمة من قبل نبوخذ نصر، حسبما قرأنا في سفر دانيال.

وكان في بابل هذه مسلة عظيمة، كانت إحدى عجائب الدنيا السبع، فقد أمرت الملكة سميراميس بقطع حجرة من جبال أرمينيا، طولها مئة وخمسين قدماً، وسماكتها أربعة وعشرين قدماً، ويجلبها إلى بابل، حيث نصبته، مما أدهش جميع الناظرين إليها، ويوجد على مقربة من هذه المدينة حقل دورا Dura ، حيث التقى العفاريت مع بعضهم بعد الطوفان، من أجل بناء برج بابل، وهناك أيضاً حدثت بلبله الألسن، وأقام في هذا الحقل نبوخذ نصر تمثالاً ذهبياً للرب، وهو الصنم الذي رفض أنانياس Ananias، وآزارياس Azarias وميسائل Misael، رفضوا عبادته، لذلك ألقى بهم في أتون نار مضطرم، وهنا كان صنم بعل، وعرين الأسود، وكانت هذه المدينة قد تزينت بنعمه سوزانا، زوجة يواكيم، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وجاء من هذه البلاد، كما قلت من قبل، الغجر، الذين ندعوهم الـ Zigeuner (النور) وانتشر هؤلاء الناس مع أزواجهم وأولادهم، في أيامنا، فوق أوروبا

كلها، ولم يسمح لهم بالدخول إلى المدن، لأنهم الأبرع بين اللصوص. وطردهم البنادقة كلياً من مملكتهم، بسبب لصوصيتهم ولأنهم اتهموهم بكونهم، جواسيس، ووفق الطريقة نفسها لم يسمح لهم اللورد ايرهارد Eberhard، دوق وورتمبرغ Wurtemberg بالدخول إلى دوقيته، لأنه عانى منهم شخصياً ومن خيانتهم عندما كان في أزمة في الأرض المقدسة، فقد خانوه لصالح المسلمين، ولكي تجري معاملتهم بشكل أفضل من قبل الأناس المسيحيين، أعلنوا بشكل زائف، بأنهم قدموا من مصر العليا، وقد نفىوا من هناك، حتى يتمكنوا من التوبة، لأنهم لم يظهروا حسن استقبال للعدراء المباركة، وللطفل يسوع، وليوسف، عندما هربوا إلى مصر، وهذه حكاية زائفة، ومثل هذا يتظاهرون بأنهم مسيحيين، وأنهم تعمّدوا وقتاً بعد آخر، ويهزأون من المسلمين، وسألت مرة واحداً منهم، من أي بلاد هو قد جاء، فأجابني بأنه هو والبقية قد جاءوا من بلاد الكلدان، وأنه اعتاد دوماً على استخدام اللغة الكلدانية.

وجاء بعد بلاد الكلدان بلاد الآشوريين، التي هي بلاد واسعة، فيها بنى نينوس NINUS مدينة نينوى العظيمة جداً، وهاتان المدينتان: نينوى، وبابل، قائمتان على ضفة نهر الفرات (كذا)، وقد بنيت الأولى منهما من قبل نينوس، وبنيت الأخرى من قبل الملكة سميراميس، وهما تبعدان عن بعضهما مسافة طويلة، وخلفهما بلاد الجزيرة، فيما بين الفرات والدجلة، نهر الجنة، وبعدها تأتي بلاد أرمينيا وبلدان أخرى كثيرة.

ثم استدرنا بعد ذلك نحو الغرب، ورأينا على يميننا جبال العربية، الذين يسموهم «سلسلة العالم»، وتقوم هذه الجبال في مقابل الأرض المقدسة، على الجانب الأقصى من الأردن والبحر الميت، وبين هذه الجبال، الجبال الرئيسية هي جبال: نبو، وجبل فسغة، وجبل عبريم،

التي إليها صعد موسى بناء على أمر من الرب لرؤية الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية: ١/٣٤، وكان بإمكاننا من جبل سيناء أن نرى هذا الجبل بوضوح، هذا وتقدم الحديث عن هذه الجبال.

ورأينا أيضاً في القفار هور، حيث مات هرون (العدد: ٢٠/٢٦)، لكن بسبب جبال القفار وجبال العربية المتقدم ذكرها، كنا غير قادرين على رؤية اليهودية، ولا فلسطين، ولا البحر الكبير، وكذلك بسبب أنهم كانوا بعيدين كثيراً، ومع ذلك فإننا نعرف بشكل ممتاز، أوضاعهم والمكان الموجودين فيه في الأرض المقدسة، ولذلك انحنينا بأنفسنا وبرؤوسنا نحو الأرض المقدسة، ومدينة القدس المجيدة، وتعبداً ضريح الرب، والأماكن المقدسة، ونعتقد واثقين بأن صلواتنا هذه كانت مؤثرة، لأنه قد كتب: «إذا ماضى شعبك إليك باتجاه الأرض المقدسة والمدينة التي أنت قد اخترتها، ونحو البيت الذي بني لاسمك، أنت يارب سوف تصغي إليه»، (الملوك الأول: ٨).

ورأينا أيضاً القفار والأماكن الصحراوية التي تجول فيها بنو إسرائيل لمدة أربعين سنة، والجبال التي مررنا بها، من ذلك على سبيل المثال جبل كالب، الذي تحدثنا عنه من قبل، وكذلك منحدر رحوئيم الذي أيضاً تحدثنا عنه، ورأينا أيضاً جبل حوريب المقدس في سيناء بعيداً عنا ودوننا على مسافة بعيدة، مع الجبال الأخرى المنبثقة منه والمنتشرة هناك، هذا ومع أنه لم يكن هناك أي جبل بيننا وبينه، كان بعيداً جداً، إلى حد أننا صحيحاً رأينا الجبل ورأينا قمته، مع ذلك لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل رؤية البيعة التي كانت قائمة على القمة هناك، وبدت جميع الجبال هناك بـرْد تلال، مقارنة مع جبل القديسة كاترين وبعدها شاهدنا جميع البلدان القائمة من حولنا، قريباً وبعيداً، جلسنا أرضاً، وأحضرنا طعامنا من مزادنا، وتناولنا وجبة رائعة إلى جانب الضريح الذي إليه حملت الملائكة القديسة كاترين.

نزول الحجاج من جبل العذراء القديسة كاترين في سيناء

وعندما فرغنا من عمل كل ماينبغي هناك على الجبل المقدس، قبلنا المكان المقدس، ومضينا عائدتين مع كثير من البهجة، ولم نكن نسير سيراً، بل نركض ونقفز نزولاً، لأننا كنا الآن بادئين لعودتنا إلى الوطن، ومع أنه كانت هناك مسافة شاسعة بيننا وبين بلادنا، لكن لم يكن ثابتاً بلاحراك أن الذين يريدون العبور من هنا إلى هناك لايمكنهم فعل ذلك، وعند جوف الجبل، وصلنا إلى النبع الذي يسمونه نبع القديسة كاترين، وشربنا هناك واسترحنا لبعض الوقت، ومن هناك سرنا أو انزلقنا مسافة طويلة، ووصلنا إلى نبع آخر، حيث قطعنا أغصاناً، قيل بأنها من النوع نفسه من العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى، والتي قالوا أيضاً بأنها تمتلك قوة عظيمة، في مساعدة الذين لديهم أمراض مقعدة إذا حملوها معهم، وفيما إذا كان هذا صحيحاً، على القارئ الحكيم أن يقرر ذلك، وتابعنا النزول من هذا النبع، فوصلنا إلى حقل قصب، وقطعنا من هناك عصياً طويلة، قالوا إنها من النوع نفسه الذي كانته عصا موسى، التي عمل بها كثيراً جداً من المعجزات والتي وضعها فوق، في تابوه العهد، وهي التي قرأنا عنها في سفر الخروج: ١١، ١٤، وفي أماكن كثيرة من الكتابات المقدسة، ويقول بعضهم إذا كانت هنالك امرأة تعاني من آلام المخاض، وأمست واحدة من هذه العصي بيدها، سوف تضع دونها مخاطر، هذا وهذه القصص رائجة بين العلمانيين وأنا لأهتم بها كثيراً.

وبعد كثير من الجهد والتعب وصلنا نازلين إلى دير الأربعين قديساً، حفاة تقريباً، لأن الصعود إلى هذين الجبلين والنزول منها دمرّ لنا أحذيتنا، ولذلك توجب على بعض الفرسان البقاء حفاة من هنا حتى القاهرة، وامتلك آخرون أحذية مقطعة من دون نعال، ومن الصعب أن يكون زوجاً من الأحذية جديداً كافياً للصعود إلى هذين الجبلين

والنزول منها، وفيما يتعلق بقضية الأحذية لم نجهز أنفسنا منها بما فيه الكفاية، وعندما كنا على وشك مغادرة دير القديسة كاترين للصعود إلى هذين الجبلين، حدثت لي الحادثة السعيدة التالية، فقد جلب لي واحد من الفرسان المرضى الذين تخلفوا عنا، زوجاً جديداً من الأحذية، كان قد ابتاعه من القدس، وهو مصنوع من جلد جيد، رمادي أو بالحري أصفر اللون، وقال: «إليك يا أخ فيلكس، لقد اشتريت هذا الزوج من الأحذية وبنتي تسلق هذين الجبلين المقدسين بهما، لكن وأنت ترى الآن أنني لأستطيع التسلق إلى هناك، لذلك أرجوك أخذهما، ودعني أشارك في الخطوات التي سوف تعملها بهما، لذلك قمت على الفور بتجربة الحذاء الجديد لأرى فيما إذا كان يناسب قدمي، وتركت القديم المهترئ في غرفتي، لأنه كان من المؤكد عدم صموده أثناء صعودي حتى للجبل الأول، وبعدما وصلنا إلى دير الأربعين قديساً، طبخنا معجنات لغدائنا، وبعثنا بسائقي حميرنا إلى دير القديسة كاترين لإحضار الحмир لنا، لأنه لم يعد بإمكاننا السير أكثر، بسبب تعبنا وحاجتنا إلى الأحذية، وبسبب حرارة الشمس.

زيارة إلى الأماكن في داخل الدير وفي الحدائق خارجه

وبعدما تناولنا طعام الغداء، قمنا بمسيرة إلى الأماكن المقدسة في الدير، ودخلنا أولاً إلى الكنيسة حيث انكبنا بأنفسنا نحو الأرض، وحصلنا على غفرانات (+)، وفي هذه الكنيسة جرى دفن الأربعين راهبا، الذين قتلوا في سبيل الايمان بالمسيح، في الدير، من قبل البداة العرب، بطرائق تعذيب متنوعة، ولهذا السبب أطلق على هذا المكان اسم «دير الأربعين قديساً»، ويسكن هناك اثنان من رهبان دير القديسة كاترين لوحدهما، بمشابة حارسين للمكان، ويعاني هذين الراهبين من كثير من الالهانات من البداة العرب، الذين يتجولون في تلك القفار، وتجولنا بعد ذلك بين قلايات الدير، التي هي تعيسة وفقيرة، وهي معمولة من

القصبة المنسوجة الذي جرى التطين فوقه، لكن هناك من حول الدير يوجد سور جيد وقوى، مثل سور يحمي قلعة، وليس له دائرة كبيرة.

وبعدما فرغنا من مشاهدة الدير، خرجنا من بابه إلى حديقة الدير، التي هي بشكل رائع لاتشبه القفر المجاور لها، فهي مليئة بأوراق خضراء، وفاكهة، لأنه ينمو فيها هناك أشجار طويلة، وحشائش «للصلطة»، وأعشاب، وقمح، وشاهدنا فيها أكثر من ثلاثة آلاف شجرة زيتون، وكثيراً من أشجار التين، والرمان، وكميات من اللوز وهكذا دواليك، ويحصل دير القديسة كاترين على مايكفيه من الزيت من هذه الحديقة لتغذية المصابيح في الكنيسة، ولإستخدامات الطعام في المطبخ، ويرسل الرهبان في كل سنة جراراً مليئة بفواكه هذه الحديقة إلى القاهرة، إلى ملك مصر، السلطان، كهدية له، وكتعويض لرعايته وحمايته، كما سوف أتحدث عن ذلك لكم فيما يأتي، ولديهم «صلطة» ومنكهات لخبزهم، طوال السنة من الحشائش التي تنمو هناك، وقش من الأعشاب لإطعام دوابهم، وإنه لأمر مدهش وجود مثل هذه الجنة في القفار، حيث أن كل شيء جاف ومحترق من قبل حرارة الشمس، وفي الرمال القاحلة مامن بذور أو جذور يمكن أن تنمو، ومع ذلك ماالذي لايمكن للعمل الانساني أن لاينجزه؟ وفوق هذه الحديقة، عند سفح الجبلين حفر الرهبان ثلاثة آبار عظيمة، بعيدة عن بعضها مسافة قصيرة، وفيهم يمكن تلقي جميع المياه التي تجري نزولاً من الجبلين في أيام الشتاء، وتتدفق المياه بوساطة أنابيب من بئر إلى آخر، وأخيراً تجري في الحديقة مثل مياه حياة، وهي تجر خلال الحديقة بوساطة سواقي، وقد جعلت هذه السقاية المتواصلة، الرمل خصباً وجعلت الصحراء تحمل ثماراً مثل الثمار التي تنتجها الأرض الزراعية، وقد اعتاد الآباء القدماء، الذين عبدوا الرب في القفار، على عمل هذا، وذلك كما قرأنا في Speculum Historiale — الكتاب ١٩، الفصل ١٤.

ويوجد في هذه الحديقة كثيراً من الصخور والحجارة، المندفعة من الأرض، ويوجد تحتهم كهوف، هي التي كانت فيما مضى قلايات الرجال المقدسين القدماء، وتمتد هذه الحدائق البديعة مسافة طويلة في قلب الوادي، وطولها ميل إيطالي، وعرضها رميتي حجر، واشتكى الرهبان لنا بأنهم تأذوا من شح المطر في هذه السنة، وبذلك أرغموا على التقدير كثيراً في سقاية حديقته مع أنها إذا لم تسق يومياً، فإنها سوف تجف على الفور، ومثل هذا اشتكوا أنهم في بعض السنوات تسقط أعداد لا تحصى من الجراد على حديقته، وعلى الأشجار المثمرة، عندما تكون مزهرة، وتغطي وجه الأرض كله، وتأكل كل شيء أخضر، من عقد الأزهار، إلى الأوراق والأغصان ولحاء الأشجار وتحدث دماراً وأذى، وبعدها فرغنا من رؤية الحديقة، عدنا إلى الدير وانتظرنا حميرنا هناك.

إطراء ومديح جبل حوريب المقدس

في سيناء وجبل القديسة كاترين المقدس في سيناء

من الممكن فهم الجبلين نوعاً ما من خلال الوصف المتقدم، والصورة المرسومة هنا، ومن الممكن النظر إلى هذين الجبلين على أنهما جبل واحد، ذلك أنه مع أن قمتهما منفصلتان، فإن سفحهما واحد، لأن كل واحد منهما يرتفع من سفح واحد هو نفسه، ويرتكز على الأساس نفسه، وذلك مثلما نتحدث عن يد واحدة، مع أن في اليد خمس أصابع مفصولة احدها عن الأخرى، لكنهم متحدون معاً في قاعدة واحدة، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نفهم وضع جبل القديسة كاترين، الذي يقال بأن جسد كاترين المباركة قد مدد فيه من قبل الملائكة، وذلك في المكان نفسه الذي أعطى فيه الرب الشريعة لموسى، أي أن تقول في الجبل نفسه فيما يتعلق بالقاعدة، ولكن ليس الجبل نفسه فيما يتعلق بالقمة لكل منهما، وبناء عليه سوف يظهران هنا تحت وصف واحد، وذلك مثلما يدعيان بالاسم نفسه، وهوسيناء.

وسيناء هو جبل في منطقة مدين فوق أرض العربية، وهو متفوق على الجبال الأخرى بالارتفاع، ويبدو رأسه وكأنه واصل إلى السماء، وهو جدير بالاحترام الأعظم بسبب الظهور المتتابع للرب الحقيقي في العصور الخالية، على أولى قممه، والدفن الرائع للقديسة كاترين الأعظم مباركة على القمة الأخرى، وهاتان القمتان للجبل المقدس لم تطأهما قدم انسان قبل أيام موسى وكاترين، لأنه مامن انسان تجرأ على التسلق إلى قمة حوريب، لأن المعتقد الرائج بين الناس قبل موسى كان أن الرب المخيف يسكن فوق قمة الجبل، وأن مامن انسان يستطيع النظر إليه أو الاقتراب منه والبقاء حياً، كما أنه لم يغامر أي انسان بالتسلق حتى قمة جبل سيناء، لأنها بدت وكأنها ملاصقة للسماء، ثم إن الجروف المنحدرة والعالية بدت وكأنه ليس فيها مكان لانسان يمكنه أن يتسلق منه، علاوة على ذلك، غالباً ماشوهدت النار مشتعلة على قمة الجبل الأول قبل أن يذهب موسى إلى هناك، بينما كانت القمة الثانية دوماً مغطاة بثلج متحول إلى جليد قاسي قبل أن يجري دفن القديسة كاترين هناك.

وهناك كثير من الجبال في العالم تندفع منها النيران، من ذلك على سبيل المثال بركان أيتنا Aetna وبركان بوبيوس Bobius(?)، لكن لهبها لم يتسبب بالطريقة نفسها، لأن هذا الجبل تدفق باللهب الناري، لأن النار قد اشتعلت بشكل اعجازي من قبل الرب ذاته شخصياً، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية: ٥، وسفر الخروج: ١٩، فهنا ورد الخبر بأن الجبل قد اشتعل بالنار مع نزول الرب وقد زعق صوت البوق، وكان عدد الحشد كله آنذاك ليس أقل من مائة ألف، ولمدة خمسة أيام كانت النار المشتعلة في كل مكان، وقد شوهدت من قبل الجميع، ومع ذلك لم يحترق شيء هناك، لابل بقي العشب أخضر، انظر يوسبيوس De Evang praepar — الكتاب الثامن، الفصل الثالث.

وهناك جبال كثيرة مغطاة بالثلج، الذي تجلد فصار قاسياً، لكن هذا

الجلبل مغطى كشهادة على عذرية القديسة كاترين، علاوة على ذلك هناك جبال كثيرة، فيها كهوف، اعتاد الكفار على أن يارسوا فيها أو هامهم وعبادة الأصنام، لكن هذا الجبل يحتوي على كهوف فيها انتظر الأنبياء وحي الرب، وعاش فيها الرهبان للتأمل حول الأشياء الربانية وكثيرة هي الجبال المكرسة للأرباب، مثل جبل أرسينثوس Aracanthus لمينيرفا، وماليا Malea لأبولو، وأولبوس لـ Jove وميسينوس (كذا) Misenus لاينياس Aeneas وأطلس لساتير Satyrs ... وجبل العدوان لمولوك، وجبل بافوس في قبرص لفينوس، وهكذا دواليك، لكن جبل سيناء هذا مكرس للرب الحقيقي الواحد، وهو الجبل الذي يسره أن يسكن فيه، ذلك أن الرب سوف يسكن هنا حتى النهاية، وهم يقولون بأن جبل أطلس هو بعلوه أعلى من الغيوم، وهو يحتوي على مخلوقات غير معروفة هي في حرب ضد حياة الانسان، وفي وضع النهار جعله صمته الرهيب المتواصل من غير الممكن لأحد الاقتراب منه من دون أن يرتجف، مع الشعور بوجود شيء ما رباني مختفي فيه، ويبدو في النهار غائماً وقذراً، لكنه في الليل يلمع بكثير من الأضواء مثل النجوم في السماء، وتتردد في أرجائه أصوات الغناء وضرب الكوسات، وأصوات المزمار للرجال الخلعاء وساطير، لكن جبلنا له ارتفاع موائم لبني البشر، وليس فيه أية حيوانات مرعبة، وفيه ظلام وضوء مثل أي جزء من الطبيعة، وليس فيه رؤى مرعبة، بل كل مافيه مقدس ورباني.

ولقد قيل بأنه على مقربة من البحر الأحمر هناك جبل اسمه كليماكس Climax، حيث يقال هناك نساء متميزات بلحاهم الطويلة، وهؤلاء النساء يمضين أوقاتهن في صيد متوحش جداً، ويستخدمن النمر عوضاً عن الكلاب، ويرين الفهود والأسود، لذلك مامن انسان يتجرأ على الاقتراب من ذلك الجبل، خوفاً من أولئك النساء المتوحشات،

اللائي يحملن وهن عاريات على الرجال المسلحين، ويتغلبن عليهم بمساعدة الحيوانات اللائي دجنهن، ولا يسكن مثل هذه الكائنات فوق الجبل المقدس، بل فقط قلة من الجائعين التعساء، وكل هؤلاء يمكن اطفاء غضبهم بمنحه من فتات الخبز، ويمكنني أن أروي كثيراً من الحكايات عن رعب الجبال (الأخرى)، التي تسبب للناس الخوف والرعب منهم، في حين نجد فيه، جبل سيناء براء كله من مثل هذه الأنواع، وعلى العكس هذا الجبل مرغوب به من جميع الجوانب، وذلك لبهائه لجميع بني البشر، إلى حد أن رجالاً من أعلى المراتب يتدفقون إليه من أقصى أجزاء الدنيا، وليكن في هذا كفاية عن جبل سيناء.

عودة الحجاج إلى دير القديسة كاترين والأماكن المقدسة الكثيرة على الطريق

وجلبت الآن حميرنا إلينا من دير القديسة كاترين، إلى دير الأربعين شهيداً، وامتطيناهم وسرنا إلى طرف الحديقة في الوادي القائم بين الجبلين، وعندما وصلنا تقريباً إلى نهاية الحديقة دخلنا إلى الحديقة من خلال سور الحجارة الجافة، وتركنا حميرنا في الخارج بعهدة أدلائنا، ووصلنا هنا إلى صخرة عظيمة، حيث هناك كنيسة مكرسة، وقد دخلناها وتلوننا فيها صلواتنا علناً نحصل على غفرانات (+)، ويقال قد سكن في هذا الكهف القديس أونوفريوس Onofrius ، الذي كان واحداً من كبار النساك، وهناك حكاية جميلة قد حكيت عنه في كتاب « حياة الآباء»، وكيف أنه وهو ساكن هنا في كوخ عند فم الكهف في ذلك المكان قد وقع أرضاً، فوقعت الأشجار القائمة حول الصخرة، ويبست، وذهبنا من هذا المكان نازلين في الوادي، ووصلنا إلى صخرة منعزلة قائمة إلى جانب الطريق، وليست متصلة بالجبل، بل واقفة بذاتها منبعثة من الأرض، إلى مقدار ارتفاع قامه الانسان مرتين، وهي عريضة في القاعدة، لكنها حادة في الأعلى، وتبدو وكأنها ليست متجذرة في

الأرض، بل قائمة مثل اهرام مصنوع، وليس كقطعة طبيعية من الصخر، ومن المعتقد أن هذه هي صخرة حوريب، التي أخرج منها موسى الماء بضربها بعصاه (الخروج: ١٧-٦)، علاوة على ذلك يرى بعض الناس أن خروج الماء الثاني المذكور في سفر العدد: ٢٠، كان من هذه الصخرة نفسها، وهي المياه التي عرفت باسم مياه الضرب، ولم تعط الصخرة ماء أكثر مما طلب لسقاية الناس مع مواشيهم، وبذلك تظهر بوضوح أكبر على أنها معجزة، ولهذا السبب، كانت الصخرة أيضاً صخرة منعزلة، ليست متصلة بالجبل، ولا مثبتة على الأرض، حتى يتمكن بنو اسرائيل من مشاهدة أن الرب عمل ماءً طازجاً جديداً في الصخرة ليشربوا، ولم يجلب لهم جدولاً من الأسفل، ولو أن الماء استمر بالتدفق منذ ذلك الحين، فإن المعجزة وقتها لن تكون معجزة كبيرة، بل معجزة عادية، لأننا رأينا أن القديس كليمنت مع كثير من القديسين الآخرين حصلوا على الماء بوساطة صلواتهم، وقد تدفق من الأسفل على شكل ينابيع في أماكن لم يكن ماء فيها من قبل، ولم يكن ذلك ماء جديداً قد خلق، بل كانت مياهها موجودة في عروق الأرض تحت التراب، وقد جرى توجيهها إلى هناك واستمرت من ذلك الحين تنبع وتتدفق، وذلك مثل ما يمكنك أن تقرأ حول قضية النبع الذي أعطي إلى الرهبان كعلامة وهو أمر أتينا على ذكره من قبل، لكن نبع هذه الصخرة، لم يتدفق من المياه الموجودة تحت الأرض، بل من كنوز الرب، ولذلك قال موسى في (سفر العدد: ٢٠): «افتح لهم يارب كنوزك، وامنحهم نبع ماء».

★★ ★★ ★★

وعن نبعنا قال المزمور: «شق صخوراً في البرية وسقاها كأنه من لجج عظيمة» (المزامير ٧٨ / ١٥)، وتحمل هذه الصخرة في اليوم الحالي علامات الفتحات في أماكن متعددة، لأن الماء لم يصدر من أسفل

الصخرة، بل من جميع أطراف الصخرة نفسها، حسبما يمكن مشاهدة ذلك في هذا اليوم، وهذه الصخرة جديرة بالاحترام العظيم، بسبب تدفق الماء منها، وبسبب معناها النموذجي، لأنه تبعاً للرسول (كورنثا الأولى: ١٠/٤) هي تشير إلى المسيح نفسه بقوله: «والصخرة كانت المسيح»، ولذلك سرنا حول هذه الصخرة، التي كانت بذاتها المسيح، وقبلناها.

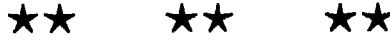
وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى واد اسمه تولاس Tholas حيث رأينا خرائب دير قديم، فيه سكن في القديم رجال مقدسون كثرة، وإلى جانب الدير هناك كهف عظيم وعميق يقود إلى جوف الجبل، الذي إليه انكفأ الآباء القدماء، وأخفوا أنفسهم عن ضوء النهار المخلوق، حتى يمكنهم في الظلام رؤية الضوء غير المخلوق، فقد قرأنا في انجيل يوحنا: ١٠ «والنور يضيء في الظلمة»، وقال داوود في المزمور: ١٣٩/١٢: «الظلمة أيضاً لا تُظلم لديك والليل مثل النهار يضيء»، كالظلمة هكذا النور»، وكان هذا الكهف بالفعل مدرسة للتأملات الربانية، حيث اقتيد الناس خلال الظلام المادي إلى رؤيا النور السماوي، وليس مثل كهف آخرون Acheron قرب مدينة هرقلية، والذي يقود إلى المناطق الداخلية، أو مثل كهف الهبرنيان Hibernian الذي اسمه خلوة القديس باتريك Patrick، ففيه يرى الذين يدخلون إليه مشاهد مرعبة، ويخافون رؤى خيفة، وكأنهم غطسوا في الجحيم، ولا يحدث هذا بوساطة قوى ربانية، أو بوساطة معجزات، بل بوساطة قوى طبيعية، واضطراب في العقل، لأن المعلم هنري دي هاسيا Has-sia.... (استاذ في جامعة فينا، مات سنة ١٣٩٧) نقل عن نيقولا أور Ore، وكان حكيماً على درجة عالية من المعرفة في العلوم الطبيعية، بأن ذلك الكهف كان موجوداً في أيرلندا، فيه في أماكن متفرقة هواء زفيري كثيف، نتيجته أن الذين يدخلون إلى هناك يقعون نياماً، ويحلمون

بأحلام رائعة، ويرون أشياء مخيفة بوضوح وكأنهم في اليقظة مع أنهم نيام، وبالطبيعة الشريرة والهواء السيء في المكان يبتهجون ويسلبون من عقولهم، ولذلك (عندما يستيقظون) يكتبون ما شاهدوه، وكأنه كان معجزات، ويصفون مشاهداتهم، وكأنها حوادث وقعت بالفعل، مع أنها حدثت لهم في حالة غير صحية في حالات تخيلهم، مثل أوضاع المنام، التي غالباً ماتبرهن انها تحدث مع بعض الناس عندما يكونون في حالة اليقظة.

وبعد مغادرة تولاس ، نزلنا إلى الوادي، ووصلنا إلى دير آخر، الذي هو الآن دير صغير، لكنه كان فيما مضى واسعاً، ويدعى باسم دير القديسين كوزما ودامين، وكانا كما قيل لنا في حكايتيهما من العربية، وهي بلاد جاء منها أطباء ماهرين جداً، وأعتقد أن هذا هو سبب تكريس دير إليهما في العربية هنا، تفضيلاً لهما على غيرهما من القديسين الآخرين، وقد بني هذا الدير فوق المكان الذي طعن فيه أكثر من ثلاثة عشر ألفاً وسبعمئة رجل من قبل الرب، فهؤلاء هم الذين هلكوا في تمرد قورح، وداثان، وأبيرام (العدد: ١٦)، ففي هذا المكان انشقت الأرض تحت أقدام هؤلاء القوم الأشرار، وفغرت فاهها وابتلعتهم وبيوتهم، ومضوا سريعاً إلى جهنم، وبعدما حدثت هذه الأشياء، عادت الأرض ثانية ناعمة مجدداً، وكأن شيئاً من هذا القليل لم يحدث، وذلك حسبما حدثنا مؤلف Speculum Historiale، ولذلك لم نستطع رؤية أية أثر مهما كان لإنشقاق الأرض هذا.

ووقفنا في هذا المكان ونحن نرتجف، ولخوفنا من قسوة حكم الرب وسرعة تنفيذه، لأن أولئك المتذمرين وقفوا مستعدين لإثارة تمرد وشقاق، ولم يخافوا عندما انشقت الأرض تحت أقدامهم، مع أنه من الذي لا يخاف عندما يسمع بهذا؟، ولقد قرأنا بأن الشيء نفسه قد حدث في أيام القديس أمبروز في قرية في توسكانيا، عندما انشقت الأرض

وابتلعت بيت رجل غني مع كل مايتعلق به، لكن بقيت هوة كبيرة فوق البقعة، لتكون شهادة ودليلاً، وقرأنا أيضاً في حكاية القديس بندكت، كيف أن شرفة قد سقطت فجأة على رجل عارض ذلك الرجل المقدس، وقتلته، وكذلك قرأنا أيضاً في «حياة» القديس جيروم، كيف أنه أصلح بعض الراهبات لعلاقاتهن الجنسية مع بعض المترهبين، لكن بما أنهم لم يقومون سبلهن، انشقت الأرض، وابتلعت الدير، والراهبات وكل شيء.



وانصرفنا من ذلك المكان المتقدم ذكره، ونزلنا في ذلك الوادي العريض والشاسع، الذي سافرنا خلاله قبل ثلاثة أيام، ونحن ماضون إلى دير القديسة كاترين، وذلك حسبما تحدثنا من قبل، وهذا وادي جميل وواسع، يمتد بين الجبال على شكل صليب، هذا والجبال التي من حوله عالية، ومع ذلك فإن الوادي مضيء ومشرق، بسبب مسافة الجبال بين واحد وآخر، ولو أنه كانت هناك مياه فقط في تلك المنطقة، لكانت قطعة ممتازة من الأرض للبشر للعيش فيها، ولإقامة مدن وقرى، فهناك في هذه الوديان نصب بنو اسرائيل معسكراتهم بعدما عبروا البحر الأحمر (الخروج: ٢١)، ويطلق على هذه المنطقة اسم قفار سيناء، لأنها تقع في مقابل جبل سيناء، حيث فيها أقام بنو اسرائيل الجزء الأعظم من الأربعين سنة التي أبقاهم الرب خلالها في القفار.

ووصلنا الآن ونحن نازلين إلى مكان تتصل فيه الوديان مع بعضها، وتشكل سهلاً عظيماً، ورأينا هناك حجرة طويلة كانت تشبه منبر واعظ، وعلى هذه الحجرة، يقال بأن موسى وقف وأخبر الناس بكلمات الرب، وأنه من هناك أعطاهم الشريعة وبينها لهم، وهي الشريعة التي أعطيت له، وتلقى أجوبة الناس هناك، وحملها عائداً إلى الرب على الجبل، وهنا أيضاً كان غالباً مايجبر الشعب بأوامر الرب.

وفي الحقيقة كان المكان موئماً كثيراً لأعمال الوعظ، وهناك مساحة كبيرة جداً تحت من أجل الناس، وهذه المساحة الشاسعة كانت محتاج إليها، لأن تعداد الناس كان كبيراً، فقد بلغ عددهم ستمائة ألف رجل حاملين السلاح، وذلك إلى جانب النساء، والأطفال، وعلاوة على ذلك حشداً لا يحصى عدده من أخلاط الناس الذين قدموا معهم، وأغنام وسائمة من كل نوع بأعداد عظيمة جداً. (الخروج: ١٢).

وفي هذا المكان كان بنو إسرائيل يضحون للعجل الذهبي، وذلك بسبب أنه كان شاسعاً واسعاً، والوديان من حوله لها مناظر عليه، والعجل الذهبي هو الذي صنعه هرون لهم أثناء غياب موسى، عندما كان مع الرب في الجبل، وقد رقصوا عراة حول العجل، وجمعوا الناس وحشدوهم كلهم من جميع أماكن سكناتهم وخيمهم، حيث أعلنوا بشكل عام عن عيد العجل قائلين: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر»، وحدث أنه حتى بعض الشيوخ والحكام ذهبوا إلى المكان الذي اعتاد موسى على الوقوف عليه والتحدث إلى الناس، وعرضوا على الناس العجل، ونصبوه لهم لعبادته.

وجرى اقتراف هذا العمل المرعب والمخيف على هذه البقعة، ليكون عاراً أبدياً لليهود، لأنه في هذه الأيام إذا ماتحدث انسان عن هذا العجل إلى يهودي، يجر وجهه خجلاً، ولقد برهنت أنا شخصياً على صحة هذا الأمر مراراً عندما كنت أتحدث إلى يهود، فعلى هذه البقعة نسي اليهود الرب، كما قال صاحب المزامير، نسيوا الرب مخلصهم الذي عمل أعمالاً مدهشة في أرض حام، وأشياء مخيفة في البحر الأحمر، فكان أن صنعوا العجل في حوريب، وعبدوا وثناً مصنوعاً، وبذلك استبدلوا مجدهم بصورة عجل يأكل قش الأرض.

★★ ★★ ★★

ولدى متابعتنا لسيرنا وصلنا إلى مكان، حيث كانت هناك أكوام عظيمة من الرمل وتضخم في الأرض، ويقال بأنه في هذا المكان قد جرى دفن الذين قتلوا من أجل وثنيهم بناء على أوامر من موسى، وكان عددهم ثلاثة وعشرين ألف رجل (الخروج: ٣٢) وأخبار الأيام الأول: ٢٠)، وتابعنا من هناك سيرنا في ذلك الوادي العريض، ووصلنا إلى واد ضيق يقود إلى دير القديسة كاترين، وقد دخلناه، وسرنا خلال حديقة الدير، وتمتد هذه الحديقة مسافة طويلة، كما تحدثنا عن ذلك الدير، وتجري سقايتها وفق الطريقة نفسها مثل حديقة الأربعين شهيداً، كما تحدثنا عن ذلك في مكانه، وهذه الحديقة مزروعة بشجر الزيتون، وبأشجار من أنواع أخرى، وهي واسعة وجميلة، وبها أماكن كثيرة ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

وعندما كنّا سائرين من خلال هذه الحديقة، طلب منا أدلاؤنا أن ننظر إلى الأعلى نحو قمم الجبال، وقد رأينا فوق رأس صخور عالية جداً، واقفة أمام جبل حوريب، عجلاً واقفاً هناك وهو يتطلع نحونا، وكأنه على وشك القفز نحو الأسفل، ولقد رأيناه بوضوح تام، مع جميع أطرافه، وهو موزع بشكل متوازن، وكأنه حقيقة حيوان حي، أو أنه شبيه بعجل مصنوع بشكل فني، مع أنه بالحقيقة لم يكن هناك عجلاً لا طبيعياً أو اصطناعياً، بل كان هناك قشرة صخرة، رأسها مكسور، ومن دون أن يصنعه انسان، يبدو من الأسفل حين تنظر إليه وكأنه يشبه عجلاً، ولذلك غالباً ماقام رهبان الدير، يحركهم الفضول، فتسلقوا الجبل، ولكنهم لم يعثروا على أي تمثال لعجل على قمته، بل وجدوا صخوراً مكسورة، وجروفاً حادة، عندما ينظر الانسان إليها من الأسفل تبدو له وكأنها عجل، وذلك مثلما هناك صخرة في بحر ايجيه، لها شكل ماعزة، عندما ينظر الانسان إليها من مسافة، ولهذا السبب عرف البحر باسم بحر ايجيه، لأن « ايجيه » بالاغريقية تعني ماعزه.

وفي مكان آخر من البحر نرى صخرة عندما ننظر إليها عن بعد، نجد أن لها شكل صل، لكن عندما نقرب منها، نجدها حجرة كبيرة، ومثل هذا، عندما يذهب انسان من بلدة ويزازتيغ Wisastaig (كذا) قرب أولم، يرى فوق التلال حجرة طويلة محفورة وكأن لها شكل انسان، ولكن عندما يقترب الانسان منها، لايمكنه أن يرى سوى صخرة وعرة، وعلى الرغم من ذلك فإنه مع العجل المتقدم ذكره، نجد أن خداع المنظر قد قاد إلى خطأ بين كل من الطوائف الشرقية، والمسيحيين والمسلمين، إلى حد أنهم يعتقدون أن الشيطان قد أخذ العجل الذهبي، الذي صنعه اليهود، كما تقدم ذكره، وحمله إلى ذلك المكان، ليكون ملامة دائمة وعاراً ثابتاً لليهود، وخشية من أن يجري نقله من قبل أي انسان، جعل الرب من غير الممكن العثور على العجل نفسه، لكن هذه الحكاية كلها مخترعة وتتعارض مع نص التوراه (الخروج: ٣٢) الذي يقول بأن موسى قد أخذ العجل الذهبي وطحنه ناعماً، كما سوف يظهر معنا بعد قليل.

وابتعدنا اخيراً عن ذلك الشبه المتخيل للعجل، ووصلنا ونحن سائرين إلى هوة كبيرة وعميقة، تشبه صهريجاً، كان فيها كثيراً من الماء، من الممكن جره لسقاية الحديقة، وقد قالوا بأن هذه الهوة كانت دوماً هنا، ولم تعمل من قبل عمل بشري اصطناعي، أو بأي جهد، بل من قبل الطبيعة، ففي أيام الشتاء تجري المياه إليها، وكان موسى عندما طحن العجل الذهبي، رش المطحون على هذا الماء، وأحضر الناس، وجعلهم يشربون منه، وحدث أن الذين كانوا مجرمين قد احتفظوا بلون الذهب في وجوههم، ولذلك بدت لحاهم ذهبية، وتورمت أجوافهم بشكل سيء بوساطة الماء الذي شربوه، إنما الذين لم يشاركوا في هذا الإثم، فقد شربوا الماء من دون أذى، ولم يظهر أي لون ذهبي على وجوههم. انظر الخروج: ٣٢، و Postilla لدي ليرا، وقرأنا عن نبع

مماثل في تايانا Tyana، مكرس لجوبيتر، وهو في الحقيقة نبع رائع جداً، وقد قيل بأن مياهه تأتي إلى هذا النبع باردة جداً من خلال ممرات تحت الأرض، حيث تغلي على الفور، وهذه المياه عذبة وصحية بالنسبة للذين يسكنون على مقربة منها إذا ماكانوا شهوداً صادقين على أي مسألة، ولكن إذا لوثوا أنفسهم بشهادة زور، فإن الماء يطير خارجاً من النبع ضدهم، ويضرب أعينهم، وأقدامهم، وأيديهم، ويسبب لهم أمراض الاستسقاء، وفقدان الشعر، ولايمكنهم المغادرة من دون أذى مالم يعترفوا بشهادة الزور إلى الأشخاص الذين حلفوا لهم حائثين مزورين.

ومثل هذا أيضاً حدث لميداس، ملك الفريجيين الجشع، الذي عبد الذهب على أنه ربه، فقد تلقى من باخوس منحة، أي أن شيء يلمسه يتحول إلى ذهب، ولذلك مات من الجوع، وبعد موته ألقى به في نهر باكتولوس Pactolus ، الذي امتلك رمالاً ذهبية، من أجل أن الذي لايمكنه العيش من دون ذهب، يمكن أن يفسد في الذهب، لأنه مهما أذنب الانسان، فإنه به سوف يعذب، ولذلك فقد اليهود كأس الحياة الذهبي، لأنه قدموا القرابين إلى عجل ذهبي.

وغادرنا ذلك الصهرريج، ومضينا على طريقنا صعوداً، فوصلنا إلى مكان شاسع مفتوح في الحديقة الذي لأعرف سبب قحطه، حيث مامن عشب ينبت فيه، مثلما يحدث في بقية أجزاء الحديقة، ومن المعتقد أن هذا الفراغ هو المكان الذي أذيب فيه العجل الذي عمل من قبل هرون، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج: ٣٢، ذلك أنه أخذ من النساء ومن الناس أقراطهم الذهبية والخواتم والكؤوس الذهبية، وألقى الجميع في النار، ومن هناك جاء من خلال عملية للشيطان عجل ذهبي، الذي اعتقدوا أنه صل، وذلك مثلما يفعل المصريون، لأن المصريين يأخذون الصل من الماء على شكل ثور، ومثل ذلك فعل بنو اسرائيل فأخذوه نفسه من النار على شكل عجل.

وفي الحقيقة اعتاد الكفار على عبادة رجال عملوا أرباباً، ليس في أشكالهم البشرية الحقيقية ولكن بأشكال هذه الحيوانات، التي تتحدث الحكايات أنهم تحولوا إلى أشكالها، من ذلك أن جوبتير قد تحول إلى غزال وعبد تحت شكل غزال، والصل تحت شكل عجل، وفيونوس كسمكة وساتورن كحصان، ونيوب Niobe كحجرة، وهيرمون Her-mione، كثعبان، ويونو Juno كبقرة، وأكتيون Acteon كـوعل، وأنتيغون كقلق، وألدونا Aldona كطائر مغرد، ودفني كغار، وعُبد أطلس الذي غيّر فيرسوس إلى جبل، على شكل جبل، والرعاة الأركاديون Arcaodian على أشكال ذئاب، ويمكنني أن أقدم المزيد من الأمثال، وهكذا اختار الشيطان تشكيل عجل في النار وآثره على عمل شكل انسان.

ومضينا في طريقنا، فوصلنا إلى صخرة منعزلة قائمة عند سفح جبل حوريب، مثل قدر كبير، وهذه هي الصخرة التي رمى عليها موسى لوحى الوصايا العشر، وكان ذلك عندما شاهد العجل والناس يقدمون القرابين إليه، هذا ومعروف أن هذين اللوحين قد نحتهما الرب، وكتب عليهما باصبعه، وكانا من أثمن الحجارة وأكثرها صقلًا، وعندما جرى تحطيمهما اختفيا كلياً، وقال اليهود بأن الكتابه كان من الممكن قراءتها من على أي جانب من الحجرة، وهو أمر اعجازي، لأن رؤية الحروف ممكنة من على الطرفين من ورق رق رقيق وشفاف، ولكن القراءة ممثلة من على جانب واحد فقط، لأن الصفحة عندما تُقلب، تنقلب الحروف وتصبح معكوسة.

ولهذا السبب، من المعتقد أن الحجرة لا بد وأنها كانت نقية، ولا معة، وشفافة، حيث اقتضى الحال أن تكون هكذا، لأنها حتى في الظلام، وفي أوقات الليل أشعت، ودائماً جعلت الكتابة ممكنة القراءة، مثلما توجب الحفاظ على الوصايا التي كتبت عليها في جميع الأوقات، لكن موسى

حطم هذين اللوحين، ولم يعد من الممكن بعد ذلك القراءة، ولم يكن هناك حظر على الناس ومنع لهم من الابتهاج بسبب تحطيمهما، ومن الممكن المحاججة بأنه عندما ألقى موسى باللوحين على الصخرة تحولاً مباشرة إلى غبار لافائدة منه، وكان اللوحان الآخرين، اللذان نقرأ عنهما في سفر الخروج: ٣٤، قد نحتا من قبل موسى نفسه، وتمت الكتابة عليهما باصبع الرب، ويقول اليهود بأن الرب جعل موسى يرى كتلة من الزفير، نحت منها لوحين، وأن موسى صار غنياً كثيراً من خلال البقايا والقطع التي تشظت من تلك الكتلة، وأدع الأمر إلى أي رجل عاقل ليحكم كم من الصدق يمكن توفره في هذه الحكايات، لكنهم لا يستطيعون اقتياد أي إنسان إلى ضلالهم وإلى أي من أخطائهم، مثلما لا يمكن لحكايات الشعراء، التي نقلتها والتي أتعرض لها، عندما تصدقني على طريقي.

ومضينا من هناك نتابع سيرنا نحو الدير، وهنا أشار الراهب نيقوديموس وبين لنا جبلاً متصلاً بجبل حوريب، قال بأنه كان جبل موسى، فإلى هذا الجبل: «صعد موسى وهرون.... وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة» [الخروج: ٢٤/ ١، ١٠]، ومن هذا الجبل أمر موسى بالصعود إلى جبل حوريب، لأن هذا الجبل واقع فوق كتف جبل حوريب، باتجاه الشمال، وكان موسى قد أمر بالصعود إلى هذا الجبل من أجل صلوات خاصة، ولتلقى الأجوبة من الرب حول قضايا خاصة، ومن المعتقد أن الرب ظهر مراراً هناك إليه.

وقد صلينا ونحن ننظر نحو هذا الجبل، وتابعتنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى مكان مغلق ملاصق لأسوار الدير، فهنا أرض مقبرة الرهبان، وبناء عليه قرأنا هنا الصلوات من أجل الأموات، وقمنا بتقديم الاحترام إلى الرجال المقدسين الذين دفنوا هناك، لأن هناك ما يزيد على تسعة آلاف

راهب قد دفنوا هناك، أسماؤهم مدونة واحد تلو الآخر في كتاب الدير،
ومما لاشك فيه أنه كان بينهم عدداً كبيراً من القديسين، وبعدما خرجنا
من المقبرة دخلنا إلى الدير، فوجدنا أن عدد البداة العرب، قرب مكان
إقامتنا قد ازداد، ومع ذلك طبخنا طعام عشائنا، ودعونا الراهب
نيقوديموس ليتناول العشاء معنا، ورجونا أن يقوم بعمل الترتيبات مع
السيد راعي الدير، حتى يرينا آثار القديسة كاترين والأماكن المقدسة
الأخرى في الدير في الغد، الأمر الذي فعله، كما سوف نبين ذلك في
مكانه، وأمضينا الوقت ونحن حزينين، لأننا رأينا أعداد البداة العرب
المقيمين في مواجهتنا بازدياد مستمر.

ضريح القديسة كاترين العذراء الأعظم مباركة وآثارها المقدسة،
والتراتب التي أبدوها هناك نحو السادة الحجاج المسيحيين،
والوضع الحالي للزيت الاعجازي الذي يقال بأنه يتدفق من
قبرها، وعليقة موسى، والأماكن الأخرى التي يجري فيها منح
الغفرانات، وسيشغل وصف هذا كله هذا الفصل بأكمله

في اليوم السادس والعشرين، مباشرة بعد منتصف الليل، قمنا بعد
قراءتنا لصلواتنا، بإعداد أنفسنا لإقامة قداسات، وأعدّ الفرسان
العلمانيون أنفسهم لتلقي القربان المقدس، وكان هذا اليوم هو يوم جمعة،
وكنا نأمل بأن يكون اليوم المقبل يوم مغادرتنا، وبناء عليه بعد تلاوة
صلوات مابعد منتصف الليل، والصلاة الأولى، سمعنا اعترافات
فرساننا، وأقام كل واحد منا بدوره قداساً في بيعتنا، وتلقى جميع
الحجاج العلمانيين القربان، وخلال ذلك الوقت صار النهار مشرقاً،
فنزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين لرؤية آثارها، وعندما كنا في الكنيسة،
قدم راعي الدير مع جميع رهبانه، وكل واحد منهم يحمل بيده شمعة
مضاءة، ووفق الطريقة نفسها، أشعل كل واحد منا نحن الحجاج
حوامل الشموع التي كانت بأيدينا، ومن ثم تحلقنا واقفين حول ضريح
العذراء المقدس، من كلا الجانبين هناك، وجاء الآن حافظ مقدسات
الدير مع مفاتيحه، وحاول أن يفتح أقفال الضريح، لكنه لم يستطع أن
يفعل ذلك، لأن كل من الأقفال والمفاتيح كانوا جميعاً قد غطاهم
الصدأ، وتعطلوا، وأمكن أخيراً بمساعدة الرهبان الآخرين، وبعد بذل
كثير من القوة والجهد، فتح الأقفال، وعرض قبر الجسد المقدس،
وعندما جرى إزاحة الغطاء الرخامي الذي يغطي القبر، شرع الرهبان
بغناء ترنيمة تجاوبية، كانت الكلمات والموسيقى اغريقية، التي منها لم
يكن بإمكانهم فهم ولا كلمة واحدة، باستثناء كلمتي «رسل» و«شهداء»،
لأنهم غنوا بهاتين الكلمتين، ورددوها بين الكلمات الأخرى، ذلك أن

هاتين الكلمتين هما نفسيهما في كل من الاغريقية واللاتينية، وقد أخذتا بالأصل من اللغة الاغريقية إلى اللغة اللاتينية.

وأثناء قيامهم بالغناء، وصل راعي الدير إلى مكان الضريح، وبعد قيامه بانحناء كبيرة، صعد نحو التابوت، الذي كان قائماً في مكان مرتفع، وهنا غطس برأسه في داخل التابوت، وقبل مستودع ذخيرة الحكمة السماوية، وأعني بذلك رأس العذراء المقدس، ثم رفع نفسه وانتصب قائماً ثانية، وبقي واقفاً إلى جانب رأس التابوت، وبعد ذلك اقترب الرهبان منه، مبتدئين بالأسن منهم، وقبلوا الآثار المقدسة، وفق الطريقة نفسها التي عملها راعي الدير، وجئنا نحن الحجاج بعد الرهبان وتعبدنا الآثار بالطريقة المعتادة، وبعدما فعل قائدو حمرنا الشيء نفسه، وبعدما فعلنا ذلك، أعطاني جميع النبلاء منا جميع مجوهراتهم من الذهب ومن جواهر الفضة، حتى ألمس الآثار المقدسة بهم، وهكذا أخذت كل من المجوهرات التي عهد بها إليّ في أولم، من قبل الناس الأعزاء علي، ومجوهرات رفاقي من موالي الفرسان، ووضعت كل قطعة منهم في التابوت، حيث لمست بهم الرأس المقدس للعذراء النبيلة.

ومن أجل توضيح للمس الآثار بالجواهر، إنظر إذا رغبت ماتقدم في ص ١٩٨، وعندما كنت أفعل هذا لم يرفع راعي الدير الذي وقف إلى جانبي ناظره عني، وراقب يدي بعناية كبيرة، وذلك خشية سرقة أي من الآثار المقدسة، لأنه بالفعل جرت سرقة كثيراً من الآثار المقدسة في ماضي الأيام من قبل الحجاج، أو أخذت بناء على التماسات الأباطرة، والأساقفة والملوك، وجرى اعطاء الكثير وفق هذه الطريقة، حتى أن المتبقي الآن من الجسد المقدس أقل من النصف، ولأنهم يعرفون هذا، فإنهم يتولون حراسته بكل عناية من اللصوص، ولا يمكن الآن لأعمال التوسل أو الرشوة أن تقنعهم بالتخلي عن أية قطعة، وما يزال الجزء الأكبر موجود هناك، أي مازال موجوداً: رأس العذراء المقدسة، مغطى

بتاج ذهبي مرصع بكثير من الجواهر، مع رمز القداسة، والذراع الأيسر الذي أصابعه مغطاة بخواتم ثمينة جداً فيها أحجار كريمة، وكانت اليد الأخرى — كما أخبرنا الرهبان في جورجيا، لكن الذين في رودوس يتبجحون بأنهم يمتلكونها، وهم يعرضونها على الحجاج، وقد رأينا بعض الأضلاع، وقطع من العظام، وكثيراً من أطراف العذراء المقدسة موضوعين في التابوت.

ويبدو أن العظام المقدسة قد وضعت في زيت، لأن لونهم ليس أبيض، لكن لونهم لون عظام أو قطع من الخشب قد وضعت في الزيت، ومن المعتقد في الكنيسة المقدسة أن أطراف العذراء تعرقت فيما مضى زيتاً، لكن هذه المعجزة قد توقفت منذ زمن طويل مضى، والأطراف المقدسة ملفوفة الآن بالحرير، وقد جرى إعطاء قطع منه إلى الحجاج عوضاً عن الزيت، وهم ينقعون هذه القطع من الحرير في المصابيح المعلقة في بيعة القديسة مريم في العليقة، ويحملونها معهم إلى مواطنهم بمثابة زيت القديسة كاترين.

وكان معي قارورة صغيرة ملأتها بالزيت نفسه، وغطست فيها كثيراً من الصوف، هذا وإنني أعلم أن الزيت الذي من المكان المتقدم ذكره، مؤثر جداً على الحرير، وعندما أخيراً أراد راعي الدير إغلاق تابوت العذراء، أشرنا له بإبقائه مفتوحاً قليلاً من الوقت بعد، وذهبنا ثانية واحداً تلو الآخر، بالنظام والترتيب نفسه كما كان من قبل، وقبلنا الآثار المقدسة ووضعنا تقديمتنا من الذهب والفضة في التابوت، فقد وضع بعضنا أربع دوقيات، وبعض آخر ثلاثة، وبعض دوقيتين، ووضع الشطر الأكبر ما لا يقل عن دوقية واحدة، وعندما كنا نفعل ذلك غنينا ترنيمات تجاوبية جماعية إلى جانب التابوت، وتلونا المجموعات المحددة في كتب المسيرات، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ثم قام حافظ المقدسات بجمع تقديمتنا، وأغلق التابوت.

وهذا التابوت قائم فوق مكان مرتفع على الجانب الأيمن من السدة، وهو مصنوع من رخام أبيض مصقول، ومحفور على وجهه كله صور، ونباتات، وأوراق، والتابوت ليس مصنوعاً بطول جسم انساني، بل أقصر من ذلك بكثير، لأنه صنع لحفظ العظام فقط، ومعلق إلى جانبه كثيراً من المصاييح المضاءة، كانت تغذى فيما مضى من الزيت الذي رشح من أطراف العذراء، ولكن عندما توقفت هذه المعجزة، ظلت أطرافها مليئة بالزيت، لكنها توقفت عن الرشح، إلا إذا حكّت بشدة وبناء عليه قرأت في كتب حج قديمة، أن الرهبان اعتادوا، بناء على طلب من الحجاج على حك واحدة من عظام العذراء، وكان الحجاج يأخذون الزيت الذي يرشح من العظم، لكن هذه المعجزة، قد توقفت، إنما قد تبعثها معجزة أخرى، ففي كل سنة، في يوم عيد العذراء يطير إلى هنا بعض الطيور الجميلة جداً، من أنواع غير معروفة، يحمل كل منها في منقاره أغصاناً خضراء من شجر الزيتون، مغطاة بالثمار، وتقف هذه الطيور على سقف الكنيسة، وترمي بالأغصان نحو الأسفل، حيث كان الرهبان يلتقطونهم، ويستخرجون منهم زيتاً طيب الطعم، بكميات وافرة تكفيهم طوال السنة لمائدتهم ولمصاييحهم.

وأخيراً توقفت هذه المعجزة، إما بسبب أن عصر المعجزات قد انقضى، أو لأن المعجزات أسيء استخدامها، أو بسبب عدم جدارة الانسان، وأن الذنوب أعاقَت المعجزات عن الحدوث، ولأن الرب مجهز وسائل أخرى، لأن القاعدة لدى اللاهوتيين، أن الرب لا يعمل معجزات ما لم تكن هناك حاجة خاصة إليها، ففي الأيام الخوالي، عندما عاش الرهبان الذين سكنوا هنا بفقر وشقاء، أمدهم الرب بشكل إعجازي، لأنهم وضعوا جميع آمالهم فيه واعتمدوا عليه، كما قال المزمور: «ألقوا أثقالمهم على الرب، وهو سوف يطعمهم» وقال أيضاً: «المسكين صرخ والرب استمعه» (المزمور: ٣٤/٦)، غير أنهم مع مرور

الوقت أخذوا يخافون من الفقر، فصاروا يعملون زاداً لأنفسهم، ويطلبون الصدقات، ويشتررون الموارد، ويحصلون على خفارات، ويزرعون بساتين من حول الدير مع بذل جهود كبيرة، ويرعون زراعة أشجار الزيتون في الأماكن الصحراوية، وعندما غدت هذه الأشجار قائمة، لم تعد هناك حاجة مطلقة لأية معجزات.

ومثل هذا كان قد حدث مع بني اسرائيل، فهم عندما كانوا يعيشون في الصحراء عاشوا على المن اللذيذ، إنما عندما حصلوا على ثمار الأرض المقدسة للأكل، توقفت معجزة المن (يشوع: ١٢/٥) كما أنه لم تعد هناك حاجة لعصر المعجزات، حيث لم تعد هناك حاجة للزيت ليتدفق من أجل معالجة المرضى، أو للبرهنة على قداسة العذراء، ولذلك فإن المعجزات قد توقفت هنا وعند أضرحة القديسين الآخرين، ولم تعد تصنع، هذا وإن عظام العذراء المقدسة كما يبدو مليئة بالزيت، وعندما يُضغَط عليها ترشح زيتاً، كما هو واضح، ولذلك ينبغي أن لا يظن انسان بأن معجزات القديسة كاترين قد توقفت كلياً، مع أنهم لم يعودوا يُصنعون إلى جانب ضريح العذراء المباركة، لأننا غالباً مانشاهد معجزات كبيرة تُعمل من قبل القديسين في أماكن ليست فيها أجسادهم ولا قبورهم، فمعجزات عظيمة صنعت في هذه الأيام من قبل القديسة كاترين في أماكن كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، في دير للراهبات القانونيات النظاميات في روانورث Reuenorth ، في أبرشيته كولون، وهو مكان تحدث فيه معجزات لم يسمع بمثلهما، فقد قيل بأن الزيت، والحليب، والبلسم، والمن، يتدفق من قطعة صغيرة من عظام القديسة كاترين، وأشياء أخرى مذهشة قد قيل بأنها حدثت هناك، وذلك استناداً لشهادات شهود موثوقين، وجاء في حكاية « حياة القديس هيلاريون » بأنه مامن معجزة قد صنعت في ذلك المكان الذي يرقد فيه جسده في سورية، بل صنعت معجزات جبارة في إحدى الحدائق

الصغيرة في قبرص، حيث سكن في أيام حياته، وكذلك الأمر مع القديسة كاترين.

والذي بقي علينا الآن أن نرى كيف تم العثور على جسد القديسة كاترين وكيف أنه أحضر إلى هنا، فعندما صدر الحكم الجائر للامبراطور مكسينتوس Maxentius في الاسكندرية، جرى قطع رأس العذراء الفضيلة بعد كثير من العذاب، ووقتها اختفى جسدها بشكل مفاجئ، وعندما اجتمع المؤمنون مع بعضهم، حتى يقوموا بنقل الجسد ودفنه، لم يتمكنوا من العثور على شيء، ولم يعرفوا إلى أين ذهب، ذلك أن الكائنات غير المرئية التي ترعى القديسين، وهم الملائكة المباركون، قد حملوها في اللحظة التي قد فارقت فيها الحياة، ونقلوها خلال الهواء إلى قمة جبل سيناء، إلى المكان الذي تقدم وتحدثنا عنه، وافترض أهل الاسكندرية بأن جسدها وروحها قد حملا معاً إلى السماء، وبقي جسدها المقدس ممدداً هناك لمدة ثلاثمائة سنة، وفي أثناء تلك المدة تلقت العربية كلها ومصر عقيدة المسيح، وعندما حدث وامتلأت القفار كلها برهبان مقدسين، جرى بناء دير في سفح جبل سيناء تشريفاً للعذراء مريم المجيدة جداً، وذلك في عليقة موسى (المشتعلة)، وقد كان هناك نوعان من الرهبان الذين سكنوا في القفار، فقد كان هناك رهبان مقيمين، سكنوا مع بعضهم في ديرة، وعبدوا الرب في ظل نظام، وكان النظام الذي أعطي لحياتهم قد قدمه إلى القديس باخوميوس Pachomius ملاك، وهو مكتوب على ألواح من النحاس، وذلك كما ورد في Spec-ulum Historiale — الكتاب الثامن عشر، الفصل السابع.

وكان النوع الآخر منهم من النساك، الذين عاشوا حياة عزلة، ورفضوا الحديث مع بني البشر، وتجولوا حول قلب القفار وسكنوا في كهوف في الأرض، وكان هناك بشكل خاص في قفار سيناء كثيراً من الرهبان الأتقياء من النوعين، وكان في الدير القائم تحت جبل حوريب،

راعياً للدير رجلاً جيداً، كان غالباً مافكر بالذهاب مع رهبانه للبحث عن القديسين في القفار، لكن دوماً منع من القيام بذلك، لكنه تلقى في إحدى الليالي أمراً في المنام للانطلاق في الغد مع رهبانه، حيث سيكتشف كنزاً سوف يشتهيه الشرقيون والغريون سواء، وفي الغد استدعى جميع رهبانه، وأخبرهم بما تعهد به، وجعل قلوبهم تتحرق برغبة عارمة للعثور على ذلك الكنز، وانطلقوا جميعاً من الدير بحثاً عن الكنز وتحولوا في القفار، غير عارفين إلى أين يذهبون، لكنهم كانوا متشوقين وكلهم رغبة، وفتشوا بفضول وبحوثا بين شعاب الصخور، وكهوف التلال، وتجولوا فوق الصخور الوعرة، وفتشوا بكل دقة الجبال، والوديان، ومجاري السيول، وفيما هم يفعلون ذلك اقتادهم الرب إلى كهف تحت صخرة عالية، حيث وجدوا راهباً قديماً، لم يكونوا قد رأوا وجهه من قبل، وقد سأل الرهبان عما يريدون، وعن الذي عنه يبحثون، وقد أجابوه: «لقد قدمنا بناء على أوامر من الرب بحثاً عن كنز يشتهيه الشرقيون والغريون»، ورد عليهم الرجل العجوز قائلاً: «وأنا أيضاً غالباً ما أمرت بفعل الشيء نفسه، لكنني كنت أخشى من غواية العدو، وقد أجلت فعل ذلك حتى الآن، إنما الآن سوف أذهب معكم من دون خوف للبحث عنه»، وسأله الرهبان: «وأين تعتقد علينا أن نبحث؟ فأجابهم «فوق، على قمة هذا الجبل المرتفع، حيث غالباً مارأيت ضوءاً مشعاً واضحاً، وأنا لأشك أن شيئاً مقدساً ماخفياً هناك، لكن كما ترون ذلك المكان مرتفع، ومن الصعب الوصول إليه بسبب علوه، ثم إنني لم أمتلك الشجاعة قط للتسلق إلى هناك، كما أنني لم أتجرأ في البحث وحدي في مجد الرب الذي أشع من هذا الجبل، لكن دعونا الآن، نصعد معاً ونبحث هناك»، وكان ذلك جبل القديسة كاترين، الذي لم يصعد إليه انسان قبل هذا الوقت، وهكذا ذهبوا مع بعضهم وبعد بذل كثير من الجهد، والتعرض لكثير من المخاطر وصلوا إلى القمة، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا الجسد الكامل للعدراء،

موضوع بشكل اعجازي في لحد من الصخر، وكان هذا اللحد مليئاً بالزيت، ولم يشكوا بأن هذا كان هو الكنز، الذي وعدوا به، غير أنهم جميعاً لم يعرفوا إلى من عاد الجسد، ولا إلى أية قداسة، ولذلك انكبوا بأنفسهم نحو الأرض حول الجسد، والتمسوا من الرب أن يمن عليهم بفضله فيبين لهم اسم تلك القديسة وفضائلها، وأثناء صلاتهم، فجأة ظهر أمامهم ناسك مسن آخر، ووقف فوق الصخور، وقال: «اعلموا أيها الإخوة، بأن الرب قد أرسلني إليكم لأبين لكم: اسم، وحياة، وفضائل، ومجد هذه العذراء العظيمة القداسة»، وشرع بعد هذا يخبرهم عن أصلها، واسمها، وأسرتها، وعن تحولها إلى المسيحية، وعن آلامها، ومكان آلامها، وعن اسم قاضيتها، وعن الزمان الذي وقعت فيه هذه الأحداث، وعن موتها، وعن النقل الاعجازي لجسدها إلى هذا المكان، وعن الحراسة المتواصلة والحفظ لها من قبل الملائكة حتى ذلك اليوم، ثم أمرهم ذلك الراهب بأخذ جسدها من هناك، وبحمله إلى دير القديسة مريم عند العليقة، لأنه ينبغي أن يقدم الناس من أقصى أطراف الأرض لزيارة هذه الآثار المقدسة، وعندما فرغ الراهب من كلامه هذا، قبل العظام المقدسة، ثم انزل فجأة مغادراً فوق الصخور، وركض نازلاً من الجبل، وعاد إلى كهفه، وهو مكان مامن إنسان عرفه، ولم يشاهد ثانية من قبل أي مخلوق.

وتولى الرهبان نقل جسد القديسة كاترين مع احترام عظيم، وحملوه إلى كنيسة القديسة مريم عند العليقة، حيث وضعوه في تابوت رخامي، كما هو مشاهد حتى هذا اليوم، وصار مطلوباً من جميع المسيحيين المؤمنين الموزعين في طول الأرض وعرضها، مقابل المخاطرة بحياتهم، ومع أعظم الجهود المبذولة والمتاعب والنفقات، ولذلك أمر واحد من البابوات بشكل خاص بتحريم القيام بهذا الحج، مع فرض عقوبة الطرد من الكنيسة، وذلك بسبب مصاعب الرحلة، والمخاطر المحيطة بها،

وجرى تحريم الحج إلى القدس بسبب المسلمين، وفي الحقيقة إن هذا الحج هو عطلة، ورحلة ممتعة مقارنة بهذه الرحلة.

وعندما فرغنا من أعمالنا عند ضريح القديسة كاترين، سرنا في مسيرة خارجين من السدة إلى بيعة القديس يوحنا المعمدان، حيث هناك كثيراً من الآثار، وغفرانات عظيمة، وهنا صلينا إلى القديس يوحنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وعندما انتهت صلواتنا في تلك البيعة، جلسنا جميعاً بناء على أمر حافظ الذخائر، ودخلنا حفاة إلى بيعة أخرى ملاصقة لتلك البيعة، ولقد مررنا من خلال باب صغير، قائم عند رأس الكنيسة الكبيرة، وكانت أرض هذه البيعة مغطاة بسجاد ثمين جداً، أما الجدران فكانت مغطاة بألواح من الرخام المصقول الثمين، وكانت البيعة منارة بكثير من المصابيح، وكان كل شيء في هذه البيعة جميل، مزين، وتقي، فهنا هو المكان الذي قامت فيه معجزة عليقة موسى، التي رآها تحترق، واللهب يتصاعد عالياً منها، ومع ذلك لم تتضرر بأي نار، ذلك كما قرأنا في سفر الخروج: ٣، وأكثر إعجازية من هذا كان تحقق هذه الرؤيا، أي عندما اشتعلت مريم، التي هي العليقة الدائمة الاخضرار، والدائمة الازدهار، والرائحة الطيبة، وحملت بوساطة النار الربانية، في حين لم تتعرض عذريتها لأي أذى، وحول هذه العليقة المقدسة تغني الكنيسة Rubum quem viderat moyses incombustum، الخ، وقد غنينا هذه التريمة هناك، وانكبنا بأنفسنا نحو الأرض حيث وقفت العليقة، وقبلناها بخشوع فائق، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وتحت المذبح الموضع الذي من المعتقد أن العليقة وقفت عليه، ويوجد في الأرض لوح نحاسي، حفرت عليه صورة العليقة المشتعلة، وموسى جالس، وهو يخلع نعليه.

وكثير من المصابيح هي معلقة فوق الموضع، لأنه موضع احترام عظيم من قبل جميع الناس، ويتوسل مسلمون، وبداءة عرب، وأتراك،

بإخلاص حتى يسمح لهم بالدخول إلى هذا المكان، وعندما يُسمح لهم لا يدخلون إليه إلاّ وهم حفاة، ويكون اليهود في غاية السرور للدخول إليه، لكن لا يُسمح لهم بذلك، ويعدّ هذا المكان مقدساً بشكل خاص من قبل جميع المسيحيين، من كل من الشرقيين والغربيين، لكن الشرقيين قد قاموا بحرماننا نحن الغربيين من ممارسة الصلوات وعمل القداسات فيه، وهم لا يسمحون لنا بالدخول إلى ذلك المكان لتلاوة قداس، على أساس أن المذبح في البيعة هو ملك للاغريق، الذين لا يسمحون لنا، بأي حال من الأحوال، بإقامة قداسات على مذبحهم، وذكرت هذه العليقة من قبل الرب (مرقص: ١٢)، وقد ظهر الرب إلى موسى في العليقة، خشية أن يعمل اليهود لأنفسهم وثناً، حسباً ورد إلينا الخبر في التعليقات على الخروج: ٣، وكانت هذه العليقة من أكثف أنواع العليق، أو شجرة شوكية مع ثمار توت حمراء اسمها Hagdorn.

وعندما فرغنا من بيعة العليقة، عبرنا إلى بيعة أخرى، مكرسة إلى القديس جيمس، فيها تلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات (+)، وذهبنا من تلك البيعة إلى بيعة القديس أنتفيتوس Antiphitus، حيث تعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات (+)، ودخلنا بعد هذا بيعة القديسة هيرينا Hyrina العذراء، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات (+)، وغادرنا تلك البيعة، ودخلنا إلى بيعة العذراء مريم المجيدة، التي دعونا إليها بخشوع، وحصلنا على غفرانات (+)، وعبرنا من هذه البيعة إلى صحن الكنيسة، وفي هذه الكنيسة اثني عشر عموداً عليهم رست المنشأة كلها، حيث هناك ستة من الجانب الأول، وستة من الجانب الآخر، وطولانيا قد بنيت وفق نموذج كنائسنا، ويوجد في هذه الأعمدة كثيراً من الآثار المقدسة محفوظة، ومعلق على كل عامود صورة رسم عليها القديس الذي تعود إليه الآثار التي يحتوي عليها العامود، ويجري الاحتفال بأيام أعياد هؤلاء القديسين في مواسمهم، لأن الاغريق لديهم ترتيب

للتقويم، فيه في كل شهر من أشهر السنة يوم واحد للاحتفال بعيد القديسين الذين آثارهم موجودة في الأعمدة في وقت واحد، أي على سبيل المثال، يأخذون في شهر كانون الثاني العمود الأول، مع كثير من القديسين، يجري الاحتفال بأعيادهم جميعاً في يوم واحد من ذلك الشهر، ولا يقتصر الاحتفال على القديسين الذين صورهم مرسومة ومعلقة على ذلك العمود، أو الذين آثارهم محفوظة فيه، بل يشمل الاحتفال جميع القديسين الذين وقعت أيام وفياتهم أو ولادتهم في ذلك اليوم، وعلى هذا المنوال فإن العمود الثاني مخصص لشهر شباط، والعمود الثالث لشهر آذار، وهكذا دواليك، هذا ولكل عمود غفرانات خاصة متعلقة به، أسرعنا للحصول عليها.

وذهبنا إلى عمود كانون الثاني، وجثونا من حوله، وتوجهنا بالدعاء إلى القديسين الموجودة آثارهم فيه، وقدمنا أيضاً التشریف إلى قديسينا الذين دونت أسماؤهم في التقويم الثاني (لشهر كانون الثاني)، وحصلنا على غفرانات لمدة سبع سنوات (+)، ثم إننا نهضنا، وذهبنا إلى عمود شهر شباط حيث تلونا صلواتنا، حسبما تقدم، وحصلنا على غفرانات (+)، وذهبنا بعد ذلك إلى عمود شهر آذار، حيث صلينا بخشوع، وحصلنا على غفرانات (+)، وجثونا بعد هذا حول عمود شهر نيسان، ودعونا إلى أسماء القديسين، وحصلنا على غفرانات (+)، ومضينا من ذلك العمود إلى عمود شهر أيار، حيث جثونا للصلاة، وحصلنا على غفرانات (+) ونهضنا من هناك، وذهبنا إلى عمود شهر حزيران، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات (+)، وكان هذا العمود هو الأخير على الجانب الأيمن، وبعد هذا سرنا عبر وسط الكنيسة إلى آخر الأعمدة، وهو عمود شهر تموز، الذي صلينا إلى جانبه لبعض الوقت، وحصلنا على غفرانات (+)، ومن هناك ذهبنا إلى عمود شهر آب، الذي من حوله توسلنا إلى القديسين للحصول على غفرانات (+)، وكنا نأمل

بأننا قد أصغي إلينا، ومن هناك ذهبنا إلى عمود شهر تشرين الأول، حيث جثونا ودعونا جميع القديسين حتى يصلوا من أجلنا، وحصلنا على غفرانات(+)، ثم نهضنا، ومن هناك توجهنا إلى عمود شهر تشرين الثاني، حيث تولينا الصلاة للحصول على غفرانات(+)، ومن هناك ذهبنا إلى رأس الأعمدة وآخرها، الذي هو عمود شهر كانون الأول، وتعبدنا قديسي شهر كانون الأول، وتابعنا سيرنا من هناك، فخرجنا من(صحن) الكنيسة، إلى سدة الرهبان، حيث تمددنا بأنفسنا أمام المذبح العالي، وتوصلنا للحصول على الرحمة الربانية، ولتلقى الغفرانات(+)، ومذبح السدة مكرس للامبراطور قسطنطين الكبير، ولأمه الامبراطورة هيلانة التي يتعبدها الاغريق مع الاحترام الأعظم.

وقد منحت الغفرانات المتقدمة الذكر إلى هذه الكنيسة، والبيع من قبل البابا، بناء على طلب من الاغريق أو من قبل بطريق الاسكندرية، الذي يسكن بالعادة في روما.

وأخيراً عدنا إلى ضريح القديسة كاترين، العذراء المجيدة، حيث قبلنا التابوت المقدس، وقمنا بإنهاء مسيرتنا، وينبغي أن يُلاحظ، أننا زرنا الأماكن المتقدمة الذكر للغفرانات، ليس فقط في ذلك اليوم، بل في كل يوم، والذي كان في ذلك اليوم هو مسيرتنا المهيبة.

وبعدما أنهينا مسيرتنا، مضينا إلى أماكن إقامتنا، وطبخنا طعامنا من أجل الغداء، وجلسنا باكراً للغداء، لأننا جميعاً كنا قد تناولنا قربان عشاء الرب، وفي أثناء جلوسنا إلى المائدة، جاء اثنان من رهبان الدير، جرى ارسالهما من قبل راعي الدير، مع هدية لنا، فقد حملاً طبقاً مغطى فيه أرغفة من الخبز المبروم المصنع بالتوابل، مثل الحلويات بالعسل، أو الخبز بالزنجبيل، وذلك مع تمر وتين، وعنب، وزبيب، ولست أدري من أين حصلوا عليهم، إنما قدموهم لنا بلطف، وتسلمناهم باحترام، وأعطينا بعض المندوسات إلى الحاملين، وأرسلنا بعد الغداء خلف كاليينوس

ورجونه عدم التأخر أكثر، وأن يتولى قيادتنا على طريقنا إلى مصر، وذلك تطبيقاً لشروط عقدنا، وعلى هذا أجاب كاليوس، أنه على استعداد للانطلاق في أية لحظة نريد، غير أنه قال بشكل خاص: «إنني أخشى أننا لن نكون قادرين على مغادرة هذا المكان بسلام، لأن الدير مليء بالبداة العرب، الذين جاءوا من أجلنا».

وصف دير القديسة كاترين، وتأسيسه، والكنائس الثلاث القائمة هناك، وأشياء كثيرة أخرى

يفضل الآباء المقدسون الذين سكنوا في القفار قفر جبل سيناء هذا على جميع الأماكن الأخرى. وموضع العليقة حيث ظهر الرب إلى موسى، وقد ترددوا على زيارة هذا المكان، وتعبدوه على أنه بقعة ذات قداسة عظيمة جداً، وموقع موائم لأعلى التأملات، وامتلك بعض الرجال القدماء أيضاً قلايات هناك، وفي أيام حكم الامبراطور جستنيان في سنة ٥٢٨ لتجسيد ربنا، تحرك هذا الامبراطور نفسه بتوسلات رجال مقدسين من أجل تأسيس كنيسة ودير، فوق مكان العليقة، تشريفاً للعدراء مريم المباركة، وقد أطلق على هذه الكنيسة اسم كنيسة القديسة مريم في العليقة، وهي تعرف بالشرق حتى هذا اليوم بهذا الاسم، لكننا، سميناهنا منذ نقل القديسة كاترين إلى هناك باسم كنيسة ودير القديسة كاترين.

والسور المحيط بالدير ضخم، لأنه سميك ومرتفع، مع شرافات، وأبراج ناتئة، وله ممر حوله كله بالأعلى، وقد بني من حجارة منحوتة مربعة، وهو محصن بشكل ممتاز في الجزء القريب من المدخل ومن البوابة، حيث يمكنه أن يصمد لوقت طويل ضد أي واحد يحاول اقتحامه، وإحداث عيث، كما ربما قد يفعل بعضهم، لأنني لاحظت أن السور قد تحطم في بعض الأماكن بشكل واسع وأعيدت عمارته.

ويوجد في داخل اطار السور ثلاث كنائس، الكنيسة الأولى منهن
اغريقية، والثانية لاتينية، والثالثة (مسجد) اسلامي، والكنيسة الأولى
والرئيسية بين هذه الكنائس هي كنيسة القديسة مريم في العليقة، حيث
يستريح جسد القديسة كاترين، وهي في حفظ رهبان يتبعون الطقوس
الاغريقية، وهذه كنيسة مستطيلة واسعة مسقوفة بالرصاص، من دون
قبة أو برج، وأيضاً من دون نواقيس أو ألواح قرع خشبية، وعوضاً عن
ذلك لديهم أداة أخرى بوساطتها يدعون المؤمنين للاجتماع من أجل
الصلوات الدينية، فهناك عصا من الحديد معلقة من مكان مرتفع، وقد
تعلق عليها أجراس برونزية لها أصوات عميقة، ويقرّع حافظ الذخائر
على هذه الأجراس بمطارق، بترتيب خاص ومعياري، فيصدر عن ذلك
موسيقى جميلة جداً، إلى حد أنه يمكن للانسان أن يرقص على الصوت
الصادر عن الأجراس، لأن التلحين جيد جداً، وهو لحن بهيج، هذا
ولقد أطلق عليهم بشكل موائم جداً اسم الأجراس الصغيرة، لأنه في
القديم قبل استخدام الأجراس الكبيرة، كان يجري دعوة الناس إلى
الصلوات بوساطة الأجراس الصغيرة، وداخل الكنيسة جيد التزيين،
وهي مقسمة إلى كثير من البيع، وفيها معلق الكثير من المصابيح، وذلك
إلى جانب مصابيح القديسة كاترين، والمذابح، والأعمدة الاثني عشر،
وكان أمام مقعد كل راهب مصباح مضاء، وتتصل هذه الكنيسة عند
رأسها بكنيسة العليقة، التي تقدم ذكرها.

والكنيسة الثانية هي الكنيسة اللاتينية، إلى جانب قلايات الحجاج،
وهي ضيقة، عبارة عن قاعة مستطيلة، مع مذبح جيد التزيين، مكرس
للقديسة كاترين، وجدران هذه الكنيسة من الطين، غير أنهم مستورين
بحصر من ألوان متنوعة، وقد جرى تصنيعهم وتزيينهم بسعف النخيل،
وجرى تعليق كثيراً من الأوراق على هذه الحصر، كتب عليها صلوات
جميلة موجهة إلى القديسة كاترين، وجرت كتابتها من قبل حجاج، لأنه

قد جرت العادة أن تقوم كل جماعة من الحجاج بكتابة أشعار حول القديسة كاترين، وتعليقها على الجدار، وفي هذه الأشعار لا بد من مدح كاترين المباركة، وذكر اسم كل واحد من جماعة الحجاج، ويكون هذا إذا توفر واحد بين الجماعة يمكنه أن ينظم الشعر، وكان في الفئة الثالثة من جماعتنا من الحجاج المعلم المبجل جسون لاسينوس Lacinus (كذا) وكان رئيس شمامسة سيبين كريشين Sieben kirchen (في ترانسلفانيا)، كما أنه كان خطيباً متعلماً، وقد كتب مباشرة من دون تحضير، الأبيات الشعرية التالية من أجل رفاقه:

تسلمي تاجك، الذي هو جائزة حياتك العذرية،

أتوسل إليك ياكاترين الشهيدة المجيدة،

تقبلي التعب الذي من أجلك تحملناه،

باركيناء، مع أننا قد نكون اليوم، غير جديرين.

من مدينة جوليا القائمة قرب الدانوب،

كان جون اللاوي أول من انحنى أمام عرشك،

ثم تلاه فيلكس، المجيد من أرض أولم،

المتعلم بشكل مزدوج، وللب الرب أعطى كل تراثه،

وهنري أوف سكومبيرغ، وكاسبر أيضاً، اثنان،

مثل نيسوس ويوريالوس في التقوى.

ولورد أوف مارسباخ من فرانكونيا العادل،

ويطرس فلسخ أوف أرجنتاين القوي،

جميع هؤلاء إلى معبدك قد جاءوا،

وهم جميعاً عائدون إلى وطنهم،
وهم يرجونك أنهم فوق الأرض والبحر الذي بلا حدود،
علمهم جميعاً يرتحلون عائدين بسلام.
وقد بدأ يكتب أشعاراً للفتيتين المتبقيتين، لكنه لم يجد الوقت لانتهاء
ذلك بسبب مغادرتنا المباشرة.

وباخلاص رجوت الرجل المتعلم المتقدم ذكره لابدال كلمة «مجيد»
من أبيات شعره، لأنها بدت لي أنها لاتوائمني، وأن يقول ماهو صحيح،
غير أنني لم أستطع اقناعه لأن يفعل ذلك، وقال: «إذا كانت غير
صحيحة من جانب أول، إنها سوف تكون صحيحة من جانب آخر،
والذي قد كتبه قد كتبه».

والكنيسة الثالثة، التي لاتستحق أن تدعى كنيسة، هي مسجد
للمسلمين، وهي بناء واسع مربع، مع منارة طويلة ملتصقة به، من
عليها ينادون بمديح محمد ﷺ وفق طريقتهم، وهذا المسجد قائم بين
الكنيستين الاغريقية واللاتينية، وذلك في الوسط وكأنه المكان الرئيس
بين الثلاثة، ودخلنا إلى هذا البيت أيضاً، عندما لم يكن البداة العرب
هناك، فلم نجد هناك لامتعة ولاتدين، ولاغفرانات، بل بيت فارغ مع
جدران مطلية بالبياض، ولم نجد هناك مذبحاً، لأنهم يدخلون إليه فقط
للقيام بشعائر لامعنى لها، ومكاتب الدير الأخرى صغيرة وتعيسة،
والقلايات صغيرة جداً، وهي مصنوعة من قصب منسوج بالطين،
وتستند واحدة على أخرى من دون نظام متبع، وهي مجرد غرف
صغيرة، مثل أكواخ الرعيان، أو بيوت الأدوات في الحدائق.

والدير مبني جزئياً على سفح جبل حوريب، وتستند القلايات العليا
على القلايات الدنيا، وهي ملتصقة احداها على الأخرى مثل عش
الدبابير، وعندما شاهدتهم تذكرت تاكسوس Taxeus ابن كولوس

Colus، الذي عنه حدثنا بليني في كتابه حول «التاريخ الطبيعي»، بأنه كان أول من اخترع البيوت الطينية، حيث أخذ أعشاش الدبابير نموذجاً له، لأن المهندسين في تلك الأيام لم يكونوا قد بنوا القصور بعد، وقد مارس هذه الطريقة المتواضعة في البناء الآباء المسيحيون المشهورون والعظيمون للأيام الخوالي، لأنه بالفعل سكن روملوس، مؤسس مدينة روما، في بيت ريفي صغير، وسكن ابراهيم، الذي كان رجلاً غنياً جداً، في خيمة في أرض الميعاد، كما ورد الخبر في حقوق: ٩/١١، وهناك زاره الملائكة (التكوين: ١٨/١).

ودوما تمدد الفيلسوف ديوجينيس Diogenes في إنبوب، واعتاد التنقل هناك حسبما كان يرضيه، وفقاً لاتجاه هبوب الريح، وحكى أوفيد أن الشخصين القديمين فايلمون Philemon وبوسيس Baucis كان لديهما بيت ريفي مصنوع من الخوص، وقد زاره الربانان جوبتير وميركوري عندما كانا يتجولان فوق الأرض معاً، وبعد ذلك كان الربان ممتنان لحسن الضيافة التي لقيها، وأمرأ ببناء هيكل كبير على تلك البقعة، وجعلا منهما كاهناً وكاهنة للطقوس المقدسة هناك، وبعد موتها جعلاً معاً ريين، علاوة على ذلك قضى ربنا يسوع بأن يولد في اسطبل نزل، ولم يمتلك قط بيتاً خاصاً به، وكان أيضاً القديس بولص، وهو أول النساك، قد سأل القديس أنطوني، عما إذا كان المسيحيون قد شرعوا ببناء بيوت عالية مثل الكفار، وعندما سمع بأنهم فعلوا ذلك، وقع يبكي بمرارة بسبب حماقتهم، ومثل هذا فعل القديس برنارد عندما شاهد أكواخ الرعيان المصنوعة من القصب، فبكى لدى تذكره أن الرهبان السسترشيان قد سكنوا فيما مضى بمثل هذه الأكواخ، وهم الذين كانوا قد شرعوا آنذاك في الإقامة في أبنية عظيمة.

وعندما عاد القديس دومنيك من بولونا Bologna، بعدما كان غائباً لوقت طويل، وجد مهجعاً وقلايات قد ارتفعت فوق الأرض، التي

ارتاحوا عليها من قبل، وعندما شاهد هذا حزن حزنًا عظيمًا وقال: «يا إخوتي إذا كنتم قد بنيتُمْ أماكن وأنا ما زال حيًّا، مالذي سوف تعملونه بعدما أكون ميتًا؟ وأمرهم بهدم كل مارفعوه، وبإعادة الأبنية إلى أماكنها عليه من قبل، وكان لدى الأسقف العظيم القديس مارتن قلالية خشبية قرب كنيسته، وقد قرأنا عن واحد من النساء الذي امتلك قلالية عملت على شكل قبر، ولذلك عندما سأله الامبراطور عن المساحة التي استخدمها في بناء قلايته، أجابه: «جسدي شخصيًا، ذلك أن هذا المكان كافياً لي كييت مادمت حيًّا، وكقبر عندما أكون ميتًا»، وأضاف بأنه من الأفضل القفز إلى السماء من كوخ من أن نقفز إلى جهنم من قصر، ومثل هذا قال القديس برنارد: «إخواني، في حجبنا خلال هذا العالم، وفي منافعنا هنا، دعونا لانبني بيوتًا على الأرض للسكنى فيها، بل خيمًا لنزحف منها، مثل أناس سوف يستدعون حالاً لمغادرتهم للشروع برحلتنا إلى الوطن»، ولقد حكى بأن فولكان حداد جوبتير كان أول من أبدع الأبنية الفخمة.

رهبان دير القديسة كاترين وعاداتهم الشريرة وآثامهم الشديدة

إنهامسألة جادة بالنسبة للانسان الحريص على تحرير نفسه من كل ذنب أن يقوم بلوم شرور الآخرين، وطالما أنني الآن مقبل على الحديث عن رهبان دير القديسة كاترين، أنا مجبر بالصدق على توجيه اللوم لهم بدلاً من مدحهم، لكن ليس بتوجيه النقد إلى حياتهم الخاصة، واحتوي هذا الدير فيما مضى كثيراً من الرهبان مع الذين كانوا مقدسين جداً، والذين فيه الآن مجرد قلة، وهؤلاء عميان نحو الحقيقة، وقبل مضي سنوات قليلة كان هناك حوالي المائة، والذين وجدوا مؤخرًا كانوا ثمانين، لكن الآن ليس هناك فيه ثلاثين راهبًا، وهؤلاء الرهبان عادات تستحق الثناء، ولكن بعضها ممقوت، وأنا أثني عليهم لأنهم يأخذون بنظام محدد هو نظام القديس باسيل، ففي ظل قيادته يمارسون حياة قاسية بها فيه

الكفاية تجاه الاقلال من الأطعمة والملابس الخشنة، وطعامهم مثل طعام جميع الشرقيين، هو قليل وشرابهم اليومي هو الماء، باستثناء في بعض أيام أعيادهم العالية جداً، فوقتها يعطى لكل راهب شربة من خمرة، وثيابهم خشنة ووضيعة، وهذه الثياب هي قمصان لها ألوان متنوعة، فراهب يرتدي قميصاً من نوع، وراهب آخر قميصه من نوع مختلف، ومع ذلك مامن واحد من القمصان لونه براق أو من قماش جيد، وهذه القمصان طويلة، تشبه غفارة كاهن، وهم يتمنطقون بحزام عريض، وهم ليس لديهم أوشحة كتفية، بل طواقي رأسية هي ليست مغلقة حول أعناقهم ورقابهم، بل تتدلى نازلة من رؤوسهم حتى ظهورهم، ويوجد أمام الصدغين قطعتين تتلديان من القبعة، وهما تغطيان الجزء الأمامي من الكتفين، وتنزل حتى الحقوين، وهم جميعاً يدعون شعورهم ولحاهم تطول كثيراً، ويلتزمون بطرائق النصارى، حيث لا يأكلون اللحوم مطلقاً، ولا يستخدمون الخمرة كما تقدم القول.

وكثير منهم شيوخ تقدمت بهم السنون، وقورين، ورجال جدّ، وهم يستقبلون أي واحد يأتي إليهم، مهما كانت طائفته، وذلك باستثناء اليعاقبة والأرمن، شريطة أن يخضع نفسه عن طوعية لأحكامهم، سواء أكان لاتينياً، أو اغريقياً، أو ألمانياً، أو مصرياً، وكان من المعتاد قبل أيامنا عمل معجزات فيما بينهم، بسبب قداستهم، ومامن واحد كان يجري اختياره راعياً، بعد موت الذي كان قبله، مالم يأتي تعيينه بوساطة معجزة ماء، مثل اضءاء مصباحه الذي في قلايته بشعلة من السماء، أو بوساطة رؤيا ماء، أو هاتف صوتي.

وأبنيتهم، كما أخبرتكم ليست محط اعجاب، ولا عالية النفقات، وقد تمددت في قلاية واحد من الآباء المتقدمين بالسن، فلم أجد فيها شيئاً سوى علائم الفقر الشديد، ومامن امرأة تدخل إليهم، ولا حتى النساء الحاجات من مناطق ماوراء البحر، لأنهن إذا ماقدمن إلى هناك، يعرف

الرهبان الملاحظة الساخرة المرة:

« إلى المكان الذي تقطن فيه النساء،

يقول السلام والهدوء وداعاً،

لا يمكنها معاً قط استنباط،

طريقة للازدهار تحت سقف واحد،

والذي يعيش حياة مفردة،

هو وحده الذي يعيش من دون صراع»

هذا من دون الحديث عن المخاوف الأخرى التي لا تحصي والتي يواجهها الرهبان بالسكنى مع النساء، ولهذا المصاعب عليهم جميعاً إعطاءها ماتستحقه من ثقل، وأن لا يسمحوا لأية امرأة بالاقتراب منهم.

واعتاد هؤلاء الرهبان في الأيام الخوالي، عندما كانوا مايزالون مطيعين للكرسي الرسولي، على الترحيب بالحجاج بلطف عظيم جداً، وببشاشة، ويؤمنون لهم ما يحتاجون إليه ويعطونهم أحذية، ولهذا السبب أرسل القديس البابا غريغوري — كما قرأنا في حكايته — مبلغاً كبيراً من المساعدات من روما إلى جبل سيناء إلى هؤلاء الرهبان، لأنه في تلك الأيام عملت أعمال كثيرة جيدة في الشرق لصالح كنيسة روما، لكن في هذه الأيام، مألذي يمكنني قوله؟، لو أنني رأيت هؤلاء الإخوة والرهبان، قد أقاموا الموتى، وقرأوا القداسات، واعترفوا بالذنوب، وشغلوا أنفسهم بالأشياء السماوية، وتعاملوا بسلام أحدهم مع الآخر، والتزموا بأحكام نظامهم، وبددوا أجسادهم بالصيام والسهرة، وبالغيرة على الفضيلة، ومارسوا الأعمال التقوية الأخرى، مع هذا كله سأقول بجرأة بأنهم ليس لديهم قداسة، وعلينا أن لانشك أنه لا يوجد بينهم استقامة حقيقية، ولأعمال مقبولة من الرب، ولاتدين يرضي الرب،

لأنهم ليسوا في الكنيسة الكاثوليكية، بل خارجها، فهم كما هو واضح منشقين بالدرجة الأولى، ولاصرارهم على انشقاقهم أصبحوا هراطقة، ولذلك ليسوا في موضع الرعاية، لأن أعطية الروح القدس، التي بها تنصب الرعاية في قلوب الناس، لا تمنح للذين خارج حظيرة الكنيسة، وذلك كما تعلمنا من الشريعة القانونية، والذين هم خارج حظيرة الكنيسة لا يمكنهم الحصول على المعرفة الحقيقية أو الفهم الصحيح للرب، كما تبرهن في الشريعة القانونية، ويتبع هذا أنهم لا يستطيعون الاستفادة من قداس القربان، كما أنهم لا يمكنهم التحرر من الذنب بالاعتراف، لأن لعازر لم يقم من الموت إلا في بيت عنيا، الذي هو بيت الطاعة للكنيسة الرومانية، كما أنه لم يكن بإمكان مرثا العيش حياة فعالة، ولا مريم حياة تأمل إلا في ذلك البيت نفسه، كما أنه لا يمكن أن يكون هناك أي سلام أو فضيلة خارج الكنيسة.

ومن الواضح الآن أن هؤلاء الرهبان محرومون كنسياً، ومنشقون، وهراطقة، لأنهم اغريق، والكنيسة الاغريقية بدون رأس، وبالتالي هي ليست شيئاً، علاوة على ذلك أنهم شرقيون، بالنسبة لهم الشمس الحقيقية قد غابت، ويمكنني أن أبرهن على هذا الشيء نفسه بالتجربة، فنحن عندما نكون مقيمين في مكانهم نظرننا إليهم على أنهم محرومين كنسياً، ولم نشارك في أي من صلواتهم أو طقوسهم التعبدية عندما كنا هناك، لأنهم نظروا إلينا نحن أتباع الكنيسة الرومانية، على أننا محرومين.

وتبرهن هذا الأمر بحقيقة أخرى، هي أنهم لم يمنحونا مذبحاً في كنائسهم لإقامة قداس، وقالوا بأن القانون في كنيستهم هو أنه إذا ما أقام أي لاتيني قداساً على مذبح عائد للاغريق، فإن ذلك المذبح يكون محروماً كنسياً، مدنساً، ويتوجب تكريسه مجدداً من قبل أساقفتهم، وكنا قد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما تقدم، ومن هذا كله تظهر بينهم بعض المعايير لعدم حبهم لنا، ولذلك عندما نسير في بلدهم ونسافر في عبادة

الرب يتعاملون بقسوة معنا، ولا يفعلون شيئاً لنا من باب الاحسان، بل كل ما يفعلونه لنا يفعلونه من أجل المال، وذلك مثلما يفعل المسلمون، وفي الحقيقة يتعامل المسلمون معنا في كثير من الجوانب بإخلاص أكبر مما يفعل هؤلاء المتقدم ذكرهم، وأنا أعرف من الخبرة أنهم لا يرضون بفتح باب كنيستهم لأي حاج مالم يروا ماله في يده ليعطى لهم مقابل فتح الباب، وهم لا يعطون انسانا شربة ماء من دون أخذ للمال مقابلها، كما أننا لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل اقناعهم بتزويدنا بأحذية لفرساننا الخفاة، بل إنهم رفضوا كل شيء، وأما الأشياء التي لم يكن بإمكانهم رفض اعطائنا إياها، فقد أعطونا إياها بنظرات كلها شذر وتأفف، لكن بقضاء الرب الصحيح تبرهن صحيحاً في هذه القضية المثل الذي يقول: «الذي ضن به على الشريف منح إلى المنحطين»، لأنهم بالفعل يضمنون على الحجاج باستقبال مشرق، حيث أنهم لا يلتزمون بوصية القديس بطرس في قوله: «كونوا مضيفين بعضكم بعضاً بلا دمدمة» (بطرس الأولى ٤/٩)، ولم يتصرفوا حسبما قال جيروم: «نحن نرحب بجميع الضيوف بملامح مشرقة ونغسل أقدامهم، مالم يكونوا هراطقة»، ولذلك تراهم بموجب الحكمة الربانية يقومون بدون تدمير بخدمة المسلمين ورعايتهم مع البداة العرب، وقطاع الطرق واللصوص، ويعملون أقل الخدمات إلى الذين هم من آل بيت الإيوان، مع أن الرسول يقول: «فلنعمل الخير للجميع ولا سيما لأهل الإيوان» [غلاطيه: ٦/١٠]، كما أنهم لا يقيمون وزناً في عقولهم ولا يتذكرون الوصية التاسعة لكاتو Cato في قوله: «انظر جيداً نحو أخلاق الرجل الذين أنت معطيهم»، فطالما هم لا يعطون لمن ينبغي الإعطاء، إلى الذي يكون شاكراً للأشياء الصغيرة، هم مرغمون على الاعطاء بكميات وافرة إلى الذين لا يستحقون، أي إلى هؤلاء الناكرين من البداة العرب، الذي لا يبالون بالرب ولا بالانسان، فهم يعطون في كل يوم خبزاً وشيئاً ما ليؤكل مع الخبز لما لا يقل عن ثمانين من عرب الصحراء، أي إلى أولئك

للصوص، الذين غالباً ما يأتي مائة منهم، وأحياناً أكثر، وإذا لم يعطهم الرهبان مباشرة ما طلبوه، ينقضون عليهم وينشرون الفوضى في الدير، علاوة على ذلك هم أغنياء، ولديهم ممتلكات كثيرة، ذلك أن واحداً من رؤساء أساقفة كريت — وكان من محبي القديسة كاترين العذراء — قد منح الدير العشر الأعظم لكل جزيرة كريت، وشطراً من المكوس في تور Tor، إلى جانب منافع أخرى أنا لا أعرفها، وبالإضافة إلى هذا، يجري إرسال صدقات كثيرة إليهم من جميع بلدان العالم المسيحي، وذلك من قبل كثيرين من الذين يعتقدون أنهم ينفقون أموالهم على أعمال جيدة، في حين أنها في الواقع تصرف على شؤون سيئة جداً، لأن الرهبان أنفسهم ينبغي عدم رعايتهم من قبل المؤمنين، على أساس أنهم هراطقة، إليهم لا يجوز بموجب أحكام القانون إعطاء مساعدات أو صدقات، ثم إنهم مما يعطى إليهم يتولون بالفعل رعاية اللصوص من البداية العرب، الذين يتوجب اعدامهم، كما أنهم لا يبنون شيئاً تشريعاً للرب، حتى وإن بنوا كنائس، يتوجب على المؤمنين عدم الاسهام في بناء كنيسة للمنشقين، وهنا من المناسب أن أحدثكم بما وقع لي في السنة الأخيرة:

عندما كنت على المنبر في أولم أعظ الناس في يوم عيد القديس ميكايل، جاء بعد القديس رجل، وقدم إليّ مرسوماً، ورجاني بقراءته للناس بصوت مرتفع في الكنيسة الأبرشية بعد القديس، وكان رسالة طويلة، عليها ختم كبير هو ختم السيد بطريرك الاسكندرية، المقيم في روما، وكان فحواها هو أن كنيسة القديسة كاترين في جبل سيناء بحاجة إلى الترميم، وزادت أن ذلك العمل ينبغي أن يقدم له الناس أيدي المساعدة، وجرى منح الذين يفعلون ذلك غفرانات طيبة، وكان الرجل الذي جلب الرسالة، راهباً اغريقيا مسناً، وقد وقف إلى جانب مذبح الصليب المقدس، وذلك على مقربة من المنبر، أمام وجهي، وقد وضع آثاره المقدسة مع تزيينات، وشموع مضاءة، ووقف إلى جانب

المنبر مستعدا لاستلام المال، وفي ذلك الوقت كان الناس ينظرون إليّ وإليه، وعندما قرأت الرسالة قلت للناس بصريح العبارة: «اعلموا أن الذي يقف هنا هو واحد من رهبان جبل سيناء، وقد جاء من أعظم الأماكن قداسة، حيث كنت أنا هناك، وهو يطلب مالاً من أجل إعادة ترميم كنيسة القديسة كاترين، وهناك وعد بالغفرانات مقدم من قبل بطريك الاسكندرية، إلى الذين سوف يتبرعون، وإنني أستحلفكم بالرب أن لاتعطوا شيئاً إلى هذا الراهب، لأنه كما ترون منشق، وهرطقي، وغير مؤمن، وهو لايجوز السماح له بالدخول إلى كنيستنا، وأن لا يكون حاضراً أثناء صلواتنا، لأنه مرتد.

وثانيا: لاتعطوا مالاً من أجل ترميم كنيسة القديسة كاترين، حتى وإن كانت مهددة بالسقوط، مع أنها غير مهددة بالسقوط، بل هي سليمة تماماً، وسبب هذا وبالأسف تلك الكنيسة ليست كاثوليكية، بل هرطقية، وليس فيها مكان لللاتين التابعين للكنيسة اللاتينية الرومانية، الموجودين في ذلك المكان، كما لا يوجد فيها مكان لإقامة قداس، أو لإقامة الصلوات، لابل حتى عندما نرجوهم، لايسمحون لبقراءة ولا بغناء الصلوات في تلك الكنيسة، لأنهم يعدون الكنيسة الرومانية محرومة. ولذلك دعونا نسمح لها بالانهيار.

وثالثا: إن السيد البطريرك، عندما يقدم الغفرانات من أجل ترميم هذه الكنيسة، هو إما قد أسيء تزويده بالمعلومات، أو أمراً آخر أنا أميل للأخذ به، وهو أن الرسالة مزيفة لأن رهبان ذلك الدير لديهم راعي أو بطريك في الشرق، هم له مطيعون، وهم لايعبأون بالمقيم في روما، الذي لقبه فقط «بطريك الاسكندرية»، علماً بأنه لم ير الاسكندرية قط، كما أنه ربما ليست لديه أية نية، برؤيتها، وليس لديه هناك من يطيع أوامره، ويعرف هؤلاء الرهبان بأن الكنيسة الرومانية تقدم أساقفة حتى إلى الأماكن التي ليس فيها أتباع، ولذلك يفرون من أماكنهم، ويأتون

إلى روما، ويعترفون برجل كأسقف لهم، ويطلبون عونه من أجل منفعتهم، مع أنهم لا يظهرون له أي تشريف، أو يطيعونه من أجل خاطر المسيح، ويعطونه رسائل مزيفة، أو كتبت من دون عناية، من أجل أخذ أموالنا لاستخدامها من قبل الهرطقة.

ورابعاً: إن هذا الراهب الواقف هنا، ويطلب منكم ذهباً وفضة لالشيء، لأنني أعرف بالتجربة بأنه هو نفسه في مكانه لن يفتح واحداً من أبواب كنيسته لنا مقابل لاشيء، ولن يعطينا شربة ماء بارد، ولن يعيرنا Celindrium (؟)، ولن يمنحنا قطعة من الجلد لتصليح أحذيتنا، وأيضاً ولاقطعة من قماش قديم، لابل أكثر من ذلك توجب علينا شراء عصينا منهم، أو أن ندفع لاستئجار عصا، يأخذها كل انسان عندما يتسلق الجبل المقدس، وأنا لم أذكر هذا فيما دونته من قبل، لكن هذا ماوقع بالفعل، فعندما كان الحجاج على وشك الصعود إلى الجبل المقدس، جاء الرهبان مع عصي، إما باعوهم لنا، أو أعارونا إياهم تأجيراً، إنما لم يقدموهم لنا مقابل لاشيء ولا بشكل من الأشكال، وهكذا وقفوا بالاتجاه المعاكس، ودمروا روح كلمات: « بكرم أنت تلقيت، وبكرم أنت أعطيت ».

وعندما فرغت من حديثي على هذه الصورة، وانتهى القداس، تفرق الناس، ولم يعطوا ذلك الراهب شيئاً، لابل أكثر من هذا، لقد أنذر بأن من الأفضل له مغادرة المدينة بأسرع وقت يستطيعه، وذلك قبل أن يجري تفتيشه واستجوابه، وفي الحقيقة إنني أعتقد أنه إذا لم يجمع شيئاً من المال، لن يستطيع قط الوصول إلى جبل سيناء، ولقد سمعت فيما بعد أن ماكسيميليان امبراطور وملك الرومان التقى جداً، وكذلك ملك هنغاريا، اللذان تولى الرسول المتقدم الذكر خدمتهما قد أعطياه مبلغاً كبيراً من المال، لكن ذلك كله كان عبثاً، لأنهما لم يلتزما بالحكمة القائلة: « انظر جيداً واعرف ماهي أخلاق الرجل الذي أنت معطيه »،

وفي الحقيقة هذا المكان مقدس، وثمان لدى المسيحيين، وهذا مايعتقدونه حوله، ولذلك لايطرحون أسئلة حول أخلاق الناس الذين يسكنون هناك، والذين لايعدون شيئاً بين الناس، هذا(٦٢) وإنه بالنسبة للغفرانات الممنوحة من قبل الآباء الرسولين باسم الرب إلى تلك الكنيسة هي ذات تاريخ قديم، وقد منحت عندما كانت الكنيسة مائتال تحت سلطة البابا، وهم مايزالون يتمتعون بسلطانهم حتى هذا اليوم لصالح الحجاج الذين يحصلون عليهم، حتى وإن زاروا المكان من دون اعطاء أي منح وتقديرات هناك، ثم إن الحجاج لايفعلون فعلاً صالحاً عندما يودون الحصول على الغفرانات فيقدمون أعطيات إلى استخدامات الهراطقة.

**مغادرة الحجاج وسفرهم من جبل سيناء، والاضطرابات
والابتزازات والأزعاجات التي عانوا منها قبل أن يتمكنوا من
مغادرة الدير إلى الصحراء ثانية.**

وفي اليوم السابع والعشرين استيقظنا قبل ضوء النهار، وأقمنا قداسات في بيعتنا، بعدها نزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وحصلنا على غفرانات(++) في بيعة العذراء المباركة في العليقة، وعند ضريح القديسة كاترين، وبعدما قبلنا الأماكن المقدسة حصلنا على إذن من القديسة كاترين للعودة إلى أوطاننا، وصعدنا إلى موضعنا وقمنا بالإعدادات لمغادرتنا، وبصعوبة استطعنا اقناع الرهبان بالسماح لنا بتعبئة روايانا من بئر الدير، لأنه كان في الساحة بئر كبير وعميق جداً، مع مياه تجري فيه من القعر، ولم تكن مياه مطر، وهو شيء لم أره في أي جزء من الشرق، إلا هناك، وهم يقولون بأن موسى قد حفر هذا البئر، وأنه بفضل صلواته تدفق الماء فيه لانعاش بني اسرائيل، وكان موسى قد تعلم فن حفر الآبار هذا في مصر، لأن بليني حدثنا في كتابه الأول من « تاريخه الطبيعي » بأن دانوس Danaus ابن بلوس Belus كان أول من قام

بحفر آبار بمصر، وأنه عندما أبحر إلى بلاد الاغريق، عمل هناك الشيء نفسه، ومن هناك انتشرت معرفة هذا الشيء في المناطق الأخرى.

وعندما رأى البداية بأننا نقوم بالاستعداد للمغادرة، أرسل مقدمهم خادماً إلينا، حذرنا بوجوب عدم التفكير بمغادرة المكان الذي كنا فيه، من دون أن ندفع له حقوقه أولاً، وهكذا حدث بعد كثير من المناقشات أن أعطيناه بعض الدوقيات، وأملنا لذلك أننا أصبحنا أحراراً، وانتظرنا الآن قدوم سائقي جمالنا، الذي تأخروا كثيراً عن القدوم إلينا، وأخيراً جاء واحد وقال بأن الجمال كانت في أيدي رجال مسلحين، لن يتركوهم من دون دفع خفارة لهم، وبناء عليه عقدنا اتفاقاً معهم، وحررنا جمالنا منهم مقابل مال، وجاء سائقو الحمير أيضاً وأخبرونا بأن حميرهم محبوسة من قبل المسلمين، وأن علينا أن ندفع إليهم مالاً من أجل تخليصهم، ولذلك ظلت حوافظ نقودنا مفتوحة باستمرار، لأننا كنا مرغمين على الدفع حتى ننجو من هذه الاضطرابات، وفي الوقت نفسه بعث إلينا راعي الدير رسالة يشتكي فيها بأن واحداً منا قطع شظية من تابوت القديسة كاترين، بأداة معدنية، وإذا لم نقم على الفور بإرجاعها عن طواعية، سوف نرغم بالحال على فعل ذلك من قبل البداية العرب، الذي سوف يضع القضية بين أيديهم.

وعندما سمعنا هذا بتنا خائفين خوفاً شديداً، علاوة على ذلك وجدنا التابوت مشوهاً بالحقيقة، لكن مامن واحد منا اعترف بأنه فعل هذا الشيء، ونظر كل واحد منا إلى جاره، ولعن الذي فعل ذلك، ومع أن كل واحد منا رجا الآخر وقال بأن المجرم ينبغي أن لا يخرج من الاعتراف، وينبغي أن يعيد القطعة المكسورة ثانية، وأعلننا جميعاً بأننا سوف نقف إلى جانبه، وسوف ندفع كل ماتوجب عليه دفعه، ومع ذلك مامن أحد اعترف بذلك، وقال كالينوس أخيراً، إن على المجرم أن يعطيه القطعة المكسورة من الحجارة بشكل سري، وهو سوف ينهي

القضية بهدوء ودونها إعلان، وهذا ماكان، وأنا حتى هذا اليوم لم أعرف من الذي كان المجرم من بيننا.

ولقد تحملنا كثيراً الاضطرابات والخزي خلال حجبنا هذا كله، بسبب الرغبة الحمقاء لبعض من جماعتنا بالحصول على قطع مقطوعة من الأماكن المقدسة، وهذا ماكنت قد تحدثت عنه من قبل، وعندما جرت تسوية هذه المشكلة، جاء رهبان الدير والموظفين وسألوا من دون حياء مالا كوداع، أو هدية مغادرة، وهو أيضاً ماأعطيناهم إياه، مع أنهم لم يستحقوا ذلك، ثم جاء راعي الدير بشخصه ذاتياً، وكان رجلاً قد تقدم قليلاً بالسن، وقوياً وعاقلاً، وقد طلب منا اصطحاب أربعة جمال محملة بالفواكه، لترتحل معنا إلى مصر، لأنه في كل سنة، وفي مثل هذا الموسم، يرسل راعي الدير فواكه إلى السلطان، ملك مصر، وتوضع هذه الفواكه في صناديق خشبية، وهي تجمع من قفار سيناء وحوريب، ويقدر السلطان هذه الهدية تقديراً عظيماً، لأن الفواكه قد نمت في تلك البقعة المقدسة، ويقوم بتوزيعها بين أعظم أعيان مصر، الذين يتسلمون تلك الفاكهة على أنها شيء مقدس أرسل إليهم من السماء، ولذلك أخذنا تلك الجمال الأربعة بصحبتنا، ومن أجل وصف للحدائق في القفار، حيث تنمو هذه الفواكه انظر مذكرناه من قبل ص ١٤١.

وأخيراً عندما جرى اعداد كل شيء بسلام، وجرى الدفع إلى جميع الرجال، خشينا من أن يقوم البداية العرب بعد مغادرتنا للدير باللاحاق بنا وإنزال الأذى بنا في القفار، لذلك توجهنا مع كاليوس إلى المسجد، حيث كان مقدم البداية العرب، واستدعينا إيلنا، ورجونا أن لا نتعرض للاضطراب من قبل رجاله عندما نصير خارج الدير، وقد وعدنا بأننا لن نعاني من أي أذى على أيدي قومه، وقال بأننا إذا مارغبنا بأن نكون سالمين تماماً، فلسوف يرسل بعضاً من عبيده معنا لسفر ثلاثة أيام أو أربعة خلال القفار لحمايتنا، ولقد كنا راضين بهذا الجواب، وتركناه

ونحن متحررين من الخوف، وقد أعاقت كل المشاكل المتقدمة الذكر مغادرتنا حتى منتصف النهار، وقمنا الآن تحت الحر الكامل للشمس بتحميل جمالنا مع كثير من التعب، ووسط مخاصمات كبيرة، لأن سائقي الجمال ألقوا روايا الماء التي ملأناها ماء، وقمنا نحن من جانبنا بوضعهم مجدداً، لكنهم رموهم، ووصل بنا الحال إلى الضراب، وأزعجنا بعضنا بعضاً بحركات غاضبة، وجاء أخيراً بعض البداة العرب وصالحونا على شرط أن ندفع كراءً جديداً إلى سائقي الجمال مقابل حمل روايا الماء وفعلنا ذلك، ولوفعلناه من البداية لما كان ثار أدنى خلاف.

وتم أخيراً تحميل جمالنا، وغادرنا الدير، لكن مالبث البداة العرب أن جاءوا يسعون خلفنا، وهم يحملون حصيراً وحقية، كان سائقو جمالنا قد تركوها عن قصد، ولذلك أرغم الحاج الذي عادت الحصير إليه على شرائها من البداة العرب، وعندما حصل على الحصير رفض سائق الجمل وضعها على جملة ما لم يتم دفع بعض الفلوس له، وبهذا تعرضنا للمضايقة والأذى تماماً، وغادرنا الدير الآن، وسافرنا خلال الوادي نفسه الذي جئنا عبره، وذلك حيث عبد بنو اسرائيل العجل الذهبي، وصرنا بخطوات بطيئة لمدة أربع ساعات، ونصبنا في المساء خيمنا في مكان دعاه البداة العرب باسم Wachya ، ووجدنا هنا مصاعب في الحصول على مايكفي من العصي للنار من أجل طهي طعامنا، ونصب البداة العرب الذين كانوا مع الجمال التي حملت الفواكه خيمهم في وسطنا، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

الرحلة

وفي اليوم الثامن والعشرين، الذي كان الأحد الثامن عشر بعد الثلاث، استيقظنا ثلاث ساعات قبل ضوء النهار، وحلنا جمالنا، وغادرنا مكان Wachya، وعبرنا خلال ذلك الممر الضيق، الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، وأدرنا ظهورنا إلى أعلى جبال سيناء، وعدنا

ثانية إلى Machera ، حيث اعتاد موسى على رعي قطعان يشرو، وعلى هذا السهل المنبسط ابتعدنا عن الطريق الذي كنا قد جئنا عليه [٦٣] أثناء قدومنا، ولقد غادرناه وتركناه على الجهة اليمنى، عندما استدرنا نحو اليسار، ونزلنا مجرى سيل بلا ممرات، وهو مع ذلك كان مكاناً جميلاً، لأنه كان مليئاً بأشجار التمر الهندي وشجيرات أخرى، وعندما كانت الجمال والحمير عابرة قطفوا الأوراق مع الندى عليهم، من الأغصان الصغيرة، وفي الوقت نفسه مصصنا الندى من على الأوراق، ذلك أنه كان حلواً مثل السكر أو العسل، ومنه جرى إعداد المن اللذيذ والحلو الطعمية، وفي حوالي الظهر وصلنا من نهاية مجرى السيل ذاك إلى الوادي حيث كنا قد اصطدنا مع البداية العرب، قبل ثمانية أيام مضت، وأثناء عبورنا لمجرى السيل هذا، فجأة قدم حمار وحشي مسرعاً من الأعلى، وكان يجري نحونا بسرعة كبيرة، وكأنه سوف يندفع في وسط جماعتنا، ونحن الذين لم نر قط من قبل حماراً من هذا النوع، لم نظن أنه أي شيء سوى حمار أهلي، وكنا مشدوهين تجاه سرعته وجماله، وقد ركض وهو ينظر نحو حميرنا، وأتصور أنه كان يريدهم، متصوراً أنهم سوف يتجنبون مرافقة الانسان، ولحقه واحد من البداية العرب بحذر، وسار على محاذاته، مع قوس وسهام ناوياً الاطلاق عليه، وهربت الدابة قبل أن تكون في مدى الرماية، ومع ذلك سارت ببطء مبتعدة عن مطاردها، وكأنها كانت تريد استدراج الرجل ليدخل في سباق معها، وأخيراً عندما صار العربي قريباً من الحمار، فوق قوسه ورمى سهماً جرح به الدابة، فرمت على الفور السهم، وذهبت ماضية عبر المكان المنحدر، وجلب لنا الشاب السهم وكان هناك دم على رأسه، وبعد مضي وقت قصير رأينا خمسة حمير وحشية مع بعضهم يركضون بين الصخور.

ولدى الذين كتبوا عن التاريخ الطبيعي الكثير ليقولونه حول الحمار

الوحشي، والأخدر أو حمار الوحش، هو دابة جميلة رشيقة، لها رأس أصغر من الحمير العامة، وهو حر، وغير مدجن، وحيوان مفعم بالحيوية يسكن في المناطق الجبلية، والأماكن القاحلة، وهو سريع جداً، حيث يمكنه أن يسبق الدب، والذئب، والأسد، ولهذا السبب عدّ من قبل القدماء بين الأرباب الرئيسية، وليس بين الـ Diomedes كما أخبرنا يوسيبوس في مصنفه De Evangelica Praeparatione — الكتاب الخامس، الفصل الثالث عشر، ويمكنه أن يتحمل العطش لوقت طويل، أطول من المخلوقات الأخرى، وعندما يكون غير قادر على الوصول إلى الماء، يعيش على الريح، حيث يقف فوق الصخور ويستنشق الهواء، وهذا ماورد في سفر إرميا في قوله: «ووقف حمار الوحش على الهضاب يستنشق الريح مثل التين» [ارميا: ١٤/٦] وجاء في المزامير قوله: «ويطفئ الحمار الوحش عطشه» (المزمور: ١٠٤/١١)..... وينهق الحمار الوحش اثنتي عشرة مرة في النهار واثنتي عشرة مرة في الليل، وبناء عليه يستطيع الذين يسكنون في القفار تمييز ساعات الليل.... والبغال السريعة هي التي تلد من حمار وحش وفرس، ولكن الأسرع من البغال هذه هو الحمار الذي يلد من حمار وحش وأتان مدجنة، والبغال المولودة لها أثنان مرتفعة جداً، لأنها تركب من قبل الأمراء والرجال العظماء، ووصلنا عند غروب الشمس إلى مجرى سيل منعزل وجاف، يطلق عليه البداءة العرب اسم Elphat، وهنا أنزلنا الأثقال من على دوابنا، ونصبنا خيامنا، وتمددنا هناك أثناء الليل، وكان المكان جافاً وقاحلاً إلى حد أننا لم يكن لدينا أمل في العثور على ما يكفي من خشب لاشعال نار، لكن وجدنا ما يكفي لتسخين ماء لصنع فطيرة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي هو يوم عيد القديس ميكايل، استيقظنا قبل ضوء النهار، وارتحلنا خلال مجرى السيل نفسه المهجور،

وهو الذي جئنا عبره من قبل، وعانينا من يوم صعب ومرهق، لأننا عملنا رحلة طويلة فوق أرض سيئة، وليس فوق رمال، كان من الممكن لنا تحملها بصبر، فلقد سرنا فوق غبار، لابل فوق رماد، وعجبنا كثيراً واستغربنا من أين جاءت الكميات الهائلة من الغبار والرماد، التي انتشرت فوق تلك المنطقة، لأنه لم يكن هناك سكان من البشر، ولانار، ولا شيء سوف يحترق، ولقد أجبنا على هذا السؤال كما يلي، وذلك وفقاً للإيمان الكاثوليكي: «مادام الرب قد أرسل اللعنات الموجهة إلى جميع البلدان، إلى هذه الصحراء الحجرية، قد أرسل أيضاً هذه الواحدة أيضاً، أي مامن مطر، أو ثلج، أو ندى ينبغي أن يسقط هنا، بل أمطار من الغبار والرماد، وهو قد هدد بوجوب سقوط مثل ذلك على الأرض المقدسة، بالشكل نفسه، إذا لم يحافظ الذين يسكنون هناك على وصاياها»، «فالرب سوف يجعل مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك» [التثنية: ٢٨/ ٢٤]، فهذا ما عمله الرب لأرض مصر، عندما أخذ موسى وهارون — بناء على أوامره — حفناً من الرماد من الموقد وذراه نحو السماء، فأصبح يغلي وانتشر على شكل بثور على الناس وعلى الحيوانات، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج: ٩/ ١٠، وهكذا تصورنا بأن ذلك الجزء من القفار قد أصيب أيضاً بالوباء نفسه مثل مصر، وخشينا أن يتحول إلى بثور مثلما حدث للمصريين، وعلى كل حال حفظنا الرب أصحاء لدى عبورنا خلال تلك الأرض من الرماد.

ووصلنا إلى واد، حيث وجدنا صنماً على شكل طفل سوداني، واقفاً في كهف في الصخر، ويقدم البداية العرب من وقت إلى آخر تقدييات إلى هذا الصنم، وكانوا سيبدون امتنانهم لوأننا قدمنا بعض الفضة، لكننا لم نفعل ذلك، وقطع بعضهم قطعاً من قمصانهم وعلقوها أمام الصنم، وذلك حسبما اعتادوا أن يفعلوا في أماكن اعتقدوا بوجود أية قداسة فيها، وكنا قد رأينا شيئاً من هذا القبيل من قبل، وبالنسبة لهذه العادة

السخيفة بالتعبد بوساطة أئمال من القماش، يمكن للانسان أن يقول بما أن بعض الناس يعتقد أن مامن شيء في الدنيا هو أكثر قيمة ومكانة وقبولاً لدى الرب من جلد المخلوقات الميتة، التي عليها كتب الرب أسرارهِ الأكثر عمقاً، مع نظام العالم كله، إنه مثل هذا، بالمساواة المنطقية الأئمال التي لاقيمة لها من الكتان وقطع القمصان، جديرة بالاحترام، على أساس أن مامن أشياء أدنى قد كتبت عليهم مما كتب على جلود المخلوقات الميتة، لأن جميع الأشياء مقدسة، وانسانية، وسماوية، وارضية، وخالدة، ومتحولة، وحاضرة، ومستقبلية، ومرئية وغير مرئية، وطبيعية، واعجازية، وأشياء ينبغي أن تعتقد، وأشياء يمكن البرهنة عليها، وأشياء منطقية، وأشياء وهمية، وجميع الأشياء الأخرى، من كل من الجيد والسيء، وأشياء مرغوب بها، وأشياء مرفوضة، كلها قد كتبت إما على رق أو ورق، ولعله لهذا السبب يعتقد الكفار بأن هذه الأئمال مقبولة بالنسبة لأربابهم، ولهذا يقدموها لهم.

وسرنا من هذا المكان على طريقنا حتى المساء، وقد نصبنا خيمنا في مكان موحش، يدعوهُ البداَة العرب باسم Effkayl، وعندما استقر بنا الحال بدأنا مجدداً نشعر بالحاجة إلى الماء ونعاني من نقصها، وكان هذا مزعجاً لنا بلا حدود، وقاسياً لايمكن تحمله، ففي ذلك المساء بالكاد امتلكنَا من الماء ما يكفي لطهي حساء أو المرق لنأكله مع بقسماطنا أو خبزنا، وتفكرنا حول الكميات الوفيرة من لحوم الأوز والبط، التي نجدها تقريباً في كل بيت في بلادنا عشية عيد القديس ميكائيل، وبدأنا نتحرق رغبة إلى قدور اللحم، وإلى السفود المليئة باللحم المشوي، وإلى سلال السمك، والمعجنات الساخنة، والذي حدث معنا، كان مثل الذي حدث مع بني اسرائيل في القفار، وذلك عندما تذكروا وفرة الأشياء في مصر، وتشوقوا إلى اللحم، وإلى السمك، وإلى البصل، والثوم والبطيخ (الخروج: ١٦/٣) وبتفاصيل أكثر في سفر العدد: ١١/٥، لكن

رغباتنا كانت بلا فائدة، لأن موسى لم يكن معنا ليجلب لنا السلوى من بلدان ما وراء البحر، كما جلب لهم، وعلى كل حال نزل غضب الرب عليهم لأن المزمور يقول: «وطعامهم بعد في أفواههم صعد عليهم غضب الرب وقتلهم» [المزمور: ٧٨/ ٣١]، وعلى هذا أمضينا عيداً ميكائيليا تعيساً، وليلة غير هادئة بسبب الرماد، والرياح التي نشرته في الجو.

كيف عانينا بسبب نقص المياه

وفي الثلاثين، أي اليوم الأخير من ايلول، وكان يوم عيد القديس جيروم، غادرنا المكان المتقدم ذكره، بعد منتصف الليل مباشرة، أي أربع ساعات قبل ضوء النهار، وتابعنا سيرنا خلال القفار التي بلا ممرات، مخلفين وراءنا أعلى السلاسل الجبلية والداخلية منها، وعندما أضاء النهار وصلنا إلى قفر راماثيم، أي إلى المكان الذي خيمنا به في اليوم التاسع عشر، عند سفح منطقة Rachkaym ، حيث نزلنا إلى جانب الهضبة المنحدرة، كما سلف وتحدثنا من قبل، ولم نسر فوق ذلك المكان المنحدر ثانية إلى الجبال، بل تركنا المنطقة التلية على يميننا، ومضينا نازلين نحو البحر الأحمر، فهنا ابتعدنا عن الطريق الذي قدمنا عبره، وانعطفنا مبتعدين عنه نحو مصر، وكنا في ذلك الحين نعاني من الحاجة إلى الماء، وتذمرنا من أجل الماء وقلنا لكاليينوس، الذي كان موسانا: «أعطنا ماء حتى نشرب» وذلك مثلما قال الیهود لموسی (الخروج: ١٧/٢)، وأجابنا كاليينوس بأننا إذا أردنا الماء، يتوجب علينا الانحراف قليلاً عن الطريق الصحيح، بعيدين عن الجمال الذين لا يمكن اقتيادهم فوق تلك المنطقة التي بلا ممرات، فقلنا: ينبغي أن نمتلك ماء، لأننا خلال الطريق كله من سيناء إلى هذا المكان لم نر الماء، وقد أفرغنا تقريباً روايانا، وبناء عليه أخبر واحد من البداءة العرب، الذين التحقوا بنا في القفار، كاليينوس بأنه يعرف مكاناً فيه كثيراً من الآبار، وأنه سيقودنا إلى هناك، وبناء عليه تركنا الجمال وكاليينوس يذهبون مباشرة نحو البحر الأحمر، وتبعنا العربي في المنطقة الأخرى، ووصلنا معه إلى منطقة قفر أي إلى مجرى سيل صخري، مغلق من على الجانبين بجدران عالية من الصخور، والذي خلاله تجري المياه في موسمها بشدة عالية إلى درجة أنها تنقل الصخور الكبيرة، وسرنا مسافة طويلة خلال مجرى السيل، هذا، وبدأنا نصبح خائفين، لأن المكان كان

صحراء موحشة، وتحدث أحدنا مع الآخر، وعجبنا من أنفسنا، كيف أننا حتى نحصل على الماء تركنا كل أغراضنا على الجمال، وتركنا أدلاءنا، وسائقي حميرنا، وسائقي جمالنا، والتحقنا برجل فرد— هو الأغرب بين الغرباء— وكنا نلحق به فوق ذلك القفر الذي بلا ممرات، ومع ذلك اعتقدنا جميعاً بأن ذلك العربي كان انساناً جيداً، لأنه بذل جهده في كل سبيل حتى يشجعنا، وركض بنشاط أمامنا، مشيراً إلى الصخور العالية وإلى مجرى السيل الجاف الذي أمامنا، وكأنه هو شخصياً يبحث هناك.

وبعدما سرنا مسافة طويلة، تسلقنا على الصخور وخرجنا من مجرى السيل، ووصلنا إلى مكان كان مليئاً بالنباتات والحشائش الخضراء، وبعدما اجتزنا هذا المكان وصلنا إلى سهل رملي، حيث رأينا كثيراً من علامات سير الناس والجمال والحمير مرسومة على الرمال، وكان هذا السهل، مملئاً بالشجيرات وبأشجار الفاكهة، وكان فيه كثيراً من الآبار والحفر المليئة بالماء، وعندما رأيناهم قفزنا من على ظهور حميرنا، وسررنا لدى عثورنا على الماء، وركضنا نحو الحفرة الأقرب، وأنزلنا فيها الدلاء المصنوع من الجلد، الذي حملة عربينا معه، ونضحنا منها بعض الماء الكثيف الموحل، وعندما أردنا أن نشرب منه، تذوقناه فوجدناه مالحاً جداً، وكأنه قد نضح من البحر، ولذلك حتى حميرنا لم تستطع الشرب منه، إنما عندما نظرنا ناقلين نحو دليلنا العربي وكأنا نقول بأنه مزح معنا، وجلبنا إلى هنا لالشيء، أشار إلينا بوجوب تذوق ماء الآبار الأخرى أيضاً، والبحث عن ماء عذب، وهكذا ذهبنا إلى حفرة أخرى ونضحنا بعض الماء، وقد وجدناه بلا طعم، ومع ذلك كان أقل ملوحة من الأول، وهكذا طفنا حول جميع الحفر، وقد وجدنا ماء لدوابنا، لكننا لم نجد ماء لأنفسنا في تلك الآبار، وبناء عليه بدأ يحفر ويرمي التراب بيديه، وكان ذلك في حفرة جافة كان قد وجدها، وهي لم تكن عميقة جداً، وبعدما حفرنا لبعض الوقت، بدأ الماء يتدفق، ومع أنه كان

موحلاً، لكنه كان عذباً.

وملأنا بهذا الماء روايانا وأجوافنا، دون أن نعبأ بوحولته، فكل انسان يعرف هذا السهل يفعل هذا، ويحفر بئراً لنفسه، لأن الماء في الأسفل عذباً، لكن عندما تشرق الشمس في الآبار، تجعل الماء مالحاً، ولذلك وجدنا ماء مالحاً في الآبار المحفورة فقط، ولو أن هذه الآبار حفرت عميقاً، وطويت، وغطيت من حرارة الشمس، أعتقد سيكون هناك ماء جيداً للشرب في ذلك المكان، وفي الحقيقة إنه لأمر عجيب كيف توفر الماء في تلك التربة الرملية، وعجبنا من نبتون، رب البحر، الذي بعدما أطلق سراح ابنة دانوس Danaus من ساطير في القفار، واغتصبها هناك غرس رمح الثلاثي الشعب فوق الأرض في المكان الذي تعاشر فيه مع الفتاة، فتفجر نبع، لكننا هنا لم يكن معنا لارمح ثلاثي الشعب أو مسحاة، بل عملنا نبعاً بأيدينا، ووجد في هذا المكان ينابيع مالحة جداً، مثل مياه نبع اسمه Exampeus الذي هو موجود في بلاد Ca-liopades (؟)، ويرسل هذا النبع مياهاً مالحة إلى حد أنها حولت النهر التي تجري فيه إلى نهر مالح تماماً، ومن جهة أخرى هناك أيضاً نبع اسمه أليس Alis ، حلو جداً لتشرب منه حتى أن الشارب منه لا يعبأ بمشروب آخر، ومثل هذا، وجدنا على هذه البقعة مياهاً حلوه ومالحة معاً، هذا ورأيت في بعض الأماكن من بلادنا صفاتاً أكثر عجباً في ماء واحد هو نفسه، ففوق كوبلنز Coblenz قرب بلدة ناسو Nassau هناك يتدفق من بين الصخر ماء حار مالح، ومن الجروف وشعاب الصخرة نفسها تجري مياه أشد حرارة وأكثر ملوحة، ومع ذلك أمكن العثور على مياه عذبه في المكان نفسه، وكذلك على مياه مالحة بارده، وهذه المياه كلها تنبع من صخرة واحدة، واسم هذا المكان «مياه إمس Ems» وهناك أماكن إقامة للذين يرغبون بالاستحمام هناك، لأن المياه طيبة.

وبعدما سقينا أنفسنا، وسقينا دوابنا، غادرنا مسرعين، ووصلنا إلى مجرى سيل آخر شاسع، وبعدما سرنا على طول مسافة طويلة، تسلقنا واحداً من طرفيه، فرأينا جمالنا تسير بعيداً عنا، ولذلك أسرعنا بخطانا ولحقنا بهم، وفي الوقت الذي وصلنا فيه إليهم سخن الماء الذي كان في جرارنا، وبات غير قابل للاستخدام، لأن ذلك الماء ما أن يشعر بحرارة الشمس حتى يميل لأن يصبح مالحاً، وسافرنا في ذلك اليوم في ظل شمس حارة جداً، فوق مجاري سيول مذهشة بقحطها وبصحراويتها، ووصلنا عند المساء إلى مجرى سيل اسمه لديهم Laurara ونصبنا خيامنا على جانب، وعلى مقربة من هضبة حجرية، يشرف عليها نتوءات صخرية، وهنا حملت جماعتنا فرشنا ووضعوهم في كهف كبير، حيث أقررنا فيه أنفسنا، لأننا كرهنا خيامنا، وبتنا غير راغبين بالجلوس فيها ما لم نكن مرغمين على ذلك، لأننا كنا عندما نرقد فيها نبدو وكأننا مسجونين واحدنا إلى جانب الآخر، وأصبح كل منا مغطى بقمل الآخر، وكانت جميع الصخور، والحجارة، والأرض في هذا المكان مشكلة من تربة في غاية البياض، ولذلك انتشر علينا الغبار الأبيض، وبتنا وكأننا في طاحون قمح حيث يتطاير الطحين هناك، وعندما كنا نجتمع عصياً ونطبخ، قدم أدلاؤنا والبداء العرب، وتحلقوا حول خيامنا يلتمسون الحصول على البقساط، والبيض، وأشياء مماثلة للأكل، ومع ذلك أكلوا قليلاً في تلك الأمسية، وسبب ذلك سوف أوضحه فيما يلي.

الفصل الثامن

ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيلول وأشياء أخرى كثيرة

قبل ساعتين من انبلاج فجر اليوم الأول من شهر تشرين أول، استيقظ المسلمون والبداة العرب— وكانوا جميعاً من أتباع ديانة محمد ﷺ— الذين كانوا معنا وأشعلوا ناراً وشموعاً، وبدأوا يأكلون، وكانوا مسرورين، يضحكون ويغنون، وصاروا مرحين أكثر مما اعتادوه، وأيقظونا بصراخهم، ودعونا لنشاركهم في مرحهم، وعندما سألناهم عن سبب هذا الاحتفال الكبير، أخبرونا أنه من الصباح المقبل يبدأ صومهم، ولذلك أكلوا وكانوا مسرورين قبل الفجر، ذلك أنهم هكذا يلتزمون بالصوم الذي فرضه عليهم محمد ﷺ في قرآنه، ذلك أنهم لا يصومون خلال السنة كلها، إلا في شهر تشرين أول (كذا) ففيه يصومون كل يوم من قبيل الفجر، وذلك عندما يكون هناك مايكفي من ضوء لتبيان الخيط الأسود من الخيط الأبيض، وهم يصومون حتى غياب الشمس، وخلال النهار هم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتحدثون مع زوجاتهم، بل يرتاحون، وينامون، ويمضون النهار من دون عمل، لكن ما أن تغيب الشمس، حتى ينهضون، ويمدّون الموائد، ويأكلون ويشربون، لكن ليس دفعة واحدة، بل في الأوقات التي يرغبون بها، ويصرخون طوال الليل ويغنون، ويسعون إلى هنا وهناك، وفي كل ليلة من ليالي الصيام يصباحون مجانين هكذا، ويسلون أنفسهم مع زوجاتهم، والذين لا يستطيعون السهر طوال الليل، يتمددون للنوم، لكنهم يستيقظون قبل الفجر بساعتين للأكل، ويتوقفون عن الأكل عندما يرون الفجر.

وفي المدن، يسعى— بناء عليه— رجال دينهم في الشوارع قبل

ساعتين من الفجر ويضربون بقطع من الخشب بعضها ببعض، ويوقظون الناس حتى يأكلون ويمتعون أنفسهم، ولكم هو صيام غريب وغير طبيعي، مناسب فقط للناس الجسديين والشهوانيين، وهو بعيد، بعيد عنا الذي يدعو إلى صيام من هذا النوع، فبعد انتهاء الصوم أثناء النهار، يمضون الليل في أعمال الغريزة، والأكل والشرب، والتسلية، وكأن هذا الصيام — كما يبدو — قد عمل لغرض واحد، هو أن الناس بعد انتهائه ينغمسون بتلبية رغباتهم المنحطة مع كثير من السرور والأكل، ولقد انزعجنا كثيراً أثناء الليل بصراخهم طوال الشهر، حسبنا سنصف فيما يلي.

وعندما اقترب النهار، وأشبعوا أنفسهم، وكانوا سيقومون بتحميل الجمال، وجدوا أن واحداً من جملهم قد سرق، لأن اللصوص يتجولون خلال القفار، ويقفون في النهار فوق رؤوس صخور عالية، ويراقبون جماعات الناس العابرة، ليروا أين سيقفون لإمضاء الليل، وعندما يكون الجميع نياماً، يندس اللصوص بينهم بكل هدوء، ويفكون جمالاً أو حميراً من مقاوذهم، ويأخذون حقائب ومزاود إذا استطاعوا.

وغضب سائقو الجمال تجاه هذا، وحمل اثنان منهم رماحاً، وخرجوا يركضان في المنطقة للبحث عن الجمل، وفي تلك الأثناء قمنا بوضع حمولة الجمل المفقود على ظهر جمل آخر، وانطلقنا من Laurara وسرنا فوق طريق رملي، وبعد مضي ثلاث ساعات رجع سائقا جمالنا مع الجمل المفقود، وكانت ثيابهما ملطخة بالدماء، وكانت الدماء تتقاطر من رجليهما، فقد وجدا اللصين مع الجمل في كهف، وقد قادهما إليه تعقب آثار سير الجمل واللصين، وقد قتلا واحداً منهما بالرمح، وقد هرب الآخر ونجا من الموت، وهذا هو الشيء نفسه الذي حدثنا به فرجيل بأنه حدث إلى هرقل، فبينما كان هرقل يحتفل مع إيفاندر Evander، وضع ثيرانه بين قطيع إيفاندر، وكان يسكن ليس بعيداً عن ذلك المكان،

في كهف عفريت له حجم كبير، اسمه كاكوس Cacus ابن فولكان، كان ينفث النار من فمه، وكان قد أزعج المنطقة كلها بسرقاته ولصوصيته، وخرج هذا العفريت من كهفه أثناء الليل، وجر ثيران هرقل إلى كهفه من ذيوهم، وعندما رأى هرقل بأن بعض ثيرانه قد سرقت، ولم يستطع أن يخمن إلى أين ذهبوا، رأى وقتها آثار طبعات أقدام اللص من موضع القطيع إلى الكهف، وبناء عليه ركض هرقل، وأخرجه من الكهف، وقتله بعكازه، وساق ثيرانه عائداً بهم.

وفي الوقت نفسه — أثناء متابعتنا سيرنا على طريقنا تجاوزنا الجبال ووصلنا إلى أرض مدين، على شاطئ البحر الأحمر، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن مياهاها، وعرفت هذه المنطقة باسم مدين صدوراً عن اسم مدينة مدين، التي بنيت من قبل واحد من أبناء ابراهيم من قطورة، وكان اسمه مدين، (التكوين: ٢٥/٢)، وقد سماها باسمه، والتجار الأوائل الذين قرأنا عنهم، أي الذين اشتروا يوسف (التكوين: ٣٧/٢٨) كانوا من هذه المدينة، ومن هذه المدينة كان يثرو، الكاهن الرئيس لمدين وملكها، الذي كنت قد أشرت إليه من قبل، وهو الذي إليه هرب موسى من مصر والتجأ، وقد تزوج من ابنته (الخروج: ٢).

ولدى متابعتنا سيرنا، وصلنا إلى نهاية القفار التي بلامرات، ومنها إلى الطريق السلطاني العام الذي يقود من مصر إلى فلسطين وغزة، وهو الذي كنا قد غادرناه على مقربة من غزة، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وذلك عندما دخلنا إلى القفار، فمن ذلك المكان إلى هنا لم يكن لدينا طريقاً نتبعه بل سرنا في النهار وفي الليل نوجه مسارنا بوساطة الشمس، والقمر، والنجوم، وذلك مثلما يفعل الناس في البحر، وكنا مسرورين إلى أبعد الحدود لدى عثورنا على الطريق، وبدا الأمر لنا وكأننا عدنا إلى الدنيا، وفي هذا المكان ينشطر الطريق الذي يقود من مصر إلى طريقين:

الأول منهما يساير شاطئ البحر الكبير إلى فلسطين، ومن هناك إلى

اليهودية والقدس، وعبر هذا الطريق الناس باستمرار يأتون ويذهبون من الأرض المقدسة إلى مصر وبالعكس، ويقود الطريق الآخر من مصر إلى شاطئ البحر الأحمر، فمدين، فالطور، وهو ميناء على البحر الأحمر، تقدم ذكره من قبل، وهكذا سرنا عبر هذا الطريق العام نحو مصر ونحن مسرورين، وكنا فرحين لأننا بذلك عشنا ثانية على علامات خطوات الرب يسوع، لأنه عبر هذا الطريق جلب يوسف العذراء مريم، والطفل يسوع إلى مصر، بناء على طلب من الملاك، (متى: ٢).

ومع حلول المساء وصلنا إلى قفار إيليم، حيث عسكر بنو إسرائيل بعد عبور البحر الأحمر، وحيث كان هناك اثني عشر بئراً من الماء وسبعين شجرة نخيل (الخروج: ١٥/ ٢٧) لكن سرنا بعيداً عن المكان الذي كانت فيه الآبار، وانعطفنا جانباً بعيداً عن الطريق العام لمسافة ميل إيطالي واحد، ونصبنا خيمنا في مكان قذر يدعونه Derondon، وكانت الأرض هنا مليئة بالهوام والحشرات وبقملة فرعون، بأعداد لا تحصى، وكنت قد تحدثت عن هذا من قبل، وكنا غاضبين من كالينوس لأنه لم يأمر بنصب الخيام في المكان الذي فيه الآبار، لكنه قدم تسويغاً منطقياً لهذا، قائلاً بأننا كنا ساخنين وعطاشى إلى درجة أننا لو توقفنا إلى جانب الماء، فلن نتوقف عن الشرب حتى نقتل أنفسنا، والسبب الآخر، أنه كان هناك إلى جانب هذه المياه مستنقعات، وفي هذه المستنقعات أعداد لا تحصى من الأفاعي من مختلف الأنواع، وديدان، وبعوض، ولذلك لم يكن موائماً السير إلى جانب المياه، وسبب آخر هو أن البداية العرب من لصوص الصحراء قد اعتادوا على نصب خيامهم إلى جانب المياه، وفي بعض الأحيان يأتون ليلاً إلى الأماكن التي فيها المياه، وإذا ما وجدونا هناك، فلسوف يلحقون بنا البلاء ويسرقوننا، وهناك سبب آخر، هو أنه إلى جانب هذه المياه هناك قرية مليئة بأكثر المدينين سوءاً، وكان هؤلاء سيزعجوننا بطرق كثيرة، حتى أثناء الليل، وذلك

إذا ما علموا بأننا نصبنا خيامنا هناك، كما أن هناك سبباً آخر، هو أن الطريق العام الذي يمر قرب الآبار، هو الطريق الذي يسلكه كل من التجار والصوص من البداة العرب، والمدنيين، وهم يعبرونه أثناء الليل، ويتوجب علينا عدم الانزعاج من قبلهم.

وهكذا قمنا بعدما نصبنا خيامنا، فنزلنا جميعاً مع سائقي حميرنا إلى موضع الآبار، وأشجار النخيل، وملأنا روايانا وجرارنا، وقد عاد بهم سائقو حميرنا إلى الخيام، ذلك أننا مكثنا في تلك البقعة الرائعة، وخلعنا ثيابنا، وتحممنا، لأننا وجدنا كميات هائلة من الماء النقي، والدافئ لنغسل أنفسنا به، وقد كان إلى جانب تلك المياه شجيرات ونباتات، وليس بعيداً عن ذلك القرية، التي كان فيها حشد كبير من أشجار النخيل، وفي الأيام التي عسكر بها بنو إسرائيل في هذا المكان، كان هناك اثني عشر بئراً، وسبعين شجرة نخيل، لكن في هذه الأيام ليس هناك تماماً اثني عشر بئراً، لكن هناك كثيراً من ينابيع الماء على جانب الرابية، تتدفق بالمياه بكل اتجاه، كما أنه ليس هناك سبعون شجرة نخيل، بل أكثر بكثير، ومع ذلك فالمكان هو نفسه.

وبسبب تدفق هذه الينابيع بالمياه، إن الذي أعتقد أنه لا بد أن إحدى الحوريات قد صنعت هذا المكان مشهوراً في تصورات الشعراء، وتؤكد هذه الفكرة بالاسم العربي للمكان الذي هو دورندون Dorindon، ذلك أن دروس Doris كانت ابنة كيولوس Coelus وفستا Vesta التي كانت زوجة أوقيانوس، وأم جميع الحوريات، هذا وأنا لا أعرف نسبة إلى أي من الحوريات تقدس هذا المكان، كما أنني لست متأكداً فيما إذا كان قد تقدس لأنه كان المحطة السادسة لبني إسرائيل أثناء فرارهم من مصر، حسبما جاء في سفر الخروج: ٢٧/١٥، وسفر العدد: ٩/٣٣،

وقد مكثنا عند هذه المياه لمدة تزيد على الساعتين، وأنعشنا أنفسنا هناك بشكل كبير، وشربنا واستحمينا، ونظفنا أنفسنا من الهوام، وفي

الوقت نفسه قدمت بعض الفتيات الجميلات مع قطعانهم إلى المياه، وقد وقفن عند واحد من جوانب المياه، وعجبن من وجودنا، ونظرن بتمعن نحونا وضحكن، وبدين كأنهن يصلين، وأنا لم أنس في هذا المكان شهوانية تلك المرأة المدينية غير المحدودة التي رافقت واحداً من بني اسرائيل، على مشهد من موسى ومن جميع الناس، ولاغرة فيناس الذي ضربها معا بسكين، ولذلك السبب مات أربعة وعشرون ألفاً من الناس في قفار شطيم (العدد: ٢٥)، ولذلك بدا ضحك الفتيات وحركاتهن أمراً مريباً بالنسبة لنا، وتظاهرن وكأننا لم نر ابتساماتهن، ومع ذلك لم نستطع منع بعض الشبان من الفرسان، من ابداء بعض اشارات الاعجاب نحوهم، وبما أننا مكثنا وقتاً طويلاً في هذا المكان، بعث كاليئوس بدوياً عربياً، إلينا مع رسالة بوجوب عودتنا إلى خيمنا بكل سرعه، وذهب إلى حد ابداء انزعاجه منا، وبناء عليه عدنا إلى هناك، ووجدنا طعام عشائنا جاهزاً، الذي أكلناه بمتعة غير كبيرة، لأن شربنا للماء قد أثر علينا، وكأننا قد شربنا من النبع الأحمر الموجود في السودان، والذي يقولون بأن من يشرب منه يغدو مجنوناً، وبينما كنا فرحين، جلس مسلمونا وبداتنا، أسفين، وشاحيين، وصامتين، بسبب صومهم اللعين، لكن ماأن غابت الشمس، عندما طلبنا الراحة، حتى شرعوا بدورهم، يمرحون ويغنون ويصرخون، ويقصفون، ويأكلون، ويشربون، ولم يمنحونا راحة طوال الليل تقريباً، وبهذه الضجة كانوا ينفذون أحكام صومهم، ونهضنا في بعض الأحيان، وخرجنا من خيامنا، وركضنا نحوهم، وأجبرناهم بالتهديد على أن يكونوا صامتين، وفي بعض الأحيان، عندما كانوا يجززون معجناتهم في الرماد، بقينا معهم، ونظرنا إلى حماقتهم.

رحلة خلال القفار ورعب الحجاج

استيقظنا مبكرين في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول، لكننا غادرنا متأخرين، بسبب فقدان ثلاثة جمال، خيل إلينا أنهم سرقوا، لكن باتباع

آثارهم، تمّ العثور عليهم وهم يراعون في البرية، وقد أعيدوا بعد شروق الشمس، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا ايليم، وسرنا عبر الطريق العام، فوق حقول واسعة نزولاً باتجاه البحر الأحمر، وخلفنا جاء بعض الرجال الآخرين مع جمال، وكانوا يسيرون على الطريق القادم من الطور، وخشينا من أن يكونوا لصوصاً، لأنهم كانوا مسرعين كثيراً، وسبقونا، وعندما صاروا بقربنا، رأينا بأن جماهم كانت محملة ببضائع من التوابل، وتوجسنا أن يكون أولئك الناس عائدتين إلى البلاط (السلطاني)، وكان قائد القافلة رجلاً مليئاً ووسياً، وقد ساق جماله في وسطنا، ونظر نحو كل واحد منا بملامح غاضبة، وقال وهو غاضب لكاليينوس: «كيف تتجرأ، وأنت مسلم، على قيادة فرنجة خلال بلاد مولانا السلطان، وبذلك هم يزحفون مثل رجال عسكريين على طول الطريق السلطاني العام؟» وقد أجابه كاليينوس باحترام عميق: «هؤلاء الرجال هم حجاج، وجاءوا إلى هنا لزيارة الأماكن المقدسة في بلادنا، وهم لا يرغبون بايذاء، أو مهاجمة، أو الاعتداء على أي إنسان، لكن بما أنهم سمعوا في غزة — أو بالحري في القدس — بأن بعض الأفراد الأشرار يتجولون في القفار، وهم في كل مكان يغامرون دونما إقامة تقدير لأمان مولانا السلطان، وهم يسيئون معاملة الذين يسافرون خلال الصحراء، حتى وإن كانوا من أعيان القاهرة، وبما أن حجاجنا لديهم روح الرجولة، فقد التمسوا إذن من ترجماننا بحمل السلاح، من أجل أن يتمكنوا هم أنفسهم من صد وطرده أي واحد يهاجمهم، ويخرق الأمان الذي منحهم إياه لطف مولانا السلطان، وهذا هو السبب في سيرهم وهم يتمنطقون بالسيوف، ويحملون القسي»، وعندما سمع هذا الجواب التفت إلى خدمه، وقال بسرور: «انظروا إن هؤلاء الفرنجة أشجع من المصريين، ولو أن مغاربتنا ومسلمينا، أو المهاليك، كانوا هكذا شجعاناً، لكانت القفار قد تنظفت منذ وقت طويل من اللصوص ومن قطاع الطرق»، وهكذا كان هذا الرجل راضياً تماماً، وقدم لنا تحيات من

خلال كالينوس، وسأله عن رحلتنا، وعن مواطننا، وعن مسائل أخرى، وفي الوقت نفسه سأله من خلال كالينوس، عما إذا كانت سفن التجار من الهند قد جاءت مع بضائعها من التوابل والبخور، وعما إذا كانت هذه التوابل سوف يجري حملها إلى الاسكندرية، وكان سبب سؤالنا هذا السؤال، هو أننا أملنا بعبور البحر إلى إيطاليا مع هذه التوابل في السفن من الاسكندرية، وفهم الرجل مباشرة ما كنا نفكر حوله، وأعطانا جواباً كاملاً وكافياً، وقال بأن السفن الإيطالية قد وصلت إلى الطور منذ أيام كثيرة مضت، وفي هذه المرة، إن التوابل والبخور المحمولين على ظهور الجمال إلى مصر وجهتهم القاهرة، ولسوف يجري حملهم من القاهرة عبر النيل إلى الاسكندرية، ومن ثم إلى البحر الكبير، لأنه يوجد الآن في الاسكندرية اسطول تجاري من البندقية، وهو الآن جاهز، ولسوف يبحر حالما يجري تحميل السفن، وعندما سمعنا هذا أصبحنا قلقين، وخفنا خوفاً شديداً من أن تغادر هذه السفن الاسكندرية قبل وصولنا إلى هناك، لأنه إذا ما حدث هذا فلسوف نرغم على قضاء الشتاء في الاسكندرية، الأمر الذي سوف يكون ممقوتاً كثيراً إلينا، وبعد انتهاء هذا الحديث، ساق الرجل وسبقنا بسرعة، في حين تبعناه نحن وجمالنا على مسافة مناسبة، وبدأنا من تلك الساعة نصبغ قلقين، وأقلقنا كالينوس أيضاً وكذلك سائقي جمالنا، وحشناهم في الوقت المناسب وغير المناسب للسير بشكل أسرع، وللتسرع برحلتهم.

الضياع المرعب جداً، والانحراف جانباً في القفار بالابتعاد عن الطريق الصحيح، الذي قام به حجاج الفئة الثالثة.

وتابعنا سفرنا فوق سهول رملية واسعة، عبرها جاء موسى المقدس من البحر الأحمر وذلك عندما جاء من أرض مصر مع بني اسرائيل كلهم، وفي ساعة مبكرة، وكان ما يزال هناك وقتاً كبيراً متبقياً من النهار، أنزلوا الأثقال عن الجمال في مكان اسمه وردكي Wardachii ، وقد

أزعجنا هذا لأننا كنا متعجلين للوصول إلى الاسكندرية، لكن أدلاؤنا لم يعبأوا بهذا، لأنهم أرادوا أن يناموا وأن يرتاحوا قبل غروب الشمس، حتى يمكنهم البقاء يقظين وهم يصخبون طوال الليل، وذلك وفقاً لصيامهم غير المفيد، وعندما أردنا أن ننصب خيامنا في هذا المكان، لم يكن بالامكان تثبيت الأوتاد الخشبية التي تربط بها الحبال، بسبب نعومة الرمال، ولم يكن قد بقي معنا كثيراً من العصي لأن البقية كانوا قد ضاعوا في القفار، ولذلك جلسنا ونحن منزعجين جداً فوق الرمال الجافة أثناء الحرارة الكاملة للشمس، وأخذنا نتذمر ضد أدلاءنا، ومن ذلك المكان كان هناك مشهد ضم أكواماً من الرمال بيننا وبين البحر الأحمر، وكان بإمكاننا رؤية البحر الأحمر بكل وضوح من بينهم، وقد بدا لنا أنه بالكاد يبعد عنا ميلاً إيطالياً واحداً، وقال واحد من الفرسان من الفئة الثالثة التي كنت أنا منها: «لماذا نجلس هنا من دون عمل، ونحن نهلك مع حرارة الشمس؟ انظروا هناك البحر الأحمر، ومازلنا نمتلك كثيراً من النهار قد بقي لدينا، أرجوكم، دعونا ننزل إلى هناك، لإنعاش أنفسنا، ولتمضية الوقت»، وعندما قال هذا مامن أحد أجابه، ولذلك استطرد يقول: «ألا يوجد بينكم أتباع موثقيين يتجرون على الذهاب عبر هذا الطريق القصير، معي، لسرورهم ولسروري؟ وأنا على استعداد للقتال من أجلكم، فهلا هناك من يأتي معي ويستحم معي؟ هل أنتم خائفون؟»، وعندما قلنا له بأن كاليينوس لن يدعنا نذهب، مالم تذهب الفئتان الأخريتان أيضاً، ضحك منا واستخف بنا، وتفوه بكثير من الكلمات رمى بها بالحاجة إلى صداقتنا الطيبة، ورمانا بالجبن، وبناء عليه، نهضنا نحن جميعاً، الذين كنا في الفئة الثالثة، ونحن الذين كنا وحدنا مسؤولين عن هذه القضية، لقد نهضنا مغضبين، وعاهدنا ركوب حميرنا، وانطلقنا جميعاً نحو البحر الأحمر، وعندما شاهد كاليينوس هذا، دعانا للعودة بصوت مرتفع، وبالطريقة نفسها فعل البداية للعرب، وكذلك فعل سائقو الجمال، وسائقو الحمير، وكذلك استدعانا بقية

الحجاج، ورجونا حتى ننتظرهم، لكننا تظاهرنّا بأننا لم نسمعهم، وغادرنا مبتعدين عنهم، وكنا سبعة، هم: المعلم بطرس فيلسخ، وهو فارس وهو أيضاً كان قائد الفئة الدوري، واللورد هنري أوف سكومبيرغ، وكان فارساً، واللورد كاسبر أوف سيكولي، وهو رئيس مطارنة، والراهب فيلكس، الخادم للبقية، وجون طبّاخ السادة في المجموعة الأولى، وخادم كونت سولس، وكان قد أشعل ناراً لعمل فطيرة، وعندما رآنا نازلين نحو البحر، أخبر سادته أن يتوقعوا عودته حالاً، فالذي قصده هو انعاش نفسه، والعودة لطبخ لسادته طعام العشاء، لأنه مثل الآخرين، اعتقد بأن البحر يبعد عنا غلوتين أو ثلاثة.

وعندما رأى كاليئوس أننا كنا مصريين، ولأنه كان يعرف المخاطرة التي كنا مقبلين عليها، دعا جميع الحجاج، وسائقي الجمال، وسائقي الحمير، وقال لهم: «اعلموا أن هؤلاء الحجاج نازلون نحو البحر، وهم سوف يعرضون أنفسهم إلى خطر عظيم، لأن من المحتمل فقدانهم لطريقهم، والانفصال عنا، وإذا ما حدث هذا، فإنهم سوف يكونون أبناء الموت، وبناء عليه إنني أعلن لكم وأشتكي إليكم بأنني لم أرسلهم، كما أنني لم أمرهم بالذهاب، بل دعوتهم للعودة، وحرمت عليهم النزول إلى هناك، لكنهم استخفوا بي ولم يصغوا إليّ، وإذا لم يعودوا إلينا قبل الغد، يتوجب عليكم إعطائي تقريراً مكتوباً عن الذي عملته أنا في هذه القضية، حتى يعرف الناس جميعاً بأنني بريء بالنسبة لموت هؤلاء الحجاج، وعليّ أن أجيب حولهم عدداً من الناس، وإذا حدث وانتشر خبر القضية في القاهرة، فلسوف أمثل أمام السلطان لأجيب حول أمرهم، ولسوف يبحث الترجمان عنهم ثم إن جانم، حاكم القدس، وكاليئوس الرئيس، سوف يتهماني بالاهمال، وبناء عليه إنهم مالم يعودوا هذه الليلة، فلسوف أطلب شهادة مكتوبة منكم، لأنه حدث أيضاً في رحلة أخرى أنني فقدت اثنين من الحجاج، بالطريقة نفسها، مما تسبب

لي من أجلهما مصيبة كبيرة، كما عانيت من اضطراب كبير جداً، دون أن تكون الغلطة غلطتي»، ولدى سماع هذا، وعده الجميع بأنهم سوف يكتبون له ماطلبه منهم.

وفي الوقت نفسه، تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن مسرورين، ووصلنا إلى ماين أكوام من الرمل، ولذلك لم يعد بإمكاننا رؤيتهم بعد ذلك، وبعدما سرنا لمسافة طويلة، كان بإمكاننا رؤية البحر، لكن بقي أمامنا مسافة لا بأس بها حتى نصل إليه، وبعدما سرنا بخطوات سريعة لمدة ثلاث ساعات، رأينا أنه بقي لدينا الكثير من ضوء النهار، وفقط عندما قررنا أننا بتنا على شاطئ البحر، ظهر أمامنا قطاع عريض بيننا وبينه، وعندما عبرناه توفر قطاع آخر توجب علينا اجتيازه، ولهذا قال واحد من الفرسان لي: «من الواضح يا أخانا، أننا قد جرى تضليلنا من قبل الشيطان، لأن البحر لا يمكن أن يهرب منا، لكن هذا رأينا يهرب منا، ولهذا لا يمكن أن يكون هو البحر، بل لابد أن يكون هو الشيطان، تحول إلى شكل البحر»، وعندما غابت الشمس، اقتربنا من البحر، وعندما شرعنا بالنزول من الشاطئ إلى المياه، وصلنا إلى مكان موحل غرقت فيه الحمير حتى بطونها، ولذلك ترحلنا مع ضيق شديد، لأننا أيضاً غطسنا في الوحل، واقتدنا الحمير إلى خارج الوحل، ثم ربطناهم إلى بعض النباتات الشوكية.

وسرنا بعد ذلك في الوحل، وبصعوبة وصلنا إلى الماء، حيث نلنا راحة قليلة وفقيرة، لأننا لم نخلع ثيابنا، بل غسلنا أيدينا باختصار، وشعرنا بالغضب من أنفسنا لقيامنا بمثل هذه المخاطرة الكبيرة من دون فائدة، وبعدما فرغنا من غسل أيدينا التقطنا بعض أصداف سرطان المحار الغريبة، من على الشاطئ، كبرهان على أننا وصلنا إلى البحر الأحمر، ثم شققنا طريقنا ثانية خلال الوحل، ليس مغسولين بل قذرين، وليس منتعشين بل منزعجين، وليس مسرورين، بل آسفين، وبهذه الحالة

تركنا البحر، وفي ذلك الوقت من الليل، كانت الدنيا مظلمة، إلى حد أننا كنا غير قادرين على رؤية آثار حوافر حميرنا ولا بطريقة من الطرق، ولذلك بما أنه مامن واحد منا قد عرف أين هو الطريق، أونحو أي جانب ينبغي أن نسير، نشب خلاف بيننا حول هذا، وترجل بعض الحجاج، وأخذ يتلمس طبقات حوافر الحمير في الرمال، لكنهم لم يعثروا على أي شيء مؤكد، وذلك بسبب الظلام، ولذلك وقفنا بلا حراك، والشك يساورنا حول أي اتجاه يتوجب علينا التوجه بوجهنا.

وقد توقفنا، وشرعنا بالتشاور بشكل جدي فيما بيننا، لأننا شعرنا أننا نواجه عدة أنواع من الموت، وأن ذلك قريب منا، وأشار بعضنا بعدم السير، وأن نبقي ثابتين حيث كنا، لأننا إذا سرنا في الظلام ربما نقع في مخاطر غير معروفة، وسيكون من غير الممكن بالنسبة لنا الالتحاق برفاقنا فوق هذا السهل الشاسع والمخيف، في حين أننا في الصباح يمكن لنا اللحاق بهم، فور توفر ضوء النهار ليقودنا، وعلى العكس من هذا قال آخرون بأن هذا السهل سوف يكون موضع موتنا، لأنه من المؤكد أنه ما أن يمر منتصف الليل، حتى يكون كاليونس وحشده قد غادروا المكان، وإذا ما انتظرنا حتى الصباح، لن نكون قادرين على اللحاق بهم خلال ذلك النهار كله، ولا بد وقتها من أن تهلك دوابنا، لأننا لا نمتلك طعاماً كافياً حتى لمدة يومين وليلتين، لأننا لم نحمل معنا أيًا من الضروريات للحياة، أي لخبز ولاماء، ثم إننا في اليوم الذي تقدم لم نأكل سوى القليل جداً، وكذلك لم نشرب، وبناء عليه أعطى الشطر الأكبر منا صوتهم للرحيل، لكن في أي اتجاه، كانوا جميعاً غير قادرين تماماً على القول، لأن الظلام كان شديداً إلى حد جعل من غير الممكن رؤية الجبال التي كانت أمامنا، كما أنه لم يكن بإمكاننا رؤية أي طريق، وبصعوبة بالغة كان بإمكاننا رؤية البحر من خلفنا، مع أن البحر

يشع بشكل طبيعي بعض الشيء في الظلام، ولذلك تجولنا فوق طريق غير مؤكد، الآن إلى اليمين، ثم الآن إلى اليسار، وفي بعض الأحيان بشكل مستقيم، وكنا في وقت نستمع إلى نصيحة انسان، ثم بعد قليل إلى نصيحة انسان آخر، ووقفنا في بعض الأحيان دوننا حراك، وأصغينا، آملين بسماع صوت أناس يتكلمون أو يصرخون، لكن بما أننا لم نستمع شيئاً، صرخنا نحن أنفسنا بصوت مرتفع، وبفعلنا هذا، لم نخف من أي لص، لأننا رغبتنا بقدوم انسان إلينا، حتى نتمكن من معرفة شيء مامنه، وإثر هذا، رأينا على الفور ناراً تلتهب أمامنا، وترسل أشعتها المضئية، وتجاه ذلك كنا مسرورين، لأننا اعتقدنا أن رفاقنا قد أشعلوا ناراً من أجلنا، لكن عندما شرعنا بسرور بتتبع هذا الضوء، عرفنا على الفور، أننا قد خدعنا، لأن الذي كان عبارة عن نجم ساطع، عندما أشرق، نشر اشعاعاته من فوق رؤوس الجبال.

وقام الآن اللورد هنري أوف سكومييرغ— وكان رجلاً عاقلاً ومفكراً— فوجه خطاه باتجاه أحد النجوم، وطلب منا اللحاق به واتباعه، قائلاً بأنه وجد في السماء، طريقاً محدداً يقود إلى جماعتنا، لكن كيف وجد ذلك، أنا لست عارفاً، والذي أعرفه، أننا لوتبعناه، لوصلنا مباشرة إلى معسكرنا، والذي حدث أننا بعدما تبعناه لمسافة جيدة، قال أحدهم بأننا كنا نميل كثيراً نحو اليمين، ولذلك تركنا الطريق الذي نصحبنا به اللورد هنري أوف سكومييرغ، وسرنا على طريق آخر على يساره، وأثناء قيامنا بهذا، تخاصمنا في بعض الأحيان، لأن واحداً أراد الذهاب في هذا الطريق، وآخر في ذلك الطريق، وفي أثناء هذه الشدة، كان هناك أمران خفت منهما كثيراً بقدر ماخفت من الشدة نفسها: وكان الأمر الأول، هو أن يشرع الفارسان الرئيسان بيننا بالقتال، ويجردا سيفيهما أحدهما ضد الآخر، لأنني عرفت أن أحدهما كان يكره الآخر بمرارة، ولذلك عندما كان يتجادلان حول الطريق، حرصت على وضع

نفسى وحمارى بينهما، حتى لا يحركهما الغضب بسرعة باقتراب أحدهما من الآخر، والأمر الآخر، هو أننا اختلفنا حول الطريق الصحيح، وهنا خفت أن يتبع أحدهم رغباته، وينفصل عنا، ويهلك، ولذلك بذلت جهداً كبيراً في تهدئة الذين كانوا يتجادلون، ولإرجاع الذين كانوا سيبتعدون، وقلت من وقت إلى آخر لرفاقي المحيطين بي: «لا تكونوا خائفين كثيراً، ولأن يغضب أحدكم من الآخر، ولا ينفصلن أحدكم عن الآخر، لأننا إذا راعينا هذين الأمرين فلن نهلك»، وبناء عليه تابعت سيرنا في شك، وأخذنا نخشى أننا ربما قد تجاوزناهم، لأنه بدلنا أننا الآن في العودة قطعنا مسافة أطول من المسافة التي قطعناها أثناء توجهننا نحو البحر.

وكان الوقت الآن منتصف الليل، وقد اتفقنا جميعاً على وجوب أخذ راحة قصيرة، فوق منطقة مرتفعة، وكنا على مقربة من رابيتين رمليتين وعرتين، لم نتذكر أننا رأيناها ونحن على طريقنا نازلين نحو البحر، مع أنهما لم تكونا عاليتين بما فيه الكفاية، وبناء عليه صعدنا إلى إحدى هاتين الرابيتين، ونظرنا إلى ماحولنا، وأصغينا، وصرخنا، وولولنا، لكن لم يكن هناك من صوت، ولا فهم، ولذلك ربطنا الحمير مع بعضهما، ومددنا أنفسنا فوق الأرض، للاستراحة ولاسترداد أنفاسنا وليس للنوم، لأنه لم يكن هناك نوم لدى أناس كانوا في مثل هذا القلق، ذلك أننا كنا أبناء الموت، وكان لدينا فقط قليلاً من الأمل الموجه في أن نقع، قبل أن نهلك في أيدي البداة العرب، أو المدينين، أو المصريين، فلهؤلاء كنا على استعداد أن نستسلم بإرادتنا، ونقدم أنفسنا أسرى، بسبب «أن قتلى السيف كانت خيراً من قتلى الجوع» [مراثي ارميا: ٩/٤]، ومع هذا وضعنا ثقتنا أخيراً بالرب، وفي العذراء مريم المجيدة، وفي القديسة كاترين، في أن لا يسمحوا بهلاكنا بهذا الشكل التعيس في القفار، ودعونا بعضنا بعضاً في أن لا نستسلم للنوم، بل أن نرتاح بشكل نبقي فيه آذاننا

مفتوحة، لأننا إذا ما كنا على مقربة من جماعتنا، يمكننا سماع الصراخ المعمول من قبل الناس والحيوانات، أثناء تحميل الجمال، لأن الجمال اعتادت أثناء تحميلها على الصراخ، واعتاد الناس على الصراخ أو الغناء، وقد أملنا أن نسمع مثل هذه الأصوات.

وعندما كان الجميع قد تمددوا على الأرض صامتين، لم أستطع البقاء متمدداً فوق ذلك الفراش الذي كان في غاية الخشونة، بل قمت بالتجول من حولهم، أقرأ الصلوات الساعية للعدراء المباركة، وفعلت ذلك بصمت بتحريك شفتي فقط، وكنت أنشد مزاميرها الصحيحة، وأثناء سيرى وتجوالي رأيت ظلاً في الوادي، عند أسفل جبل أجرد، فاعتقدت أن ذلك لابد أنه أيكة نوع من الحشائش الخضراء، لذلك نزلت إلى هناك للحصول على بعضها لتقديمها إلى حماري الذي كان صائماً مثلي، إنما عندما وصلت إلى المكان، لم تكن أيكة خضراء، بل أشواك جافة كثيفة، ولذلك ذهبت من ذلك المكان إلى قمة الراية الواقعة مقابل رايتنا، لربما يحدث فأرى أو أسمع أي شيء من هناك، وعلى تلك الراية تجولت هناك في هذا الاتجاه وفي ذاك، لأن الناس القلقين والغارقين بالتفكير، يسرون من مكان إلى مكان من دون اختيار من قبل أنفسهم، ودون معرفة إلى أين يسرون، وبعد وقت قليل رغبت بالعودة إلى رفاقي، فتسلقت الراية المقابلة معتقداً أن جماعتي كانت معسكرة هناك، ولكنني لم أجدهم هناك، ولذلك ركضت نحو راية أخرى، لكنني لم أتمكن من العثور عليهم، ولذلك وقفت في حالة قلق شديد، ولعنت الليلة قائلاً: «أيتها الليلة المقلقة، التي أنت جديدة بهذا الاسم، أنت بالحقيقة ابنة الأرض، من أب غير معروف، جئت إلى الوجود من خلال صراع الأرض مع نفسها، ومن زواجها من اربوس Erebus المخيف، وعدو الراعي المفيد جداً، فانتيس Pha-netes (الكوكب Planetes ؟)، وتبعاً لذلك، وكما يقول المثل

الشائع، صديقة لأحد، إلاّ مقترفي الشرور، لأن فاعلي الشرور يمتلكون الضوء، ويفرون للالتجاء إليك، لأنك عدوة الشمس، ولذلك:

يغادر اللصوص وكرهم عند منتصف الليل

ليقطعوا أعناق الناس الأبرياء

وفي الحقيقة إنه بسبب الشكوى التي أبداها الليل وقدمها إلى جوبيتر، عندما أراد أن يتحدث إلى محبوبته ألكمينا Alcmena ، أجزى بعربة وأربعة، وفي هذه العربة يدور باستمرار حول الأرض، وتلقى أيضاً القدرة على القمع، قمع حتى الآلهة، وهكذا نراه مع عربته يلوم، ويضغط، ويخفض شجاعة حتى الرجال الأشداء، المليئين بالأفكار العالية، وذلك حتى قدوم الفجر».

وعندما فرغت من ملامتي لليل، اشتد غضبي من نفسي، لأنني عهدت بنفسي إلى تلك الليلة الأعظم خيانة، والمليئة بالفخاخ إلى جميع الذين يسافرون بالبر أو بالماء، ولذلك لجأت بنفسي إلى المصدر الطبيعي للنفس في الآلام، وللروح المضطربة، الذي هو الصراخ بصوت مرتفع (باروخ: ٣)، ورفعت صوتي بالنداء إلى الفارس الأقوى والأنبل، والأكثر إخلاصاً، والأعظم معرفة بالنسبة لي، ودعوته بقلبه فقط، وصرخت «سكومبيرغ»، وفي الحال سمعني، فانتصب قائماً، ومع الآخرين جاء الرد من على بعد: «فيلكس، فيلكس»، وصرخت للمرة الثانية قائلاً «هو، هو» و«أين يمكن أن أجدكم؟ تحدثوا إليّ، إنني أتوسل إليكم، حتى أصل إليكم، لأن الظلام والصمت قد أضلاني»، وهكذا صرخ أحداً إلى الآخر، حتى وصلت إليهم، وعندها لاموني بحدة لقيامي بجولتي الخطيرة والمنعدمة التقدير، لأنني كنت بعيداً عنهم أكثر مما قدرت وفكرت، وعندما عدت إلى هؤلاء الذين كانوا مائز الوفاقين، تمددوا على الأرض ثانية.

وكان منتصف الليل قد انقضى الآن، وصار الوقت هو الوقت الذي اعتاد فيه سائقو الجمال على الشروع بتحميل دوابهم، وهكذا جلسنا بسكون، وصمت، آملين بسماع أصوات الجمال، وبعدما مكثنا هكذا بعض الوقت، فجأة، بدأ صوت الجمال الذي تشوقنا إليه يصل إلى مسامعنا، وبدأ هدير أصواتهم مسموعاً بالنسبة إلينا، ويستطيع الحديث عن المتعة التي شعرنا بها عندما سمعنا هذا، فقط الذي كان واقفاً في رعب على حياته، وفجأة سمع مخلصه وهو قادم، وبالنسبة لنا كان ذلك الصراخ المرعب للجمال، أحلى من أية موسيقى عذبة، ومساوياً تماماً للأغنية القوية التي غناها أورفيوس Orpheus على قيثارته، وقد حدثنا الشعراء أنه بقيثارته جعل الجبال تقفز مرحاً مثل كباش، وجعل أشجار الغابة ترقص، وأوقف مجاري الأنهار، ودجن الحيوانات المتوحشة، فضلاً على هذا ربح بغنائه على قيثارته السيدة النبيلة يوريديس -Eu- rydice ، التي كانت الأكثر جمالاً، وكانت غنية وحكيمة، وعندما بعد الموت أخذت إلى الظلال تحت، لحق بها إلى قعر جهنم، حيث غنى ولعب على قيثارته، حتى تمكن بحبه من تحويل قلوب الذي كانوا يتحكمون في ذلك المكان، وجعل المدانين ينسون عذابهم، وأضاء ظلمات تارتاروس Tartarus، وحظي بمحبوبته يوريديس ثانية، ومثل هذا في تلك الساعة كان هدير أصوات الجمال مثل قيثارة أورفيوس، لأن سرورنا جعلنا نرى التلال تقفز مرحاً، والغابات ترقص، والماء الذي يجري حزيناً قد توقف عن الجريان، وسررنا كثيراً لأننا جرى اقتيادنا بهدير أصوات الجمال، وأخرجنا من بين فكي الموت.

ونهبنا على الفور، وامتطينا ظهور حميرنا، ونزلنا من جانب الهضبة، أو بالحري قفزنا، وعندما وصلنا إلى الصخور في الأسفل، طرنا فوقها إلى السهل، وسرنا باتجاه الضجيج الصادر عن الدواب، ونزل بنا الآن رعب جديد، فقد خشينا أن يصدف، فتكون هذه قافلة غريبة للبداة

العرب، أو المدينين، وأنه من الممكن أن نقع في أيدي أعداء، لكن عندما اقتربنا، سمعنا أصواتاً معروفة بشكل جيد بالنسبة لنا، ومع حمد الاسم الرباني دخلنا إلى المعسكر ثانية، ووجدنا هناك جملين محملين بالخبز والماء، مع بدويين عربيين من السائقين كان رفاقنا قد عزموا على إرسالهم للبحث عنا، لكنهم لم يشعلوا ناراً في المعسكر في تلك الليلة، من أجل معاقبتنا، لأننا رفضنا الطاعة عندما دعانا كل واحد إلى العودة.

واستقبلنا كالينوس استقبالاً سيئاً، وأظهر عدم رضاه عنا بكل من الكلمات والتصرفات، وأخبرنا بحكاية حول كيف حدث فيما مضى، على مقربة من هذه البقعة تماماً، أن اثنين من الحجاج نزلا بشكل سري نحو شاطئ البحر، وأضاعا طريقهما، كما حدث معنا، وركضاً في هذا الاتجاه وفي ذاك حول القفار، لمدة ثلاثة أيام، وأخيراً تم العثور عليهما من قبل بعض المدينين، يتجولان بشكل جنوني، وقد أحضر وهما في تلك الحالة إلى رفاقهما من الحجاج الآخرين، الذين كانوا آنذاك في مصر، حيث ماتا خلال بضعة أيام، ولولا أننا وجدنا—بفضل رحمة الرب—طريق عودتنا إلى رفاقنا، لاشك لدي أننا كنا سنقع في أقسى الشدائد، ولكان الفارس الذي حرضنا على الذهاب قد جرى تمزيقه إلى قطع من قبل الآخرين من الحجاج، ومهما عشت في هذه الدنيا، أنا لم أشهد ليلة أشد كآبة من تلك الليلة، وفي الحقيقة كان الذي حدث معنا مثل الذي حدث مع رفاق يوليسيس Ulysses الذين جميعاً جلبوا إلى المخاطر من قبل رفيقهم الملاح يوريالوس Euryalus، مع أنهم حذروا بعدم الابحار.

رحلة إلى البحر الأحمر وسرور الحجاج العارم

في اليوم الثالث من الشهر، وقبل اكتمال الفجر، غادرنا حسب عادتنا وردك (كذا) وسرنا فوق سهول رملية شاسعة، وقبل اشراق شمس النهار، قابلنا مجموعتين من (الرجال الممتطين) للجبال، كان لابد

لمجموعتنا من الوقوع في وسطهم، لولا أننا وصلنا إلى رفاقنا، وعندما صار النهار مضيئاً، وصلنا إلى برية سين، وكنا قرييين تماماً من البحر، وكانت هذه أول برية وصل إليها بنو اسرائيل بعد عبورهم البحر الأحمر (الخروج: ١٦ / ١).

علاوة على ذلك عندما كانت هاجر مولاة سارة هاربة من أمام وجه سيدتها، وكانت تريد العودة إلى مصر، حيث كانت قد ولدت، وجدت ملاك الرب يتجول وحده في هذه القفار، وقد أمرت من قبله بالعودة إلى سيدتها ساره، وأن تتواضع أمامها، وقام بالوقت نفسه بالتنبؤ لها كثيراً حول ولدها الذي حملته برحمها، أي ابنها اسماعيل، الذي كان ولداً لجميع الاسماعيليين، والهجارين، والمسلمين، وسكان جبل سعين.

والآن بما أن عدداً كبيراً من موالى الحجاج لم يكونوا قد رأوا البحر الأحمر، سألوا كاليينوس عما إذا كان بإمكانهم النزول إلى هناك، لاسيما وأن المكان كان قريباً من المكان الذي قيل بأن بني اسرائيل قد خرجوا فيه من البحر الأحمر إلى برية سين (الخروج: ١٧ / ١)، وبناء عليه أعطى كاليينوس إلى الحجاج خدمه من البداية العرب، ليكونوا أدلاء لهم، ونزلنا جميعاً معهم نحو البحر الأحمر، لأنه وإن كان حجاج الفئة الثالثة قد نزلوا إلى البحر، مع ذلك هم لم يتعلموا شيئاً يتعلق به، وقد تشوشوا كثيراً ورغبوا في رؤيته بوضوح كامل، ولذلك نزلوا مع الآخرين، غير أن الجمال تابعت سيرها على الطريق العام، وبعد مسير ساعة، وصلنا إلى مياه البحر، ومع أن الوقت كان ما يزال باكراً، خلعنا ثيابنا، واستحمينا في البحر الأحمر، وهناك عمّدنا أنفسنا، وإنني أقول، إنه في ذلك البحر ذاته — حسبنا حدثنا الرسول (كورنثا: ٩ / ١) — قد تعمد آبؤنا الأولون حتى موسى، لأنه هنا سار بنو اسرائيل فوق أرض جافة من الشاطئ الأول للبحر حتى الشاطئ الآخر، فبوساطة معجزة انحسرت مياه البحر ووقف على شكل كومة على كلا الجانبين، وفي الحقيقة إن البحر

ليس عريضاً في هذا المكان، ولربما هناك ميل واحد إلى فم الخيروت على الجانب الآخر، ومع ذلك البحر عميق وهائج، وكان عند فم الخيروت على الشاطئ المقابل لنا، قد ضرب موسى البحر بعصاه، ففتح طريقاً، ومضى بنو اسرائيل في البحر، ولحقهم فرعون بعرباته وفرسانه.

وحدثنا أورويسيوس Orosius ، أنه في هذا المكان، من الممكن مشاهدة براهين مؤكدة عن الذي حدث هناك، لأن آثار العربات والدواليب من الممكن رؤيتها، ليس على الشاطئ فقط، بل أيضاً في المياه العميقة، وبذلك بقدر ماتستطيع العين أن تفذ وأن ترى، ومن الممكن أن يرى على قعر البحر كذلك حفر عميقة جداً، فيها مضى المصريون نحو الأسفل مثل الرصاص، وبعد وقوع هذه الأشياء، لم يكتف المصريون الأحياء أنهم لم يعرفوا الرب، بل جعلوا ذلك مناسبة للوثنية، لأنه في « حياة الآباء»، أخبرنا أبولونيوس Apollonius، بأن المصريين الذين لم يذهبوا مع فرعون، اعتقد كل واحد منهم بأن الشيء الذي كان مشغولاً به، أثناء غرق البقية، هو ربه، وقد عبده، قائلاً: « هذه الحشائش، أو هذا الخشب، أو هذا الخبز، أو هذه الدابة، وهكذا دواليك، هو اليوم ربي، الذي أنقذني من الغرق في البحر مع فرعون»، وهكذا تضاعفت أعداد الأوثان في أرض مصر، وفاقت بتعدادها جميع البلدان الأخرى في العالم.

وهنا على هذا الجانب من البحر، حيث كنا نستحم، قذف البحر بأجساد المصريين، وهنا قام بنو اسرائيل بنهبها وسلبها، ووجدنا على شاطئ البحر أصداً غريبة، وأصداً المحار من مختلف الأشكال والألوان، وكميات هائلة من المرجان الأبيض، ولم نر هناك أي مرجان أحمر، مع أنه ينمو ويتكاثر هناك، هذا ويقول بعضهم بأن المرجان أثناء نموه في البحر، هو دائماً أبيض وناعم، وأنه فقط عندما يؤخذ من البحر ويجفف يغدو أحمر اللون، كما هو الحال بالنسبة للمرجان المستخرج من

بحر صقلية.

وأطلق على هذا البحر اسم البحر الأحمر، بسبب اللون الزهري لأمواجه، لكن لون مياهه بالطبيعة ليس أحمر، كما قد يوحي الاسم، وتنصبغ هذه المياه وتندبغ بوساطة شواطئه التي تحيط به، لأن جميع الأراضي المحيطة بهذا البحر حمراء، أو ذات لون دموي، وبناء على طبيعة التربة، فإن مياه البحر تضرب بالتدرج الشواطئ، ومن ثم تذوب التربة في المياه وتلونها، وعلاوة على ذلك يعثر الناس على هذه الشواطئ على جواهر حمراء، وأصداف محار حمراء، وينمو على الجزر هناك شجر البرازيل الأحمر، وتذوقنا مياهه، وقارنا ملوحتها مع ملوحة بحرنا المتوسط، فوجدناها أكثر ملوحة ومرارة من بحرنا، مع أن البحر الأول، والبحر الآخر يصدران عن مصدر المحيط نفسه، الذي هو نفسه مالح جداً، وعلل فلاسفة الطبيعة هذه الملوحة بعدة أسباب، ومثلهم فعل اللاهوتيون والشعراء القدماء، وكنت قد عرضت من قبل الأسباب الطبيعية واللاهوتية في ص ٢٢٣-٢٢٦، واحتفظت بالسبب الشعري حتى الآن.

فلقد ذكر بعض أقدم الشعراء بأن واحداً اسمه ديموغورغون De-mogorgon وكان عفريتاً مربعاً جداً، وأعظم أبناء الأرض، وقد عاش أولاً بين الأرباب على شكل بشر، ومن المفترض أنه قد قيل من قبل الرجال المذنبين القدماء، بأنه كان المسبب الأول وخالق جميع الأشياء، وذلك حسبما يمكن قراءته في كثير من الشعر القديم، وقد حكوا حول ديموغورغون أساطير كثيرة، عن كيف أنه لم يكن هناك ضياء في قبة السماء، وذلك عندما لم تكن هناك أرض، بل كانت محجوبة في الظلام، ولذلك ضجر ديموغورغون من الظلام اللامحدود، فتسلق إلى قمة جبال أكروسيرونيان Acroceraunian، واقتطع منهم قطعة كبيرة كانت كتلة ضخمة جداً كانت ملتهبة، وقد جعل أولاً هذه الكتلة

كروية بألسته، ثم طرقها حتى صارت قاسية فوق جبل كوكاسوس Caucasus، ثم حملها إلى ماوراء تابروين Taprobane، وغطسها في مدار مضيء ست مرات في الأمواج، وطوّح بها من حوله في الهواء مرات كثيرة، وقد فعل هذا من أجل أن لا يتلاشى مطلقاً، أو يتيبس ويصداً، ويتساقط إلى قطع خلال العصور، ولكي يستطيع التحرك بنشاط إلى جميع أجزاء العالم، ثم إنه رفع نفسه مباشرة، ودخل إلى كيان السموات، وملاً جميع مملكة أبيه بالضوء.

وحدث أنه بسبب التغطيس بالماء، الذي كان من قبل عذباً، فإن هذا الماء صار مرّاً مع ملح، وصار الهواء مغلقاً بشكل محكم وذلك بسبب الزوابع، أي حتى تتلقى أشعة من الضياء، ويكفي الآن ما قيل عن هذا.

ومع أن هذه والقصص المشابهة قد تظهر أنها خيالية من الظاهر، لكن زبدتها ملئية بالحقائق الطبيعية واللاهوتية، وذلك كما تعلمنا من كتاب يوبيت Jobait (؟) حول «أنساب أرباب الكفار»، حيث استخرج خلاصات جميلة جداً من كتابات الشعراء.

ويقول الملاحون بأن ملوحة البحر تؤثر فقط على ماء السطح، وأنه على بعد عشر خطوات تحت السطح يمكن العثور على المياه العذبة، ولا أمثل لك أنا خبرة تبين هل هذا صحيحاً أم لا، وكان هذا البحر الأحمر يدعى في العصور القديمة جداً باسم بحر الأيريتيرين Erythraean اشتقاقاً من اسم الملك إيرترايوس Erythraeus ، الذي كان ابن فرسوس وأندروميديا، وحكم هذا في البلاد القريبة من هذا البحر، وفي الجزر الموجودة فيه، وقد كان ملكاً جباراً، ولذلك عندما مات على أعظم الجزر شهرة، بنوا له ضريحاً واسعاً وتعبدوه كرب، وأطلقوا على البحر الأحمر اسم بحر الأيريتيرين، وكان ذلك اشتقاقاً من اسمه، ويدعو الاغريق البحر باسمه هذا حتى هذه الأيام، لكن العبرانيين يسمونه جام سوف Jam suph، وذلك حسبما حدثنا جيروم في

رسالته إلى فاييولا، حول الأبعاد الاثني عشر.

ومكثنا نتمشى على ساحل هذا البحر لمدة تزيد على الساعة، وبعد ذلك امتطينا ظهور حميرنا، وسرنا مسرعين عائدين نحو الطريق العام، وبادرنا مسرعين خلف جمالنا، الذين قطعوا مسافة طويلة أماناً، ذلك أننا كنا قلقين من التخلف وراءهم، وعندما شاهد البداية العرب رغبتنا بالسير بسرعة، ساعدونا في دفع حميرنا للاسراع بوخزهم من الخلف برماحهم، وعندما شعر الحمير بهذا طاروا مسرعين مثل الخيول، بخطوات سريعة للنجاة من وخزات البداية العرب، لكن البداية العرب تابعوا وخزهم لهم، وأنالم أشهد قوماً مسرعين، مثلما ركضوا هم، فقد امتلكوا أرجلاً طويلة ملتوية، ولم يرتدوا أحذية، أو صنادل، أو أحزمة، وكانوا يأكلون القليل من الخبز، ويشربون القليل من الماء، ولذلك كانوا عندما يركضون لا يشعرون بأي ألم في أجوافهم، أو ضغط على صدورهم، أو قصور في التنفس، وهو مانعاني منه كله جميعاً، وأفترض أن ذلك بسبب اطعامنا أنفسنا أكثر مما يلزم في كل يوم، ويركض البداية العرب «خفاف الأقدام كظبي البر»، مثلما فعل عسائيل [صموئيل الثاني: ١٨/٢]، ولا يستطيع رجل ممتطياً لفرس سريع أن ينجو منهم، لأنهم يمكنهم متابعة الركض لمسافة طويلة، ويفعلون ذلك مع السرور والمرح، ولم أضحك من قلبي خلال حجي كله مثلما فعلت عندما صعدنا من شاطئ البحر إلى الطريق السلطاني العام، لأن البداية العرب مزحوا معنا، وسبقونا، ورقصوا وتقاتلوا مع بعضهم برماحهم، وكان بينهم بدوي عربي غريب، أنا لم أره من قبل، وقد لعب ألاعيب غريبة مذهشة وتبريحية، وقد جعلني أضحك مراراً إلى حد أنني خفت أن أسقط من على ظهر حماري لإفراطي بالمرح.

وسرنا بهذه السرعة، مع البداية العرب وهم يلعبون من حولنا، لمسافة تقارب ميلين ألمانيين، وعندما وصلنا إلى الطريق السلطاني العام، نزلنا

إلى داخل سهل آخر شاسع حيث رأينا جمالنا وقد أناخوا إلى جانب بعض الآبار، ومعهم سائقي الجمال، ولذلك نزلنا نحو ذلك المكان، ووقفنا عند تلك الينابيع، حيث سقينا جمالنا وحيرنا، غير أننا أنفسنا مجعنا الماء الذي كان مالخاً بعض الشيء، وكان علاوة على ذلك ساخناً من قبل الشمس، وله لون أحمر، ويعرف هذا السهل وهذا القفر باسم ماره [الخروج: ١٥/٢٣، العدد: ٨/٣٣]، فبعدهما عبر بنو إسرائيل البحر، وسلبوا المصريين الذين قذفوا على الشاطئ، بحثوا عن الماء، لكنهم لم يجدوا شيئاً، إنما حدث ربنا بتوجيه واحد ما أن نزلوا إلى هاهنا، ووصلوا في اليوم الثالث إلى هذا المكان، وطلبوا الماء وبحثوا عنه، ولأنه لم يقع على طريقهم، انحرفوا جانباً عن طريقهم للحصول على الماء للشرب، كما غالباً يفعل الناس في القفار، وعندما وصلوا إلى هنا لم يستطيعوا شرب مياه ماره، لأنها كانت مياه مرّة [الخروج: ١٥/٢٣]» فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه الرب شجرة فطرحتها في الماء، فصار الماء عذبة، وورد ذكر هذا أيضاً في سفر يهوديت: ٥، وقال اللاهوتيون بأنها كانت شجرة من خشب مالخ جداً، ولكي تكون المعجزة مدهشة أكثر، تتحول المياه المرة إلى مياه عذبة وقابلة للشرب برمي خشب مرّ فيها، وهذا التعاكس كما يبدو هو الذي عُنِي بالإنبياء: ٣٨/٥ قوله: «ألم يجعل الماء عذبةً بخشب؟» لأن النص المقدس قد تحدث هناك عن السمات الطبيعية للذي ينمو في الأرض، والذي أعتقده أن هذه العذوبة، التي عملت في هذه المياه بوساطة الخشب لم تستمر، إلا فقط حتى مغادرة بني إسرائيل، وبعد ذلك عادت إلى مرارتها الطبيعية.

وملوحة هذه المياه طبيعية، ولذلك من الممكن شربها من قبل الدواب، ومن قبل بعض الناس، لكن ليس من قبلهم جميعاً، والسهل كله مستنقعي ومليء بالماء، التي تنبع وتتدفق من البحر الأحمر، ويعتقد

كثير من الناس بأن الأردن يجري من البحر الميت، بعيداً حتى هذا المكان من خلال قناة تحت الأرض، وينبع هنا، وذلك كما تقدم لي وذكرت، ويحكى البداة العرب حكايات خيالية كثيرة حول هذه الينابيع، من ذلك أن نعجات كن يشربن هناك قد حملن بخرفان حمر، وذلك مثلما قرأنا عن النبع الذي اسمه ميلا Mella ، من أن نعجات شربن من هناك فحملن بخرفان سود، علاوة على ذلك إنهم يفترضون على هذه الينابيع، ويقولون إن كل من يشرب منهم يصاب بمرض، من نوع أنه لا يبقى رجلاً بعد ذلك، وبعدما شربنا حملنا الجمال ثانية وغادرنا ماره إلى شاطئ البحر الأحمر، وسرنا فوق سهول رملية شاسعة جداً، ووصلنا عند غياب الشمس إلى مكان يدعو العرب باسم Hanada حيث نصبنا خيامنا، لكن المنطقة كانت جرداء، لذلك واجهنا كثيراً من المصاعب في العثور على مايكفي من عصي جافة لنطبخ لأنفسنا بعض الطعام الساخن.

مسائل يتوجب ذكرها من أجل فهم صحيح للكتابات المقدسة

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم القديس فرانسيس المعترف، غادرنا Hanada في الصباح الباكر، قبل اشراق الشمس، وسرنا فوق سهول شاسعة جداً، ومقفرة على جانب البحر الأحمر، حتى وصلنا إلى بعض الجبال، عند سفحها يرسل البحر لساناً نحو الأمام ويصل هنا إلى النهاية، وفي المكان الذي ينتهي فيه البحر الأحمر هناك، هناك ميناء تصل إليه السفن، وفي هذا الوقت تحررت من شك كبير، ساورني وبقي معي طوال الرحلة كلها، لأنني وان كنت أعرف بشكل أكيد أننا ينبغي أن نخرج من القفار إلى أرض مصر لم يكن بإمكاننا التخمين كيف سنقوم بعبور البحر الأحمر، لأنني كنت أعتقد أن البحر الأحمر متصل بالبحر المتوسط، لأن بني اسرائيل قدموا إلى القفار بعد عبور البحر الأحمر، وكنت لا أفترض أن مسيحياً يمتلك أي طريق من الأرض المقدسة

وجبل سيناء، إلا عبر ذراع البحر الأحمر، الذي عبره خرج بنو اسرائيل من مصر، وأنا نحن لا يمكننا فعل غير ذلك، وذلك إذا ما كان البحر الأحمر متصلاً بالبحر المتوسط كما افترضت، ومع ذلك اعتدت على التساؤل، إنه إذا لم يكن هناك طريق إلى مصر إلا عبر البحر الأحمر، كيف لم تعمل الكتابات المقدسة أية إشارة إلى ذلك، حيث أننا قرأنا عن كثير من الناس كانوا ينزلون إلى مصر من الأرض المقدسة، ويعودون ثانية، ومع ذلك لم ترد الإشارة إلى البحر الأحمر، إلا عندما خرج بنو اسرائيل من مصر، وإذا كان بإمكان الانسان أن يخرج من مصر إلى جبل سيناء بطريق آخر، لماذا جرى اقتياد بني اسرائيل عبر طريق غير عادي عبر البحر، وليس عبر الطريق العام فوق اليابسة؟ ووضعت الخبرة اليوم نهاية لشكوكي، لأن البحر الأحمر ليس متصلاً بالبحر المتوسط، بل هناك مكاناً شاسعاً وكثيراً من التلال تفصل أحدهما عن الآخر، ويجري بين الاثنين طريق عام من الأرض المقدسة إلى مصر، من دون عبور لذراع البحر، والذين يرغبون بالذهاب من مصر إلى جبل سيناء يعبرون فوق هذا، ويسيرون صاعدين إلى هناك، على طول شاطئ البحر الأحمر، وذلك من دون عبور للبحر في السفن، ثم يمكنهم الصعود من أرض مصر مباشرة إلى جبل سيناء، كما يمكنهم أخذ طريق أقصر بكثير من ذلك الذي يقود الآن، حول رأس ذلك البحر.

ولذلك اقتاد الرب بني اسرائيل، وأخرجهم عبر الطريق الأقصر عبر ذراع البحر، لأنه يقع في مواجهة جبل سيناء، ووفر على الناس القيام بالاستدارة، وبذلك كان بإمكانهم الوصول بشكل أسرع إلى جبل الرب، وأعماله الرائعة، وذلك حتى يمكنه إظهار قدرته، وأغرق أعداء شعب الرب، ولو أن الرب قد رغب باقتياد بني اسرائيل مباشرة إلى الأرض المقدسة، وقتها كان الطريق الآخر عبر الفراغ فيما بين البحرين، طريقاً أقصر بالنسبة للوصول إلى فلسطين، لكن الرب لم يختَر هذا، وقد

جرى تبیان سبب هذا في سفر الخروج: ١٤، وكذلك من قبل، وانظر أيضاً تعليقات دي ليرا على النص، وكذلك كتابات مصنف Spec-ulum Historiale.

وشاهدنا في هذا المكان، وفي المنطقة التالية عند نهاية البحر الأحمر الأعمال الهائلة لقدماء ملوك المصريين الذين سعوا إلى جلب البحر الأحمر إلى النيل، ولذلك شرعوا بالحفر خلال جبال البرزخ عند رأس البحر، لتقسيم التلال، وللحفر خلال وسط الحجارة والصخور، وعملوا قناة ومجرى للمياه إلى مدينة Arsinoe التي تعرف أيضاً باسم الكليوبترية، وبدأ العمل في حفر هذا المجرى أولاً من قبل سيسوستريس Sesostris ، ملك مصر، قبل حرب طروادة، وذلك مقابل نفقات كبيرة، وبعد ذلك من قبل داريوس ملك فارس، الذي حاول عمل ذلك، لكنه تركه دون انتهاء، وأكمل فيما بعد بن من الطراز الأول من قبل بطليموس الثاني، وجاء ذلك وفق طريقة أن المجرى كان ينغلق وينفتح من قبل نفسه فقط، وقصد الناس القدماء من هذا العمل وصل الشرق والغرب مع بعضهما، لأن نهر النيل يجري ليصب في البحر المتوسط، وإنه إذا مادخل إلى البحر الأحمر، يمكن للناس وقتها الإبحار خلال ذلك النهر من البحر المتوسط والمحيط الغربي إلى داخل البحر الأحمر، وإلى الخليج العربي، وإلى البحر الفارسي والبربري، لابل حتى البحر الهندي في الشرق، وبذلك يمكن للسفن القدوم حرّة من الهند، وفارس، وجزيرة العرب، وميديا، وجميع ممالك الشرق، إلى اليونان، وإيطاليا، وفرنسا، وإيرلندا، وإنكلترا، وألمانيا، في حين على العكس من ذلك لايمكن للسفن من بلدان المشرق القدوم إلى ماوراء نهاية البحر الأحمر، حيث تتصل صحراء العربية بمصر، كما لايمكن للسفن القادمة من البلدان الغربية الذهاب أبعد من الاسكندرية التي تشكل حداً لآسيا وأفريقيا.

وفي أيامنا حاول واحد من ملوك اسبانيا أن يعثر على طريق من المحيط الغربي— أي أن تقول من البحر الخارجي، الواقع خارج أعمدة هرقل— إلى المحيط الشرقي وإلى بحر الهند، لكن هذه المحاولة كانت بلافائدة، مع أنهم قالوا بأنهم اكتشفوا بعض الجزر الثمينة، التي لم تكن معروفة من قبل.

وكان للبطالة ملوك مصر، من محاولتهم لوصل الشرق بالغرب، وفق هذه الطريقة هدفين اثنين تطلعا إليهما، كان أولهما التمكن من امتلاك السلطة على كلاهما، لأنهم حسبوا كانوا، كانوا قائمين فيما بينهما، والهدف الثاني أن يتوفر طريق إلى جميع أجزاء الدنيا، للتجار وللتجارات، ولذلك يمكن للمصريين جباية الخفارات وضرائب العشور من تجارات العالم كله مشاهدين أن الطريق لا بد من أن يمر خلال بلادهم، وصدقاً، لو أنهم أكملوا ذلك العمل، لكان عملاً رائعاً، فوقتها كان يمكن للناس الابحار إلى مصر من البندقية، لابل من فلاندرز ومن إيرلندا، ويمكنهم الذهاب عبر النيل إلى الخليج العربي، والوصول إلى أرض القرفة، ومن ثم الوصول إلى بلاد الهند الثرية جداً، التي حُذثنا أنه يوجد بين عجائبها أنها تمتلك شتائين وصيفين في سنة واحدة، وجبالاً من الذهب، جبالاً حقيقية، وليس مجرد كلام، وأن فيها أربعاً وأربعين منطقة مختلفة، ووقتها سيتوفر من خلال البحر الهندي طريق لنا نحن الغربيين إلى بلاد فارس، وفرثيا، وميديا، والعربية المباركة، وسبأ، وكلدانيا، ولسوف تمتلك شعوب الشرق طريقاً تستطيع أن تقدم عبره إلينا، وبناء عليه إنه بهذا العمل يمكن جمع الأجزاء الأساسية من العالم مع بعضها، وأعني بذلك: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا.

وحاول البطالة المصريون، وقد جذبتهم هذه الآفاق، مع فن وبراعة عظيمة تقسيم قمم الجبال الصخرية وشقها، وجلب المياه وتركها تجري، وكأنهم تقمصوا بقدرة هرقل وجبروته، الذي ووفقاً لما جاء في حكاية

قديمة جداً، قام بشق الجبل الذي أوقف جرفه الأصم المحيط، وعمل جبلي أبيلا Abila وكالب Calpe، من الجبل الواحد، حيث من بينهما أطلق البحر المتوسط، الذي لم يكن موجوداً في الأرض بعد، كما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

ولو أنه كان مع المصريين في هذه المحاولة هرقل ليساعدهم، وتيتان وأولاده، الذي ذهب إلى الحرب، مع يوف Jove والأرباب الآخرين، وللصراع لانتزاع السماء منهم، ولذلك قيل بأنهم كدسوا الجبال أحدها فوق الآخر، حتى يتخذوا لأنفسهم طريقاً إلى السماء، أقول لو أنهم امتلكوا مثل هؤلاء، لأمكنهم إزاحة الجبال فوراً، ولاستطاعوا بسهولة جلب البحر إلى مصر.

وعندما كان المصريون يبذلون غاية جهدهم في سبيل العمل المتقدم ذكره، اجتمع حكماء مصر مع عقلائها، وتناقشوا حول العمل الذي شرع به، وتناظروا عما إذا سيكون مفيداً وعملياً أم لا، ولدى توصلهم إلى الحقيقة، أشاروا على الملك بطليموس التوقف عن العمل بكل وسيلة من الوسائل، لابل إنهم استخدموا كل الوسائل التي توفرت لديهم وكانت بمقدورهم لجعل مصر كلها تتحد معهم في مقاومة ومنع الذي سيطلق البحر عليهم، لأنهم اعتقدوا أن ذلك سوف يكون أشد الأعداء خطراً على بلاد مصر وأراضيها، لأنه بالتقاء هذين البحرين سوف يجري ابتلاع مصر كلها، ولنسوف تغمرها أمواج المحيط، وقد قالوا: « نحن نعرف أن مياه البحر الهائجة لا تستقر في مكان واحد، بل أينما وجدت طريقاً للجريان تندفع بشدة متناهية، وتقهر كل شيء، لابل أكثر من هذا، فنحن إذا ما افترضنا أن مياه البحر سوف تستقر في قناة النيل، فإنها سوف تلوث مياه النيل الصحية والعذبة، وهي المياه التي تسقي مصر كلها، ومنها تشرب جميع مصر، لانعدام الآبار في البلاد، ولنسوف تجعل مياه النيل مرة، وغير قابلة للشرب، وبلا فائدة، فكيف على هذا يمكن

لمصر أن تبقى إذا فقدت خدمات النيل؟ فبالضرورة سوف تكون غير مسكونة، لأنها لا تتلقى نعمة مطر السماء، الذي يتساقط على بقية أجزاء العالم، علاوة على ذلك، وإلى جانب هذا كله، نحن نعرف بشكل صحيح، أن مانخشاه على مصر بهذا العمل هو أنها سوف تتعرض للدمار مع الأراضي البعيدة، وذلك عندما نقدر الحجم الكبير للمحيط، والهائل الذي لا مثيل له، مع جبال أمواجه العاتية التي تصل حتى السماء، والفتحات المظلمة فيما بينها، ويبدو لنا أننا ماأن نسمح للمياه الهائجة غير المدججة بالعبور فوق حدودها، سوف يعقب ذلك على الفور تدفق كتل هائلة من المياه، وأول ما سيحدث هو أن جميع جزر البحرين سوف تغطي عليها المياه، ولسوف تجرف المياه: الفرس، والميديين، والعرب أيضاً جميعاً مع المصريين، ولسوف تغرق جميع الأراضي على شاطئ البحر، ثم إن إيطاليا لن تنجو من تلقي نصيبها من القوى غير الملحومة، ولسوف يطوف الأرخبيل البندقي وينغمر، ولن يتوقف البحر حيث هو، كما أن أمواجه لن تتوقف مطلقاً حتى تملأ الوديان الدنيا للألب، وتصل حتى سفوح أعالي الألب، وذلك كعلامة تبرهن على أن هذه الجبال قد عملت قبل عصرنا، هذا وتقدم لي أن تحدثت بعض الشيء عن هذا الموضوع في ص ٢١٧ وماتلاها.

وعندما سمع الملك بطليموس هذا، وتصور أن ذلك صحيحاً، تخلى عن العمل، ومع ذلك ترك برهانا أبدياً حول تصاميمه العظيمة حول هذه الجبال والتلال، وفي الحقيقة لولا أن مستشاريه وضعوا نهاية لهذه الأفكار، بتقديمهم الذي اعتقدوه حول هذه المسألة، لكان من المؤكد أنه أنهى هذا العمل ونفذه، لكن ليس التنفيذ والنهائية التي أرادوها، ثم إن ذلك لم يكن مسألة صعبة جداً، مشاهدين أن المسافة بين النيل والبحر الأحمر لا تتجاوز ستة أميال ألمانية.

وانظر أيها القارئ إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عن

حجي، وارتحلت تقريباً حول العالم كله، وذلك بسبب قلل الجبال والصخور القائمة هنا أمام أعيننا، وهكذا وقفنا عند نهاية هذا البحر لوقت طويل، ونحن نحدق ونتعجب منها، وأخيراً سرنا على طريقنا، وأدرنا ظهورنا للبحر الأحمر، وارتحلنا فوق سهل رملي شاسع.

حج المسلمين إلى مدينة مكة وشعائهم السخيفة

في معبد محمد ﷺ

وقابلنا على هذا السهل في هذا اليوم وفي كل مكان حشوداً من الناس مع جمال محملة، ومع حمير وخيول، وجهاز ثمين، وفي الحقيقة كان هناك في قافلة واحدة مايزيد على خمسمائة جمل، يحملون الضروريات لاستخدام الناس الكثيرين من كلا الجنسين الذين رافقوهم، وكان هناك أناس فاخرين من أغنياء المسلمين، كانوا ذاهبين للحج إلى مكة، ولزيارة قبر نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم] وفي الحقيقة صدر الأمر إلى أتباع محمد ﷺ بالذهاب كل سنة إلى مكة، إلى بيت الله، الموجود هناك، وأمروا أن يقوموا هناك بالعبادة، وبالسير حول بيت الله، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، وأن يرموا حجارة من بين أطرافهم نحو الخلف لقمع الشيطان.

ويقول المسلمون، بأن آدم بعدما نفي من الجنة، تولى بناء هذا البيت شريفاً لله، وكان هذا البيت، بيت صلاة لجميع أولاده، حتى أيام إبراهيم، فقد أعاد إبراهيم عمارته وترميمه وقدم أضحية هناك فيه، وبعد موته تركه إلى ابنه اسماعيل وله ولأولاده، وبقي مكاناً للصلاة لسنين طويلة متوالية حتى ولادة محمد ﷺ، فعندما ولد أعطاه الله إياه بمشابة ميراث له ولجميع الأجيال التي جاءت من بعده، والآن كم هي هذه حكاية غير أصيلة وقطعة من الزيف، لأن كل ما قيل فيما يتعلق بهذا

البيت ليس له مايؤيده أو يزيكه في أي جزء من الكتابات المقدسة (١)، بل هو مدسوس فيها على شكل تعليقات، لأن هذا البيت كان قبل أن يبشر محمد ﷺ بشريعته مليء بالأوثان، وقف هنا قليلاً أخي الانساني، فأنا أرجوك فعل ذلك لأنني سوف أبرهن لك بوضوح وأين أي نوع من البيوت كان في البداية، ومالذي كان مقدساً فيه، ولماذا أمر محمد ﷺ شعبه بالذهاب إلى هناك، والقيام بالأعمال التي بينها من قبل، فلقد اعتاد ولدا لوط: عمون، ومآب، على تشريف هذا البيت، وعبادة صنمين كانا هناك فيه، كان أحدهما معمولاً من رخام أبيض، واسمه ميركوري، وكان الآخر من رخام أسود، وقد دعوه باسم خيموش CHEMOSH ، وقد عبدوا ذاك المصنوع من الرخام الأسود حتى يقدموا التشريف إلى ساتورن (زحل) وعبدوا المعمول من الرخام الأبيض تشريفاً للمارس (المريخ)، وعبدوا هذين الصنمين مرتين في السنة، وقدموا لهما الطاعة، أولاً للمارس، عندما تدخل الشمس أولاً إلى برج «الكبش»، لأن الكبش مقدس عند مارس، وعندما يغادره يجري بالعادة رمي حجارتها، وثانياً لساتورن، عندما تدخل الشمس إلى برج «الميزان»، لأن الميزان مقدس عند ساتورن، ووقتها يحرقون البخور وهم عراة ورؤوسهم مخلوقة.

واعتاد العرب أيضاً على عبادة هذين الوثنيين مع العمونيين والمآبيين، وبعد مضي سنين طويلة كثيرة جداً جاء محمد ﷺ الذي رغب في إزالة العادات القديمة السالفة الذكر، للناس، وغير طرائق العبادة بعض الشيء، وسمح بالسير حول البيت، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، ثم إنه خشية منه ﷺ أن يبدو وكأنه يعلمهم التضحية للأصنام، بنى لهم تمثالاً

١ — أن يقول راهب هذا هو أمر منطقي بالنسبة له، لكن علمياً تحتاج الكتابات المقدسة إلى من يزيكها، لأنها ركام متبدل متنوع من المعلومات المخترعة الزائفة، وكان هذا مدركاً لدى الأوائل، انظر كتاب «الدين والدولة» لعلي بن ربّين الطبري — ط. بيروت ١٩٧٩

لساتورن، وذلك في جدار زاوية البيت، ثم إنه خشية من رؤية وجه هذا التمثال ترك ظهره ظاهراً من الجدار الخارجي، أما بالنسبة للوثن مارس، فقد دفنه تحت الأرض، لأنه كان محفوراً من كل جانب، وبعدما دفنه وضع حجرة فوقه، لكنه علّم قومه الذين قدموا إلى هناك للصلاة، بأن يقوموا بتقبيل هذه الحجارة، بشكل خاشع ورؤوس حليقة، وأن يرموا الحجارة نحو الخلف من بين أرجلهم، علاوة على ذلك عروا ظهورهم، وذلك كعلامة على الشريعة القديمة، وقالوا بأنهم رموا الحجارة وفق هذه الطريقة لإرغام الشيطان على الفرار، وهم الشياطين الذين بالحري يتعبدونهم بشكل سري في صلواتهم، وهذا هو العمل المشهور — أو بالحري العمل السيئ — لمحمد ﷺ فهو مع أنه حظر عبادة الأصنام الأخرى على قومه، سمح في مدينة مكة بإقامة واحد تشريفاً لفينوس، [٧٢—ظ] لابل إنه لم يسمح لهم بالمغادرة جميعاً من دون تشريف هذه السيدة فينوس، التي بفنونها تفاخر بأنه الرجل الأقوى، وعندما مات أخيراً ﷺ قام أبو بكر خليفته بعمل له ضريحاً فخماً وضعه في المعبد المتقدم ذكره، ووضعه داخل تابوت حديدي فيما بين مغناطيسين، حسبما تقدم القول من قبل (١).

وبناء عليه، يسافر المسلمون إلى مكة، ليس فقط تنفيذاً لأوامر محمد ﷺ بل يذهب العديد منهم حتى يتمكنوا من رؤية تابوت محمد ﷺ معلقاً بالهواء من دون حبل أو سلسلة، وكأن ذلك لأسباب طبيعية، وينخدع الناس بهذه الحيلة، ويعتقدون بأن جسده ﷺ مرفوع هكذا بسبب قداسته، وبذلك فإن الناس غير الواعين يتصلّبون في خطيئتهم ويتمسكون.

علاوة على ذلك اعتقد بعض المسيحيين بأن هذا التعليق إعجازي،

١ — القيمة الوحيدة لهذه المعلومات أنها تمثل درجة جهل فابري بالاسلام، ومدى حقه عليه.

فتخلوا عن الإيمان بالمسيحية، واقتاد بعضهم الفضول للقيام بالحج مع المسلمين، وذلك بالتظاهر بالرغبة بمشاهدة ضريح محمد ﷺ، وبسرور أخذ المسلمون مثل هؤلاء الناس معهم، حتى من دون تخليهم عن إيمانهم، وسمحوا لهم بالدخول إلى نزلهم القائمة على طول الطريق، من أجل رعاية الذين يذهبون في هذا الحج، وأعترف أنني غالباً ماأغرقت بزيارة ذلك الضريح (المبارك) وفق هذه الطريقة، وأن يكون معي مرافق واحد، وبصعوبة منعت نفسي وأوقفتها عن القيام بمثل هذا العمل، وهنا يقوم السؤال التالي: هل الذي يقبل قبر محمد ﷺ أو يركع أمامه، أو يفعل أي شيء من هذا القبيل بالتعبد هناك، هو كافر؟ وأجاب الاسكندر أوف هول Hall (كذا) على هذا بقوله: «إنه إذا مافعل ذلك كمجرد كلام، وليس من قلبه كله، فهو على ذلك مقترف لذنوب عظيم، ومع ذلك هو ليس مهرطق أو محروم كنسياً، كما أنه ليس بحاجة للذهاب إلى البابا أو إلى الأسقف للحصول على التحليل»، فهذا ما قاله الاسكندر، لكن الذي يدخل وهو متظاهر بالتعبد، ويقدم التشريف للقبر بحركاته الظاهرية، لكن هو في عقله مستخف به، وفي قلبه ينظر نحو أخطائهم وحمقاتهم مع نية تبيان ذلك للناس المسيحيين، إن مثل هذا الانسان، وإن عدّ مقترفاً للذنوب صغير بسبب فضوله وطفيليته، هو ينبغي — كما اعتقد — أن يعاقب عقوبة خفيفة، أو حتى يعفى عنه، وقد حكيت عجائب كثيرة حول ضريح محمد ﷺ هذا، وفي الحقيقة، حدث في القديم أن جميع العالم، اندهش نحو التمثال الحديدي العائد لبيليروفون Bellerophon في مدينة سميرنا Smyrna، وإنه مثل هذا جميع الناس مندهشون تجاه هذا الضريح، ولقد كان الضريح المتقدم ذكره واحداً من عجائب الدنيا السبعة، بسبب بقاء مثل هذه الكتلة العظيمة من الحديد معلقة في الهواء، وذلك من دون أن تكون مربوطة بسلسلة من الأعلى، أو مدعومة بأية دعامة من الأسفل، لأن حجر المغنطيس وضع من الأعلى على ظهر قوس طويل جداً، كما أنه وضع

أيضاً في البلاط من تحت بالشكل نفسه، وبذلك جرى جذب التمثال نحو الأعلى ونحو الأسفل، وهكذا بقي معلقاً بين الاثنين، وبهذه الطريقة نفسها القبر الحديدي لمحمد ﷺ معلق في الهواء بقوة مغناطيس، وذلك باستثناء أن قبر محمد ﷺ هذا ليس عظيم الوزن مثلما كان تمثال بيلروفون، الذي احتوى على خمسة آلاف رطل (Pounds) من الحديد، لأنه كان مكوناً من فرس عظيم مع رجل على ظهره.

هذا ولقد سمعنا رواية صادقة ومؤكدة، أنه في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا هبت فجأة عاصفة مرعبة، أرسلتها الحكمة الربانية، مع برق مضيء، ورعد مخيف تردد سماعه، ووقتها نزلت نار من السماء، ترافقت مع تساقط برد عظيم فوق مكة، وقد جرف ذلك المعبد والقبر لذلك النبي ﷺ إلى أعماق الأرض، كما أن شطراً كبيراً من المعبد قد تهدم، وأتلفته النيران، وهكذا جرى حرمان المسلمين من آثار جسد نبيهم ﷺ واضطربوا بذلك اضطراباً تاماً، لو أنهم تفكروا بذلك وفهموه، لكن قلبهم الأحق قد ازداد قسوة، وهم الآن يذهبون حاجين إلى ذلك المكان كما فعلوا من قبل، وسيستمرون ربما بفعل ذلك من بعد، كما سلف لي وأشرت إلى ذلك من قبل، وهكذا قمت الآن من أجل حج وحجاج محمد ﷺ بترك حجي الخاص، وعملت حجاً معهم بالخيال، وذلك من أجل أن أرى الفارق فيما بين حجنا وحجهم، لأن حجنا هو إلى ضريح يسوع المسيح ابن الرب، وكذلك سعيّاً وراء آثار العذراء القديسة كاترين الأكثر فضيلة، في حين إنهم يرتحلون إلى ضريح محمد ﷺ، ويتغنون خدمة فينوس تلك العاهرة الأكثر شهوانية (كذا).

ولأستأنف الحديث عن حجنا: لقد مضينا على طريقنا، وقابلنا آخرين كثر من الحجاج المسلمين، الذين كانوا يسرون على شاطئ البحر الأحمر إلى العربية المباركة، حيث توجد مدينة مكة على شاطئ البحر الأحمر (كذا)، ذلك أنها مدينة جميلة، وميناء بحري هام، إليه يجري جلب

كميات كبيرة، من البخور، والفلفل، وأكباش القرنفل، والقرفة، وماشابه ذلك، وذلك بوساطة البحر، وتحمل هذه السلع من هناك على الجمال من قبل الحجاج، ويجري إرسالها حتى دمشق وأماكن أخرى، وكان سبب مصادفتنا لمثل هذا العدد الكبير من الحجاج، هو أن صيامهم كان قد بدأ، وهم يفضلون في هذا الوقت الذهاب للقيام بالحج، وذلك مثلما يفعل المسيحيون، علاوة على ذلك، إنه في ذلك الفصل من السنة تتراجع حرارة الشمس الهائلة بعض الشيء.

ووصلنا عند الظهرية إلى ساحة كبيرة مع كثير من القاعات، وقد كانت هذه عبارة عن نزل، وبعد دخولنا إلى ساحة النزل وجدنا بئراً كبيراً وفخماً، مع دوايب وأحواض حجرية ومصبات ماء، وهم يطلقون عليه اسم جب السلطان، وتقوم الثيران بنضح المياه منه باستمرار، وبعدما دخلت جملنا إلى هذا المكان، ترجلنا من على ظهور حميرنا، وتذوقنا الماء، لكننا لم نستطع الشرب منه لأنه كان ساخناً، وبلاطعمة، لا بل كان مالحاً بعض الشيء، لكننا سقينا دوابنا، وأعتقد أنه لا بد قد وجد فوق هذه البقعة خان منذ القديم، لأنه هنا تلتقي الطرقات مع بعضها، وهي الطرقات التي تقود من مصر إلى جميع أجزاء الدنيا، ولربما أقام موسى في هذا النزل، وعندما أراد الرب أن يقتله، لأنه لم يخن ابنه Eliezer، وهناك قامت صفوره بختانة (الخروج: ٤/ ٢٤-٢٥)، وبعدما شاهدنا هذا المكان، تابعنا سفرنا فوق ذلك السهل الجاف حتى غياب الشمس، وأنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا للاستراحة في مكان فوق السهل اسمه Choas، وهبت هناك ريح قوية وعنيفة جداً، ولذلك لم نستطع بأي سبيل نصب خيامنا، فما أن ثبتناهم بالأوتاد، حتى اقتلعت الريح الأوتاد من الأرض، وألقت الخيام فوقنا، وبعدما ألقتهم الريح عدة مرات، مللنا من هذه المهمة وتعبنا وتركناهم ممدودين فوق الأرض، كما أننا تجولنا حول المنطقة حسب عاداتنا لإلتقاط بعض

العصى من على السهل، غير أننا لم نجد شيئاً يمكن أن يحترق، ولذلك أخذنا بعض الأوعية الخشبية مما فرغ مما كان فيه خمرة وماء، وكذلك سلال بيضنا، وصناديق دجاجنا وكسرناهم جميعاً، وعملنا ناراً منهم، لكن الريح التي كانت قوية بعثرت النار التي عملناها، ولذلك أرغمنا على الوقوف من حول النار حاملين أقمشتنا وثيابنا، لصدم عصف الريح عن النار، وبناء عليه أكلنا في تلك الليلة، وشربنا ونمنا في الهواء الطلق، وانزعجنا كثيراً بهبات الريح وبتحركات الرمال، وقدم في تلك الليلة إلينا بعض الفقراء من البداية العرب، ورجونا منهم بعض الخبز، الذي برغبة منا ورضاً منحناهم بعضاً منه لأنهم بدو أنهم متواضعين جداً، ويتصرفون بشكل لائق.

واستيقظنا في اليوم الخامس عند منتصف الليل، وكان ذلك اليوم هو الأحد التاسع عشر بعد الثلاث، وعندما جرى تحميل الدواب، غادرنا Choas، وشرنا فوق ذلك السهل القاحل والشاسع، حيث لم يكن هناك شيء أخضر مهما كان نوعه، وقبل شروق الشمس وقع لنا حادث، لن أتجاوز ذكره، فقد كان في مجموعتنا الأولى النبيل العظيم والسيد الكبير برنارد فون بريتنباخ Braithenbach، الذي كان وقتها حاجب الكنيسة المطرانية في مينز، والذي هو الآن عميدها الأعظم جدارة، فبسبب ضعفه وسوء صحته عمل الرحلة كلها خلال الصحراء في سلة على ظهر جمل، وقبل فجر اليوم أمر الجمل الذي كان على ظهره أن ينوخ حتى يتمكن من انعاش نفسه بالمشي بضع خطوات فوق الرمال، وبعدما أنعش نفسه، تسلق ثانية إلى سلته، وسار جملة خلفنا، لكن بعدما سرنا بعض الشيء، أدرك السيد المذكور أن ماله كله قد وقع منه، من داخل صدره، حيث كان قد وضعه، وخاط عليه داخل حزام اعتاد أن يحزم به نفسه أثناء الليل، وذلك بغية إبقاء ماله مصاناً، وكان معه هناك كمية كبيرة من الدوقيات، وقد وقعت منه على الرمل في

المكان الذي توقف فيه.

وقد استدعى كاليانوس إليه، واشتكى إليه فقدانه لماله، وهنا أمر كاليانوس بوقوف القافلة، وأمر جملة بأن ينوخ، حتى يتمكن من الترحل، ويركض مسرعاً عائداً إلى المكان الذي اعتقد المعلم برنارد بأن ماله قد وقع فيه، وذهبنا نحن الحجاج إلى هناك معه، وبحثنا من أجله، لكننا لم نجده، وقد بحثنا فوق جميع المنطقة التي حوت آثار طبعات قدميه، لكننا لم نجد المال، وكان تعبنا بلافائدة، وكان يعرف بشكل أكيد أن ماله قد وقع في ذلك المكان وليس في غيره، ولذلك تجولنا في ذلك الموقع، وبحثنا فوق الرمال بأيدينا، وأخذنا حيطتنا بأن لا يقترب منا أحد البداية العرب، ولا من سائقي الجمال أو سائقي الحمير، الذين أمسكناهم مراراً متلبسين بأعمال السرقة، إنما بعدما بحثنا لوقت طويل وتقصينا لم نجد شيئاً، فحكمنا بأن ذلك المال قد تمّ العثور عليه وسرقته من قبل واحد من البداية العرب، أو من سائقي الجمال، وبعد التشاور فيما بيننا حول ما ينبغي القيام به وفعله لاسترجاع المال، تمنينا لو أنه كان قانونيا لقاء القرعة أو البحث بوساطة التكهّن بالقداح، مثلما تبرهن بأن عخان كان لصاً (يشوع: ٧)، وكذلك عندما أخذ يوناثان طعاماً صموئيل الأول: ١٤/ ٢٧]، لكن في قضية مثل هذه ليس قانونيا لقاء القرعة، على أساس أنها محرمة بالقانون ضد التكهّن بالقداح، ولذلك فكرنا ثم اتخذنا قرارنا باحضار جميع البداية العرب مع سائقي الجمال وسائقي الحمير الذين كانوا معنا، وجمعهم في مكان واحد، وأن نطلب منهم إعادة المال إلينا، ووقتها إذا لم يعيدوه إلينا، سوف ننقض عليهم ونربطهم ونجردهم من ثيابهم، ونضربهم، ونسيء معاملتهم، ونعذبهم حتى يعيدوه إلينا، لأننا كنا بالعدد أكثر منهم، ورجالاً أفضل منهم إذا وصل الأمر إلى الضراب، وبعدما أبرمنا هذه الخطة ركبنا حميرنا، ونحن كلنا أسف، وغضب، وحقق، وسرنا خلف الجمال الذين كانوا يسرون

أمامنا.

وعندما وصلنا إلى أولئك الناس، نظرنا شذراً إليهم، وأخبرنا كاليينوس بالذي عزمنا على القيام به، وعندما سمع هذا انزعج كثيراً، واستدعى إليه جميع الرجال الذين شك بهم، وطلب باخلاص وجدية منهم إعادة الذهب الذي وجدوه، لكن مامن واحد أجابه صادقاً، وقمنا نحن أنفسنا فرجوناهم بإعادة المال، وعرضنا منح جائزة للرجل الذي وجدته، لكننا لم نحصل على شيء بعملنا هذا، وهنا غضبنا وازداد حنقنا، فشرعنا نتهدهدهم، وسعينا إلى إلقاء الأحمال من على الجبال، في حين وقف الفرسان من حولنا، وسيوفهم مجردة، ولم يسمحوا لأحد، بالابتعاد، وعندما رأى سائقو جمالنا وسائقو حميرنا بأننا كنا جادين، وأننا سوف نتعامل معهم على الفور بخشونة أعظم، اعترتهم الدهشة، والتمسوا من كاليينوس تخفيف غضبنا، خشية أن تساء معاملة أناس أبرياء، وشرح لهم كاليينوس مانوينا عمله، قائلاً بأننا سوف ننزل الأثقال كلها، ونفتش في جميع الحقائب التي كانت على ظهور الجمال والحمير، وأننا إذا لم نجد المال هناك، سوف ننقض عليهم ونجردهم من ثيابهم حتى يكونوا عراة، ونستخرج مالنا منهم بالتعذيب.

وكنا في ذلك الوقت قد ألقينا بالأثقال من على ظهور الجمال، وشرعنا بتفكيكهم، ثم أخذنا بإلقاء سلع أولئك التعمساء من حولنا، في حين وقفوا هناك يراقبوننا وهم يرتجفون ويبكون، وفي أثناء القيام بهذا، جاء واحد من أولئك البداية العرب، وكان قد التحق بنا في ذلك المساء، جاء سراً إلى كاليينوس، وأخبره بالعثور على المال، وهنا صرخ كاليينوس على الفور إلينا وطلب منا التعامل معهم بسلام، لأن المال قد عثر عليه، وبناء عليه أعدنا تحميل الجمال، وتابعنا السير على طريقنا، وتسلم ذلك السيد ماله من كاليينوس، وقد منح دوقية إلى ذلك العربي الذي وجده، وكان عربياً صاحب مظهر بسيط ووجه بريء، وقال البداية العرب

الآخرون عنه بأنه وجد في وقت آخر كنزاً كبيراً، كان قد وقع في القفار، وأنه أخذه إلى صاحبه وأرجعه إليه.

وسرنا بعد ذلك فوق ذلك السهل الأجرد، ومشينا طوال النهار في شمس محرقة بحرارتها حتى غياب الشمس، وقد قررنا أن نستريح في مكان اسمه المفرق Maffrach وذلك إلى جانب الطريق العام، ولكن عندما عسكرنا لم نستطع نصب خيامنا، لأننا لم نتمكن من تثبيت الأوتاد في تلك الرمال الناعمة جداً، وكنا جميعاً منهكين فاقدين لوعينا، ولذلك لم نطبخ أي شيء في تلك الليلة، لأننا لم نستطع العثور على أي من الوقود، وقدم إلينا كالينوس تحذيراً بوجوب التيقظ والحراسة في تلك الليلة أكثر مما هو معتاد، لأن المكان خطير بسبب المنبوسذين الذين يطردون من وقت إلى آخر من مصر إلى القفار بسبب جرائمهم، فهؤلاء الناس يكمنون في مثل هذه الأماكن، وغالباً مايؤذون الذين يعبرون ذلك الطريق، ولذلك نمنا في تلك الليلة بصعوبة، لخوفنا من كل من المهاجمة، وبسبب الرياح القوية، والبرد الذي عانينا منه، وتددنا هناك تحت قبة السماء، وكنا منهكين من شدة التعب، ومن مشاق القفار، وكل ماحصلنا عليه من راحة هو بأن نهاية متاعبنا باتت وشيكة، وأن حدود القفار لم تعد بعيدة، وماكنا لنبقى في القفار، ونمكث أربعة عشر يوماً أخريات مقابل جميع كنوز الدنيا كلها، لأنه بدا الأمر بالنسبة لنا أننا لن نستطيع تحمل المزيد من مثل هذا العمل.



توقفت عند هذه النقطة حكاية فابري عن أن تكون لها أية علاقة بكل من فلسطين وسيناء، وكان بالود الحديث كيف أنه شاهد «حديقة البلسم»، والقاهرة التي كانت أعظم مدينة في العالم، مع جميع المخلوقات الغريبة فيها من فهود، ونعامات، وبيغاوات، وهكذا دواليك، مما رآه هناك، لكن المكان لايسمح بذلك، وفيه تكرارا لما جاء بالرحلات

الأخرى، والمهم هو أن الحجاج نزلوا بقارب عبر النيل إلى الاسكندرية، وقد تعذبوا كثيراً وأسيئت معاملتهم، ومن هناك أبحروا إلى وطنهم على ظهر الاسطول البندقي، وقد عملوا رحلة طويلة وواجهوا مصاعب جمة، وأخيراً وصل فابري ورفاقه إلى البندقية في الثامن من كانون الثاني سنة ١٤٨٤، وقابل هنا بعضاً من أهل مدينته أولم، الذين لم يتمكنوا في البداية من التعرف عليه، لأنه كان شاحباً قد أنهكه السفر، وكانت السيدة مرغريت صاحبة نزل القديس جورج، الذي كان البيت الألماني في البندقية، قد تزوجت ثانية، وكان زوجها هو نيقولا فريج الذي كان واحداً من خدم البيت، وقد حدثنا فابري بأنه كان مسروراً بمعرفته بصاحب النزل الجديد، لأنه كان رجلاً جيداً وبشوشاً، ويبدو أنه لاقى استقبالاً جيداً، وأنه تلقى دعوة من المعلم برنارد بريتنباخ لزيارته في مينز، ليصوغا رحلتها معاً، لكن فابري لم يستطع القيام بذلك، لأن واجبه كان الذهاب أولاً إلى ديريه في أولم، وعندما وصل إلى هناك بعد كثير من المغامرات كان الرهبان يتعشون، لكن كلب الدير عرف خطواته، فأصدر عواءً عالياً جداً، وأخذ يخدش الباب الذي جرى فتحه فوراً، وقد رحب به جميع الرهبان وكأنه انسان عاد من الموت، وفي الوقت نفسه جاء خلال الاسبوع التالي جميع أعيان المنطقة إليه للترحيب به، ولتهنئته بالعودة، وهنا لابد لنا من أن نقول له: وداعاً.